

مقدمة

إلى القارئ

إن الغرض الذى أبغىه من تأليف هذا الكتاب هو أن أعرض على القارئ قصة حضارة العصور الوسطى من عام ٣٢٥م إلى عام ١٣٠٠م كاملة بقدر ما تسمح لها صفحاته ، بعيدة عن الهوى بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية ، والطريقة التى اتبعتها فى تأليفه هى النظر إلى التاريخ كله على أنه وحدة شاملة يكمل بعضها بعضاً - أى تصوير جميع مظاهر حضارة من الحضارات أو عصر من العصور فى صورة جامعة شاملة ، وإيراد قصة تلك الحضارة وذلك العصر بهذه الطريقة عينها . ولقد كان اضطرارنا إلى الإحاطة بجميع النواحي الاقتصادية ، والسياسية ، والقانونية ، والحربية ، والأخلاقية ، والاجتماعية ، والدينية ، والتربوية ، والعلمية ، والطبية ، والفلسفية ، والأدبية ، والفنية لأربع حضارات متباينة - البيزنطية ، والإسلامية ، واليهودية ، والأوربية الغربية ، مما جعل وحدة المنهج والإيجاز من أشق الأمور . فأما من حيث الوحدة فإن التقاء الحضارات الأربع واصطراعها أيام الحروب الصليبية قد خلع على هذا المنهج شيئاً منها ، وأما الإيجاز فى وسع القارئ المتعب ، الذى يرهقه طول الكتاب ، أن يجد شيئاً من العزاء إذا علم أن المخطوط فى صورته الأصلية كان يزيد على هذا النص الذى بين يديه بقدر نصف طوله (*) . ذلك أننا لم نبق من المخطوط الأصلى إلا ما كان فى رأينا لا غنى عنه لفهم تلك الفترة من تاريخ العالم على الوجه الصحيح ، أو لجعل القصة حية واضحة زاهية .

على أن فى وسع القارئ غير المتخصص أن يمر ببعض الفقرات العريضة

(*) إن الفقرات التى يجهلها القارئ أحياناً فى ترقيم المراجع سببها ما حذفناه من العبارات فى اللحظة الأخيرة .

دون أن يقف عندها طويلا ، ولن يخل هذا بسياق القصة أو يشوه الصورة ، وهذا المجلد هو القسم الرابع من قصة الحضارة التي ستكون بعد تمامها مؤلفة من ستة أقسام (*) : القسم الأول هو « تراث الشرق » (١٩٣٥) ، وقد أحطنا فيه بتاريخ مصر والشرق الأدنى من أقدم العهود إلى أن فتحهما الإسكندر حوالي ٣٣٠ ق . م ، وبتاريخ الهند والصين واليابان إلى الوقت الحاضر ، والقسم الثاني وهو « حياة اليونان » (١٩٣٩) ، يروى تاريخ اليونان والشرق الأدنى ويصف حضارتها إلى أن فتح الرومان بلاد اليونان في عام ١٤٦ ق . م ، والقسم الثالث « قيصر والمسيح » (١٩٤٤) يروى تاريخي رومة والمسيحية من بدايتهما ، وتاريخ الشرق الأدنى من عام ١٤٦ ق . م ، إلى مجمع نيقية الذي عقد في عام ٣٢٥ م . ويواصل هذا الكتاب دراسة حياة الرجل الأبيض حتى موت دانتى في عام ١٣٢١ . ويشمل القسم الخامس « النهضة والإصلاح » تاريخ الفترة الواقعة بين عامي ١٣٢١ ، ١٦٤٨ ونعزم إصداره في عام ١٩٥٥ ؛ وأما الجزء السادس « عصر العقل » الذي يصل بالقصة إلى الوقت الحاضر ، فسيصدر بمشيئة الله في عام ١٩٦٠ وفي هذا الوقت يكون المؤلف قد قرب من الشيخوخة قربا يضطره إلى أن يتخلى عن ميزة تطبيق الطريقة الجامعة التي سار عليها في الأقسام الستة على الأمريكتين .

والخطة التي اتبعناها في هذه الأقسام الستة هي أن يكون كل منها وحدة مستقلة بذاتها ، ولكن القراء الذين درسوا « قيصر والمسيح » سيجدون أن من السهل عليهم أكثر من غيرهم أن يمسكوا بخيوط القصة التي نرويها في هذا الكتاب . وسيضطرنا تاريخ الحوادث وتسلسلها إلى أن نبدأه بأقل ما يعنى به الناس عادة من نواحي حضارة العصور الوسطى الرباعية وهو الحضارتان البيزنطية

(*) لقد عاد المؤلف فجعلها سبعة إذ خص الإصلاح بمجلد كامل وقد صدر المجلد الخامس في عصر النهضة وحدة وشرعنا فعلا في ترجمته .
(المترجم)

والإسلامية ؛ وسيدهش القارئ المسيحي من كثرة الصحف التي اختصصنا بها الثقافة الإسلامية ، كما أن العالم الذي درس حضارة الإسلام سيأسف أشد الأسف للحيز الضيق الذي خصصنا به حضارة المسلمين الزاهرة في العصور الوسطى ولاضطرارنا إلى اختصار تاريخها هذا الاختصار الشديد . ولقد بذلنا جهدنا على الدوام في أن نكون بعيدين عن الهوى والتحيز ، وأن ننظر إلى كل دين وكل ثقافة كما ينظر إليهما أهلها ؛ ولكننا مع هذا لا ندعى العصمة من الهوى ، ولا ننكر أنه قد بقي في قصتنا شيء من التحيز في اختيار مادة الكتاب وفي توزيع صفحه على موضوعاته المختلفة إن لم يكن في غير هاتين الناحيتين . ذلك أن العقل كالجسم سجين في جلده لا يستطيع الفكاك منه .

ولقد أعدنا كتابة المخطوط ثلاث مرات ، وكنا في كل مرة نكشف فيه عن أخطاء جديدة ، وما من شك في أنه لا يزال به كثير منها ، غير أننا قد ضحينا بتحسين الجزء بغية إكمال الكل ، وإنا لنرحب بكل ما يبلغ إلينا من هذه الأخطاء .

ولقد كان من الواجب على أن أهدي هذا الكتاب إلى زوجتي كما أهديت إليها الكتب السابقة ، فلقد ظلت سبعة وثلاثين عاماً تحبوني في صبر جميل بقدر من تسامحها ، وحماتها ، وإرشادها ، وإلهامها لا تنق به هذه المجلدات جميعها . ولكنها هي التي أشارت على بأن أهدي هذا الكتاب إلى ابنتنا ، وإلى زوجها ، وإلى حفيدنا .

الكتاب الأول

الدولة البيزنطية في أوج مجدها

٣٢٥ - ٥٦٥

ثبت مسلسل يا لحوادث التاريخية

التواريخ المذكورة أمام أسماء الحكام والبابوات هي تواريخ حكمهم
والتواريخ كلها بعد الميلاد

٣٦٣ - ٣٦٤ جرجيان إمبراطوراً
٣٦٤ - ٣٦٧ ثلثتنيان الأول ، إمبراطور
الغرب
٣٦٤ - ٣٧٨ فالنز إمبراطور الشرق
٣٦٥ - ٤٠٨ كلوديان الشاعر
٣٦٦ - ٣٨٤ البابا دماسي الأول
٣٧٢ الهون يمبرون الفلجا
٣٧٥ - ٣٨٣ جراتيان إمبراطور الغرب
٣٧٨ معركة هدريا نوفل
٣٧٩ ثيون الإسكندري ، العالم
الرياضي
٣٧٩ - ٣٩٥ ثيودوسيوس الأول ،
الإمبراطور
٣٨٢ - ٣٩٢ مسألة مذبح النصر
٣٨٣ - ٣٩٢ ثلثتنيان الثاني إمبراطور
الغرب
٣٨٦ - ٤٠٤ جيروم يترجم الكتاب
المقدس
٣٨٧ تعميد أوغسطين
٣٨٩ - ٤٦١ القديس بتريك
٣٩٠ توبة ثيودوسيوس
٣٩٢ - ٣٩٤ يوجنيوس إمبراطور الغرب
٣٩٤ نهاية الألعاب الأولمبية
٣٩٤ - ٤٢٣ هونوريوس إمبراطور
الغرب
٣٩٥ - ٤٠٨ أركاديوس إمبراطور
الشرق

٢٢٩ أردشير نيوسس الأسرة
الساسانية
٢٤١ - ٢٧٢ شاپور الأول ملك فارس
٢٥١ - ٣٥٦ القديس أنطونيوس
المصري
٢٩٣ - ٣٧٣ أثاناسيوس
٣٠٠ - ٣٦٧ هيلاري البواتيري
٣٠٩ - ٣٧٩ شاپور الثاني ملك فارس
٣١٠ - ٤٠٠ أرسنيوس ، الشاعر
٣١١ - ٣٨١ أفلاس رسول إلى القوط
٣٢٥ مجمع نيقية
٣٢٥ - ٤٠٣ أوربسيوس ، الطبيب
٣٢٥ - ٣٩١ أميانس مرسلانس ،
المؤرخ
٣٢٩ - ٣٧٩ القديس بازل
٣٢٩ - ٣٨٩ جريجوري نزيانزين
٣٣١ مولد يوليان المرتد
٣٣٧ موت قسطنطين
٣٤٠ - ٣٩٨ القديس أمبروز
٣٤٠ - ٤١٠ القديس جيروم
٣٤٥ - ٤٠٧ القديس يوحنا كريستوم
٣٤٥ - ٤١٠ سيماكس ، عضو مجلس
الشيوخ
٣٤٨ - ٤١٠ پرودنتيوس ، الشاعر
٣٥٣ - ٣٦١ قسطنطيوس ينفرد بالملك
٣٥٤ - ٤٣٠ القديس أوغسطين
٣٥٩ - ٤٠٨ استلكو الشريف
٣٦١ - ٣٦٣ يوليان إمبراطوراً

ق	م
الإنجليز - السكسون	٤٤٩
يفزون بريطانيا	
سارسيان إمبراطور الشرق	٤٥٠ - ٤٦٧
عصر البناء والفسيفساء	٤٥٠ - ٥٥٠
العظيم في رافنا	
هزيمة أتلا في ترويس	٤٥١
ليو الأول يصعد أتلا	٤٥٢
عن رومة	
موت أتلا	٤٥٣
فلنتيان الثالث يذبح	٤٥٤
إيتيوس	
جيسريك ينهب رومة	٤٥٥
ريسير يحكم الغرب	٤٥٦
ماجريان إمبراطور الغرب	٤٥٧ - ٤٦١
القوط الغربيون يفتحون	٤٦٦ - ٤٨٣
أسبانيا	
زينون إمبراطور الشرق	٤٧٤ - ٤٩١
روميولوس أوغسطس	٤٧٥ - ٤٧٦
ثيودوريك ملك القوط	٤٧٥ - ٥٢٦
الشرقيين	
بوثنيس ، الفيلسوف	٤٧٥ - ٥٢٤
خاتمة الدولة الرومانية	٤٧٦
الغربية	
كسيودوس ، المؤرخ	٨٠ - ٥٧٣
كلوئس والفرنجة يبدعون	٤٨١
فتح غالة	
كاثافة الأول ، للشيعية	٤٨٣ - ٥٣١
المزادقية	
پروكپوس ، المؤرخ	٤٩٠ - ٥٧٠
أنستاسيوس الأول إمبراطور	٤٩١ - ٥١٨
الشرق	
ثيودوريك يحكم إيطاليا	٤٩٣ - ٥٢٦
الإسكندر الترابليسي ،	٥٢٥ - ٦٠٥
الطبيب	

ق	م
ألريك الأول ملك القوط	٣٩٥ - ٤٠١
الغربيين	
اعتراقات القديس أوغسطين	٣٩
حوالي	٤٠٠
ساترناليا لمكروبيوس	
هزيمة ألريك عند بلنتيا	٤٠٢
رافنا تصبح عاصمة الغرب	٤٠٣
نهاية ألعاب المجالدين	٤٠٤
الفيالق الرومانية تغادر	٤٠٧
انجلترا	
ثيودوسيوس الثاني إمبراطور	٤٠٨ - ٤٥٠
الشرق	
بلاجيوس ، العالم الديني	٤٠٩
ألريك ينهب رومة	٤١٠
بركلس ، العالم الرياضي	٤١٠ - ٤٨٥
أورسيوس ، المؤرخ	٤١٣
« مدينة الله » لأوغسطين	٤١٣ - ٤٢٦
اغتيال هيباشيا	٤١٥
جامعة القسطنطينية	٤٢٥
فلنتيان الثالث إمبراطور	٤٢٥ - ٤٥٥
الغرب	
نسطوريوس بطرق	٤٨٢ - ٤٣١
القسطنطينية	
الوندال يفتحون إفريقية	٤٢٩
مجمع إفسوس	٤٣١
سيدنيوس أبليمارس	٤٣٢ - ٤٨٢
القديس باترك في أيرلندة	٤٣٢ - ٤٦١
إيتيوس ، الشريف	٤٣٣ - ٤٥٤
قانون ثيودوسيوس	٤٣٨
جيرسريك يستولى على	٤٣٩
قرطاجنة	
الباباليو الأول	٤٤٠ - ٤٦١
موسى القوريبي المؤرخ	٤٤٠

ق	م	ق	م
٥٤٦-٥٥٣	توتيل يحكم إيطاليا	٥٢٧-٥٦٥	چستنيان الأول الإمبراطور
٥٥٢	دخول صناعة الحرير	٥٢٩	چستنيان يخلق مدارس
	في أوروبا		أثينة ، القديس. بنديكت
٥٧٠-٦٣٦	إزدور الأشبيل ، صاحب		يوسس متى كهنو
	دائرة المعارف	٥٣٠-٦١٠	فرنتاس الشاعر
٥٧٧	انصار الإنجليز - السكسون	٥٣١-٥٧٩	كسرى الأول ملك فارس
	في دريور هام	٥٣٢-٥٣٧	كنيسة أيا صوفيا
٥٨٩-٦٢٨	كسرى الثاني ملك فارس	٥٣٣	بلاريوس يستعيد إفريقية
٦١٦	الفرس يفتحون مصر	٥٣٥-٥٥٣	« الحرب القوطية »
٦٣٧-٦٤٢	السرب يفتحون فارس		في إيطاليا
٦٤١	نهاية الأسرة الساسانية	٥٣٨-٥٩٤	جريموري التوري
			المؤرخ

الباب الاول

توليان المرتد

٣٣٢ - ٦٣

الفضل الأول

تراث قسطنطين

لما أحس الإمبراطور قسطنطين بدنو أجله جمع حوله في عام ٣٣٥ أبناءه وأبناء أخيه وقسم بينهم حكم الإمبراطورية الضخمة التي استولى عليها ، وكان عمله هذا مثلاً من أمثلة الحمق الذي تدفع إليه معزة الأبناء . وقد خص ابنه الأكبر قسطنطين الثاني بالغرب - بريطانيا ، وغالة ، وأسبانيا ، وخص ابنه قنسطنطيوس Constantius بالشرق - بآسية الصغرى ، وسوريا ، ومصر ، وخص ابنه الأصغر قنسطانس Constans بشمال أفريقيا وإيطاليا ، وإلبركم ، وتراقية بما في ذلك العاصمتان الجديدة والقديمة - القسطنطينية ورومة - ، وأعطى ابني أخ له أرمينية ومقدونية وبلاد اليونان . وكان الإمبراطور المسيحي الأول قد بذل حياته وحيوات كثيرة غير حياته ، في إعادة الملكية ، وتوحيد العقيدة الدينية في الدولة الرومانية ؛ فلما مات في عام ٣٣٧ تعرض هذا كله للخطر الشديد ، ولم يكن أمامه إلا واحدة من اثنتين ليس فيهما حظ لختار ، فإما أن تقسم حكومة البلاد وإما أن تتعرض لخطر الحرب الأهلية ؛ ذلك أن حكمه لم يدم حتى يخلع عليه القداسة طول الزمن ، ولم يكن يضمن والحالة هذه أن تنعم البلاد بالسلم إذا خلفه

على العرش وارث واحد ، ولهذا بدا له أن شر تقسيم البلاد بين عدة حكام أهون من شر الحرب الأهلية .

غير أن البلاد مع هذا لم تنج من الحرب الأهلية ، ويسر الاغتيال حل مشكلة التقسيم . ذلك أن الجيش رفض كل سلطان عدا سلطان أبناء قسطنطين ، واغتيل جميع الذكور من أقارب الإمبراطور السابق عدا جالس Gallus ويوليان Julian أبني أخيه ، فأما جالس فكان عليلًا يرجى ألا تطول حياته كثيرًا ، وأما يوليان فكان في سن الخامسة ، ولعل سحر الطفولة هو الذي رقق قلب قسطنطيوس الذي تعزو إليه الروايات المتواترة ، ويعزو إليه أمنيوس ، هذه الجرائم^(١) . وأوقد قسطنطيوس مرة أخرى نار الحرب مع بلاد الفرس وهي حلقة من النزاع القديم بين الشرق والغرب ، ذلك النزاع الذي لم تخمد جذوته واقع الأمر من أيام مرثون ، وأجاز لإخوته أن يبيد بعضهم بعضاً بسلسلة من الاغتيالات الأخوية . ولما انفرد بالملك (٣٥٣) عاد إلى القسطنطينية ، وحكم الدولة التي وجدت من جديد حكماً بذل فيه كل ما اتصف به من عجز يصحبه الإخلاص ، واستقامة شديدة ، ولم يكن يهنا له عيش لارتياحه في الناس وسوء ظنه بهم ، ولا يحبه أحد لقسوته ، ولا يرقى إلى مصاف العظماء لكبريائه وغروره .

وكانت المدينة التي سماها قسطنطين رومة الجديدة Nova Roma ، والتي سميت باسمه في أثناء حياته ، قد أقامها على مضيق البسفور جماعة من المستعمرين اليونان حوالي عام ٦٥٧ ق . م ، وظلت ما يقرب من ألف عام تعرف باسم بيزنطية ، وسيظل لفظ بيزنطي عنواناً لحضارتها وفنها على مر الأيام ، ولم يكن ثمة موضع آخر في الأرض كلها أصبح منها لإقامة عاصمة لدولة ما . وقد أطلق عليها نابليون في تلزت Tilsit عام ١٨٠٧ اسم إمبراطورية العالم ، وأبى أن يسلمها إلى الروسية التي كانت تتوق إلى السيطرة عليها مسوقة إلى هذا باتجاه ما يخترق بلادها من الأنهار . وتستطيع الدولة المسيطرة عليها أن تغلق

في أى وقت تشاء باباً رئيسياً بين الشرق والغرب ، وفيها تجتمع تجارة ثلاث قارات ، وتفرغ غلات مائة من الدول ، وهنا يستطيع جيش أن يصمد ليصد الفرس المتحضرين ، والهون المميج الشرقيين ، وصقالبة الشمال ، وبرابرة الغرب . وتحميها المياه الدافقة من جميع الجهات إلا جهة واحدة يستطيع حمايتها بالأسوار المنيعة ، وتستطيع الأساطيل الحربية والسفن التجارية أن تجد في القرن الذهبي - وهو خليج صغير من خلجان البسفور - مرفأً أميناً يقىها هجمات السفن المعادية والأعاصير المدمرة . ولعل اليونان قد سموا هذا الخليج قرناً Keras لشكله الذى يشبه القرن ، أما وصفه بالذهبي فقد أضيف إليه فيما بعد ليوحى إلى سامعيه بما ينعم به هذا المرفأ من ثروة عظيمة يأتى إليه بها السمك والحبوب والتجارة . ورأى الإمبراطور المسيحي أنه واجد في هذا المكان ، بين السكان الذين تدبّر كثرتهم بالمسيحية ، والذين طال عهدهم بالملكية والأبهة الشرقيتين ، من تأييد الشعب ما لا يستطيع أن يجده في رومة ، وما يضمن به عليه مجلس شيوخها المتفطرس وسكانها الوثنيون . وهنا عاشت الدولة الرومانية ألف عام بعد وفاته رغم هجمات جحافل البرابرة التي أغرقت رومة فيما بعد ، فقد هدد القوط ، والهون ، والوندال ، والأفار ، والفرس ، والعرب ، والبلغار ، والزوس العاصمة الجديدة ، وعجزوا جميعاً عن الاستيلاء عليها ، ولم تسقط في تلك القرون العشرة إلا مرة واحدة ، وكان سقوطها في أيدي الصليبيين المسيحيين الذين كان حبههم للذهب يزيد قليلاً على حبههم للدين . وظلت بعد ظهور الإسلام ثمانية قرون تصد جيوش المسلمين التي اكتسحت أمامها آسية وإفريقية ، وإسبانيا . وفيها ظلت الحضارة اليونانية قائمة لا ينضب معينها تحتفظ للعالم بشعلة أنقذته فيما بعد من الهمجية ، وعضت بالنواجذ على كنوزها القديمة ، حتى أسلمتها آخر الأمر إلى إيطاليا في عصر النهضة ، ومنها إلى العالم الغربي .

وفي عام ٣٢٤ سار قسطنطين الأكبر على رأس جماعة من قواده الجند ،

والمهندسين ، والقساوسة ، وانتقل بهم من مرقاً بيزنطية ، واجتاز ما حوله من التلال ، ليرسم حدود العاصمة التي كان يعتزم إنشائها . ولما عجب بعضهم من اتساع رقعتها رد على هؤلاء بقوله : « سأواصل السير حتى يرى الله الذي لا تدركه الأبصار أن من الخير أن أقف (٢) » . وكانت هذه سنته التي جرى عليها طوال حكمه ، فلم يكن يتردد قط في القيام بأي عمل ، أو النطق بأي لفظ ، يمكن أن تنال به خططه أو دولته ذلك التأييد القوي الذي ينبعث من عاطفة الشعب الدينية وولائه للكنيسة المسيحية .

ثم جاء « إطاعة لأمر الله » (٣) بآلاف الصناع والفنانين لإقامة أسوار المدينة ، وحصونها ، ودور المصالح الحكومية ، وقصورها ، ومنازل سكانها . وزين الميادين والشوارع بالفساقى ، والأبهاء ذات العمد ، وبالنقوش التي جاء بها من مختلف المدن في دولته الواسعة بلامتياز بينها ؛ وهداه حرصه على تسلية العامة وإيجاد متنفس ينصرف فيه شعبها واضطرابها ، فأنشأ مضماراً للسباق تستطيع فيه الجماهير أن تشبع غريزة اللعب والمقامرة على نطاق لم ير له مثيل إلا في رومة أيام انحلالها . وأعلنت رومة الجديدة عاصمة للدولة الشرقية في اليوم الحادى عشر من شهر مايو سنة ٣٣٠ ، واتخذ ذلك اليوم بعدئذ عيداً يحتفل به في كل عام بأعظم مظاهر الأبهة والفخامة . وكان ذلك إيذاناً بانتهاء عهد الوثنية من الوجهة الرسمية وبداية العصور الوسطى عصور انتصار الإيمان من الوجهة الرسمية أيضاً إذا صح ذلك التعبير . وبذلك انتصر الشرق في معركته الروحية على الغرب الظافر بقوته المادية الجسمية ، وسيطر على الروح الغربية مدى ألف عام .

وما كان يمضى على اتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة حتى أصبحت أغنى مدائن العالم وأجلها وأعظمها حضارة ، وظلت كذلك مدى عشرة قرون كاملة . وبينما كان عدد سكانها في عام ٣٣٧ لا يزيد على ٥٠.٠٠٠ نسمة إذا هم يبلغون في عام ٤٠٠ حوالى مائة ألف ، وفي عام ٥٠٠ ما يقرب من مليون (٤) . وثمة وثيقة

رسمية (يرجع تاريخها إلى حوالي عام ٤٥٠) تقول إنه كان بالمدينة وقت كتابة هذه الوثيقة خمسة قصور إمبراطورية وستة قصور لسيدات الحاشية ، وثلاثة لعظماء الدولة ، و٤٣٨٨ من الدور الفخمة ، و٣٢٢ شارعاً ، ٥٢ مدخلا ذا عمد ؛ هذا فضلا عن نحو ألف حانوت ، ومائة مكان للهو ، وكثير من الحمامات الفخمة ، والكنائس المزدانة بالنقوش الجميلة ، والميادين الواسعة العظيمة التي كانت متاحف حقة لفن العالم القديم^(٥) . وقد أنشئت على التل الثاني من التلول التي كانت تعلو بالمدينة فوق ما يحيط بها من المياه سوق قسطنطين ، وهي ساحة رحبة إهليلجية الشكل يدخل الإنسان إليها من كلا جانبيها تحت قوس من أقواس النصر . وكان يحيط بالساحة مداخل ذات عمد ، وتماثيل ، وكان في ناحيتها الشمالية بناء فخم لمجلس الشيوخ ، وفي وسطها عمود من حجر السماق يعلو فوق الأرض ١٢٠ قدماً ، ويتوجه تمثال لأبلو ، ويقال إن هذا العمود من صنع فدياس نفسه^(*) .

وكان يمتد من السوق العامة في اتجاه الغرب طريق وسط تقوم على جانبيه قصور وحوانيت ، وتظله طائفة من العمد ، ويحترق المدينة إلى الأوغسطيوم Augusteum ، وهو ميدان واسع طوله ألف قدم وعرضه ثلثائة ، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى هيلينا Helena أم قسطنطين بوصفها Augusta (العظيمة) . وعند الطرف الشمالي من هذا الميدان قامت في صورتها الأولى كنيسة أيا صوفيا Sophia — أي كنيسة الحكمة القدسية . وكان عند طرفه الشرق قاعة ثانية لمجلس الشيوخ ؛ وعند طوفه الجنوبي شيد القصر الرئيسي للإمبراطور ، كما شيدت حمامات زيوكسپس Zeuxippus الضخمة التي كانت تحتوى على مئات من التماثيل المنحوتة من الرخام ، أو المصبوبة من البرنز . وعند الطرف الغربي للطريق الأوسط كان يقوم بناء ضخم مكون من عقود — يعرف باسم المليونون million

(٥) وقد اسود لونه بتأثير الزمن والحرائق ، وأصبح الآن يعرف بالعمود المحروق .

أو شاخص الميل — ومنه تتشعب الطرق العظيمة الكثيرة (التي لا يزال بعضها باقياً للآن) ، والتي تربط عاصمة الدولة بمختلف ولاياتها . وهنا أيضاً في غرب الأوغسطيوم أنشئ ميدان السباق العظيم ، وبينه وبين كنيسة أياصوفيا كان يمتد القصر الإمبراطوري أو القصر المقدس ، وهو بناء معقد من الرخام تحيط به مائة وخمسون فداناً من الحدائق والأبواب ذات العمدة . وانتشرت في أنحاء مختلفة من المدينة وضواحيها بيوت الأشراف . وفي الشوارع الجانبية الضيقة الملتوية المزدحمة بالسكان كانت حوانيت التجار ومساكن العامة على اختلاف أنواعها . وكان الطريق الأوسط ينتهي عند طرفه الغربي « بالباب الذهبي » في سور قسطنطين ، ويطل من هذا الباب على بحر مرمرية . وكانت القصور تقوم على الشواطئ الثلاثة وتضطرب ظلالها الفخمة في أمواج البحار .

وكان جل أفراد الطبقة العليا من سكان المدينة من الرومان ، أما الكثرة الساحقة من غير هذه الطبقة فكانوا من اليونان . وكان هؤلاء وأولئك وغيرهم من السكان يسمون أنفسهم « يونانا » . وكانت اللاتينية لغة الدولة الرسمية ، ولكن اليونانية ظلت لغة الشعب حتى حلت قبيل مستهل القرن السابع محل اللاتينية في المصالح الحكومية نفسها . وكانت تلى طبقة كبار الموظفين وأعضاء مجلس الشيوخ طبقة من الأشراف قوامها ملاك الأراضي الذين يقيمون في المدينة تارة وفي ضياعهم في الريف تارة أخرى . وكانت هناك طبقة أخرى هي طبقة التجار تحتقرها الطبقات السالفة الذكر ولكنها تنافسها في الثراء . وكان هؤلاء التجار يستبدلون ببضائع القسطنطينية والإقليم الذي من خلفها غلات بلاد العالم . وبلى طبقة التجار في المدينة طبقة أخرى مَطرودة الزيادة من موظفي الحكومة ، ومن تحتهم أصحاب الحوانيت ورؤساء الصناعات الذين يعملون في مختلف الحرف ، وتليهم طبقة يعد أفرادها عمالاً أحراراً من الوجهة الرسمية الشكلية ، لا حق لهم في الانتخابات العامة ، جبلوا على الشعب والاضطراب ، أذلهم الجوع وخضعوا

عادة لرجال الشرطة ، يشترى هداياهم بالألعاب وسباق الخيل ، وبما يوزع عليهم في كل يوم من الخبز أو الحبوب التي تبلغ ثمانين ألف مكيال ، ليظلوا هادئين مسالمين . وكانت أحط طبقات المجتمع في القسطنطينية ، كما كانت أحطها في سائر أنحاء الإمبراطورية ، طبقة الأرقاء ، وكان عددهم وقتئذ أقل من عددهم في رومة أيام قيصر ، وكانوا يلقون من المعاملة خيراً مما كانوا يلقونه في أيامه بفضل شرائع قسطنطين وتأثير الكنيسة التي خففت عن كاهلهم كثيراً من الأعباء ، وأشعرت سادتهم الرحمة بهم والإشفاق عليهم . وكان السكان الأحرار يخرجون من أعمالهم في مواسم معينة ، ويجتمعون في ميدان السباق ، فيتغصن بهم على سعته . وكان في هذا الميدان مدرج طوله خمسمائة وستون قدماً وعرضه ثلثمائة وثمانون ، وتتسع مقاعده لعدد من النظارة يتراوح بين ثلاثين ألفاً وسبعين (٧) ، يحميهم عن المجتهد خندق ذو شكل إهليلجي ؛ وكان في وسعهم خلال الفترات التي بين الألعاب أن يتنزهوا في طريق ظليل ذي خطار من الرخام طوله ٢٧٦٦ قدماً (٨) . وكان يخترق مضمار السباق جدار منخفض يمتد في وسطه في أكبر طوله من إحدى نهايتيه إلى الأخرى ويسمى الأسبينا spina أو عموده الفقري ؛ وقد صفت التماثيل على جانبيه ، وقامت في وسطه مسلة من مسلات الملك تحتس الثالث جيء بها من مصر . وكان في طرفه الجنوبي عمود مكون من ثلاث جهات من البرنز ملتوية بعضها على بعض . أقيم في بادئ الأمر في دلي تخليداً لذكرى معركة بلاثيه plataea (٤٧٩ ق . م) ؛ ولا تزال المسلة والعمود قائمين حتى الآن . وقد ازدانت الكاثزما Kathisma أي مقصورة الإمبراطور في القرن الخامس تماثيل لأربعة جياد من البرنز المذهب من عمل ليسبوس في الزمن القديم . وفي هذا المضمار كان يحتفل بالأعياد القومية العظيمة ، فتسير فيه المواكب ، وتقام المباريات الرياضية ، والألعاب البهلوانية ، وتقتل الحيوانات وتصاد ، وتعرض الوحوش والطيور الأجنبية الغريبة . وبفضل التقاليد

اليونانية والعاطفة المسيحية كانت أسباب التسلية والاهو في القسطنطينية أقل قسوة من نظائرها في رومة ، وشاهد ذلك أننا لا نسمع في العاصمة الجديدة عن قتال المجالدين ؛ ومع هذا فإن أشواط سباق الجياد والعربات البالغة أربعة وعشرين شوطاً ، وهى الجزء الأهم من منهاج الاحتفالات ، كانت تثير في نفوس الجماهير ما تثيره حفلات الأعياد الرومانية في نفوس الرومان من حماسة بالغة . وكان ركاب الخيل والعربات المحترفون يقسمون إلى فئات زرق ، أو خضر ، أو حمر ، أو بيض حسب من يستخدمونهم من أصحاب الخيل والعربات ، وحسب ما يرتدون من ثياب ؛ وعلى هذا النحو أيضاً ينقسم النظارة ، بل وينقسم سكان المدينة على بكرة أبيهم . وكان الحزبان الرئيسيان - الزرق والخضر - يقتتلان بالخناجر في المضمار وبالخناجر أحياناً في شوارع المدينة ؛ ولم يكن في وسع السكان أن يعبروا عن مشاعرهم إلا في أثناء هذه الألعاب والمباريات ، ففيها كانوا يطالبون بحقوقهم في أن ينالوا رعاية الحكام ، أو فيما يريدونه من ضروب الإصلاح ، أو في الشكوى من ظلم الحكام ، وكانوا في بعض الأحيان يعتبرون على الإمبراطور نفسه وهو جالس في مقعده الأمين الرفيع الذى كان يتصل بقصره بمخرج يقوم عليه حراس مدججون بالسلاح .

أما فيما عدا هذا فقد كانت جمهرة السكان لاهول لها ولا طول من الناحية السياسية . ذلك أن دستور قسطنطين ، الذى لم يكن في واقع الأمر إلا استمراراً لدستور دقلديانوس ، كان دستور دولة ملكية مطلقة سافرة : وقد كان في وسع مجلسي الشيوخ في القسطنطينية وفي رومة أن يناقشا المسائل المعروضة عليهما ، وأن يشرعا ، ويفصلا في بعض القضايا ، ولكن هذا كله كان يخضع لحق الرفض المخول للإمبراطور . وقد استحوذ على حقوقهما التشريعية مجلس الحاكم الاستشارى المعروف باسم المجلس التشريعى الأعلى المقدس : يضاف إلى هذا أنه كان من حق الإمبراطور أن يسن القوانين بمراسيم يصدرها بنفسه ، كما أن إرادته كانت هى

القانون الأعلى . وكان الأباطرة يرون أن الديمقراطية قد أخفقت في تحقيق أغراضها ،
وأنها قد قصت عليها الإمبراطورية التي ساعدت هي على إقامتها . نعم إنه قد يكون
في وسعها أن تحكم مدينة ، ولكنها عجزت عن حكم مائة ولاية مختلفة الأوضاع ،
ولقد أسرفت في الحرية حتى جعلتها إباحية ، ثم أسرفت في الإباحية حتى أصبحت
فوضى ، وحتى هددت حروبها الأهلية وحروب الطبقات الحياة الاقتصادية
والسياسية لعالم البحر المتوسط ، وانتهى دقلديانوس وقسطنطين إلى أن النظام
لا يمكن أن يعود إلا بقصر المناصب العليا على الأشراف ما بين كنت Conites
ودوق Duces . لا يختارون على أساس مولدهم ، بل يعينهم الإمبراطور الذي
يتحمل تبعه الحكم كاملة ، ويستمتع بالسلطة كاملة ، والذي تحيط به هالة رهيبية من
المهابة ، والترفع ، والعزلة عن الشعب ، والأبهة الشرقية ، وما تخلعه عليه الكنيسة
من مراسم التتويج ، والتقديس ، والتأييد . ولعل هذا النظام كان له ما يبرره
من الظروف المحيطة بالدولة في ذلك الوقت ، ولكنه لم يفرض على إرادة الحاكم
قيوداً إلا مشورة أعوان يهتمهم أن يرضوه ، وإلا خوفه من الموت المفاجئ . نعم
إن هذا النظام قد أوجد أداة إدارية وقضائية قديرة إلى أقصى حدود القدرة ،
وأطال حياة الإمبراطورية البيزنطية نحو ألف عام كاملة ، ولكنها اشترت هذه
الحياة بالركود السياسي وبالجمود في كل مناحي الحياة العامة ، وبمؤامرات الحاشية ،
ودسائس الحصيان ، وخروب الوراثة ، وبعشرات الثورات التي شبت نارها في
القصر ، والتي رفعت إلى العرش أباطرة كفاة في بعض الأحيان ، ولكنها قلما
رفعت إليه أباطرة ذوى استقامة خاقية ، وما أكثر من رفعت إليه من المغامرين
الذين لا ضمير لهم ، أو من العصابات الأجركية ، أو من الحمقى البلهاء .

الفصل الثامن

المسيحيون واليهود

في القرن الرابع الميلادي كانت الشئون الكنسية ، في عالم البحر المتوسط الذي تعتمد فيه الدولة اعتماداً كبيراً على الدين ، قلقه مضطربة إلى حد شعرت الحكومة معه أن لا بد لها من أن تتدخل في أسرار الدين وخفاياه : ذلك أن مجمع نيقية الذي عقد في عام ٣٢٥ لم يضع حداً للنقاش الحاد الذي احتدم أواره بين أثناسيوس وأريوس ، بل ظل كثير من الأساقفة - كانوا هم الكثرة الغالبة في الشرق^(٩) - يناصرون أريوس سرّاً أو جهرّاً ؛ أي أنهم كانوا يرون أن المسيح ابن الله ، ولكنه لا يشترك مع الأب في مادته ولا في خلوده . ولم يستنكف قسطنطين نفسه ، بعد أن قبل قرار المجمع ، وطرده أريوس من البلاد ، أن يدعوّه إلى اجتماع شخصي معه (٣٣١) ؛ فلما اجتمع به لم يجد في أقواله ما يستطيع أن يعده خروجاً على الدين ، وأوصى بأن ترد إلى أريوس وأتباعه كنائسهم . واحتج أثناسيوس على ذلك ، فاجتمع في صور مجلس من أساقفة الشرق وقرر خلعه من كرسي الإسكندرية الديني (٣٣٥) ، وظل عامين طريداً في غاله . أما أريوس فقد زار قسطنطين مرة أخرى ، وأعلن قبوله للعقيدة التي قررها مؤتمر نيقية بعد أن أضاف إليها تحفظات دقيقة لا ينتظر من إمبراطور أن يفهمها . وآمن قسطنطين بأقواله ، وأمر الإسكندر بطرق القسطنطينية أن يقبله في العشاء الرباني . وفي هذه يقص سقراط المؤرخ الكنسي هذه القصة المحزنة المؤلمة :

« كان ذلك يوم السبت ، وكان أريوس يتوقع أن يجتمع بالمصلين في اليوم الذي يليه ، ولكن القصاص الإلهي عاجله فأحبط عمله الإجرامي الجريء . ذلك

أنه لما خرج من القصر الإمبراطورى . . . واقترب من العمود السماقى المقام فى سوق قسطنطين ، تملكه الرعب ، وأصيب بإسهال شديد . . . خرجت فيه أمعاؤه من بطنه ، وأعقبه نزيف حاد ، ونزلت أمعاؤه الدقاق . ومما زاد الطين بلة أن طحاله وكبدته قد انفصلا من حدة النزيف ومات لساعته^(١٠) .

ولما بلغ هذا التطهير العاجل مسامع قسطنطين بدأ يسائل نفسه : ألم يكن أريوس فى واقع الأمر كافراً زنديقاً ؟ لكنه لما مات فى السنة التالية تلقى مراسم التعميد على يد صديقه ومشيريه يوسبيوس أسقف نقوميديا ، وهو من أتباع أريوس نفسه .

وعنى قسطنطيوس بشئون الدين عناية أكثر جدية من عناية أبيه ، فشرع يبحث بنفسه أبوة المسيح ، وخرج من هذا البحث باعتناق مذهب أريوس ، وشعر بأن واجبه الأدبى يحتم عليه أن يعرض هذه الآراء على جميع العالم المسيحى . وطرده أثناسيوس من كرسى الإسكندرية مرة أخرى (٣٣٩) ، وكان قد عاد إليه بعد موت قسطنطين . ودعيت مجالس الكنائس تحت إشراف الإمبراطور الجديد ، وأيدت تشابه المسيح والأب دون اتحادهما فى المادة . وأخرج الكهنة الذين استمسكوا بعقائد مجمع نيقية من كنائسهم ، وكان الغوغاء فى بعض الأحيان هم الذين يخرجونهم منها ، وأتى على المسيحية نصف قرن من الزمان لاح فيه أنها ستؤمن بالتوحيد وتتخلى عن عقيدة ألوهية المسيح ؛ وكان أثناسيوس فى هذه الأيام العصيبة يقول عن نفسه إنه يقف وحده فى وجه العالم كله ، فقد كانت جميع قوى الدولة تقاومة ، بل إن أتباع كنيسة الإسكندرية خرجوا عليه واضطروا فى خمس مرات مختلفة أن يفر من كرسيه معرضاً حياته فى معظمها لأشد الأخطار ، وأن يهيم على وجهه فى البلاد الأجنبية . وظل خمسين عاماً (٣٢٣ - ٣٧٣) صابراً يكافح ويدافع عن عقيدته كما حددها مجمع نيقية بزعامته ، مستعيناً على ذلك بمهارة الدبلوماسى وعنف الرجل البليغ . ولم تلبس له قناة حتى بعد أن ضعف البابا

ليبريوس واستسلم . وإليه يرجع معظم الفضل في استمساك الكنيسة بعقيدة التثليث .

وعرض أثناسيوس قضيته على البابا يوليوس الأول (٣٤٠) ، فردده يوليوس إلى كرسيه ، ولكن مجعاً من أساقفة الشرق عقد في أنطاكية (٣٤١) ، وأنكر على البابا حقه في هذا الحكم ، ورشح جريجورى ، وهو رجل من أتباع أريوس ، أسقفاً للكرسى الإسكندرية . لكن جريجورى لم يكد يصل إلى تلك المدينة حتى أثارت أحزابها المتنافسة فتنة صماء قتل فيها عدد كبير من الأهلين ، واضطر أثناسيوس على أثرها إلى التخلي عن كرسيه حقناً للدماء (٣٤٢) (١١) . وثار في القسطنطينية فتنة أخرى من نوعها ؛ كان سببها أن قنسطنطيوس أمر أن يستبدل ببولس ، الرجل الوطنى المستمسك بالدين القويم ، مقدونيوس الأريوسى ، فذهب جماعة من مؤيدى بولس يقاومون جنود الإمبراطور ، وقتل في الاضطرابات التى أعقبت هذه المقاومة ثلاثة آلاف شخص ، وأكبر الظن أن الذين قتلوا من المسيحيين بأيدي المسيحيين فى هذين العامين (٣٤٢ — ٣٤٣) يزيد عددهم على من قتلوا بسبب اضطهاد الوثنيين للمسيحيين فى تاريخ رومة كله . واختلف المسيحيون وقتئذ فى كل نقطة عدا نقطة واحدة ، هى أنه يجب إغلاق الهياكل الوثنية ، ومصادرة أملاكها ، واستخدام أسلحة الدولة التى كانت توجه من قبل لقتال المسيحية فى قتال هذه المعابد وقتال من يتعبدون فيها (٢١) . وكان قسطنطين قد قاوم القرايين والاحتفالات الوثنية وإن لم يكن قد حرمها تحريماً باتاً ؛ فلما جاء قنسطانس حرمها وأنذر من يعصى أمره بالموت ؛ ثم جاء قنسطنطيوس فأمر بإغلاق جميع الهياكل الوثنية فى الدولة ، ومنع جميع الطقوس الوثنية ، وأنذر من يعصى أمره بقتله ومصادرة أملاكه ، كما فرض هاتين العقوبتين بعينهما على حكام الولايات الذين يهملون تنفيذ هذا الأمر (١٣) . ومع هذا كله فقد بقيت جزائر وثنية متفرقة فى بحر المسيحية الآخذ فى الاتساع ، فكان فى المدن القديمة — أثينة ، وأنطاكية ؛ وأزمير ، والإسكندرية

ورومة — وبخاصة بين الأشراف وفي المدارس طوائف كبيرة من الوثنيين متفرقين في أحيائها المختلفة . وظلت الألعاب تقام في أولمبيا إلى أيام ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ — ٣٩٥) ، والطقوس الخفية يحتفل بها في إلوسيس ، حتى جاء أليكس فهدم هيكلها في عام ٣٩٦ ؛ ولم تنقطع مدارس أثينة عن إذاعة تعاليم أفلاطون ، وأرسطو ، وزينون ، وإن فسرتها تفسيرات تلطف من وثنيهم . (أما تعاليم أبيقور فقد حرمت وأصبح اسم هذا الفيلسوف مرادفاً للكفر) : وظل قسطنطين وولده يوثديان ما كان مقررأ من رواتب لرؤساء المدارس الفلسفية وأساتذتها الذين يكونون ما يمكن أن نسميه ببعض التساهل جامعة أثينة ؛ كما ظل المحامون والخطباء يهرعون إلى تلك المدينة ليتعلموا فيها أساليب الخطابة وحياتها ؛ وكان السوفسطائيون الوثنيون — أو معلمو الحكمة — يعرضون بضاعتهم على كل من يستطيع شرائها : وكانت أثينة كلها مولعة ومعجبة بروهرسيوس Prohaeresius ، الذي جاءها شاباً فقيراً ، واشترك مع طالب آخر في فراشه وردائه ، وما زال يرتقى حتى شغل كرسي البلاغة الرسمي ، واحتفظ حتى سن السابعة والثمانين بوسامته ، وقوته ، وفصاحته ، احتفاظاً جعل تلميذه يونيوس يرى أنه « إله لا يهرم ولا يموت » (١٤) ؛ ولكن حامل لواء السوفسطائيين في القرن الرابع هو ليبانيوس Libanius . وكان مولده في أنطاكية عام ٣١٤ ، ولكنه انتزع نفسه من أمه المولعة به ، ووفد إلى أثينة للتعلم والدرس ، ولما عرض عليه في بلده أن يتزوج من وارثة غنية إذا بقي فيها قال إنه يرفض الزواج من إلهة إذا حال ذلك بينه وبين رؤية دحان أثينة (١٥) . ولم يكن يرى أن معلميه في هذه المدينة أنبياء ملهمون بل كان يراهم مجرد منبهين إياه للتأمل والتفكير ، ولهذا فقد علم هو نفسه وسط متاهة من الأساتذة والمدارس . وبعد أن ظل يحاضر وقتاً ما في القسطنطينية ونقوميديا عاد إلى أنطاكية (٣٥٤) ، وأقام فيها مدرسة ظلت مدى أربعين عاماً أشهر مدارس الإمبراطورية وأكثرها طلاباً . وقد بلغ من الشهرة (كما يؤكد لنا هو نفسه) حداً جعل الناس يتغنون بالفقرات الأولى من تعاليمه (١٦) وكان من بين تلاميذه أميانس مرسيليس

St. John Chrysostom والقديس يوحنا كريسستوم وAmmianus Marcellinus والقديس باسيلي St. Basil . وكان يستمتع برضاء الأمراء المسيحيين ، وإن كان يخطب ويكتب في الدفاع عن الوثنية ، ويقرب القرايين في الهياكل . ولما أضرب خبازو أنطاكية عن العمل اختاره الطرفان المتنازعان حكماً بينهما ، ولما ثارت أنطاكية على ثيودوسيوس الأول اختارته المدينة المعذبة للدفاع عن قضيتها أمام الإمبراطور (١٧) . وقد طالت حياته ما يقرب من جيل كامل بعد أن اغتيل صديقه يوليان ، وبعد أن انهارت دعائم النهضة الوثنية ، وتشكلت وثنية القرن الرابع بأشكال مختلفة : فكان منها المثراسية ، والأفلاطونية الجديدة ، والرواقية ، والكلمية ، وكان منها الطقوس المحلية التي تقام لآلهة المدن أو الريف ، ثم فقدت المثراسية مكانتها ، ولكن الأفلاطونية الجديدة ظلت ذات قوة وأثر في الدين والفلسفة . وكان للعقائد التي كسبها أفلوطين ظلاً من الحقيقة — كالقول بوجود نفس ثلاثية تؤلف بين الحقائق كلها وتربطها برباط واحد ، وبالعقل أو الإله الوسيط الذي قام بعملية الخلق ، والروح وهي بوصفها الجزء القدسي ، والمادة وهي الجسم ومبعث الشر ، وبمناطق الوجود التي هبطت على درجاتها بغير المنظورة النفس البشرية من الله إلى الإنسان ، والتي تستطيع أن ترقى عليها من الإنسان إلى الله — كان لهذه العقائد والأفكار الصوفية الخفية أثرها في آراء الرسولين بولس ويوحنا وفي كثير ممن حذا حذوهما من المسيحيين ، وفي تشكيل كثير من العقائد المسيحية الخارجة على الدين القويم (١٨) . وقد ضم أيمبليقوس Iamblichus من أهل خلقيس Chalcis السورية المعجزات إلى الشعائر الخفية في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، فقال إن الرجل المتصوف لا يكتفى بإدراك الأشياء التي لا تدركها الحواس بل إنه — بفضل اتصاله بالله في أثناء نشوته — قد أصبحت له مواهب ربانية من السحر والاطلاع على الغيب . ثم جمع مكسموس الصوري تلميذ أيمبليقوس بين دعوى المواهب الصوفية

والوثنية المؤمنة المخلصة الفصيحة التي انتصرت على يوليان وأخضعته لسلطانها ،
وإلى القارىء فقرة من أقوال مكسموس يدافع فيها عن استخدام الأوثان
فى العبادات الوثنية ويرد على استهزاء المسيحيين بها :

« الله الأب الذى صور كل ما هو كائن أقدم من الشمس ومن السماء ،
وأعظم من الزمان ، ومن الخلود ومن مجرى الكينونة ، لا يستطيع أن يسميه
مشتري أو أن ينطق به صوت ، أو أن تراه عين ، لكننا نحن لعجزنا عن
إدراك جوهره نستعين بالأصوات ، والأسماء ، والصور ، وبالذهب
المطروق ، والعاج ، والفضة ، وبالنبات ، والأنهار ، وبالسيول ، وقلل
الجبال فى إشباع حنيننا إلى معرفته ؛ وندارى عجزنا بأن ننحت من طبيعته
أسماء لكل ما هو جميل فى هذا العالم . . . فإذا ما تاق يونانى لأن يتذكر الله
حين يبصر تحفة فنية من عمل فدياس أو تاقَت نفس مصرى لهذه الذكرى
فعبد الحيوان ، أو مجد غيرهما ذكراه بعبادة نهر أو نار ، فإن اختلافهم
عنى لا يغضبني ؛ وكل ما أطلبه إليهم أن يلاحظوا وأن يذكروا ،
وأن يحبوا^(١٩) .

وكانت فصاحة ليبيانوس ومكسموس من الأسباب التى جعلت يوليان
يرتد من المسيحية إلى الوثنية ، ولما أن اعتلى تلميذهما عرش الإمبراطورية
هرع مكسموس إلى القسطنطينية ، وأنشد ليبيانوس فى أنطاكية نشيد النصر
والفرح : « هانحن أولاء قد عدنا حقاً إلى الحياة ، وهب على الأرض كلها
نسيم السعادة لما أن حكم العالم إله حق فى صورة إنسان »^(٢٠) .

الفصل الثالث

قيصر الجديد

ولد فلافيوس كلوديوس بوليانوس Flavius Claudius Julianus في القصر الإمبراطوري في القسطنطينية في عام ٣٣٢ ، وكان ابن أخي قسطنطين . وقد قتل أبوه ، وأخوه الأكبر ، ومعظم أبناء عمه ، في المذبحة التي حدثت أيام حكم أبناء قسطنطين . وأرسل هو إلى نيقوميديا ليتلقى فيها العلم على الأسقف يوسيديوس ؛ ولقن من علوم اللاهوت المسيحية أكثر مما يطيقه عقله ، وظهرت عليه سمات تدل على أنه سيكون قديسا . ولما بلغ السابعة من عمره بدأ يدرس الآداب القديمة على مردونيوس Mardonius ، وسرى حب هومر وهزيود والتحمس لآدابهما من الخصى الهرم إلى تلميذه ، ودخل يوليان إلى عالم الأساطير اليونانية الشعرى الزاهر بدهشة ومهجة عظيمنتين .

وفي عام ٣٤١ نفي يوليان وأخوه جالوس Gallus إلى كپدوكيا لأسباب لا نعلمها الآن ، وظلا ست سنين يكادان أن يكونا فيها سجينين في حصن ماسلوم Macellum ولما أطلق سراحهما سمح ليوليان أن يعيش وقتاً ما في القسطنطينية ولكن مرح الشباب ، وما امتاز به من إخلاص وذكاء حباه إلى الشعب حباً أقلق بال الإمبراطور ؛ فأرسله مرة أخرى إلى نيقوميديا حيث أخذ يدرس الفلسفة . ولما أراد أن يستمع فيها إلى محاضرات ليبانيوس حرم عليه هذا ، ولكنه استطاع أن يحصل على مذكرات وافية لدروس هذا المعلم . وكان وقتئذ شابا في السابعة عشرة من عمره ، بهي الطلعة ، جياش القلب بالعواطف ، متأهباً لأن يهره سحر الفلسفة الخطر ، وبينما كانت الفلسفة ، وبينما كان التفكير الحر يأتیان إليه بكل ما فيهما من إغراء ، كانت المسيحية تُعرض عليه بوصفها مجموعة من العقائد التعسفية

التي لا تقبل الجدل ، وكنيسة تمزقها الفصائح ، منقسمة على نفسها بسبب منازعات أريوس وأتباعه ، وبسبب تبادل اللعنات بين الشرق والغرب ، وتكفير كل منهما الآخر .

وفي عام ٣٥١ جعل جالوس قيصرأى ولياً للعهد — وعهد إليه حكم أنطاكية ، وأحسن يوليان وقتاً ما بأنه آمن من ريبة الإمبراطور فأخذ يتنقل من نيقوميديا إلى برجموم ثم إلى إفسوس ، يدرس فيها الفلسفة على إديسيوس Edesius ، ومكسموس ، وكريسنثيوس Chrysanthius وقد أتم هؤلاء تحويله سرأ إلى الدين الوثني . وفي عام ٣٥٤ استدعى قسطنطين جالوس ويوليان إلى ميلان حيث كان يعقد محكمة للنظر في أمرهما . ذلك أن جالوس تعدى حدود السلطة المخولة له ، وحكم الولايات الآسيوية حكماً بلغ من استبداده وقسوته أن ارتاع له قسطنطين نفسه . وحوكم الرجل أمام الإمبراطور ، ووجهت إليه عدة تهمة ، وأدين ، وصدر عليه الحكم بالإعدام ، ونفذ على الفور . وأما يوليان فقد ظل تحت الحراسة في إيطاليا عدة أشهر ، حتى أفلح أخيراً في أن يقنع الإمبراطور المرتاب أن السياسة لم تكن له على بال في يوم من الأيام ، وأن اهتمامه كله موجه إلى الفلسفة ، واطمأن قنسطنطيوس إذ عرف أن غريمه ليس إلا وجلاً فيلسوفاً ، فنفاه إلى أثينة (٣٥٥) . وإذ كان يوليان قبل هذا النفي يتوقع الإعدام ، فإنه لم يجد صعوبة في الرضا بالنفي إلى بلد هو منبع العلم ، والدين ، والتفكير الوثني .

وقضى في تلك المدينة ستة أشهر ، كانت من أسعد أيام حياته ، يدرس الفلسفة في الغياض التي استمعت إلى صوت أفلاطون في الزمن القديم ، وعقد فيها أواصر الصداقة مع ثامسطيوس Themistius وغيره من الفلاسفة المخلصين والمنسيين ، الذين أعجبوا بشغفه بالعلم ، وكسب قلوب أهل المدينة برقة شمائله ، وتواضعه ، وجميل مسلكه . وكان يُشَبَّه هؤلاء الوثنيين المثقفين المهذبين الذين ورثوا ثقافة قرون عشرة بعلماء الدين الوقورين الذين كانوا يحيطون به في نيقوميديا .

أو بأولئك الساسة والحكام الأتقياء الذين رأوا من الواجب عليهم أن يقتلوا أباه وإخوته وكثيرين غيرهم من خلق الله ؛ وخلص من هذا كله إلى أنه ليس ثمة وحوش أكثر تعطشاً للدماء من المسيحيين^(٢١) . وكان إذا سمع أن معابده مشهورة قد دمرت ، وأن كهنة وثنيين قد حكم عليهم بالإعدام ، وأن أملاكهم قد وزعت على الخصييان وأشباع السلطان أجهش بالبكاء^(٢٢) . وكان هذا في أغلب الظن هو الوقت الذي قبل فيه أن يتعلم سرّاً وفي حذر شديد طقوس إليسير الخفية وأسرارها ؛ وكانت المبادئ الأخلاقية الوثنية تتجاوز عما لحأ إليه في ارتداده من مخادعة ورياء . هذا إلى أن أصدقاءه ومعلميه المطلعين على سره لم يكونوا يوافقون على أن يجهر بهذا الارتداد ، فقد كانوا يعرفون أنه إذا فعل سيتوجه قنسطنطيوس في غير الوقت الملائم ، بتاج الشهداء ؛ وكانوا هم يتطلعون إلى الوقت الذي يرث فيه صنيعتهم عرش الإمبراطورية ، ويعيد إليهم روايتهم وآلهتهم . ولهذا قضى يوليان عشر سنين كاملة يؤدي جميع الشعائر والعبادات المسيحية للظاهرة ، بل لقد بلغ من أمره أن كان يقرأ الكتاب المقدس علناً في الكنيسة^(٢٣) .

وفي وسط هذا التخفي والخوف استدعى مرة أخرى إلى المثول بين يدي الإمبراطور في ميلان ؛ وتردد أول الأمر في الذهاب خشية العقاب ، لكن الإمبراطورة يوزيبيا أرسلت إليه تبلغه أنها دافعت عنه لدى الإمبراطور ، وأنه لن يصاب بمكروه ، وما كان أشد دهشته حين زوجه الإمبراطور من أخته هيلينا Helena ، وخلع عليه لقب قيصر ، وعهد إليه حكم غالة (٣٥٥) . وارتدى الرجل الأعزب الحي الذي قدم على الإمبراطور في ثياب الفيلسوف الحشنة حلة القائد الرسمية على مضض ، وقام بواجبات الزوجية : وما من شك في أنه قد ضايقه فوق هذا وحيره أن يعرف أن الألمان قد اغتسموا فرصة اشتعال نيران الحرب الأهلية التي كادت تقضى على ما للإمبراطورية في الغرب من قوة حربية ، فغزوا الولايات الرومانية الممتدة على ضفاف الرين ، وشتتوا شمل جيش روماني ، ونهبوا المستعمرة الرومانية

القديمة في كولوني ، واستولوا على أربع وأربعين مدينة غيرها ، وفتحوا
الأساس كلها ، وتقدموا مدى أربعين ميلا في غالة . ولما أن واجه قنسطنطيوس
هذه الأزمة العصبية ، طلب إلى الشاب الذي يرتاب فيه ويزدرية أن يبدل نفسه
من فوره فيجعل منها نفس جندي محارب وإداري جازم . وأعطى يوليان
حرساً مؤلفاً من ثلثمائة وستين رجلاً ، وكلفه بإعادة تنظيم الجيش المربط في
غالة ، وأمره بعبور جبال الألب .

وقضى يوليان الشتاء في فين Vienne ويانه على نهر الرون ، يدرّب نفسه
التدريب العسكري ، ويدرس فنون الحرب دراسة الرجل المجد المتحمس
لأداء واجبه . وفي ربيع عام ٣٥٦ جمع جيشاً عند ريمس Reims صد به
الغزاة الألمان واسترد منهم كولوني ؛ ولما حاصرتهم قبيلة الألمانى — التي أصبح
اسمها علما على ألمانيا كلها — في سنس Sens ظل يصد هجمات المحاصرين
ثلاثين يوماً ، واستطاع أن يحصل على ما يحتاجه جنوده وأهل المدينة من المؤن
حتى نفذ صبر الأعداء . ثم زحف نحو الجنوب والتقى بجيش قبيلة الألمانى
الأكبر عند استرسبورج ، ونظم جيشه على شكل إسفين هلالى ، وقاده
قيادة الرجل العارف بأفانين الحرب ، المملوء القلب بالشجاعة ، فانتصر
نصراً على قوات العدو التي تفوق قواته عدداً^(٢٤) ، وتنفست غالة الصعداء
بعد هذا النصر المؤزر ؛ ولكن قبائل الفرنجة الضاربة في الشمال كانت
لا تزال تعيثُ فساداً في وادى الموز Meuse ، فزحف عليها يوليان بنفسه ،
وأوقع بها هزيمة منكرة ، وأرغمها على عبور الرين ، ثم عاد إلى باريس .
عاصمة الولاية متوجاً بأكاليل النصر ، ورحب به أهل غالة ، وشكروا له
حسن صنيعه ، ورأوا في قيصر الصغير يوليوسا Julius جديداً ؛ وما لبث
جنوده أن جهرّوا بأملهم في أن يجلس عما قريب على عرش الإمبراطورية .
وبقى في غالة خمس سنين ، يعمر الأرض المخربة بالسكان ، ويعيد تنظيم
وسائل الدفاع عن نهر الرين ، ويمنع استغلال الأهلين الاقتصادي والفساد

السياسى ، ويعيد الرخاء إلى الولاية ، ويملاً خزائنها بالمال ، وينخفض فى الوقت عينه ما كان مفروضاً على البلاد من الضرائب . وعجب الناس كيف استطاع هذا الشاب الغارق فى التفكير ، الذى لم ينتزع من بين كتبه إلا من وقت قريب ، أن يبذل نفسه فيجعل منها — كأنما قد مسته عصا ساحر — قائداً محمكاً ، وحاكماً عظيماً ، وقاضياً عادلاً رحماً^(٢٥) . وكان هو الذى وضع فى القضاء ذلك المبدأ القائل بأن المتهم يعد بريئاً حتى تثبت إدانته . وكان سبب تقرير هذا المبدأ أن نومريوس Numerius أحد حكام غالة النربونية السابقين اتهم باختلاس الأموال التى عهد إليه تحصيلها ؛ ولكنه أنكر التهمة ، ولم يكن من المستطاع دحض حجة من الحجج التى أدلى بها . واغتاظ القاضى دلفديوس Delfedius لنقص الأدلة التى تثبت التهمة عليه فصاح قائلاً : « أى قيصر العظيم ! هل يمكن أن يدان إنسان إذا كان مجرد إنكاره التهمة يكفى لبراءته ؟ » فكان جواب يوليان . وهلا يمكن أن يبرأ إنسان إذا كان كل ما فى الأمر أنه اتهم ؟ » « وكان هذا » كما يقول أميانوس « شاهداً من الشواهد الكثيرة ، الدالة على رحمته »^(٢٦) .

غير أن إصلاحاته قد خلقت له أعداء . فالوظفون الذين كانوا ينحشون بحبه وتنقيبه ، أو يحسدونه لحب الناس له ، أخذوا يتهمونهم سرّاً لدى قنسطنطيوس بأنه يعمل للاستيلاء على عرش الإمبراطورية : فلما علم بذلك يوليان رد عليهم بأن كتب يمتدح الإمبراطور مدحاً فيه كثير من المبالغة . ولكن ذلك لم يبدد شكوك قنسطنطيوس ، فاستدعى إليه سالست Sallust الذى كان من أخلص أعوان يوليان . وإذا جاز لنا أن نصدق أميانوس فإن الإمبراطورة يوزيبيا ، التى لم يكن لها ولد ، والتى كانت الغيرة من يوليان وزوجته تأكل قلبها ، قد رشت بعض حاشية زوجة يوليان بأن يعطوها عقارا مجهضاً كلما حملت . ولما أن وضعت هلينا ، على الرغم من هذا ، طفلاً ذكراً ، قطعت القابلة خبل سرته قريباً من جسمه إلى حد

نزف منه الدم حتى مات (٢٧) هـ وبينما كانت هذه المتاعب كلها تحيط بيوليان تلقى في عام ٣٦٠ أمراً من قنسطنطيوس بأن يبعث بخير عناصر جيوشه في غالة ليضموا إلى الجيش الذي يحارب فارس . .

وكان لعمل قنسطنطيوس هذا ما يبرره . فقد طالب شابور الثاني أن ترد إليه بلاد النهرين وأرمينية (٣٥٨) ، فلما رفض قنسطنطيوس هذا الطلب حاصر شابور أميدا Amida (ديار بكر الحالية في ولاية كردستان التركية) . ونزل قنسطنطيوس الميدان وأمر يوليان أن يمد الجيوش الإمبراطورية بثلاثة رجل من كل فيلق من الفيالق الغالية لتشارك في هذه الحرب الآسيوية . ورد يوليان على هذا الطلب بأن هؤلاء الجنود قد تطوعوا في تلك الفيالق على ألا يدعوهم إلى الخدمة وراء حدود جبال الألب ، وحذر الإمبراطور من عاقبة هذا العمل قائلاً إن غالة لن تأمن على نفسها إذا ما تعرض جيشها لهذا النقص الكبير ، (وقد حدث أن نجح الألمان في غزو غالة بعد ست سنين من ذلك الوقت) ولكنه مع ذلك أمر جنوده أن يطيعوا رسل الإمبراطور ، غير أن الجنود عصوا هذا الأمر ، وأحاطوا بقصر يوليان ، ونادوا به أغسطس Augustus أى إمبراطوراً ، ورجوه أن يستبقهم في غالة ، فنصحهم مرة أخرى بإطاعة أمر الإمبراطور ، ولكنهم أصروا على الرفض ، وأحس يوليان ، كما أحس قيصر آخر من قبله ، أن الأقدار قد قررت مصيره ، فقبل اللقب الإمبراطوري ، واستعد للقتال لإنقاذ الإمبراطورية وإنقاذ حياته ، وأقسم الجيش الذي أبي قبل أن يغادر غالة ، أن يزحف على القسطنطينية ويجلس يوليان على العرش .

وكان قنسطنطيوس في كليكية حين بلغته أنباء الفتنة ، وظل عاما آخر يقاتل الفرس ، معرضاً عرشه للضياع في سبيل الدفاع عن بلاده . ثم عقد هدنة مع شابور وزحف بفيالقه غرباً لملاقاة ابن عمه . وتقدم يوليان نحوه ومعه قوة صغيرة ، ثم وقف بعض الوقت عند سرميوم Sirmium (بالقرب من بلغراد الحالية) ، وفيها

أعلن إلى العالم اعتناقه الوثنية ، وكتب إلى مكسموس رسالة حماسية قال فيها :
« إننا الآن نجهر بعبادة الأرباب ، وكذلك يخلص في عبادتها جميع الجنود الذين
اتبعوني »^(٢٨). وقد ساعده الحظ فأنجاه من مأزق حرج : ذلك أن قنسطنطيوس
توفي في نوفمبر من عام ٣٦١ على أثر حمى أصيب بها في طرسوس ، وكانت
وفاته في الخامسة والأربعين من عمره . وبعد شهر من وفاته دخل يوليان
القسطنطينية وجلس على العرش دون أن يلقي مقاومة ، وأشرف على جنازة
ابن عمه قنسطنطيوس بجميع مظاهر الحب .

الفصل الرابع

الإمبراطور الوثني

وكان يوليان وقتئذ في الحادية والثلاثين من عمره ، ويصفه أميانوس الذي كان يراه كثيراً بقوله :

كان متوسط القامة ، وكان شعره مرسلاناعماً كأنه قد غنى بتمشيطة ، وكانت لحيته كثة مستدقة ، وعيناه براقيتين تومضان ناراً ، وتكشفان عن حدة ذهنه . وكان حاجباه دقيقين وأنفه معتدلاً ، وفمه كبيراً بعض الشيء ، وشفته السفلى ممتلئة ، ورقبته غليظة منحنية ، ومنكباه كبيرين عريضين : وكان جسمه كله من أعلى رأسه إلى أطراف أصابع قدميه حسن التناسب ، ولهذا كان قوياً سريع العدو (٢٩) .

غير أن الصورة التي يصور هو بها نفسه لم تكن بهذا الحسن فهو يقول : إن الطبيعة لم تخلع على وجهي كثيراً من الوسامة ، ولم تهبه نضرة الشباب ، ومع هذا فإنني بعنادي قد أضفت إليه هذه اللحية الطويلة . . . ولم أعبأ بالقمل الذي كان يسرح فيها ويمرح كأنها أجمة للوحوش البرية . . . أما رأسي فنكوش ، لأنني قلما أقص شعري أو أقلم أظافري ، وأصابعي لا تكاد ترى إلا سوداء ملوثة بالحبر (٣٠) .

وكان يفخر بأنه يحتفظ ببساطة الفيلسوف وسط ترف البلاط . وما كاد يجلس على العرش حتى تخلص من الخصيان ، والحلاقين ، والجواسيس ، الذين كانوا في خدمة قنسطنطيوس . ولما ماتت زوجته في شبابها صمم على ألا يتزوج بعدها أبداً ، ولهذا لم يكن في حاجة إلى الخصيان ، وكان يشعر أن في وسع حلاق واحد أن يغني بجميع موظفي القصر ؛ أما الطهارة فلم يكن في حاجة إليهم لأنه لم يأكل

إلا أبسط الأطعمة التي يستطيع أن يعدّها أي إنسان (٣١) . وكان هذا الإمبراطور الوثني يعيش عيشة الرهبان ويلبس كما يلبسون ، ويلوح أنه لم يتصل اتصالاً جنسياً بالنساء بعد أن ماتت زوجته ، وكان ينام على قش خشن في حجرة غير مدفأة (٣٢) ، ولا يسمع بتدفئة أية حجرة من حجراته طوال فصل الشتاء « لكي يعتاد تحمل البرد » . ولم يكن يميل إلى اللهو والتسلية ، فكان يهاب دور التمثيل ، وما فيها من مسرحيات صامتة مثيرة للغريزة الجنسية ، وأثار غضب العامة بالابتعاد عن ميدان السباق ، فقد كان في الاحتفالات الكبرى يقضى فيه قليلاً من الوقت ، ولكنه يجد أن لا فرق بين سباق وسباق ، فلا يلبث أن يقادره . وقد أكبر الشعب في بادئ الأمر فضائله ، وزهده ، وانهماكه في العمل ، وفي أزمات الحكم ، وكانوا يشبهونه بتراجان في حسن قيادته العسكرية ، وبأنطونينس بيوس في تقواه وصلاحه ، وبماركس أورليوس في الجمع بين الملكية والفلسفة (٣٣) . ولنا ليدھشنا أن نرى هذا الوثني الشاب قد رضيت عنه على الفور مدينة ودولة لم تعرفا منذ جيل من الزمان إلا أباطرة مسيحيين .

وقد أَرْضَى مجلس شيوخ بيزنطية بمحافظته على تقاليده وحقوقه دون أن يفخر بذلك أو يمن به عليه . وكان يقوم من مقعده ليحيي القناصل ، ويمثل جميع المظاهر التي يتصف بها الإمبراطور من الوجهة النظرية ، وهي أنه خادم للشيوخ الأمة وشعبها ومندوب عنهم . وقد حدث مرة أن اعتدى من غير قصد على أحد الامتيازات الخاصة بمجلس الشيوخ ، فما كان منه إلا أن حكم على نفسه بغرام قدرها عشرة أرطال من الذهب ، وأعلن أنه يخضع كما يخضع كل للمواطنين لجميع القوانين الإمبراطورية وتقاليدها . وكان يقضى وقته من الصباح إلى المساء يكدر في أداء واجبات الحكم ، لا ينقطع عن ذلك إلا فترة صغيرة بعد الظهر ، ينقصها بالدرس . ويحدثنا المؤرخون أن ما كان يتناوله من طعام خفيف قد أكسب جسمه وعقله نشاطاً عصبياً ، كان يستطيع بفضلله أن ينتقل من واجب إلى واجب

ومن زائر إلى زائر ، وأن يرهق بالعمل ثلاثة من أمناء السر في كل يوم . وكان يظهر في قيامه بواجبات القاضى منتهى النشاط والجلد والاهتمام ؛ ويكشف في أثناء ذلك عن سفسطة المحامين ، وينحضع في تواضع وأدب جم لآراء القضاة المدعمة بالبراهين والتي تخالف آراءه هو ، وأعجب الناس جميعاً بعدالة أحكامه . ومن أعماله أنه خفض الضرائب المفروضة على الفقراء ، ورفض التيجان الذهبية التي كانت التقاليد تقضى بأن تقدمها كل ولاية للإمبراطور الحديد ، وألغى ما تجمع على إفريقية من الضرائب المتأخرة ، ونجّاه عن الجزية الباهظة التي كانت مفروضة حتى ذلك الوقت على اليهود (٣٤) . وأصر على إلزام كل من يريد ممارسة مهنة الطب أن يحصل على ترخيص بممارستها ، واشتد في تنفيذ ذلك كثيراً ، وقصارى القول أنه توج انتصاراته العسكرية بنجاحه في الأعمال الإدارية . ويقول أميانوس إن « شهرته أخذت تنتشر شيئاً فشيئاً حتى عمت جميع بقاع العالم » (٣٥) .

ومع هذا النشاط الجهم في شئون الحكم كان أهم ما يولع به هو الفلسفة ، وكانت غايته التي لم يغفل عنها يوماً ما هي أن يعيد الشعائر الدينية القديمة إلى سابق عهدها . ولكي يحقق هذه الغاية أمر بإصلاح الهياكل الوثنية وفتحها ، ورد ما صودر من أملاكها ، وإعادة ما كان لها من موارد . كذلك بعث بالرسائل إلى كبار الفلاسفة في عهده يدعوهم إلى القدوم إليه ليعيشوا ضيوفاً عليه في بلاطه . ولما أن قدم مكسموس ، وكان يوليان يلقى خطبة في مجلس الشيوخ ، قطع خطبته ، وجرى بأسرع ما يستطيع ليحيي أستاذه ، وقدمه إلى المجلس ، وأثنى عليه الثناء المستطاب ، وعبر له عن شكره واعترافه بفضله . واغتنم مكسموس تحميس الإمبراطور فارتدى أحسن الثياب ، وعاش عيشة الترف حتي أثار حوله الريب ، ولما أن مات يوليان حوسب حساباً عسيراً على الوسائل التي جمع بها تلك الثروة الطائلة في هذا الوقت القصير (٣٦) . لكن يوليان لم يكن يلقى بالاً إلى الملتناقضات التي بدت في حياة الرجل لأن حب الفلسفة قد ملك عليه كل تفكيره . ولهذا

لم يصرفه عنها أى نقص فى سلوك الفلاسفة . . وقد كتب فى ذلك إلى يومنيوس يقول : « إذا جاءك أحد من الناس ليقنعك بأن ثمة شيئاً أعظم نفعاً للجنس البشرى من دراسة الفلسفة على مهل ومن غير أن يعوقه عن دراستها عائق ، فاعلم أنه مخدوع يريد أن يخدعك » (٣٧) .

وكان مولعاً بالكتب ، يحمل معه مكتبته فى تحروبه ، وقد وسع دار الكتب التى أنشأها قسطنطين ، وأنشأ غيرها من الدور . وكتب فى ذلك يقول : « من الناس من هو مولع بالخليل ، ومنهم من هو مولع بالطير أو بالوحوش البرية ؛ أما أنا فقد كنت منذ نعومة أظفارى مولعاً أشد الواقع باقتناء الكتب » (٣٨) . وكان يفخر بأنه مؤلف وحاكم سياسى معاً ، فصرف غير قليل من جهده فى تبرير خطته السياسية بمحاورات على طريقة لوشيان Lncian ، أو خطب من طراز خطب لبانيوس ، أو رسائل لاتكاد تقل سحراً وطرافة عن رسائل شيشرون ، أو مقالات فلسفية طوال . وقد شرح عقيدته الوثنية الجديدة فى « ترنيمة لابن ملك » ؛ وأوضح فى مقاله « ضد أهل الجليل » الأسباب التى من أجلها ارتد عن المسيحية ، وكتب فى مقال له من النقد العالى يقول إن الأناجيل يناقض بعضها بعضاً ، وإن أهم ما تتفق فيه هو أنها أبعد ما تكون عن العقل ؛ فإنجيل يوحنا يختلف كل الاختلاف عن الثلاثة الأناجيل الأخرى فى روايتها وفيما تحتويه من أصول الدين ، وقصة الخلق التى جاءت فى سفر التكوين تفترض تعدد الآلهة .

« فإذا لم تكن كل قصة من هذه القصص (الواردة فى سفر التكوين) أسطورة لا أكثر ، وإذا لم يكن لها ، كما أعتقد بحق ، تفسير يخفى على الناس ، فهى مليئة بالتجديف فى حق الله . ذلك أنها تمثله ، أول ما تمثله ، جاهلاً بأن التى خلقها لتكون عوناً لآدم ستكون سبب سقوطه . ثم تمثله ثانياً إلهاً حقوداً حسوداً إلى أقصى الحقد والحسد ، وذلك بما تعزوه إليه من أنه يأبى على الإنسان أن يعرف الخير والشر) وهى دون غيرها المعرفة التى تؤلف بن عناصر

العقل البشرى وتجعله وحدة متناسقة) ، وأنه يخشى أن يصبح الإنسان مخلداً إذا طعم من شجرة الحياة . ولم يكن إلهكم غيوراً حسوداً إلى هذا الحد فيأخذ الأبناء بذنوب الآباء ؟ ... ولم يغضب الإله العظيم ذلك الغضب الشديد على الشياطين والملائكة والآدميين ؟ ألا فوازنوا بين سلوكه وسلوك أليقورغ نفسه والرومان أنفسهم إزاء من يخرجون على القوانين . يضاف إلى هذا أن العهد القديم يقر التضحية الحيوانية ويتطلبها كما تقرها وتتطلبها الوثنية) ... ولم لا تقبلون الشريعة التي نزلها الله على اليهود ؟ ... تقولون إن الشريعة الأولى ... كانت مقصورة على زمان ومكان معينين ، ولكن في وسعي أن أنقل إليكم من أسفار موسى عشرات الآلاف - لا العشرات فقط - من الفقرات التي تقول إن الشريعة نزلت لي عمل بها في جميع الأزمان (٣٩) »

ولما أراد يوايان أن يعيد الوثنية وجد أنها لا تناقض بعضها بعضاً في العقائد والعبادات فحسب ، بل أنها فوق ذلك تحتوى في جميع أجزائها من المعجزات والأساطير التي لا يقبلها العقل أكثر مما تحتويه المسيحية ، وأدرك من ثم أنه ما من دين يأمل أن يستميل إليه النفس البشرية - العادية - ويحركها إلا إذا جلع على مبادئه الأخلاقية غلالة من خوارق العادات ، والقصص والطقوس التي تبهر العقول . ولشد ما تأثر بقديم الأساطير وبانتشارها بين أعم العالم أجمع . ومن أقواله في هذا : « إن الإنسان لعاجز عن أن يعرف متى اخترعت الأساطير أول الأمر ... عجزه عن أن يعرف من هو أول رجل عطس (٤٠) ، ولهذا كله أسلم نفسه لدراسة الأساطير ، ولم ير عيباً في أن تستخدم في غرس المبادئ الأخلاقية الفاضلة في عقول غير المتعلمين (٤١) ، ولم يستنكف هو نفسه أن يكرر قصة سيبيلا Cybele ، وكيف جيء بالأم العظمى في صورة حجر أسود من فريجيا إلى رومة ، وليس في مقدور أى إنسان يقرأ قصته أن يظن أنه يشك في ألوهية الحجر ، أو في قدرته على أن يستحيل أما عظمى . ولقد تبين شدة الحاجة إلى الرموز الحسية لتقل إلى الناس

المبادئ الروحية . وكان يعد العبادة المثراسية للشمس ديناً يحل عند عامة الشعب محل إجلال الفلاسفة للعقل والاستنارة . ولم يكن عسيراً على هذا المليك — الشاعر أن يكتب ترنيمة هليوس الملك ، الشمس مصدر الحياة كلها ، وواهب النعم التي لا تحصى للخلق . ويقول إن هذا هو الكلمة المقدسة التي خلقت العالم والتي هي الآن سنده ودعامته ؛ وقد أضاف يوليان إلى هذا المبدأ الأسمى والعلة الأولى ، في الأديان الوثنية القديمة من أرباب وجن يخطئهم . الحصر ، وكان يظن أن الفيلسوف المتسامح لا يجد حرجاً من قبولهم بقضهم وقضيتهم .

وإننا لنخطئ إذا صورنا يوليان في صورة الرجل الحر التفكير الذي يستبدل العقل بالأساطير ؛ ذلك أنه كان يشنع بالكفر ويعدده من الحيوانية (٤٢) ، ويعلم الناس مبادئ لا تقل بعداً عن الأمور الطبيعية المعقولة عما نجده في أي دين من الأديان ؛ وقلما كتب إنسان من السخف مثل ما كتب يوليان في ترنيمة للشمس ؛ وقد قبل التثليث الذي تقول به الأفلاطونية الحديثة ، وقال إن الأفكار الخلاقة الأولى التي يقول بها أفلاطون هي بعينها عقل الله ؛ وكان يرى أنها هي الحكمة التي صنعت كل شيء ، وينظر إلى عالم المادة والجسم كأنه عقبة من فعل الشيطان يضعها في طريق الفضيلة المؤدى إلى تحرير الروح السجينة ؛ وفي اعتقاده أن النفس البشرية ، إذا ما سلكت طريق التقى والصلاح والفلسفة ، قد تتحرر من سجنها هذا وتسمو إلى آفاق التفكير في الحقائق والشرائع الروحية ، وتندمج بهذا في الحكمة الإلهية ، بل ربما اندمجت في الله الأزلى نفسه . ولم تكن أرباب الشرك الكثيرة ، في اعتقاد يوليان ، لإقوى غير شخصية ؛ كما أنه لم يكن في وسعه أن يؤمن بها في صورها المجسدة البشرية كما يؤمن عامة الناس ، ولكنه كان يعرف أن الناس قلما تسمو بهم أفكارهم إلى التجريدات التي تسمو إليها عقول الفلاسفة ، أو إلى الرؤى الصوفية التي يراها القديسيون ؛ وكان يمارس الشعائر القديمة في السر والعلن ، وبلغ ما ضحى به من الحيوانات للآلهة من

الكثرة جداً جعل المعجبين به أنفسهم يغضون أبصارهم حياء من هذه المجازر^(٤٣) . وكان في أثناء حروبه ضد الفرس يستشير مهابط الوحي ، ويتفائل ويتطير كما كان يفعل القواد الرومان ، ويعنى أشد العناية بالاستماع إلى تفسير الأحلام ، ويبدو أنه كان يؤمن بسحر مكسموس .

وكان يرى كما يرى كل مصلح أن العالم في حاجة إلى تجديد من الناحية الأخلاقية ؛ ولكي يصل إلى هذه الغاية لم يقصر همه على سن القوانين الخارجية بل سعى إلى أن يتقرب عن طريق الدين إلى قلوب الناس وسرائرهم . وقد تأثر أشد التأثر بطقوس إليوسيز وإفسوس الرمزية ، وكان يرى أنه ليس ثمة طقوس أصلح منها لأن تبعث في قلوب الناس حياة جديدة أنبل من حياتهم السابقة ، ويأمل أن المراسم المتبعة مع من يريد الاندماج في أصحاب هذه الطقوس وفي رسامتهم يمكن أن تتسع فتتعدى القلة الأرستقراطية إلى طائفة كبيرة من الشعب . ويحدثنا ليبانيوس أنه « كان يفضل أن يسمى قساً من أن يسمى إمبراطوراً^(٤٤) » . وكان يحسد السلطة الكهنوتية المسيحية ، على نظمها الحسنة وعلى إخلاص قساوستها ونسائها ، وروح المساواة التي تسود المصلين والمتعبدين في كنائسها ، والصدقات التي تؤلف بين قلوب أهل ذلك الدين وتستميل نفوسهم إليه . ولم يكن يترفع عن أن يأخذ خبر ما في الدين الذي يرجو أن يقوض أركانه ويستبدل به غيره ، وقد أدخل عناصر جديدة في الكهانة الوثنية ، ونظم كنيسة وثنية وضع نفسه على رأسها ، وألح على من دونه من الكهنة أن يجادلوا رجال الدين المسيحيين ويتفوقوا عليهم في تعليم الشعب ، وتوزيع الصدقات على الفقراء ، وفي استضافة الغرباء ، وفي ضرب أحسن الأمثلة للناس في التقى والصلاح^(٤٥) . وقد أنشأ في كل مدينة مدارس تلقى فيها المحاضرات في الدين الوثني وتعرض فيها مبادئه . وكان يكتب لكهننته الوثنيين كما كتب من بعده القديس فرنسيس لأتباعه من الرهبان فيقول :

« عاملوني بما تظنون أني سأعاملكم به ، ودعونا نتعاهد فيما بيننا على أن أبين

لكم آرائى فى جميع شئونكم ، وأن تفعلوا أنتم معى فى مقابل هذا نفس العمل فيما يختص بأقوالى وأعمالى ، وفى اعتقادى أن ليس ثمة شىء أعظم قيمة من تبادل الرأى على هذا النحو^(٤٦) ومن واجبنا أن نقسم مآلنا مع الناس جميعاً ، وعلى الأخص مع الصالحين ، والضعفاء والفقراء . وأصار حكم القول ، وإن بدا لكم أن فى قولى هذا تناقضاً ، إن من الأعمال الدالة على التقى والصلاح أن نقسم ثيابنا وطعامنا مع الأشرار ؛ ذلك أننا حين نعطى إنما نعطى الإنسانية الممثلة فى الناس ، ولا نعطى خلقه طيبين كانوا أو خبيثين^(٤٧) .

والحق أن هذا الرجل الوثنى كان مسيحياً فى كل شىء عدا عقيدته ؛ ونحن إذا ما قرأنا ما كتبه ، وغضضنا النظر عن أساطيره المجردة من الحياة ، خيل إلينا أنه مدين بكثير من تطورات خلقه إلى المبادئ الأخلاقية المسيحية التى لُقِّبَها فى طفولته وشبابه المبكر . فكيف كان مسلكه إذن إزاء الدين الذى ربى فى أحضانه ؟ لقد ترك للمسيحية كامل خريتها فى الوعظ ، والعبادة ، وممارسة جميع شعائرها ، وأعاد الأساقفة المستمسكين بدينهم القويم ، والذين تفاهم قنسطنطينوس . لكنه منع عن الكنيسة المسيحية ما كانت تقدمه لها الدولة من إعانات مالية ، وحرّم على المسيحيين أن يشغلوا كراسى البلاغة ، والفلسفة ، والأدب فى الجامعات ، وكانت حجته فى ذلك أن هذه الموضوعات لا يمكن أن تجد مدرسين يعطفون عليها إلا من بين الوثنيين^(٤٨) ؛ ووضع حداً لإعفاء رجال الدين المسيحيين من الضرائب وغيرها من الفروض المدنية المرهقة ، ولحق القساوسة فى أن ينتفعوا من غير أجر بالمزايا والتسهيلات المخولة للموظفين العموميين . كذلك حرّم الوصية بالمال للكنائس ، كما حرّم المناصب الحكومية على المسيحيين^(٤٩) ، وأمر الجامعات المسيحية فى كل بيعة أن يعوضوا الهياكل الوثنية تعويضاً كاملاً عما أنزلوه بها من الأضرار فى أثناء حكم الأباطرة السابقين ؛ وأجاز هدم الكنائس المسيحية المقامة على الأراضى التى اغتصبت ظلماً وعدواناً من المزارات والأضرحة الوثنية . ولما أن

وقع الاضطراب والظلم والشغب نتيجة لهذا المنطق المتهور حاول يوليان إن يرد الأذى عن المسيحيين ، ولكنه أبى أن يلغى ما سنه من القوانين . ولقد أظهر قدرته على السخرية التي قلما تليق بفيلسوف مثله ، حين ذكر بعض المسيحيين الذين وقع عليهم العدوان بأن « كتابهم المقدس يهيب بهم أن يصبروا على الأذى »^(٥٨) وعوقب المسيحيون الذين ردوا على هذه القوانين بالعنف أو الإهانات عقاباً صارماً ، أما الوثنيون الذين لجأوا إلى الإهانة في معاملتهم للمسيحيين فقد عوملوا باللين^(٥٩) . من ذلك أن العامة من الوثنيين أهل الإسكندرية كانوا يحقدون أشد الحقد على جورج ، الأسقف الأريوسي الذي اغتصب كرسي أثناسيوس ، لأنه أثار حفيظتهم بموكب عام سخر فيه من الطقوس المراسية ، فقبضوا عليه ومزقوا جسمه إرباً ، ومع أن المسيحيين ، إلا قلة منهم لا تستحق الذكر ، لم يهتموا بالدفاع عنه ، فقد قتل أو جرح كثيرون من المسيحيين فيما صحب هذه الفتنة من اضطراب (٣٦٢) ، وأراد يوليان أن يعاقب من أحدثوا الشغب ، ولكن مستشاريه أقنعوه بأن يكتب بإرسال خطاب احتجاج شديد إلى أهل الإسكندرية . وفي هذا الوقت خرج أثناسيوس من مخبئه واستعاد كرسي أسقفية ، ولكن يوليان أنكر عليه هذا العمل قائلاً إنه لم يؤخذ فيه رأيه ، وأمر أثناسيوس أن يعتزل منصبه . وصدع الأسقف الشيخ بالأمر ، ولكن الإمبراطور توفي في السنة التالية ، وعاد البطرق رمز أهل الجليل المنتصرين إلى كرسيه ، ولبث فيه إلى أن مات في الثمانين من عمره ، بعد عشر سنين من ذلك الوقت ، مثقلاً بمظاهر الشرف ومشحناً بالجراح .

وكان اندفاع يوليان ومثابرتة الشديدة على تنفيذ منهجه سبباً في إخفاقه آخر الأمر . ذلك أن من أساء إليهم كانوا يقاومونه بإصرار ومعاندة ، ومن اجتباهم لم يستجيبوا له في حماسة . ومرد هذا أن الوثنية كانت قد ماتت من الناحية الروحية ، ولم يبق فيها ما يجدد شبابها ، أو يواسيها في أحزانها ، أو يبعث في

أهلها الأمل في الدار الآخرة ، نعم إن بعض الناس قد اعتنقوها في تلك الأيام الأخيرة ، ولكن معظمهم لم يفعلوا ذلك إلا لما كانوا ينتظرون أن ينالوه من المطامع السياسية أو الذهب الإمبراطوري . كذلك عادت بعض المدن إلى تقديم القرابين الرسمية ، ولكنها كانت تؤدي بهذا ثمن ما تناله من العطف عليها والعناية بمصالحها . وقد اضطر يوليان في *Pessinus* نفسها ، وهي بيت سييل ، أن يرشو أهلها لكي يعظموا الأم العظمى . وقام كثير من الوثنيين يفسرون الوثنية بأنها مراعاة الذمة والضمير في انتهاب الملذات ؛ وساءهم أن يجدوا يوليان أكثر تزمناً من المسيح ، فقد كان هذا الرجل الحر في التفكير أتقى رجل في الدولة ، وكان أصدقائه أنفسهم يجدون من أصعب الأشياء عليهم أن يجاروه في ورعه ، ومنهم من كانوا متشككة يسخرون سرّاً من أربابه الذين ولي زمانهم ومن الذبائح التي كان يستعطف بها أولئك الأرباب . ذلك أن عادة التضحية بالحيوان على المذابح كانت قد ماتت أو كادت تموت في الشرق ، وفي كل ما عدا رومة من بلاد الغرب ، وشرع الناس ينظرون إليها على أنها عمل يجلل صاحبه العار ، أو أنها في القليل طعام يشترك في أكله الناس . وكان يوليان يسمى حركته هذه « الهلينية » ، ولكن هذه التسمية قد اشمأزت منها نفوس الوثنيين الطليان ، الذين كانوا يحتقرون كل شيء يوناني غير ميت . وكان يفرط في الاعتماد على الجدل الفلسفي الذي لم يصل في يوم من الأيام إلى أن يكون الأساس العاطفي للدين ؛ كذلك لم يكن أحد يفهم مؤلفاته إلا الفئة المتعلمة ، التي كان تعليمها يحول بينها وبين قبول ما في هذه المؤلفات من الأفكار ، ولم تكن عقائده إلا توفيقاً مصطنعاً بين متناقضات ، وكانت خالية من الجذور التي تمتد إلى آمال الناس أو خيالهم . ولقد لاحت بوادر إخفاقه حتى قبل وفاته ، ولم يستنكف الجيش الذي أحبه وحزن عليه أن يرشح مسيحياً ليخلفه على العرش .

الفصل الخامس

خاتمة المطاف

وكان حلمه الأخير العظيم أن يفعل ما فعله الإسكندر وتراجان: فيرفع العلم الروماني على العواصم الفارسية ، ويقضي القضاء النهائي على الخطر الفارسي الذي كان يهدد أمن الدولة الرومانية وسلامتها . وللاصول إلى هذه الغاية عني أعظم عناية بتنظيم الجيش ، وباختيار ضباطه ، وترميم الحصون المشيدة على التخوم وخزن المؤن في المدن القائمة على طريق نصره . فلما تم له ذلك جاء إلى أنطاكية في خريف عام ٣٦٢ ، وجمع فيها جنوده ؛ واغتم تجار المدينة احتشاد الجند فيها فرفعوا أسعار الحاجيات ، وشكا الناس قائلين « إن كل شيء موفور ولكن كل شيء غالي الثمن » . فما كان من يوليان إلا أن استدعى إليه رؤساء الأعمال الاقتصادية وأخذ ينصحهم بالحد من مكاسبهم ، فوعده بذلك ولكنهم لم يوفوا بوعدهم ؛ فلما يئس منهم « حدد ثمناً عادلاً لكل سلعة وأعلنه للناس جميعاً » ، ثم عمل على استيراد أربعمئة ألف مودْيوس (*) من القمح من بلدان سوريا ومصر (٥٢) واحتج التجار بأن الأثمان التي حددها لم تترك لهم شيئاً من الأرباح ، وابتاعوا في الخفاء القمح المستورد ، ونقلوه هو وبضاعتهم إلى مدن أخرى ، ووجدت أنطاكية نفسها تزخر بالنقود وتفتقر إلى الطعام . وسرعان ما قام العامة ينددون بيوليان لتدخله في هذه الشؤون ، وأخذ الفكهون يسخرون من لحيته ومن انهاكه في خدمة الآلهة الأموات . ورد عليهم يوليان بنشرة أصدرها سماها « نكاره اللحم » (Misopogon) حوت من الفكاهة والمتعة ما لا يتفق مع مقام إمبراطور . فقد اعتذر في سخرية عن لحيته ، وعنف أهل أنطاكية على وقاحتهم ،

(*) تعادل نحو ١٨٣٦٠ أردبا مصرياً . (المترجم)

وطيشهم ، وإسرافهم ، وفساد أخلاقهم ، واستخفافهم بالله اليونان ، وكانت الحديقة الشهيرة المعروفة باسم دافني Daphne ، والتي كانت من قبل مزاراً مقدساً لأپلو ، قد حولت إلى مكان للهو والتسلية ، فأصدر يوليان أمره أن يمنع اللهو منها وأن تعود مزاراً مقدساً كما كانت من قبل ؛ وما كاد هذا العمل يتم حتى ألهمتها النيران ؛ وظن يوليان أن الحريق من فعل المسيحيين فأغلق كنيسة أنطاكية ، وصادر أملاكها ، وعذب كثيرين من الشهود ، وقتل أحد القساوسة^(٥٢) . ولم يجد الإمبراطور أنطاكية سلاوى إلا « وليمة العقل » التي اجتمع فيها بليبانيوسن .

وأخيراً تآهب الجيش للنزول إلى الميدان ، وبدأ يوليان الحرب في شهر مارس من عام ٣٦٣ ، فسار على رأس جيوشه وعبر نهر الفرات ، ثم نهر دجلة ، وطارد الفرس المتقهقرين ، واكنه لاقى الأمرين ، وكاد يلقى الهزيمة من جراء « إجداب الأرض » وهي الخطة التي اتبعها الفرس وأرادوا بها إحراق جميع المحصولات في كل جزء يخلونه من البلاد ، حتى كان جنود يوليان يموتون من الجوع مرة بعد مرة . وقد أظهر الإمبراطور في هذه الحروب المضنية أحسن ما اتصف به من خلال ، فكان يشارك جنوده كل ما يعترضهم من صعاب ، ويكتفى مثلهم بالقليل وبأقل من القليل ويسير مثلهم على قدميه في القميص ، ويخوض مجارى المياه ، ويحارب في الصفوف الأولى في جميع المعارك . وكان من بين الأسرى فارسيات ذوات جمال في نضرة الشباب ، ولكنه لم يقتحم عليهن خلوتهن ، ولم يسمح لإنسان أن يمس بأذى شرفهن . وتقدم الجنود تحت قيادته القديرة حتى طرّقوا أبواب طشقونة Ctesiphon ، وضربوا عليها الحصار ، ولكنهم اضطروا إلى الارتداد عنها لعجزهم عن الحصول على الطعام . واختار شابور الثانى رجلين من أشرف الفرس وجدع أنفيهما وأمرهما أن يذهبا إلى يوليان ويدعيا أنهما قد فرا من عند الملك لقسوته عليهما واعتدائه الصارخ على كرامتهما ، ثم يقودانه هو وجيشه إلى صحراء جدباء . وفعل الرجلان ما أمرا به ، وصدقهما يوليان وسار خلفهما هو

وجيشه مسافة عشرين ميلا حتى وجد نفسه في صحراء جددباء لا ماء فيها ولا نبات ، وبينما كان يحاول إنقاذ رجاله من هذا الفخ الذى نصب له هاجمته قوة من الفرس ، ولكنه صد هجومها وردّها على أعقابها ، وفر الفرس لا يلوون على شيء . وكان يوليان في مقدمة المطاردين غير عابئ بأنه ليس على جسمه دروع ، فأصابته حربة في جنبه نفذت إلى كبده ، فسقط عن ظهر جواده وحمل إلى خيمة ، وأنذره طبيبه بأنه لن تطول حياته أكثر من بضع ساعات . ويقول ليبيانيوس إن الذى رماه بالحربة رجل مسيحي ، ومما هو جدير بالذكر أن أحداً من الفرس لم يطالب بالمكافأة التى وعدها شابور من يقتل الإمبراطور . ومن المسيحيين من يؤيد رواية ليبيانيوس ويثني على القاتل « الذى أقدم على هذا العمل الجريء حباً فى الله وفى الدين »^(٥٤) ، ومن هؤلاء سوزومين Sozomen . وكانت الساعة الأخيرة من حياة يوليان خليفة بتقاليد سقراط وسنكا ، وقد وصفها أميانوس فقال : إن يوليان وهو مسيحي فى خيمته خاطب رفاقه المحزونين الذين ملك الأسى قلوبهم بقوله : « أيها الأصدقاء ، إن هذه الساعة لى أنسب الأوقات التى أغادر فيها هذه الحياة ، وأردّها إلى الطبيعة بعد أن طلبت ردها إليها » . . . وبكى جميع الحاضرين فلامهم على بكائهم محتفظاً حتى فى تلك الساعة بسلطانه عليهم ، وقال لهم إنه لا يليق بهم أن يحزنوا من أجل زعيم دعى للاتحاد بالسماء وبالنجوم . ولما أن أسكنهم بقوله هذا دخل مع الفيلسوفين مكسيموس وبرسكوس فى حوار دقيق عن شرف النفس ونبلها . وفى أثناء هذا النقاش اتسع الجرح الذى فى جانبه فجاءة ، وحال ضغط الدم المتدفق بينه وبين التنفس ؛ وبعد أن تناول جرعة من الماء البارد طلبها إلى الحاضرين أسلم الروح وكان فى الثانية والثلاثين من عمره^(٥٥) (*) .

(*) وقد ذكرت القصة القائلة بأنه صاح عند موته : « غلبت يا جليل » لأول مرة فى كتاب ثيودريت Theodoret المؤرخ الموسيقى من رجال القرن الخامس ، ولكن العلماء الآن مجمعون على رفضها ويعدها مجرد خرافة^(٥٦) .

كان الجيش لا يزال معرضاً للخطر وفي حاجة إلى قائد ، فاختار زعماءه جوفيان Jovian قائد الحرس الإمبراطوري . وعقد الإمبراطور الجديد الصلح مع فارس ، بأن رد إليها أربعا من الولايات الخمس التي انتزعها منها دقلديانوس منذ سبعين عاماً . ولم يضطهد جوفيان إنساناً ، ولكنه لم يلبث أن حول تأييده من الهياكل الوثنية إلى الكنيسة المسيحية . واحتفل مسيحيو أنطاكية بموت الإمبراطور الوثني احتفالاً عاماً أظهروا فيه الفرح والابتهاج (٥٧) ، وإن كان زعماء المسيحيين المتتصرين كانوا في معظم الأحوال يحضون جماعات المصلين أن يكونوا كراماً ، وأن ينسوا ما أصاب المسيحية من أذى (٥٨) . وانقضت بعد ذلك أحد عشر قرناً قبل أن تشهد المسيحية يوماً آخر كهذا اليوم .

الباب الثاني

انتصار البرابرة

٣٢٥ - ٤٧٦

الفصل الأول

التخوم المهددة

لم تكن بلاد الفرس إلا قطاعاً من تخوم يباغ طولها عشرة آلاف ميل. تتعرض فيها الإمبراطورية الرومانية المؤلفة من مائة أمة مختلفة للغزو في أية نقطة وفي أية ساعة على أيدي قبائل لم تفسدها الحضارة ، ولكنها تطمع في ثمارها . وكان الفرس وحدهم مشكلة مستعصية على الحل ، فقد كانوا يزدادون قوة لا ضعفاً ؛ ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى استعادوا كل ما كان دارا الأول يبسط عليه سلطانه قبل ألف عام من ذلك الوقت - إلا قليلاً منه . وكان في غرب بلادهم العرب ، ومعظمهم من البدو الفقراء ؛ ولو أن إنساناً في ذلك الوقت قد قال إن أولئك الأقوام الرحل الواجمن قد كتب لهم أن يستولوا على نصف الإمبراطورية الرومانية وعلى بلاد الفرس كلها لسخر من قوله هذا أحكم الساسة وأنفذهم بصيرة . وكان في جنوب الولايات الرومانية الإفريقية الأحباش ، واللوبيون ، والبربر ، والنوميديون ، والمغاربة ، وكان هؤلاء كلهم يتربصون بالإمبراطورية الدوائر ، وينتظرون على أحر من الجمر تداعى الحصون الإمبراطورية أو قوى البلاد المعنوية . ولاح أن أسبانيا ستظل رومانية آمنة من الغزو وراء جبالها المنيعه وبحارها التي لا يستطيع المغيرون اجتيازها ؛ ولم يكن أحد يظن أنها

ستصبح في هذا القرن الرابع ألمانية ، وفي القرن الثامن بلاداً إسلامية . أما غالتة فقد كانت وقتئذ تفوق إيطاليا اعتزازاً برومانيتها ، كما تفوقها في النظام وفي الثراء ، وفي الآداب اللاتينية من شعر ونثر ؛ ولكنها كان عليها في كل جيل أن تدفع عن نفسها غارات النيوتون الذين كانت نساوهم أعظم خصباً من حقولهم . ولم يكن في وسع الدولة الرومانية أن تستغنى إلا عن حامية قليلة لتدفع بها عن بريطانيا غارات الاسكتلنديين والبيكتيين من الغرب والشمال ؛ وغارات أهل الشمال والقراصنة السكسون من الشرق أو الجنوب ؛ فقد كانت شواطئ النرويج بجميع أجزائها معششاً لهؤلاء القراصنة ، وكان أهلها يرون الحرب أقل مشقة من حرث الأرض ، ويعتقدون أن الإغارة على السواحل الأجنبية عملاً شريفاً لدوى البطون الخاوية وفي أيام الفراغ . ويدعى القوط أن موطنهم الأول هو جنوبي السويد وجزائرها الصغرى ، ولا يبعد أن يكون ذلك الموطن هو الإقليم المحيط بنهر القستيو لا Vistula ؛ ولكنهم أياً كان موطنهم انتشروا باسم القوط الغربيين نحو نهر الدانوب الجنوب ، واستقروا باسم القوط الشرقيين بين نهرى الدنيستر Dniester والدن Don . وفي قلب أوربا — الذى تحده أنهار القستيو لا والدانوب ، والرين — كانت تجول قبائل قدر لها أن تغير خريطة أوربا وتبدل أسماء أممها ؛ هى قبائل الثورننجيين Thuringians ، والبرغنديين ، والإنجليز ، والسكسون ، واليوت ، والفريزيين Frisians ، والجيبيديين Gipedae ، والكوادي Quadi ، والوندال ، والألماني ، والسويبي Suevi ، واللمبارد ، والفرنجة . ولم يكن للإمبراطورية كلها — عدا بريطانيا — أسوار تصد تيار هذه الأجناس ، وكل ما كان لها من هذا القبيل هو حصون أو حاميات في أماكن متفرقة على طول الطرق البرية أو مجارى الأنهار التى كانت في أطراف الدولة الرومانية . وكانت تفوق البلاد الخارجية عن حدود الدولة الرومانية في نسبة مواليدها ، وتفوقها هى على هذه البلاد في مستوى معيشة أهلها ، مما جعل الهجرة

إليها أو الإغارة عليها قضاء محتوماً لا مفر لها منه في ذلك الوقت ، كما أنهما الآن قضاء محتوم على أمريكا الشمالية .

ولعل من واجبنا أن نعدل بعض التعديل تلك الرواية التي تصنف تلك القبائل الألمانية بأنها قبائل متبربرة . نعم إن اليونان والرومان حين أطلقوا على أولئك الأقوام لفظ برابرة barbari لم يكونوا يقصدون بذلك الثناء عليهم ، وأكبر الظن أن هذا اللفظ يقابل لفظ ثرثارا varavar في اللغة السنسكريتية ، ومعناه اللفظ الجاف ، غير المثقف^(١) ؛ وهو شديد الصلة أيضاً بلفظ بربر berber ؛ ولكن اتصال الألمان مدى خمسة قرون بالجزيرة الرومانية عن طريق التجارة والحرب كان لا بد أن يترك فيهم أثراً قوياً ؛ وقبل أن يحل القرن الرابع بزم من طويل كانوا قد تعلموا الكتابة وأقاموا لهم حكومة ذات قوانين ثابتة . وكانت مبادئهم الأخلاقية من الناحية الجنسية أرقى منها عند الرومان واليونان^(*) إذا استثنينا منهم قبائل الفرنجة المروفنجيين ؛ وكثيراً ما كانوا يفوقون الرومان في الشجاعة ، وكرم الضيافة ، والأمانة ، وإن كانت تعوزهم رقة الحاشية ودمائة الخلق ، وهما الخلتان اللتان يتصف بهما المثقفون . ولسنا ننكر أنهم كانوا قساة القلوب ، ولكنهم لم يكونوا أشد قسوة من الرومان ؛ وأكبر الظن أنهم قد روعهم أن يعرفوا أن الشريعة الرومانية كانت تجيز تعذيب الأحرار لتنزع منهم لشهادات أو الاعترافات^(٢) . وكانت نزعتهم فردية إلى حد الفوضى ، على حين أن الرومان كانوا في الوقت الذي نتحدث عنه قد رُوّضوا على حسن المعاشرة

(*) وعمدنا في هذا أيضاً هو تاسيتوس Tacitus صاحب النزعة الأخلاقية (في كتابه جرمانيا ص ١٨ - ١٩) ، ولكننا نحيل القارئ أيضاً إلى رسالة للأسقف بنيفاس Boniface (حوالى ٧٥٦) يقول فيها : « وكان من عادة الأهلين في سكسونيا القديمة : إذا ارتكبت جريمة الزنا عذراء في بيت أبيها أو امرأة متزوجة تحت حماية زوجها ، أن يحرقوها حية ، أو يخنقوها بيديها ، ويشنقوا من زنى بها فوق قبرها ؛ أو أنهم كانوا يشقون أثوابها حتى وسطها ويسلطون عليها نساء شريقات جاوزن سن الشباب فيضربنها بالسياط ويطمئنها بالسكاكين حتى يقضين عليها »^(٢) . وتلك طريقة شنيعة في التعذيب .

والميل إلى السلم : وكان أهل الطبقات العليا منهم يقدرّون الآداب والفنون بعض التقدير ، وقد اندمج منهم استلكو Stilicho ، ورسمير Ricimer ، وغيرهما من الألمان في الحياة الثقافية العليا التي كانت تسود المجتمعات في رومة ، وكتبوا أدباً لاتينياً أقرسيماكوس Simmachus أنه وجد فيه كثيراً من المتعة . وكان الغزاة بوجه عام — وخاصة القوط — يبلغون من الحضارة درجة تمكنهم من أن يعجبوا بالحضارة الرومانية ويعترفوا أنها أرقى من حضارتهم ، ويسعون لاكتسابها لا لتدميرها ؛ وظلّوا قرنين من الزمان لا يطلبون أكثر من أن يسمح لهم بالدخول في بلاد الإمبراطورية والاستقرار في أراضيها المهملة ، وطالما اشتركوا في الدفاع عنها بجهد ونشاط . ولهذا فإننا إذا ما ظللنا نستخدم لفظ البرابرة في حديثنا عن القبائل الألمانية في القرنين الرابع والخامس ، فلنما نفعل ذلك بحكم العادة التي جعلت هذا اللفظ يجري به القلم ، مع مراعاة هذه التحفظات والاعتذارات السالفة للذكر .

وكانت هذه القبائل التي تكاثرت أفرادها قد دخلت بلاد الإمبراطورية في جنوب نهر الدانوب وجبال الألب بطريق الهجرة السلمية وبدعوة من الأباطرة في بعض الأحيان . وقد بدأ أغسطس هذه السياسة ، فسمح للبرابرة أن يستقروا داخل حدود الإمبراطورية ليعمروا ما خلا من أرضها ، وبسلّوا ما في فيالقها من ثغرات بعد أن عجز الرومان عن تعمير أوليها وسد ثائيتها لقلّة تناسلهم وضعف روحهم العسكرية . وجزى على هذه السنة نفسها أورليوس ، وأورليان ، وبروبوس . وقبل أن ينصرم القرن الرابع كانت كثرة السكان في بلاد البلقان وفي غالة الشرقية من الألمان . وكذلك كان الجيش الروماني ، وكانت مناصب الدولة السياسية منها والعسكرية في أيدي التيوتون . وكانت الإمبراطورية في وقت من الأوقات قد صبغت أولئك الأقوام بالصيغة الرومانية ؛ أما في الوقت الذي نتحدث عنه فإنهم هم الذين بربروا الرومان^(٥) ؛ فقد أخذ الرومان أنفسهم يرتدون

ملابس من الفراء على طراز ملابس البرابرة ، وأخذوا كذلك يرسلون شعورهم مثلهم ؛ ومنهم من لبسوا السراويل ، (البنطلون) ، وأستثاروا بذلك غضب الأباطرة ، فأصدروا في غيظهم مراسيم بتحريم هذه الثياب . (٣٩٧ ، ٤١٦) (٦) . وجاءت القوة التي دفعت هذه القبائل إلى غارتها الكبرى على الإمبراطورية الرومانية من سهول المغول النائية . وتفصيل ذلك أن الزيونج نو Hsiung-nu أو الهيونج - نو Hung-nu أو الهون Hun - وهم فرع من الجنس الطوراني ، كانوا في القرن الثالث الميلادي يحتلون الأصقاع الواقعة في شمال بحيرة بلكاش وبحر آرال . وكانت سحتهم ، كما يتول جردانيس Jordanes هي أقوى أسلحتهم :

فقد كانت ملامحهم الرهيبة تلقى الرعب في قلوب أعدائهم ؛ ولعلمهم هم لم يكونوا أقدر على الحروب من هؤلاء الأعداء . فقد كان أعداؤهم يستولى عليهم الفزع فيفرون من أمامهم لأن وجوههم الكالحة كانت تقذف الرعب في القلوب . . . ولأنهم كانت لهم في مكان الرأس كومة لا شكل لها فيها ثقبان بدل العينين . وهم يقسون على أولادهم من يوم مولدهم ، لأنهم يقطعون خلدود الذكور بالسيف حتى يعودهم تحمل ألم الجروح قبل أن يذوقوا طعم اللبن ، ولهذا فإنهم لا تنبت لهم لحى إذا كبروا وتشوه ندب جروح السيوف وجوههم . وهم قصار القامة ، سريعو الحركة ، خفاف مهرة في ركوب الخيل ، بارعون في استعمال الأقواس والسهم ، عراض الأكتاف صلاب الرقاب ؛ منتصبوا الأجسام على الدوام (٧) .

وكانت الحرب صناعتهم ، ورعاية الماشية رياضتهم و « بلادهم » كما ورد في أحد أمثالهم « هي ظهور خيلهم » (٨) . وتقدم أولئك الأقوام إلى الروسية حوالي عام ٣٥٥ ، مسلحين بالأقواس والسهم ، مزودين بالشجاعة والسرعة ، يدفعهم من خلفهم جذب بلادهم وضغط أعدائهم الشرقيين ، فهزموا في زحفهم قبائل الألاني Alani ، وعبروا نهر الفلجا (٣٧٢ ؟) ، وهاجموا في أكرانيا القوط الشرقيين الذين كادوا أن يصبحوا أقواماً متحضرين . وقاومهم إرمريك

Ermanaric المعمر ملك القوط الشرقيين مقاومة الأبطال ، ولكنه هزم ومات بيده لا يبدأ أعدائه كما يقول بعض المؤرخين . واستسلم بعض القوط الشرقيين وانضوا تحت لواء الهون ، وفر بعضهم متجهين نحو الغرب إلى أراضي القوط الغربيين الواقعة شمال الدانوب . والتقى جيش من القوط الغربيين بالهون الزاحفين عند نهر الدنيستر ، فأوقع به الهون هزيمة منكرة ، وطلب بعض من نجوا من القوط الغربيين إلى ولاية الأمور الرومان في البلاد الواقعة على نهر الدانوب أن يأذنوا لهم بعبور النهر والإقامة في مؤيزيا Moesia وتراقية . وأرسل الإمبراطور فالنز Valens إلى عماله أن يجيبوهم إلى طلبهم على شرط أن يسلموا أسلحتهم ويقدموا شبانهم ليكونوا رهائن عنده . وعبر القوط الغربيون الحدود ، ونهب موظفو الإمبراطورية وجنودها أموالهم غير مباليين بما يجللهم عملهم هذا من عار . واتخذ الرومان الذين افتنوا بناتهم وغلماهم أولئك الغلمان والبنات عبيداً لهم وإماء ، ولكن المهاجرين استطاعوا بفضل الرشا التي نفحوا بها ولاية الأمور الرومان أن يحتفظوا بأسلحتهم . وبيع لهم الطعام بما يباع به في أيام القحط ، فكان القوط الجوع يتناغون شريحة اللحم أو رغيف الخبز بعشرة أرطال من الفضة أو بعبد ، بل إن القوط قد اضطروا في آخر الأمر أن يبيعوا أطفالهم بيع الرقيق لينجوا من الهلاك جوعاً^(٩) . ولما بدت عليهم أمارات التمرد دعا القائد الروماني زعيمهم فرتيجيرن Fritigern إلى وليمة وفي نيته أن يقتله ، ولكن فرتيجيرن نجح وأثار حمية القوط المستيثسين وحرصهم على القتال ، فأخذوا ينهبون ، ويحرقون ، ويقتلون ، حتى أصبحت تراقية كلها تقريباً خراباً يبابا تعاني الأمرين من جوعهم وغيظهم . وأسرع فالنز من بلاد الشرق لملاقاتهم والتحم بهم في سهول هدريانوبل Hadrianople ، ولم يكن معه إلا قوة صغيرة معظم رجالها من البرابرة الذين كانوا في خدمة رومة (٣٧٨) . وكانت النتيجة ، كما يقول أميانوس « أشنع هزيمة حلت بجيوش الرومان منذ واقعة كانى Cannae » التي حدثت قبل ذلك اليوم

بخمسمائة وأربع وتسعين سنة (١٠). وفيها تفوق الفرسان القوط على المشاة الرومان ، وظلت حركات الفرسان وفنونهم العسكرية من ذلك اليوم حتى القرن الرابع عشر هي المسيطرة على فن الحرب الآخذ في الاضمحلال . وهلك في هذه المعركة ثلثا الجيش الروماني ، وأصيب قانز نفسه بجرح بالغ ، وأشعل القوط النار في الكوخ الذي آوى إليه ، ومات الإمبراطور ومن كان معه محترقين بالنار ، وزحفت الجموع المنتصرة على القسطنطينية ، ولكنها عجزت عن اختراق وسائل الدفاع التي أقامتها ومنيكا أرملة قانز . وأخذ القوط الغربيون ، ومن انضم إليهم من القوط الشرقيين والهون الذين عبروا الحدود غير المحمية عند نهر الدانوب ، يعيشون فساداً في بلاد البلقان من البحر الأسود إلى حدود إيطاليا .

الفصل الثاني

الاباطرة المنقذون

٣٦٤ - ٤٠٨

ولم تُتفَر الإمبراطورية في هذه الأزمة من الحكام القادرين : فقد نقل الجيش ومجلس الشيوخ تاج الإمبراطورية إلى قُلَنْتِنِيَان وهو جندي فظمقطوع الصلة بالثقافة اليونانية يذكرنا بقسپازپان . وعين قُلَنْتِنِيَان أخاه الأصغر قَالَنْز ، وافقة مجلس الشيوخ ، أوغسطس وإمبراطوراً على الشرق ، واختار هو لنفسه الغرب الذي كان يبدو وقتئذ أشد خطراً من الشرق . ثم أعاد تحصين حدود إيطاليا وغالة ، وأعاد إلى الجيش قوته ونظامه ، وصعد مرة أخرى الغزاة الألمان إلى ما وراء نهر الرين ، وأصدر من عاصمته ميلان تشريعات مستنيرة حرم فيها على الآباء قتل الأبناء ، وأنشأ الكليات الجامعية ، ووسع نطاق المساعدات الطبية الحكومية في رومة ، وخفض الضرائب ، وأصلح النقد الذي كان قد انخفضت قيمته ، وقاوم الفساد السياسي ، ومنح جميع سكان الإمبراطورية حرية العقيدة والعبادة . وكان لهذا الإمبراطور عيوبه ونقاط ضعفه . من ذلك أنه كان يقسو أشد القسوة على أعدائه ، وإذا جاز لنا أن نصدق سقراط المؤرخ فإنه شرع الزواج باثنتين لكي يجيز لنفسه أن يتزوج چستينا^(١) ، التي غالت زوجته في وصف جمالها له . ومع هذا كله فقد كان موته العاجل (٣٧٥) مأساة كبرى حلت برومة . وخلفه ابنه جراتيان Gratian على عرش الإمبراطورية في الغرب ، وسار فيها سيرة أبيه عاماً أو عامين ، ثم أطلق العنان للهو والصناد ، وذك أزمه الحكم إلى موظفين فاسدين عرضوا جميع المناصب والأحكام للبيع . لهذا خلعه القلائد اكسموس عن العرش وغزا إيطاليا ليحاول تنحية قُلَنْتِنِيَان الثاني خلف

جراتيان وأخيه غير الشقيق عن ولاية الملك ، ولكن ثيودوسيوس الأول الأكبر الإمبراطور الحديد على الشرق زحف غرباً ، وهزم الغاصب ، وثبت الشاب فلننتيان على عرشه في ميلان (٣٨٨) .

وكان ثيودوسيوس من أصل أسباني ، أظهر مواهبه الحربية ومهارته في القيادة في أسبانيا ، وبريطانيا ، وتراقية . وكان قد أقنع القوط المنتصرين بالانضواء تحت لوائه بدل أن يحاربوه ، وحكم الولايات الشرقية بحكمة وروية في كل شيء إلا في عدم تسامحه الديني ؛ فلما تولى الملك روع نصف العالم بما اجتمع فيه من صفات متناقضة هي جمال خلقه ، ومهابته ، وغضبه السريع ورحمته الأسرع ، وتشريعاته الرحيمة ، وتمسكه الصارم بمبادئ الدين القويم . وبينما كان الإمبراطور يقضى الشتاء في ميلان حدث في تسالونيكى (سالونيك) اضطراب كان من خصائص تلك الأيام . وكان سببه أن بثرىك Botheric نائب الإمبراطور في ذلك البلد قد سجن سائق عربية محبوب من أهل المدينة جزاء له على جريمة خلقية فاضحة ، فطلب الأهليون إطلاق سراحه ، وأبى بثرىك أن يجيبهم إلى طلبهم ، وهجم الغوغاء على الحامية وتغلبوا عليها ، وقتلوا الحاكم وأعوانه ومزقوا أجسامهم إرباً ، وطافوا بشوارع المدينة متظاهرين يحملون أشلاءهم دلالة على ما أحرزوه من النصر . ولما وصلت أنباء هذه الفتنة إلى مسامع ثيودوسيوس فاستشاط غضباً وبعث بأوامر سرية تقضى بأن يحل العقاب بجميع سكان تسالونيكى . فدعى أهل المدينة إلى ميدان السباق لمشاهدة الألعاب ، ولما حضروا انقض عليهم الحند المترصدون لهم وقتلوا منهم سبعة آلاف من الرجال والنساء والأطفال ، (٣٩٠) (١٢) . وكان ثيودوسيوس قد بعث بأمر ثان يخفف به أمره الأول ولكنه وصل بعد فوات الفرصة .

وارتاع العالم الرومانى لهذا الانتقام الوحشى وكتب الأسقف أمبروز Ambrose الذى كان يجلس على كرسى ميلان ويصرف منه شئون الأبرشية

الدينية بالحرارة والصلابة الخليقتين بالمسيحية الحققة ، كتب إلى الإمبراطور يقول إنه (أى الأسقف) لا يستطيع بعد ذلك الوقت أن يقيم القداس فى حضرة الإمبراطور إلا إذا كفر ثيودوسيوس عن جرمه هذا أمام الشعب كله . وأبى الإمبراطور أن يحط من كرامة منصبه بهذا الإذلال العلنى وإن كان فى خبيثة نفسه قد ندم على ما فعل ، وحاول أن يدخل الكنيسة ، ولكن أمبروز نفسه سد عليه الطريق ، ولم يجد الإمبراطور بداً من الخضوع بعد أن قضى عدة أسابيع يحاول فيها عبثاً أن يتخلص من هذا المأزق ، فجرد نفسه من جميع شعائر الإمبراطورية ، ودخل الكنيسة دخول التائب الذليل ، وتوسل إلى الله أن يغفر له خطاياہ (٣٩٠) . وكان هذا الحادث نصراً وهزيمة تاريخيين فى الحرب القائمة بين الكنيسة والدولة .

ولما عاد ثيودوسيوس إلى القسطنطينية تبين أن فلننتيان الثانى ، وهو شاب فى العشرين من عمره ، عاجز عن حل المشاكل التى تحيط به . فقد خدعه أعوانه وجمعوا السلطة كلها فى أيديهم المرتشية ، واغتصب أربوجاست Arbogast الفرنجى الوثنى قائد جيشه الم رابط السلطة الإمبراطورية فى غالة ، ولما قدم فلننتيان إلى فين ليؤكد فيها سيادته قتل غيلة (٣٩٢) . ورفع أربوجاست على عرش الغرب تلميذاً وديعاً سلس القيادة يدعى أوجينوس Eugenius وبدأ بعمله هذا سلسلة من البرابرة صانعى الملوك . وكان أوجينوس مسيحياً ، ولكنه كان وثيق الصلة بالأحزاب الوثنية فى إيطاليا إلى حد جعل أمبروز يخشى أن يصبح يولياناً ثانياً . وزحف ثيودوسيوس مرة أخرى نحو الغرب ليعيد إلى تلك الأنحاء السلطة الشرعية ويردها إلى الدين القويم . وكان تحت لوائه جيش من الهون والقوط ، والألانى ، وأهل القوقاز ، وأيبيريا ، وكان من بين قواده جيناس . Gainas القوطى الذى استولى فيما بعد على القسطنطينية ، واستلكو الوندالى الذى دافع فى المستقبل عن رومة ، وألريك القوطى الذى نهبا . ودارت بالقرب من أكويليا معركة

دامت يومين ، هزم فيها أربوجاست وأوجنيوس (٣٩٤) ؛ فأما أوجنيوس فقد ذبح بعد أن أسلمه جنوده ، وأما أربوجاست فقد قتل نفسه بيده . واستدعى ثيودوسيوس ابنه هونوريوس Honorius وهو غلام في الحادية عشرة من عمره ليقمه إمبراطوراً على الغرب ، ورشح ابنه أركاديوس Arcadius البالغ من العمر ثمانى عشرة سنة ليكون إمبراطوراً معه على الشرق ثم مات بعدئذ في ميلان منهوكة من كثرة الحروب (٣٩٥) ولما يتجاوز الخمسين من عمره . وانقسمت بعد موته الإمبراطورية التي طالما وحدها ، ولم يجتمع شملها مرة أخرى بعد ذلك الوقت إلا في فترة قصيرة تحت حكم جستنيان .

وكان ولدا ثيودوسيوس شخصين ضعيفين - مخشين ، درجا في مهد الأمن والدعة الموهن للعزيمة ، فلم يكونا خليقين بأن يوجها سفينة الدولة فيما يحيط بها من عواصف ، وإن كانت أخلاقهما لا تقلان طيبة عن نواياهما ، وسرعان ما أفلت زمام الأمور من أيديهما ، وأسلمت أعمال الدولة الإدارية والسياسية - إلى وزيرهما - إلى روفينوس Rufinus المرتشى الشره في الشرق ، وإلى استلكو القدير المجرد من الضمير في الغرب . ولم يلبث هذا الشريف الوندالي أن زوج ابنته مارية Maria بهونوريوس في عام ٣٩٨ راجياً أن يصبح بهذا الزواج جداً للإمبراطور وصهراً لآخر . ولكن هونوريوس أثبت أنه مجرد من العاطفة تجرده من الفطنة ، فكان يقضى وقته في إطعام الدجاج الإمبراطورى ويحبو هذا الدجاج بحبه وعطفه ، حتى ماتت مارية عذراء بعد أن لبثت زوجة عشر سنين (١٣) .

وكان ثيودوسيوس قد جعل القوط يجنحون إلى السلم باستخدامهم في الحرب ، وبتقديم معونة سنوية من المال لهم بوصفهم حلفاء له ؛ ولكن خافه قطع عنهم هذه المعونة ، ولما جاء استلكو سرح جنوده من القوط ؛ وقام المحاربون المتعطلون يطلبون المال والمغامرات وهياً لهم ألبريك زعيمهم الجديد كليهما واستعان على ذلك

بمهاره بزّ بها الرومان فى الحرب وفى السياسة على السواء ، وقال لأتباعه-
إنه لا يدري كيف يخضع القوطُ ذو الأثفة والرجولة ويعملون أجراء-
عند الرومان أو اليونان الضعفاء المهوكين ، بدل أن يعتمدوا على بسالتهم
وقوة سواعدهم فيقتطعوا من الإمبراطورية المتداعية المحتضرة مملكة لهم ؟
وقاد أريك فى السنة التى مات فيها ثيودوسيوس قوط تراقية كلهم تقريباً
وزحف بهم على بلاد اليونان ، واجتاز بحر ترموبلى دون أن يلقى مقاومة ،
وذبح كل من لقي فى طريقه من الرجال الذين فى سن العسكرية ، وسبى
النساء ، وخرب بلاد البلوطينز ، ودمر هيكل دمر فى إليوسيز ، ولم يبق
على أثينة إلا بعد أن افتدت نفسها بقدية استندت معظم ثروتها غير العقارية
(٣٩٦) . وجاء استلكو لينقلها ولكنه وصل إليها بعد فوات الفرصة ،
فاستدرج القوط إلى موقع غير حصين ، ولكن ثورة شبت فى إفريقية
اضطرتّه إلى أن يعقد معهم هدنة عاد بعدها إلى الغرب . ثم وقع أريك
ميثاق حلف مع أركاديوس أجاز فيه ثانيهما للأول أن يستقر أتباعه من
القوط فى إبيروس ، وبسط السلم لواءه بعدئذ على الإمبراطورية أربع سنين .
وفى هذه السنين الأربع ألقى سينييسيوس القورينى ، وهو أسقف
نصف مسيحى وفيلسوف نصف وثنى ، خطاباً فى القسطنطينية أمام حاشية
أركاديوس المترفة وصف فيها فى وضوح وقوة المشكلة التى تواجهها رومة
وبلاد اليونان التى لا بد لها أن تختار فيها واحدة من اثنتين . وكان مما
قاله فى هذه الخطبة : كيف تستطيع الإمبراطورية البقاء إذا ظل أهلها
يتهربون من الخدمة العسكرية ، ويكبلون الدفاع عنها إلى الجنود المرتزقة ،
تجندهم من الأمم التى تهدد كيائها ؟ وعرض على ولاة الأمور أن يضعوا
حداً للترف والنعيم ، وأن يجيشوا جيشاً من أهل البلاد بالتطوع أو التجنيد-
الإجبارى يدافع عنها وعن حريتها ، وأهاب بأركاديوس وهونوريوس
أن ينفضا عنهما غبار الحمول وأن يوجها ضربة قاصمة إلى جموع البرابرة
الوقحين الذين فى داخل الإمبراطورية ، وأن يردّوهم إلى مرابضهم

وراء البحر الأسود ونهرى الدانوب والرين . وصفق رجال الحاشية إعجاباً بما حواه خطاب سينيسيوس من عبارات منمقة بليغة ، ثم عادوا من فورهم إلى ولائهم^(١٤) . وكان أليك في هذه الأثناء يرغم صناع الأسلحة في أپروس على أن يصنعوا لرجال القوط كل ما هم في حاجة إليه من الخراب والسيوف والخوذ والدروع .

وفي عام ٤٠١ غزا إيطاليا ، بعد أن نهب كل ما مر به في طريقه من البلاد ، وهرع آلاف من اللاجئين إلى ميلان ورافنا ، ثم فروا منها إلى رومة . واحتفى الزراع في داخل المدن المسورة ، وجمع الأغنياء كل ما استطاعوا نقله من ثروتهم ، وحاولوا وهم في شدة الذعر أن يعبروا البحر إلى كورسكا ، وسردينية ، وصقلية . وجرد استلكو ولايات الدولة من حامياتها ليجمع منها جيشاً يستطيع صد تيار القوط الجارف ، وانقض به عليهم في پولنتيا Pollentia في صباح يوم عيد القيامة من عام ٤٠٢ حين وقفوا أعمال النهب ليؤدوا الصلاة . ونشبت بين الجيشين معركة لم تكن فاصلة ، ارتد على أثرها أليك إلى رومة التي لم تكن فيها من يدافع عنها ، ولم يغادر إيطاليا إلا بعد أن نفحه هونوريوس برشوة سخية .

وكان الإمبراطور الوجل قد فكر أثناء زحف أليك على ميلان أن ينقل عاصمته إلى غالة ، أما الآن فقد أخذ يبحث له عن مكان آخر أعظم منها أمناً ، فوجد ذلك المكان في رافنا ، التي تجعلها المناقع والبحيرات الضحلة ، منيعة من البر ، والشواطىء الرقراقة مستعصية على العدو من جهة البحر . ولكن العاصمة الجديدة أخذت ترتجف من الخوف كالعاصمة القديمة حين زحف رديجيوس Radagaisus البربرى بجيش تبلغ عدته مائتى ألف مقاتل من الألاني ، والكوادي ، والقوط الشرقيين ، والوندال ، وعبر بهم جبال الألب ، وهاجم مدينة فلورنتيا الناشئة . وفي هذه الساعة العصيبة برهن استلكو مرة أخرى على براعته في القيادة ، فهزم الجحفل المختلط بجيش أقل منه عدداً ، وساق رديجيوس مكبلاً بالأغلال أمام هونوريوس . وتنفست إيطاليا المصعداء مرة أخرى ، وعادت

حاشية الإمبراطور ، من أشرف وأميرات ، وأساقفة ، وخصيان ، وطيور
داجنة وقواد إلى ما ألفتة من ترف ، وفساد ، ودسائس .

وكان أولمبيوس وزير الإمبراطور ، يغار من استلكو ويرتاب في نواياه .
فقد ساءه أن يتغاضى القائد العظيم ، كما بدا له ، عن هرب أليك المرة بعد
المرة . وخيل إليه أنه قد كشف ما بين القائد الألماني والغزاة الألمان من عطف

كامن . واحتج على الرشا التي نفح بها أليك أو وعد بها بناء على طلب
استلكو . وتردد هونوريوس في إقصاء الرجل الذي لبث ثلاثة وعشرين عاماً
يقود جيوش رومة من نصر إلى نصر ، والذي أنجى الغرب مما كان يهدده
من أخطار ؛ فلما أن أقنعه أولمبيوس بأن استلكو ياتربه ليجلس ابنه هو
على العرش ، وافق الشاب الوجل على قتل قائده ، وأرسل أولمبيوس من
فوره سرية من الجند لينفذوا قرار الإمبراطور . وأراد أصدقاء استلكو أن
يقاوموا ولكنه أمرهم ألا يفعلوا ومد رقبتة للسياف (٤٠٨) .

وبعد بضعة أشهر من هذا الحادث عاد أليك إلى إيطاليا .

الفصل الثالث

ما كان يحدث في إيطاليا

كانت الدولة الرومانية الغربية في أواخر القرن الرابع تطالعنا بصورة معقدة مركبة من الانتعاش والاضمحلال ، ومن النشاط والعقم الأدبي ، ومن الأبهة السياسية والانحلال العسكري . وكانت غالة في هذه الأثناء تزدهر ويعمها الرخاء ، وتنازع إيطاليا سيادتها في جميع الميادين ؛ فقد كان عدد الغاليين في الإمبراطورية عشرين مليوناً أو يزيدون من سكانها الذين يقربون من سبعين مليوناً ، في حين أن الإيطاليين لا يكادون يبلغون ستة ملايين (١٥) ؛ وأما من عدا هؤلاء وأولئك فكانت كثرتهم من الشرقيين الذين يتكلمون اللغة اليونانية . وقد استحوالت رومة نفسها منذ بداية القرن الثاني بعد الميلاد مدينة شرقية من حيث الأجناس التي تسكنها . لقد كانت رومة من قبل تعتمد في حياتها على الشرق كما كانت أوربا الحديثة تعتمد في حياتها على فتوحها ومستعمراتها إلى أواسط القرن العشرين ؛ وكانت الفيالق الرومانية تستحوذ على غلات ولاياتها التي تزيد على عشر ، وتنزع منها معادنها الثمينة التي كانت تنساب في قصور الظاهرين وخزائنهم . أما في الوقت الذي نتحدث عنه فقد انقضى عهد الفتوح وبدأ عهد التقهقر والتراجع ، واضطرت إيطاليا إلى الاعتماد على مواردها البشرية والمادية التي اضمحلت اضمحلالاً يندر بأشد الأخطار من جراء تحديد النسل ، والقحط والوباء ، والضرائب الفادحة ، والإتلاف والحرب . ولم تزدهر الصناعة يوماً ما في شبه الجزيرة الطفيلية ؛ والآن وقد أخذت تفقد أسواقها في الشرق وفي غالة ، لم يعد في وسعها أن تعول سكان المدن الذين كانوا يحصلون على الكفاف من العيش بالكدح في الحوانيت وفي البيوت . وكانت الكليچيا Collegia أو نقابات أصحاب الحرف تعاني الأمرين.

من جراء عجز أفرادها عن بيع أصواتهم في دولة ملكية مطلقة كان التصويت فيها نادراً . وكسدت التجارة الداخلية ، وانتشر قطاع الطرق ، وأخذت الطرق التي كانت من قبل مضرب الأمثال في العظمة تضمحل وتتحطم وإن ظلت وقتئذ أحسن من أى طريق في العالم كله قبل القرن التاسع عشر . وكانت الطبقات الوسطى قبل ذلك الوقت عماد حياة المدن في إيطاليا ؛ أما الآن فقد ضعفت هي الأخرى من جراء الانحلال الاقتصادي والاستغلال المالي ؛ فقد كان كل ذى مال يخضع لضرائب مطردة الزيادة لإعالة بيروقراطية آخذة في الاتساع ، أهم ما تقوم به من الأعمال هو جباية الضرائب . وكان الهجاءون الفكهون حين يشكون من هذه الحال يقولون إن « الذين يعيشون على الأموال العامة أكثر عدداً من الذين يمدونهم بهذه الأموال » (١٦) .

وكانت الرشا تستنفد الكثير مما يجبي من الضرائب ؛ وسن ألف قانون وقانون لمقاومة اختلاس إيرادات الحكومة أو أملاكها ، والكشف عن هذه الاختلاسات ومعاقبة مرتكبيها ، وكان الكثيرون من الجباة يفرضون على البسطاء أكثر مما يجب أن يؤدوه ، ويحتفظون بالزيادة لأنفسهم ؛ وكان في وسعهم في مقابل هذا أن يخففوا الضرائب عن الأغنياء نظر جعل يأخذونه منهم (١٧) .

وكان الأباطرة يبذلون غاية جهدهم لكي تراعى الأمانة في جبايتها ؛ من ذلك أن فلنتيان الثانى عين في كل بلدة موظفاً يسمى « المدافع عن المدينة » ليحمى أهلها من حيل الجباة ، وأعنى هو نوريوس المدن التي كانت تعاني الأزمات المالية مما كان متأخراً عليها من الضرائب . ومع هذا فإن بعض سكان المدن — إذا صدقنا قول سلفيان Salvian — كانوا يفرون إلى خارج الحدود ليعيشوا تحت حكم الملوك البرابرة الذين لم يتعلموا بعد فن جباية الضرائب كاملاً ، فقد بدا لهم أن عمال الخزانة أشد رهبة من العدو » (١٨) . وكان من أثر هذه الظروف أن قلت الرغبة في النسل فأخذ عدد السكان في النقصان ، وبقيت آلاف الأفدنة من الأراضي

الصالحة للزراعة بوراً لا تجد من يفلحها ، فنشأ من ذلك فراغ اقتصادى .
اجتمع إلى ما بقى فى المدن من ثروة فادى إلى اجتذاب البرابرة الذين كانوا
فى أشد الحاجة إلى تملك الأرض . ووجد كثيرون من أصحاب الأراضى
الزراعية أنهم عاجزون عن أداء الضرائب أو الدفاع عن مساكنهم ضد
الغزاة أو اللصوص ، فتخلوا عن أملاكهم لمن هم أكبر منهم من الملاك
أو أعظم قوة ، وعملوا عندهم زراعاً (Coloni) ، وأخذوا على أنفسهم أن
يقدموا لسادتهم قدرأ معيناً من غلة الأرض ومن العمل والوقت ، على أن
يضمن لهم أولئك السادة ما يكفيهم من العيش ، ويحموهم فى وقتى السلم
والحرب . وبهذا كانت إيطاليا ، التى لم تعرف فيما بعد الإقطاع بمعناه
الكامل ، من أوائل الأمم التى أعدت أسس هذا الإقطاع . وكانت خطة
شبيهة بهذه تحدث فى مصر وإفريقية وغالة .

وكان الاسترقاق آخذاً فى الزوال على مهل ، وسبب ذلك ألا شىء
فى الحضارة الراقية يعدل أجر الرجل الحر أو مرتبه أو مكسبه من حيث هو
دافع اقتصادى للعمل والإنتاج . ولم يكن كدح الأرقاء مجزياً من هذه
الناحية إلا حين يكثُر عددهم ؛ وكانت أعباء الاحتفاظ بهم قليلة ؛ ولكن
نفقات الحصول عليهم زادت حين لم تعد الفيالق الرومانية تنقل إلى بلادها
ثمار النصر من الآدميين ؛ يضاف إلى هذا أن فرار الأرقاء من سادتهم أصبح
الآن أمراً يسيراً بسبب ضعف الحكومة ؛ هذا إلى أنه كان لابد من العناية
بهم إذا مرضوا أو تقدمت بهم السن . ولما أن زادت تكاليف الأرقاء رأى
سادتهم أن يحافظوا على الأموال التى استثمروها فيهم بحسن معاملتهم لهم ؛
ولكن أولئك الأسياد كان لا يزال لهم على عبيدهم حق الحياة والموت ،
وإن كان هذا الحق مقيداً ببعض القيود^(١٩) ، كما كان فى مقدور
السيد أن يستعين بالقانون للقبض على العبد الآبق ، وأن يشبع شهوته الجنسية
مع من يهوى منهم رجالاً كانوا أو نساء ؛ وهل أدل على هذا من أن
بولينوس البلاثى Paulinus of Pella كان يفخر بطهارة ذيله فى شبابه

حين « كبرت جراح شهواتي . . . فلم أستجب لعشق امرأة حرة . . .
واكتفيت بالإماء اللاتي كن في بيتي » (٢٠) .

وكان معظم الأغنياء يعيشون الآن في بيوتهم الريفية بمنجاة من ضجيج
المدن وغوغائها ، غير أن الجزء الأكبر من ثروة إيطاليا كان لا يزال
ينصب في رومة ؛ ولم تكن المدينة العظيمة ، كما كانت من قبل ، عاصمة
الدولة ، وقلما كانت ترى الإمبراطوار ، ولكنها ظلت مركز الحياة
الاجتماعية والذهنية في الغرب . وفي رومة كانت أعلى درجات الطبقة
الأرستقراطية الإيطالية الجديدة . ولم تكن هذه ، كما كانت من قبل ،
طبقة وراثية ، بل كانت طائفة يختارها الأباطرة بين الفينة والفينة على
أساس الملكية العقارية . وكان أعضاء مجلس الشيوخ يعيشون بأعظم مظاهر
الآبهة والفخامة وإن كان مجلسهم قد فقد بعض هيئته وكثيراً من سلطانه .
وكانوا يشغلون بعض المناصب الإدارية الهامة ويظهرون فيها كثيراً من
المقدرة والكفاية ، وقيمون الألعاب العامة على نفقتهم الخاصة . وكانت
بيوتهم غاصة بالخدم مملوءة بالأثاث الغالي الثمن ، وليس أدل على ذلك من
أن طنفسة واحد قد كلفت صاحبها ما قيمته أربعائة ألف ريال أمريكي (٢١) .
وتكشف رسائل سيماكوس Symmacus وسيدنيوس Sidonius . كما
يكشف شعر كلوديان عن الناحية الطيبة من حياة أولئك الأشراف الجدد ،
وما تمتاز به من نشاط اجتماعي وثقافي ، وخدمة للدولة وولاء لها ، وما كان
بينهم من صداقة ورقة ، وإخلاص متبادل بينهم وبين أزواجهم ، وحب
لأبنائهم وعطف عليهم .

لكن قسماً من مرسلية عاش في القرن الخامس قد صور الحالة في إيطاليا وغالة
بصورة أقل جاذبية من الصورة السابقة . فقد عالج سلفيان Salvian في كتابه
« عن حكومة الله » (حوالي ٤٥٠) نفس المشكلة التي أوحى إلى أوغسطين
بكتابه « مدينة الله » وإلى أورسيوس Arosius بكتابه « التاريخ ضد الوثنيين » .
— وهي كيف استطاع التوفيق بين الشرور الناجمة من غزوات البرابرة وبين

«العناية الإلهية الرحيمة الخيرة ؟ وقد أجاب سلقيان عن هذا السؤال بأن الآلام التي يقاسيها سكان الإمبراطورية إن هي إلا قصاص عادل لما كان متفشيًا في العالم الروماني من استغلال اقتصادي ، وفساد سياسي ، واستهتار أخلاقي ؛ ويؤكد لنا أنا لا نستطيع أن نجد بين البرابرة مثل ما نجده بين الرومان من ظلم الأغنياء للفقراء ، لأن قاوب البرابرة أرق من قلوب الرومان ؛ ولو أن الفقراء وجدوا وسيلة للانتقال لهاجروا بقضهم وقضيضهم ليعيشوا تحت حكم البرابرة (٢٢) . ويواصل هذا الواعظ الأخلاقي وصفه فيقول إن الأغنياء والفقراء ، والوثنيين والمسيحيين ، في داخل الإمبراطورية كلهم غارقون في حمأة من الفساد لا يكاد التاريخ يعرف لها مثيلاً ؛ فالزنى ، وشرب الخمر قد أصبحت من الرذائل المألوفة في هذه الأيام ، كما أصبحت الفضيلة والاعتدال مثار السخرية ومبعث الآلاف من الفكاهات القذرة ؛ وصار اسم المسيح لفظاً تدنسه أفواه الذين يسمونه إلهاً (٢٣) . ويمضي هذا التاستس Tacitus الثاني (*) فيدعونا إلى أن ننظر إلى الفرق بين هذا كله وبين ما يتصف به الألمان من قوة وشجاعة ، ومن مسيحية مليئة بالتقى خالية من التعقيد ، ومن لين في معاملتهم للرومان المغلوبين ، ومن ولاء متبادل بينهم ، ومن عفة قبل الزواج ، ووفاء بعده . لقد ذهل جيسريك Gaiseric الزعيم الوندالي إذ وجد حين استولى على قرطاجنة المسيحية أنه لا يكاد يخلو ركن فيها من بيت للدعارة ، فما كان منه إلا أن أغلق هذه المواخير وخير العاهرات بين الزواج والنفي . وجملة القول أن العالم الروماني سائر إلى الانحطاط جسمياً ، وقد فقد كل ما كان يتصف به من شجاعة أدبية ، وترك الدفاع عنه إلى الأجانب المأجورين . ويختتم سلقيان هذا الوصف بقوله إن الإمبراطورية الرومانية « إما أن تكون قدمات وإما أنها تلفظ آخر أنفاسها » ؛ وإذا كنا نراها في ذروة ترفها وألعابها ، فإنها تضحك حين تموت Moritur et ridet (٢٤) .

(*) أي الذي ينحو منحى تاستس في تهجه . (المترجم)

تلك صورة مروعة ، ظاهر فيها الغلو ، لأن البلاغة قلما تصبحها الدقة ، وما من شك في أن الفضيلة قد توارت حياء في ذلك الوقت كما تتوارى الآن ، وأفسحت الطريق للرديلة ، والبؤس ، والسياسة ، والجريمة . ويرسم أوغسطين صورة لا تقل عن هذه الصورة قتاما يهدف بها إلى مثل هذه الغاية الأخلاقية ؛ فهو يشكو من أن الكنائس كثيراً ما تخلو من المصلين لأن البنات الراقصات في دور التمثيل يجتذبن الناس منها بما يعرضنه من فتنهن السافرة (٢٥).

وكانت الألعاب العامة لا تزال تشهد قتل الأسرى والمجرمين ليستمتع الناس بهذه المناظر البشعة في أعيادهم . وفي وسعنا أن نتصور ما في هذه المناظر من قسوة حين نقرأ ما يقوله سيماكوس من أنه أنفق ما قيمته ٢٠٠ ر ٩٠٠ ريال أمريكي في إقامة حفلة واحدة ، ومن أن المجالدين السكسون التسعة والعشرين الذين وقع الاختيار عليهم ليقاتلوا في المجتلد قد فوتوا عليه غرضه بأن خنقوا بعضهم بعضاً فانتحروا جميعاً قبل أن تبدأ الألعاب (٢٦). وكان لرمة في القرن الرابع ١٧٥ عيداً في العام ، منها عشرة تقام فيها مباريات المجالدين ، وأربعة وستون تعرض فيها ألعاب الوحوش ، وما بقي منها بعد ذلك تعرض فيه مناظر في دور التمثيل (٢٧). واغتتم البرابرة فرصة ولع الرومان بهذه المعارك الزائفة فانقضوا على قرطاجنة ، وأنطاكية ، وترير Trier حين كان الأهليون منهمكين في مشاهدتها في المدرجات أو حليات التقتال الوحوش (٢٨). وحدث في عام ٤٠٤ أن أقيمت في رومة ألعاب للمجالدين احتشالا بذكرى انتصار استملكو في پولنتيا نصراً مشكوكاً فيه . وحين بدأ الدم يراق قفز راهب شرقي يدعى تلمكس Telemachus من مقاعد النظارة إلى المجتلد ونادى بوقف القتال . ولكن النظارة استشاطوا غضباً فأخذوا يرمونه بالحجارة حتى قتلوه ؛ وأثر هذا المنظر في الإمبراطور هونوريوس فأصدر مرسوماً بإلغاء

ألعاب المجالدين(*) . أما السباق فقد بقي حتى عام ٥٤٩ حين قضى عليه استنزاف الحروب القوطية لثروة المدن .

أما من الناحية الثقافية فلم تشهد رومة منذ أيام پلنى وتاستوس عصرًا نشطت فيه الثقافة مثل ما نشطت في ذلك الوقت . لقد كان كل إنسان مولعًا بالموسيقى حتى لقد شكى أميانوس^(٢٩) من أنها قد حلت محل الفلسفة . وأنها قد « تحولت دور الكتب إلى مقابر » ؛ وهو يصف لنا أراغن مائة ضخمة ، وقيثارات في حجم المركبات . وكانت المدارس كثيرة العدد ، ويقول سيماكوس إن كل إنسان كان يجد الفرصة سانحة لتنمية ملكاته^(٣٠) . وكانت « جامعات » الأسانذة الذين تؤدى لهم الدولة رواتبهم تعلم النحو ، والبلاغة ، والأدب ، والفلسفة لطلاب جاءوا إليها من جميع الولايات الغربية ، وذلك في الوقت الذى كان فيه البرابرة المحيطون بالدولة يدرسون فنون الحرب . إن كل حضارة ثمرة من ثمار شجرة الهمجية الصلبة وهى تسقط حين تسقط . عند أبعد نقطة من جزع هذه الشجرة .

وجاء إلى المدينة التى يبلغ عدد سكانها مليوناً من الأنفس حوالى عام ٣٦٥ يونانى سورى ، كريم المعتقد ، وسيم الخلق ، يدعى أميانوس مرسيلينوس الأنطاكى . وكان من قبل جندياً تحت قيادة أرسينوس Ursinus فى أرض الجزيرة ، واشترك بنشاط فى حروب قنسطنطيوس ويوليان ، وچوقيان . وقد عاش هذا الرجل عيشة الجهد والعمل قبل أن يشتغل بالكتابة . ولما عاد السلام إلى ربوع الشرق ارتحل إلى رومة وأخذ على عاتقه إتمام العمل الذى بدأه ليثى وتاستوس ، وذلك بكتابة تاريخ الإمبراطورية من عهد نيفا إلى عهد فالنز . وكتب بلغة لاتينية عسيرة معقدة ، تشبه اللغة الفرنسية إذا ما كتبها ألماني ؛ وكان من أسباب هذا العسر والتعقيد فى

(*) و مرجعنا الوحيد فى هذا هو « التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica » (فى المجلد العشرين) تأليف ثيودريت الأنطاكى . وقد تكون هذه القصة من الأكاذيب التى توحي بها التقوى للمؤرخين .

كتابات كثره ما قرأه من كتابات تاستوس وطول الزمن الذى كان يتكلم فيه اللغة اليونانية . وكان هذا الرجل وثيقاً سافراً ، من المعجبين بيوليان ، ومن الذين يزدرون الترف الذى كان يعزوه إلى أساقفة رومة ؛ ولكنه رغم هذا كله كان بوجه عام منزها عن الهوى فيما كتب ، يمتدح كثيراً من فضائل المسيحية ، ويلوم يوليان على تقييده الحرية العلمية ، ويقول إن هذا خطأ يجب « أن يقضى عليه بالسكوت الأبدى » (٣١) . وكان قد حصل من العلم أقصى ما يسمح وقت الجندى له بتحصيله . وكان يؤمن بالشياطين والسحر ، ويقتبس من شيشرون أكبر المعارضين للقدرة على معرفة الغيب ما يؤيد به هذه العقيدة (٣٢) . ولكنه كان إلى حد كبير رجلاً شريفاً لا يداجى ولا يجامل ، عادلاً مع جميع الداس وجميع الأحزاب ؛ « لا أزين قصتي بالألفاظ الخداعة ، أمين على الحقائق إلى أبعد حدود الأمانة » (٣٣) . وكان يكره الظلم ، والبذخ ، والمظاهر الكاذبة ، ويجهر برأيه فيها أينما وجدت ؛ وكان آخر المؤرخين اليونان والرومان الأقدمين ، وكان كل من جاء بعده فى العالم اللاتينى مجرد إخبارين ..

لكن مكروبيوس Macerobius قد وجد فى هذه المدينة نفسها ، أى فى رومة ، التى كانت أخلاقها فى نظر أميانوس وضيفة متعاطمة فاسدة ، مجتمعاً من الناس ، يحملون ثراءهم باللاطف والكراسة ، والثقافة ، ومحبة الناس . وكان مكروبيوس هذا فى أول الأمر من رجال العلم مولعاً بالكتب وبالحياة الهادئة ، لكننا نجده فى عام ٣٩٩ يعمل مبعوثاً للإمبراطور فى أسبانيا . وقد أصبح تعليقه على كتاب شيشرون المسمى « أحلام سيبو » الوسيلة التى انتقل بها تصوف الأفلاطونية الجديدة وفلسفتها إلى عامة الشعب . وخير كتبه على الإطلاق هو كتاب الساترناليا Saturnalia أو عيد زحل الذى لا يكاد كتاب تاريخى فى الخمسة عشر قرناً الأخيرة يخلو من مقتبسات منه . وهو مجموعة من (غرائب الأدب) أورد فيه المؤلف ما حصله من معلومات غير متجانسة فى أيام جده ودراسته ،

ولياليه الطوال التي قضها ينقب في بطون الأسفار . وقد تفوق في كتاباته على ألويس جليوس Oulus Gellius في الوقت الذي كان يسطو عليه ، ذلك بأنه صاغ المادة التي أخذها عنه في صورة حوار خيالي بين رجال حقيقيين هم بريثكستاتوس Proetextatus وسيماخوس Symmachus ، وفلاقيان ، وسرفيوس وغيرهم ممن اجتمعوا ليحتفلوا بعيد الساترناليا بالخمر الطيب ، والطعام الشهى ، والنقاش العلمي . وألقيت في هذا النقاش على الطبيب ديزاريوس Disarius أسئلة علمية منها : هل الطعام البسيط خير من الطعام المتعدد الألوان ؟ ولم يندر أن ترى امرأة سكرى ؟ ولم يسكر المسنون من الرجال على الدوام ؟ هل طبيعة الرجال أقل أو أكثر حرارة من طبيعة النساء ؟ . ويدور النقاش حول التقويم ، وفيه تحليل طويل لألفاظ قرجيل ، ونحوه ، وأسلوبه ، وفلسفته ، وسرقاته ؛ وفيه فكاهات مأخوذة من جميع العصور ؛ ورسالة عن الولاثم الدسمة ، والأطعمة الناذرة . وتبحث في المساء مسائل أخف من هذه يتسلى بها هؤلاء العلماء منها : لم تحمر وجوهنا من الخجل وتصفّر من الخوف ؟ — ولم يبدأ الصلع من أعلى الرأس ؟ وأيهما أسبق من الآخر الفرخ أو البيضة ؟

ونجد في مواضع متفرقة من هذا الخليط المهوش فقرات سامية كالتى يتحدث فيها بريثكستاتوس عن الرق فيقول :

لن أقدر الناس بمراكزهم بل بأدابهم وأخلاقهم ، لأن الثانية ثمرة طباعتنا أما الأولى فهي نتيجة الصدفة . . وينبغي لك يا إفنجيلوس أن تبحث عن أصدقائك في منزلك لا في السوق العامة ولا في مجلس الشيوخ . عامل عبدك بالرفق والحسنى ، وأشركه في حديثك ، وأدخله أحياناً في مجالسك الخاصة . وقد عمل أبائنا على محو الكبرياء من نفس السيد والخجل من نفس العبد بأن سموا الأول « والد الأسرة » وسموا الثانى « أحد أفراد الأسرة » وإن عبيدنا يُبادرون إلى احترامك أكثر من مبادرتهم إلى خوفك (٣٥) .

وكانت ندوة شبيهة بهذه الندوة هي التي رحبت في عام ٣٩٤ بأن ينضم إليها شاعر شاعت الأقدار أن يتغنى بمجد رومة في ساعة احتضارها . ولد كلودبوس كلوديانوس Claudius Claudianus كما ولد أميانوس ، في بلاد الشرق ، وكانت لغته الأصلية هي اللغة اليونانية . ولكنه تعلم اللاتينية بلا ريب في حداثة سنه ، لأنه كان يكتب بها بأسلوب سلس . وبعد أن أقام في رومة زمناً قصيراً نرح إلى ميلان ، واستطاع أن يجد له مكاناً في أركان حرب استلكو ، ثم صار شاعراً غير رسمي لبلاط الإمبراطور هو نوريوس ، وتزوج سيدة ذات ثراء من أسرة شريفة . وكان كلوديوس يترقب أن تواتيه الفرصة الكبرى ولا يجب أن يموت وهو حامل الذكر . ولذلك كان يمدح استلكو بقصائد عصماء ويهاجم أعداءه بقصائد أخرى حوت أقذع الألفاظ . وعاد إلى رومة في عام ٤٠٠ ولقى منها أعظم آيات الشكر والترحاب حين مدح المدينة الخالدة في قصيدة « عن قنصلية استلكو » لا تقل روعة عن قصائد فرجيل نفسه :

أيا قنصل الناس جميعاً ، ويا من تضارع الآلهة في المنزلة ، وأنت حامى المدينة التي لا تدانيها مدينة يحيط بها الهواء الذي على سطح الأرض ، ولا تبلغ مداها العين ، ولا يتصور جمالها الخيال ، ولا يوفيهما صوت مهما علا حقها من الثناء . إنها ترفع هامتها الذهبية تحت ما جاورها من النجوم ، وتحاكي بتلالها السبعة السبع السموات العلى . هي أم الحيوش والشرائع التي عنت لجبروتها الأرض بأجمعها وكانت أقدم مهد للعدالة على ظهر الأرض . تلك هي المدينة التي نشأت نشأة متواضعة ، ولكنها امتدت إلى القطبين وبسطت سلطانها من مكانها الصغير حتى بلغ مداه منتهى ما يصل إليه نسياء الشمس . . . فهي دون غيرها من البلاد قد فتحت صدرها لاستقبال من غلبتهم على أمرهم ، وعامت الجنس البشرى معاملة الأم الرؤوم لامعاملة الحاكم المتغطرس ، فحمته وخلعت عليه اسمها ، ودعت من هزمتهم إلى مشاركتها في حقوق المواطنة ، وربطت الشعوب البعيدة برباط

المحبة . وبفضل حكمها السامى أصبح العالم كله وطناً لنا ، نعيش فيه أينما شئنا ، وأصبح فى مقدورنا أن نزور ثول Thule ونرتاد براريها التى كانت من قبل تقذف الرعب فى القلوب ، والتى أصبح ارتيادها الآن نزهة هينة ، وبفضلها يستطيع كل من أراد أن يشرب من مياه الرون ويعب من مجرى نهر العاصى ، وبفضلها صرنا كلنا شعباً واحداً (٣٦) .

وأراد مجلس الشيوخ أن يعبر لكلوديوس عن شكره واعترافه بفضلها فأقام فى سوق تراچان تمثالاً « لأجل الشعراء » الذى جمع بين سلاسة قرچيل ، وقوة هومر . وقضى كلوديان بعض الوقت يقرض الشعر فى موضوعات تدر عليه المال ، ثم وجه مواهبه وجهة أخرى فأنشأ قصيدته « اغتصاب برسپرين Brosperine » وقص فيها القصة القديمة وصور البر والبحر وأسبغ على تلك الصورة من رقيق النغم ما يعيد إلى الذاكرة روايات الحب اليونانية فى العصر الذى ظهرت فيه أول مرة . وبلغه فى عام ٤٠٨ أن استلكو قد قتل غيلة ، وأن الكثيرين من أصدقاء هذا القائد قد قبض عليهم وأعدموا . واختفى الرجل بعدئذ من ميدان التاريخ فلم نعرف باقى قصته .

وبقيت فى رومة . كما بقيت فى الإسكندرية أقليات وثنية كبيرة العدد ، وكان فيها حتى نهاية القرن الرابع سبعمائة هيكل وثنى (٣٧) . ويبدو أن جوفيان وقلنتيان الأول لم يغلقا الهياكل التى فتحتها يوليان ، فظل القساوسة الرومان حتى عام ٣٩٤ يجتمعون فى مجامعهم المقدسة ، وظلت أعياد اللوېركاليا يحتفل بها بكل ما فيها من شعائر نصف همجية ، كما ظلت الطريق المقدسة تتردد فيها بين الفينة والفينة أصدااء خوار الأثوار التى تساق للضحية .

وكان أعظم الناس إجلالاً بين الوثنيين فى رومة فى أيامها الأخيرة هو فتيوس پريتكستانوس ، زعيم الأقلية الوثنية فى مجلس الشيوخ . وكان الناس جميعاً يعترفون بفضلائه — باستقامته ، وعلمه ، ووطنيته ، وحياته العائلية اللطيفة . ومن

الناس من يقول إنه يماثل كاتو وسنسناطوس Cincinnatus ؛ ولكن الزمان يذكر أكثر منه صديقه سيماخوس (٣٤٥ — ٤١٠) ، الذى ترسم رسائله صورة رائعة ساحرة للأرسقراطية التى كانت تظن نفسها مخلدة وهى تختضر . وحتى أسرته نفسها قد بدت أنها من المخلدين : فقد كان جده قنصلا فى عام ٣٦٤ ، وكان هو نفسه حاكماً فى عام ٣٨٤ ، وقنصلا فى عام ٣٩١ . وكان ابنه پريتورا ، وحفيده قنصلا فى عام ٤٨٥ بعد وفاة جده ، وكان اثنان من أحفاد أحفاده قنصلين فى عام ٥٢٢ . وكان سودا نروة طائلة ؛ فقد كانت له ثلاثة قصور ريفية بالقرب من رومة ، وسبعة أخرى فى لانيوم ، وخمسة على خليج نابلى ، فضلا عن قصور أخرى مثلها فى أماكن أخرى من إيطاليا ؛ وبفضل هذه القصور « كان فى وسعه أن يسافر من أقصى شبه الجزيرة إلى أقصاها ثم يأوى إلى منزله فى كل مكان يحل به (٣٨) » . ولا يذكر لنا التاريخ أن أحداً من الناس كان يحسده على ثرته ، لأنه كان ينفق منها بسخاء وينميها بحياة الدرس ، والخدمة العامة ، والأخلاق الفاضلة ، وأعمال البر والإنسانية ، التى لا تعرف فيها شماله ما تفعل يمينه . وكان من أصدقائه الأوفياء مسيحيون ووثنيون ، وبرابرة ورومان . ولعله كان يضع وثنيته قس وطنيته ؛ فقد كان يظن أن الثقافة التى يمثلها ويستمتع بها وثيقة الصلة بالدين القديم ، وكان يخشى أن يؤدى سقوط أيهما إلى سقوط كليهما . ويعتقد أن المواطن بإخلاصه للشعائر القديمة يحس أنه حلقة فى سلسلة مترابطة متصلة أعجب اتصال — تمتد من رميولوس إلى فلنتيان ، وأن هذا الإخلاص يبعث فى نفسه حب المدينة وحب الحضارة التى نشأت بفضل الأجيال المتعاقبة خلال ألف عام . وقد استحق كونتوس أورليوس سيماخوس بفضل خلاله الطيبة أن يختاره مواطنوه ممثلاً لهم فى آخر كفاحهم الرائع فى سبيل آلهتهم .

وقد استطاع أمبروز أن يجعل الإمبراطور جراتيان مسيحياً متحمساً لدينه ، وأغراه تحمسه للدين القديم أن يعلن على الملأ أن العقيدة النيقية فريضة واجبة

« على جميع الشعوب الخاضعة لحكمنا الرحيم » ، وأن أتباع غيرها من العقائد « مفتونون مسلوبو العقول » (٣٩) ، وفي عام ٣٨٢ أمر ألا تؤدي خزانة الإمبراطورية أو خزائن البلديات أية إعانات لإقامة الاحتفالات الوثنية ، أو للعداري القسسية أو الكهنة الوثنيين ، ثم صادر الأراضى التى تملكها الهياكل ، وجماعات الكهنة ، وأمر أتباعه بأن يرفعوا من قاعة مجلس الشيوخ فى رومة تمثال إله النصر الذى أقامه فيها أغسطس فى عام ٢٩ ق . م ، والذى ظل اثنا عشر جيلا من الشيوخ يقسمون بين يديه يمين الولاء للإمبراطور ؛ وانتدب مجلس الشيوخ وفدا برياسة سيماخوس يشرح لجراتيان قضية تمثال النصر هذا ، ولكن جراتيان أبى أن يستقبل الوفد ، وأمر يبنى سيماخوس من رومة (٣٨٢) ؛ وفى عام ٣٨٣ قتل جراتيان وبعث هذا الأمل فى مجلس الشيوخ فأرسل وفداً إلى خليفته على العرش ؛ وكانت الخطبة التى ألقاها سيماخوس بين يدي فلنتيان الثانى آية من آيات الدفاع البليغ ، وكان مما قاله فيها إنه ليس من الحكمة فى شيء أن يقضى هذا القضاء العاجل المفاجئ على شعائر دينية ظلت طوال ألف عام مرتبطة أشد الارتباط باستقرار النظام الاجتماعى وبهيبة الدولة ، ثم قال : « ماذا يهمنا ، فى آخر الأمر ، أى طريق يسلكه إنسان ليصل به إلى الحقيقة ؟ والحق أن فى وسع الناس أن يصلوا إلى معرفة هذا السر العظيم من طريق واحد » (٤٠) .

وتأث فلنتيان الشاب بهذا القول ، ويقول أمبروز إن من كان فى المجلس الإمبراطورى من المسيحيين أنفسهم قد أشاروا على الإمبراطور بإعادة تمثال النصر إلى مكانه ، ولكن أمبروز ، وكان فى ذلك الوقت غائبا فى بعثة دبلوماسية للدولة ، تغلب على المجلس برسالة قوية مليئة بالكبرياء والخطورة أرسلها إلى الإمبراطور . وعدد فيها حجج سيماخوس حجة بعد حجة ، ثم دحضها كلها بما وهب من قوة وبلاغة . وقد حوت هذه الرسالة ما يعد فى الواقع تهديداً

للإمبراطور بإخراجه من حظيرة الدين إذا أجاب الوفد إلى طلبه ، « قد يكون في وسعك أن تدخل الكنيسة ولكنك لن تجد فيها قساً يستقبلك ، أو أنك قد تجدهم فيها أيحرموا عليك دخولها » (٤١) . وكان من أثر ذلك أن رفض فلانتينيان طلب مجلس الشيوخ .

وبذل الوثنيون في إيطاليا مجهوداً آخر في عام ٣٩٣ ، فأعلنوا الثورة وخاطروا في سبيل غايتهم بكل شيء . وكان ثيودوسيوس قد أبى أن يعترف بالإمبراطور يوجينيوس نصف الوثني ، فرأى هذا الإمبراطور أن يستعين بوثنى الغرب في دفاعه عن نفسه ، فأعاد تمثال النصر إلى مكانه . وتباهى بقوله إنه حين يتم له النصر على ثيودوسيوس سيربط خيله في الكنائس المسيحية . وسار نقوماكس نخوس فلافيانوس Nicomachus Flavianus زوج ابنة سيماخوس ، على رأس جيش ليساعد به يوجينيوس ، فقاممه الهزيمة وانتحر . وزحف ثيودوسيوس على رومة ، وأرغم مجلس الشيوخ على أن يعلن إلغاء الوثنية بجميع أشكالها (٣٩٤) . ولما نهب ألريك رومة حسب الوثنيون أن ما أصاب هذه المدينة التي كانت من قبل سيدة العالم من إذلال كان نتيجة غضب الآلهة الذين تخلت عنهم . وفككت حرب الأديان هذه وحدة الشعب . وحطمت قواه المعنوية ، ولما أن وصل إليهم سيل الغزو الجارف لم يجدوا وسيلة يواجهونه بها إلا تبادل اللعنات والصلوات المتنافرة .

الفصل الرابع

تيار البرابرة الجارف

عقب أولمبيوس على الأمر القاضي بقتل استلكو. بأمر آخر يقضى بقتل آلاف من أتباعه ومنهم رؤساء فيالقه البربرية . وكان أليك يتحين الفرصة السانحة له وراء جبال الألب ، فوجد في هذا فرصته السانحة ولم بدعها تفلت من يده ؛ فقال إن الأربعة الآلاف من الأبطال الذهبية التي وعد الرومان بإدائها إليه لم تصله بعد ، وقال إنه في نظير هذا المال يرضى أن يقدم أنبل الشباب القوطي ضماناً لولائه في مستقبل الأيام . فلما رفض هونوريوس طلبه اجتاز جبال الألب ونهب أكويليا وكرمونا ، وضم إليه ثلاثين ألفاً من الجنود المرتزقة الذين أغضبهم قتل زعمائهم ، وزحف بطريق فلامنيوس، حتى وصل إلى أسوار رومة (٤٠٨) . ولم يلق في هذا الزحف مقاومة اللهم إلا من راهب واحد قال له إنه قاطع طريق ، فرد عليه أليك بجواب حيره إذ قال له إن الله نفسه قد أمره بهذا الغزو . وارتاع مجلس الشيوخ كما ارتاع في أيام هنيبال ، ودفعه الروع إلى ارتكاب أعمال وحشية . فقد ظن أن أرملة استلكو كانت تساعد أليك فأمر بقتلها ؛ ورد أليك على هذا بقطع كل الطرق التي يمكن أن يصل منها الطعام إلى العاصمة ، وسرعان ما أخذ الناس يموتون فيها من الجوع ، وشرع الرجال يقتل بعضهم بعضاً ، والنساء يقتلن أبناءهن ليتخذنهم طعاماً . وسار وفد من أهل المدينة إلى أليك ليسأله عن شروط الصلح ؛ وهددوه بأن ألف ألف من الرومان على استعداد لمقاومته ، فتبسم ضاحكاً من قولهم وأجابهم « كلما ازداد سلك القش كان حصده أيسر » . ثم رق قابله بفرضي أن ينسحب إذا أعطى كل ما في المدينة من ذهب وفضة ، وكل ما تحتويه من ثروة منقولة قيمة . ولما سأله المبعوثون : « وأى شيء بعد هذا يبقى لنا ؟ »

أجابه في ازدراء : « حياتكم » . وآثرت رومة أن تمضى في المقاومة ؛ ولكن الجوع اضطرها أن تطلب شروطاً جديدة للاستسلام ؛ فقبل ألييك منها ٥٠٠٠ رطل من الذهب وثلاثين ألف رطل من الفضة ، وأربعة آلاف قباء من الحرير ، وثلاثة آلاف من جلود الحيوان ، وثلاثة آلاف رطل من الفلفل .

وفي هذا الوقت عينه فر عدد لا يحصى من البرابرة الأرقاء من أسيادهم الرومان وانضموا تحت لواء ألييك . وكأن الأقدار شاءت أن تعوض الرومان عن هذه الخسارة ، ففر من جيش ألييك قائد قوطى يدعى ساروس Sarus وانضم إلى هونوريوس . وأخذ معه قوة كبيرة من القوط ، وهاجم بها جيش البرابرة الرثيلى . وعد ألييك هذا العمل نقضاً للهدنة التى وقعها الطرفان ، فعاد إلى حصار رومة . وفتح أحد الأرقاء أبواب المدينة للمحاصرين ؛ وتدفق منه القوط ، واستولى العدو على المدينة الكبرى لأول مرة فى ثمانمائة عام (٤١٠) . وليثت ثلاثة أيام مسرحاً للسلب والنهب بلا تمييز بين أماكنها أو أهلها اللهم إلا كنيسة القديسين بطرس وبولس فلم يمسسهما أحد بسوء ، وكذلك نجا اللاجئون الذين احتموا فيهما . غير أنه لم يكن من المستطاع السيطرة على من كان فى الجيش البالغ عدده أربعين ألف مقاتل من الهون والأرقاء . فذبح مئات من أغنياء المدينة ، واغتصبت نسائهم ثم قتلن ، وبلغ من كثرة القتلى أن لم يعد من المستطاع دفن الجثث التى امتلأت بها الشوارع . ووقع فى أيدي الغزاة آلاف من الأسرى بينهم أخت لهونوريوس غير شقيقة تدعى جلا بلاسيديا Galla Placidia . وأخذ الفاتحون كل ما وقع فى أيديهم من الذهب والفضة ؛ وصهرت التحف الفنية للاستيلاء على ما فيها من معادن نفيسة ، وحطم العبيد السابقون روائع فن النحت والحزف وهم فرحون مغتبطون انتقاماً منهم لما كانوا يعانونه من فقر وكدح ، هما اللذان أثمرتا هذا الجمال وهذه الثروة . ثم أعاد ألييك النظام وزحف بحيشه جنوباً ليفتح صقلية ؛ ولكنه أصيب بالحمى فى هذه السنة . عينها ومات بها فى كوستزا Cosenza . وحول الأرقاء

مجرى نهر بوسنتو Busento ليفسحوا مكاناً آمناً رحباً ينشئون فيه قبره ، ثم أعيد النهر إلى مجراه الأصلي ، وقتل العبيد الذين قاموا بهذه الأعمال مبالغة في إخفاء المكان الذى دفن فيه .

واختير أتلِف Atilf (أدلف Adolf) صهر ألريك ليخلفه فى ملكه ورضى الملك الحديد أن يسحب جيشه من إيطاليا إذا تزوج بلاسيديا Placidia ، وأعطى القوط بوصفهم أحلاف رومة المتعاهدين معها غالة الجنوبية بما فيه نربونة Narbonne وطلوشة (طواوز) ، وبردو ، ولتكون مملكة لهم يحكمونها مستقلة استقلالاً ذاتياً . ورفض هونوريوس الشرط الخاص بالزواج ، لكن بلاسيديا قبلته ، وأعلن الزعيم القوطى أنه لا يبغي تدمير الإمبراطورية ، بل يريد المحافظة عليها وتقويتها ، وسحب جيشه من إيطاليا ، وأنشأ مملكة للقوط الغربيين فى غالة مستعينا على إنشائها بمزيج من الدهاء السياسى والقوة الحربية . وكانت هذه المملكة من الوجهة النظرية خاضعة للإمبراطورية ، واتخذ طلوشة عاصمة لها (٤١٤) . وقتل الزعيم القوطى بعد سنة واحدة ، واعتزمت بلاسيديا من فرط حبها له أن تعيش من بعده أرماة طول حياتها ولكن هونوريوس وهبها للقائد قنسطنطيوس . ولما مات قنسطنطيوس (٤٢١) وهونوريوس (٤٢٣) أصبحت بلاسيديا وصية على ابنها فلبيان الثالث ، وحكمت الإمبراطورية الغربية ثلاثين عاماً حكماً يشرف بنات جيوسيا .

وكان الوندال حتى فى أيام ناستون ، أمة قهية كثيرة العدد تملك الأجزاء الوسطى والشرقية من روسيا الحالية . وكانوا قبيل حكم قسطنطين قد زحفوا جنوباً إلى بلاد المجر ، ولما بدد القوط الغربيون شملهم فى إحدى الوقائع الحربية ، طلب الباقون منهم أن يؤذن لهم بعبور الدانوب ودخول الإمبراطورية الرومانية . ووافق قسطنطين على طلبهم هذا ، وظلوا سبعين عاماً يتكاثرون ويتضاعف عديدهم فى

بنونيا Pannonia . وأثارت انتصارات أليك حميتهم ، ولما سحبت الدولة فيالقتها من وراء جبال الألب لتدافع بها عن إيطاليا ، تفتحت لهم أبواب الغرب واستهواهم بثروته ، حتى إذا كان عام ٤٠٦ زحفت جموع كبيرة من الوندال ، والألاني ، والسويثي وعبرت نهر الرين وغاثت فساداً في بلاد غالة ، ونهبوا مينز Manz وذبخوا كثيراً من أهلها ، ثم تحركوا شمالاً إلى بلجيكا ، ونهبوا مدينة تير Tier العظيمة وأحرقوها . ثم أقاموا الجسور على نهرى الموز Meuse والآين Aisne ونهبوا ريمس Reims ، وأميين Amiens ، وأراس Arras ، وتورناى Tournai ، وواصلوا الزحف حتى كادوا يبلغون بحر المانش . ثم اتجهوا نحو الجنوب وعبروا نهرى السين Scine واللوار Loire ودخلوا أكويتانيا Aquitaine وصبوا جام غضبهم الوحشى على جميع مدنها تقريباً ما عدا طلوسة ، التى دافع عنها إكسپريوس Exuperius دفاع الأبطال . ورقفوا عند جبال البرانس ، ثم ولوا وجههم نحو الشرق ونهبوا نربونة ، وشهدت غالة من التخريب والتدمير الكامل ما لم تشهد له مثيلاً من قبل .

وفى عام ٤٠٩ دخلوا أسبانيا وكان عددهم وقتئذ نحو مائة ألف . وكان الحكم الرومانى فى تلك البلاد قد أثقل كاهل أهلها بالضرائب ، . وأدخل فيها إدارة منظمة ، وجمع الثروة ضياع واسعة ، وجعل الكثرة الغالبة من سكانها عبيداً ، أو رقيق أرض ، أو أحراراً يعانون ويلات الفقر المدقع . ولكن أسبانيا كانت بفضل ما فيها من استقرار وسلطان للقوانين أعظم ولايات الإمبراطورية رخاء ، وكانت مريدة ، وقرطاجنة ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وطركونه Tarragona من أغنى مدائن الإمبراطورية وأعظمها ثقافة . وانقض الرندال والسويثي والألاني على هذه الشبه الجزيرة التى كانت تبدو آمنة حصينة ، وأعملوا فيها السلب والنهب عامين كاملين حتى لم ينج فيها مكان من جبال البرانس إلى مضيق جبل طارق ، بل إن فتوحهم امتدت إلى سواحل إفريقية الشمالية . وأدرك هونوريوس أنه عاجز عن حماية

لأراضي الرومانية بالجيوش الرومانية ، فأغرى القوط الغربيين بالمال الوفير ليردوا إليه أسبانيا . وقام ملكهم القدير واليا Wallia بهذا العمل بعد عدة وقائع حرية أحكم خططها (٤٢٠) ، فارتد السويثي إلى شمالي أسبانيا ، كما ارتد الوندال إلى إقليم الأندلس (Andalusia) الذي لا يزال يسمى باسمهم حتى اليوم ، وأعاد ولاية أسبانيا إلى حوزة الإمبراطورية ، وكشف بذلك عما في أخلاق ساسة الرومان من غدر ونكث بالعهود .

وكان الوندال لا يزالون يتوقون إلى الفتح والحز ، فعبروا البحر إلى أفريقية (٤٢٩) . وإذا جاز لنا أن نصدق بروكوبيوس Procopius (٤٣) ، وجردانيس Jordanes قلنا إنهم جاءوا إليها بدعوة من بنيفاس Boniface حاكم أفريقية الروماني ليستعين بهم على منافسة إيتيوس Eetius الذي خلف استلكو ، لكن هذه القصة لا تعتمد على مصدر موثوق به . ومهما يكن من أمرها فإن ملك الوندال كان قادراً على خلق هذه الخطة . وكان جيرسيك ملك الوندال ابناً غير شرعي لعبد رقيق ، وكان أعرج لكنه قوى الجسم ، متمشفا زاهداً ، لا يهاب الردى في القتال ، يتلهب غيظاً إذا غضب ، ويقسو أشد القسوة على عدوه ولكنه عبقرى لا يغلب في شئون الحرب والمفاوضة . ولما نزل إلى أفريقية انضم إلى من كان معه من الوندال ، والآلاني ، من جنود ، ونساء ، وأطفال المغاربة الأفريقيين الذي ظلوا عهوداً طوالاً حانقين على الحكم الروماني ، كما انضم إليهم الدناتيون Donatist المارقون الذين كانوا يقاسون أشد أنواع الاضطهاد من المسيحيين أتباع الدين القويم . ورحب هؤلاء وأولئك بالغزاة الغامقين وبالحكم الجديد . ولم يستطع بينفاس أن يحشد من سكان شمالي أفريقية الروماني البالغ عددهم ثمانية ملايين إلا عدداً ضئيلاً يساعد جيشه الروماني . ولما هزمته جمافل جيسريك هزيمة منكرة تقهقر إلى هبو Hippo حيث أثار القديس أوغسطين الطاعن في السن حمية السكان فهبوا يدافعون عن بلدتهم دفاع الأبطال ، وقاست المدينة أهوال الحصار أربعة عشر

شهراً كاملة (٤٣٠ - ٤٣١) ، انسحب بعدها جيسريك ليلقى جيشاً رومانياً آخر ، وأوقع به هزيمة منكرة اضطر على أثرها سفير فلنتيان إلى أن يوقع شروط هدنة يعترف فيها باستيلاء الوندال على فتوحهم في أفريقية . وحافظ جيسريك على شروط الهدنة حتى غافل الرومان وانقض على قرطاجنة الغنية واستولى عليها دون أن يلتقى أية مقاومة (٤٣٩) . وجرد أشراف المدينة وقساوسها من أملاكهم ونفاهم أو جعلهم أقنان أرض . ثم استولى على كل ما وجدته من متاع سواء منه ما كان لرجال الدين أو لغيرهم من الأهلين ، ولم يتردد في الالتجاء إلى التعذيب للوقوف على مخابثه .

وكان جيسريك لا يزال وقتئذ في شرخ الشباب ، وكان إدارياً قديراً أعاد تنظيم أفريقية وجعل منها دولة ذات ثراء تدر عليه المال الوفير ، ولكن أسعد أوقاته كان هو الوقت الذي يشتبك فيه في القتال . وقد أنشأ له أسطولا ضخماً ، نهب به سواحل أسبانيا ، وإيطاليا ، وبلاد اليونان . وكان يفاجئ تلك البلاد حتى لم يكن أحد يدرى أى الشواطئ سترسو فيها سفنه المثقلة بالفرسان ، ولم تنتشر الفرصنة في غرب البحر المتوسط طوال أيام الحكم الروماني دون أن تلتقى مقاومة كما انتشرت في تلك الأيام . واضطر الإمبراطور في آخر الأمر أن يعقد الصلح مع ملك البرابرة ليحصل بذلك على القمح الذي تطعم منه راقنا ورومة ، ولم يكنف بذلك بل وعده أن يزوجه إحدى بناته . وكانت رومة في هذه الأثناء لا تزال تضحك وتلعب لاهية عما سيحل بها بعد قليل من دمار .

وكانت ثلاثة أرباع قرن قد انقضت منذ دفع الهون أمامهم البرابرة الغزاة بعبورهم نهر القلجا . ثم تباطأ بعد ذلك زحف الهون نحو الغرب فكان هجرة على مهل ، وكان أشبه بانتشار المستعمرين في القارة الأمريكية منه بفتوح ألبريك وجيسريك . وما لبثوا أن استقروا بعدئذ شيئاً فشيئاً في داخل بلاد المجر ، وبالقرب منها ، وأخضعوا لحكمهم كثيراً من القبائل الألمانية .

ومات روا Rua ملك الهون حوالى عام ٤٣٣ وأورث عرشه بليدا Baleda وأتلا Atilla ابني أخيه . ثم قتل بليدا — بيد أتلا كما يقول بعضهم — حوالى عام ٤٤٤ ، وتولى أتلا (ومعنى اللفظ باللغة القوطية الأب الصغير) حكم القبائل المختلفة الضاربة شمال نهر الدانوب من الدن إلى الرين . ويصفه جردانس المؤرخ القوطى وصفاً لا نعرف مقدار ما فيه من الدقة فيقول :

هو رجل ولد في هذا العالم ليزلزل أقدام الأمم ، هو سوط عذاب سلط على الأرض ، روع سكان العالم أجمع بما انتشر حوله من الشائعات في خارج البلاد ، وكان جباراً متغطرساً في قوله ، يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال ، يظهر في حركات جسمه ما تنطوى عليه نفسه من قوة وكبرياء . وكان في الحق أنخا غمرات محباً للقتال ، ولكنه يتمهل فيما يقدم عليه من أعمال ، وكان عظيماً فيما يسدى من نصيح ، غفوراً لمن يرجو منه الرحمة ، رؤوفاً بمن يضع نفسه تحت حمايته . وكان قصيراً القامة ، عريض الصدر ، كبير الرأس ، صغير العينين ، رقيق شعر اللحية قد وخطه الشيب . وكان أفتس الأنف ، أدكن اللون ، ثم ملاحه على أصله (١٦) .

وكان يختلف عن غيره من البرابرة في أنه يعتمد على الختل أكثر من اعتماده على القوة . وكان يحكم شعبه باستخدامه خرافاته لتقديس ذاته العليا ، وكان يعهد لانتصاراته بما يذبحه من القصص المبالغ فيها عن قسوته ، ولعله هو الذى كان ينشئ هذه القصص لإنشاء ، حتى لقد سماه أعداؤه المسيحيون آخر الأمر « بسوط الله » ، وارتاعوا من ختله ارتياعاً لم ينجهم منه إلا القوط ، وكان أمياً لا يستطيع القراءة أو الكتابة ، ولكن هذا لم ينقص من ذكائه القبرى . ولم تكن أخلاقه كأخلاق المتوحشين ، فقد كان ذا شرف ، وكان عادلاً ، وكثيراً ما أظهر أنه أعظم كرمًا وشهامة من الرومان . وكان بسيطاً في ملبسه ومعيشته ، معتدلاً في مأكله ومشربه ، يترك الترف لمن هم دونه ممن يحبون التظاهر بما عندهم من آنية فضية وذهبية ، وسروج ، وأثواب مزركشة تشهد بمهارة أصابع أزواجهم .

وكان لأتلا عدد كبير من أولئك الأزواج ولكنه كان يحتقر ذلك الخليط من وحدة الزواج والدعارة الذي كان منتشرأ عند بعض الطوائف في رافنا ورومة . وكان قصره بيتأ خشبأ ضخماً أرضه وجدراناه من الخشب المسوى بالمسحج ، ولكنه يزدان بالخشب الجميل الصقل والنحت ، فرشت فيه الطنافس والجلود ليتقأ بها البرد . وكانت عاصمة ملكه قرية كبيرة أغلب الظن أنها كانت في مكان بودا Buda الحالية ، وقد ظل بعض المجريين حتى هذا القرن يطلقون على هذه المدينة اسم إترلنبرج Etzelburg أى مدينة أتلا .

وكان الوقت الذى نتحدث عنه (٤٤٤) أقوى رجل في أوربا ، وكان ثيودوسيوس الثانى إمبراطور الدولة الشرقية ، وقلنتيان إمبراطور الغرب يعطيانه الجزية يشتريان بها السلام ، ويتظاهرون أمام شعوبهما بأنها ثمن لخدمات يؤديها أحد أفيالهما . ولم يكن أتلا ، وهو القادر على أن يتزل إلى الميدان جيشاً من خمسمائة ألف مقاتل ، يرى ما يحول بينه وبين السيادة على أوربا كلها وبلاد الشرق بأجمعها . ففى عام ٤٤١ عبر قواده وجنوده نهر الدانوب ، واستولوا على سرميوم Sirmium ، وسنجديونوم Singidunum (بلغراد) ونيسوس Naissus (نيش) وسردىكا Sardica (صوفيا) ، وهددوا القسطنطينية نفسها . وأرسل ثيودوسيوس الثانى جيشاً لملاقاتهم ، ولكنه هزم ، ولم تجد الإمبراطورية الشرقية بداً من أن تشتري السلم برفع الجزية السنوية من سبعمائة رطل من الذهب إلى أثنى رطل ومائة . وفى عام ٤٤٧ دخل الهون تراقية ، وتساليا ، وسكوديا ، (جنوبى روسيا) ونهبوا سبعين مدينة وساقوا آلافاً من أهلها أرقاء . وأضيقَت السبايا إلى أزواج المتصرين ، ونشأ من ذلك جبل اختلطت فيه دماء الفاتحين والمغلوبين ترك آثاراً من الملامح المغولية في الأقاليم الممتدة من الشرق حتى بافاريا Bayaria ، وخربت غارات الهون بلاد البلقان تخريباً دام أربعة قرون ، وأتى على نهر الدانوب

حين من الدهر لم يعد فيه كما كان طريق التجارة الرئيسي بين الشرق والغرب ، واضمحلت لهذا السبب المدن القائمة على شاطئيه .

ولما أن استنزف أتلا دماء الشرق بالقلز الذي ارتضاه ولى وجهه نحو الغرب وتلرع لغزوه بحجة غير عادية . وخلاصة تلك الحجة أن هونوريا Honoria أخت فلنتينان الثالث كانت قد نفيت إلى القسطنطينية بعد أن اعتدى على عفافها أحد رجال التشريفات فى قصرها . وتلمست هونوريا أية وسيلة للخلاص من النفى فلم تر أمامها إلا أن تبعث بخاتمتها إلى أتلا وتستجيره لمساعدتها فى محنتها ، واختار الملك اللداهية ، الذى كانت له أساليبه الخاصة فى الفكاهة ، أن يفسر إرسال الخاتم بأنه عرض منها للزواج بها ، فطالب من فورهِ هونوريا وبنصف الإمبراطورية الغربية بآئنة لها ، ولما احتج وزراء فلنتينان على الطلب أعلن أتلا الحرب . هذا هو السبب الظاهرى ، أما السبب الحقيقى فهو أن مرسيان Marcian الإمبراطور الجديد فى الشرق أبى أن يستمر على أداء الجزية وأن فلنتينان قد حدا حذوه .

وفى عام ٤٥٠ زحف أتلا ومعه نصف مليون رجل على نهر الرين ، ونهبوا تريير و Metz وأحرقوها وقتلوا أهلها . فحذف ذلك الرعب فى قلوب غالة كلها فقد علموا أن الغزاة ليس على رأسهم جندى متمدين كقيصر ، أو مسيحى — ولو كان من أتباع أريوس — مثل أليكسندريوس ، بل كان الزاحف عليهم هو الهونى الرهيب ، سقوط الله أبعد لعذاب المسيحيين والوثنيين على السواء لما هنالك من فوق شاسع بين أقوالهم وأعمالهم . وجاء ثيودريك الأول Theodoric 1 ملك القوط المعمر لينقذ الإمبراطورية من محنتها ، وانضم إلى الرومان بقيادة إيتيوس ، والتقت الجيوش الضخمة فى حقول قطلونيا Catalaunia بالقرب من ترويس ، ودارت بينها معركة من أشد معارك التاريخ هولا ، جرت

فيها الدماء أنهارا ، حتى ليقال إن ١٦٢٠٠٠ رجل قد قتلوا فيها من بينهم ملك القوط البطل المغوار ، وانتصر الغرب في هذه المعركة نصراً غير حاسم ، فقد تهقر أتلا بانتظام ، وأنهكت الحرب الظافرين ، أو لعلمهم كانوا منقسمين على أنفسهم في خططهم ، فلم يتعقبوا أتلا وجنوده ولهذا غزا إيطاليا في العام التالي .

وكانت أول مدينة استولى عليها في زحفه هي أكويليا Aquileia ، وقد دمرها تدميراً قضى عليها قضاء لم تقم لها بعده قائمة حتى اليوم ، أما فيرونا Verona وفيستزا Vicenza فقد حومتا بشيء من اللين والرحمة واشترت باقيا ومبلان نفسيهما من الغزاة بتسليم كل ما فيهما من ثروة منقولة . وبعد هذا فتحت الطريق إلى رومة أمام أتلا ، وكان جيش إيتيوس قليل العدد لا يقوى على أية مقاومة جدية ، ولكن أتلا تباطأ عند نهر الپو ، وفر فلنتنيان الثالث إلى رومة ، ثم أرسل إلى ملك الهون وقدأ مؤلفاً من البابا ليو الأول واثني من أعضاء مجلس الشيوخ . وما من أحد يعلم ما جرى حين اجتمع هذا الوفد بأتلا . وكان ليورجلا مهيب الطلعة ، يعزو إليه المؤرخون معظم ما أحرزه الوفد من نصر لم ترق فيه دماء . وكل ما يذكره التاريخ عن هذا النصر أن أتلا قد ارتد لأن الطاعون قشاً بين جنوده ، ولأن مؤونهم كانت آخذة في اللغاد ، ولأن مرسيان كان يرسل المدد من الشرق (٤٥٢) .

وقاد أتلا جماعته فوق جبال الألب وعاد بها إلى عاصمته في بلاد المجر ، متوعداً إيطاليا بالعودة إليها في الربيع التالي إذا لم ترسل إليه هونوريا ، ليثخذها زوجة له . وقد استعاض عنها في هذه الأثناء بشابة تدعى إلديكو Ildico نصمها إلى نساته . وكانت هذه الفتاة هي الأساس التاريخي الوامى لقصة Kriemhild المسماة نيل أنجلبد Nibelungenlied . واحتفل بزفافها له احتفالا أثقلت فيها المواالد بالطعام والشراب . ولما أصبح الصباح وجد أتلا ميتاً في فراشه إلى جانب زوجته

الشابة . وكان سبب موته انفجار أحد الأوعية الدموية ، فكم الدم الذي تدفق منه نفسه وقضى عليه (٤٥٣) (٤٧) . وقسمت مملكته بين أولاده ، ولكنهم عجزوا عن المحافظه عليها ، فقد دبت الفيرة بينهم ورفضت القبائل التي كانت خاضعة لأبيهم أن تظل على ولائها لهؤلاء الزعماء المتنازعين ، ولم تمض إلا بضع سنين حتى تقطعت أوصال الإمبراطورية التي كانت تهدد بإخضاع اليونان والرومان والألمان والغالين لحكمها ، وتطبع وجه أوروبا وروحها بطابع آسية ، ومحيت اليونان من الوجود .

الفصل الخامس

سقوط رومة

توفيت بلاسيدا في عام ٤٥٠ ، وانفرد ثلثتنيان بالملك يخبط فيه نخبط عشواء ، وكان من أوخم أخطائه عاقبة أن استمع إلى نصيحة بترونيوس مكسموس فقتل إيتيوس الذي وقف زحف أتلا عند ترويس كما استمع هونوريوس إلى أولمبيوس فقتل استلكو الذي وقف زحف أريك عند يولثيا . ولم يكن لثلثتنيان ولد ذكر ولم يرتح إلى رغبة إيتيوس في أن يزوج ابنه بودوشيا Budocia ابنة ثلثتنيان . وانثابت الإمبراطور نوبة جنونية من الغضب فأرسل في طلب إيتيوس ، وذبحه بيده (٤٥٤) . وقال له رجل من رجال الحاشية : « مولاي ، لقد قطعت بيمينك بشمالك » ولم تمض على هذا العمل بضعة أشهر حتى استطاع بترونيوس أن يغري رجلين من أتباع إيتيوس بقتل ثلثتنيان ، ولم يهتم أحد بتعقب القاتلين لأن القتل كان قد أصبح من عهد بعيد البديل الوحيد للانتخاب . واختار بترونيوس نفسه للجلوس على العرش ، وأرغم يودكسيا Eudoxia أرملة ثلثتنيان على أن تزوجه ، كما أرغم بودوشيا على أن تزوج ابنه بلاديوس . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال بروكبيوس^(٤٨) ، فإن يودكسيا استعانت بجيسريك ، كما استعانت هونوريا قبل ذلك بأتلا . وكان لدى جيسريك من الأسباب ما يجعله يلبي هذه الاستغاثة : فقد أصبحت رومة غنية مرة أخرى على الرغم من انتهاب أريك لها ، ولم يكن الجيش الروماني بالجيش القوي الذي يستطيع الدفاع عن إيطاليا . وأبحر ملك الوندال بأسطوله قوى لا يغلِب (٤٥٥) ، ولم يقف أحد بينه وبين أستيا Ostia ورومة إلا بابا أعزل وجمعه بعض قساوسة رومة ، ولم يقو البابا لهؤلاء هذه المرة على

إقناع الفاتح بالارتداد عن رومه ، وكل ما استطاع أن يحصل عليه منه هو وعده بأن يمتنع عن ذبح السكان وتعذيبهم وإحراق المدينة . وأسلمت المدينة أربعة أيام كاملة للجند ينهبون فيها ويسلبون ، ونجت الكنائس المسيحية ، ولكن كل ما كان باقياً في المعابد من كنوز نقل إلى سفن الوندال ، وكان من بين هذه الغنائم المناضد الذهبية ، والمائلات ذات الشعب السبع ، وغيرها من الآنية المقدسة التي جاء بها تيتوس Titus من هيكل سليمان إلى رومة منذ أربعة قرون . ونهب كذلك كل ما كان في القصر الإمبراطوري من المعادن الثمينة ، والحلى ، والأثاث وكل ما كان باقياً في بيوت الأغنياء من أشياء ذات قيمة . واتخذ آلافاً من الأسرى عبيداً ، وفرق بين الأزواج وزوجاتهم ، وبين الأبناء وآبائهم ، وأخذ جيسريك الإمبراطورة يودكسيا وابنتيهما معه إلى قرطاجنة ، وزوج يودوسيا ابنه هونريك Huneric ، وأرسل الإمبراطورة وپلاسيديا (صغرى ابنتيهما) إلى القسطنطينية استجابة لطلب الإمبراطور ليو الأول . ولم يكن انتهاب رومة على هذا النحو في واقع الأمر تخريباً لا يراعى فيه عرف أو قانون ، بل كان يتفق كل الاتفاق مع الشرائع القديمة للحروب . لقد تأثرت قرطاجنة لنفسها من قسوة رومة عليها في عام ١٤٦ وكانت في انتقامها هذا رقيقة رحيمة .

وضربت الفوضى وقتل أطنابها في إيطاليا . ذلك أن خمسين عاماً من الغزو والفظظ والوباء قد تركت آلاف الضياع مخربة ، وآلاف الأفدنة بوراً ، ولم يكن هذا لأن تربتها أنهكت من الاستغلال ، بل لأن هذه الأراضي أعوزها الرجال ، وأخذ القديس أمبروز (حوالي عام ٤٢٠) يرثي لجراب بولونيا Bologna ومودينا Modena ، وپياسنزا Piacenza ونقص عامرها ، ووصف البابا جلاسيوس Gelasius (حوالي ٤٨٠) أقاليم واسعة في شمالي إيطاليا بأنها تكاد تكون مقيمة من الأدبين .

ونقص سكان رومة نفسها من مليون ونصف إلى ثلاثة ألاف في قرن

واحد (٢٩)؛ واختص الشرق وقتئذ دون غيره بجميع المبادئ الكبرى الإمبراطورية . وهجر الناس الكمبانيا Campagna المحيطة برومة والتي كانت من قبل مملوءة بالضيايح والحصبة والقصور الصغيرة ولجأوا إلى المدن المسورة ليحتموا فيها من غارات الأعداء ؛ وانكمشت المدن نفسها فلم تعد تزيد مساحة أرضها على أربعين فدانا أو نحوها كي تكفي موارد أهلها تسويرها وحمايتها من الأعداء ؛ وكثيراً ما كانت الأسوار تبنى على عجل من أنقاض دور التمثيل والباسقات والهياكل التي كانت من قبل بهجة المدن الإيطالية وسبب رونقها . على أن رومة قد بقي فيها قليل من الثروة حتى بعد جيسريك ، وانتعشت هي وغيرها من المدن الإيطالية فيما بعد تحت حكم ثيودريك والمباردين ؛ ولكن الفقر العام الذي حل في عام ٤٧٠ بالحقول والمدن ، وبأعضاء مجلس الشيوخ والعامّة على السواء ، سحق أرواح الشعب الذي كان من قبل عظيماً وأذل نفسه ، فلك عليه اليأس والاستسلام قلبه ، وتشكك في الآلهة كلهم عدا پرياپوس Priapus (*) واستولى عليه وجل كوجل الأطفال جعله يهاب تبعات الحياة ، وجبّئ غاضباً ثائراً يندد بكل استسلام ويفر من جميع الواجبات الحربية ، وكان يصحب هذا الانحطاط الاقتصادي والحوي عفن ينخر سوسه في جميع طبقات الشعب ، في أرستقراطية في وسعها أن تخدم ولكنها عاجزة عن أن تحكم ، وفي رجال الأعمال المنهمكين في مكاسبهم الشخصية إنهما كما يحول بينهم وبين العمل لإنقاذ شبه الجزيرة ، وفي قواد ينالون بالرشوة أكثر مما يستطيعون نيله بقوة السلاح ، وبيرقراطية متشعبة متضخمة خربت رواتبها خزائن الدولة ، وفسدت فساداً مستعصياً على العلاج وقصارى القول أن جذع هذه الشجرة العظيمة قد تعفن ، وأن لها أن تسقط .

وتوالى على عرش الإمبراطورية في السنين الأخيرة من حياتها طائفة من

(*) من آلهة الأتسين وكان يمثل قوة التخصيب عند الذكور ويقصده المؤلف بقوله هذا أن مهمهم كونه كائن في أشباع شهواتهم الجنسية . (المترجم)

الاباطرة ليس قيهم من هو فوق المتوسط . فقد أعلن القوط في غالة قائداً لهم يدعى أفنوس Avitus إمبراطوراً (٤٥٥) ، ولكن مجلس الشيوخ أبى أن بقره ، فاستحال أسقفاً ، ولم يدخر ماجوريان Magorian (٤٥٦-٤٦١) جهداً في إعادة النظام ، ولكن رئيس وزرائه رسمر Ricimer القوطى الغربى أنزله عن العرش . وكان سفيروس (٤٦١-٤٥٦) آلة صماء في يد رسمر يفعل به ما يشاء ، وكان أنثيميوس Anthemius (٤٦٧-٤٧٢) فيلسوفاً نصف وثئى لا يرضى عنه الغرب ، فإكان من رسمر إلا أن ضرب عليه الحصار وقبض عليه وأمر بقتله وحكم أوليبريوس Olybrius برعاية رسمر شهرين (٤٧٢) ؛ ثم مات ميتة غريبة في ذلك الوقت إذ كانت ميتة طبيعية . وسرعان ما خلع جليسيريوس (٤٧٣) ، وظلت رومة عامين يحكمها يوليوس نيبوس Julius Nepos . وبينما كانت هذه الأحداث جارية في ايطاليا ، انقض عليها خليط آخر من البرابرة - الهرولى Heruli ، والاسكيرى Sciri ، والروجى Rugii وغيرهم من القبائل التى كانت من قبل تعترف بحكم أتلا . وقام في الوقت نفسه بنونيائى Pannonian يدعى أرسنيز Orestes فخلع نيبوس ، وأجلس ابنه رميولوس (الملقب أوغسطولس استهزاء به) على العرش (٤٧٥) . وطلب الغزاة الجدد إلى أرسنيز أن يعطيهم ثلث ايطاليا ، فلما أبى ذبحوه وأجلسوا قائدهم أدوسر Odoacer على العرش بدل رميولوس (٤٧٦) . ولم يكن هذا القائد - وهو ابن إدكون وزير أتلا - مجرداً من الكفايات . وقد بدأ بأن جمع مجلس الشيوخ المرتاع ، وعن طريقه عرض على زينون Zeno الإمبراطور الجديد في الشرق أن تكون له السيادة على جميع الإمبراطورية على شرط أن يحكم أدوسر ايطاليا بوصفه وزيراً له ، ورضو زينون بهذا العرض وانتهت بذلك سلسلة الاباطرة الغربين .

ويبدو أن أحداً من الناس لم يرقى هذا الحادث « سقوطاً لرومة » بل بدا لهم على عكس هذا أنه توحيد مبارك للإمبراطورية وعودتها إلى ما كانت عليه .

في عهد قسطنطين . وقد نظر مجلس الشيوخ في رومة إلى المسألة هذه النظرة ، وأقام في رومة تمثالا لزينون ، ذلك أن اصطباغ الجيش ، والحكومة ، والزراع ، في إيطاليا بالصبغة الألمانية قد ظل يجري زمناً بلغ من طوله أن بدت معه النتائج السياسية تحولا عديم الشأن على سطح الحياة القومية .

أما الحقيقة التي لا نزاع فيها فهي أن أدوسر كان يحكم إيطاليا بوصفه ملكا عليها دون أن يعبا بزينون . ذلك أن الألمان قد فتحوا في واقع الأمر إيطاليا ، كما فتح جيسريك أفريقية ، وكما فتح القوط الغربيون أسبانيا ، وكما كان الإنجليز والسكسون يفتحون بريطانيا ، والفرنجة يفتحون غالة . ولم يعد للإمبراطورية العظمى في الغرب وجود .

وترتبت على فتوح البرابرة هذه نتائج لا حصر لها ، لقد كان معناها من الناحية الاقتصادية تحول الحياة من المدن إلى الريف . ذلك أن البرابرة كانوا يعيشون على الحرث ، والرعي ، والصيد ، والحرب ، ولم يكونوا قد تعلموا بعد الأعمال التجارية المعقدة التي تنتعش بها المدن ؛ وكان انتصارهم إيذانا بالقضاء على الصبغة المدنية للحضارة الغربية قضاء دام سبعة قرون . وأما من الوجهة العنصرية فإن هجرات البرابرة المتعددة أدت إلى امتزاج جديد بين العناصر البشرية - وإلى دخول دم ألمانى غزير في إيطاليا ، ودم غالى في أسبانيا ، ودم أسبوى في روسيا والبلقان وبلاد المجر . ولم يعد هذا الامتزاج القوة والنشاط إلى الإيطاليين أو الغاليين بطريقة خفية معجزة الدرك ، بل إن ما حدث لم يزد على إفناء الأفراد والسلالات الضعيفة بسبب الحروب وغزوها من ضروب التنافس ، وعلى اضطرار كل إنسان لأن ينمي قوته ، وحيويته ، وشجاعته ، وصفات الرجولة التي طمس معالمها طول الاستسلام إلى الأمن والسلام ؛ وعلى تأثير الفقر في عودة أساليب للحياة أصح وأكثر بساطة من الأساليب التي ولدها ترف المدن واعتماد الأهليين على الأرزاق التي تقدمها لهم الحكومة .

وأما من الوجهة السياسية فقد أحلت الفتوح صورة دنيا من الملكية محل صورة عليا منها . فقد زادت من سلطان الأفراد وقللت من سلطان القوانين ومن اعتماد الناس عليها لحمايتهم ؛ واشتدت النزعة الفردية وازداد العنف ؛ وفي الناحية التاريخية حطمت الفتوح الهيكل الخارجى لذلك الجسم الذى تعفن من الداخل ، وأزالت من الوجود ، بوحشية يؤسف لها ، نظاما من نظم الحياة ، شاخ ووهن وبلى ، وفقد كل قدرة على التجدد والنماء ، رغم ما كان فيه من فضائل النظام والثقافة ، والقانون ؛ وبهذا أصبح من المستطاع أن تبدأ حياة جديدة غير متأثرة بالماضى . فأنمحت إمبراطورية الغرب ولكن دول أوروبا الحديثة قد ولدت — لقد دخل إيطاليا قبل المسيح بألف عام غزاة من الشمال ، أنخضعوا أهلها لسلطانهم ، وامتزجوا بهم وأخلوا عنهم حضارتهم ، وبنوا وليامهم فى خلال ثمانية قرون حضارة جديدة ، وبعد المسيح بأربعمئة عام تكررت العملية نفسها ، ودارت عجلة التاريخ دورة كاملة ، وكانت البداية هى نفس النهاية ، ولكن النهاية كانت على النوام بداية .

الباب الثالث

تقدم المسيحية

٣٦٤ - ٤٥١

احتضنت الكنيسة الحضارة الحديدية ويسطت عليها حمايتها . ذلك بأن جيشاً فذاً من رجال الكنيسة قام ليدافع بنشاط ومهارة عن الاستقرار الذي عاد إلى الوجود ، وعن الحياة الصالحة بعد أن اندكت معالم النظام القديم في غمار الفساد والجن والإهمال . وكانت مهمة المسيحية من الناحية التاريخية هي أن تعيد الأسس الكريمة للأخلاق وللمجتمع بما تفرضه من مشوبة ومعوثة إلهيتين لمن يعملون وفق قواعد النظام الاجتماعي وإن خالفت أهواءهم أو كان فيها مشقة عليهم وأن تغرس في نفوس البرابرة الهمج السذج مثلاً للسلوك أرق وأجمل من مثلهم الأولى ، عن طريق عقيدة تكونت كوناً تلقائياً من الأساطير والمعجزات ، ومن الخوف والأمل والحب . لقد كان الدين الحديد يجاهد للاستحواذ على عقول الخلق المتوحشين أو المنحطين الفاسدين وأن يُقيم منها دولة دينية عظيمة تؤلف بينهم وتجمع ما تفرق من شملهم ، كما كان يجمعهم سحر اليونان أو عظمة الرومان . وإن في هذا الجهاد لعظمة لا تقل عما نجده في سير أبطال الملاحم وإن لوثة الخرافة والقسوة ، وليست النظم والعقائد إلا وليدة الحاجات البشرية ، فإذا شئنا أن نفهم هذه النظم والعقائد على حقيقتها وجب أن تدرسها في ضوء هذه الحاجات .

الفصل الأول

تنظيم الكنيسة

إذا كان الفن هو تنظيم المادة فإن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أروع الآليات الفنية في التاريخ . ذلك أنها قد استطاعت أن تؤلف بين اتباعها المؤمنين برسالتها خلال تسعة عشر قرناً كلها مثقلة بالآزمات الشداد ، وأن تسير وراءهم إلى أطراف العالم وتقوم على خدمتهم ، وتكون عقولهم ، وتشكل أخلاقهم ، وتشجعهم على التكاث ، وتوثق عقود زواجهم ، وتواسيهم في الملمات والأحزان ، وتسمو بحياتهم الدنيوية القصيرة فتجعل منها مسرحية أبدية ، وتستغل مواهبهم ، وتتغلب على كل ما يقوم في وجهها من زيغ وثورة ، وتعيد بناء كل ما يتحطم من سلطانها في صبر وأناة . ترى كيف نشأ هذا النظام الرائع الجليل ؟

لقد قام هذا النظام على ما كان هناك من خواء روحي يعانيه الرجال والنساء الذين أنهكهم الفقر ، وأضنهم الشقاق والنزاع ، وأرهبتهم الطقوس الخفية التي لا يدركون كنهها ، وتملكهم الخوف من الموت . وقد بعثت الكنيسة في أرواح الملايين من البشر إيماناً وأملًا حياً إليهم الموت وجعلاه أمراً مألوفاً لديهم . ولقد أصبح هذا الإيمان أعز شيء عليهم يموتون في سبيله ويقتلون غيرهم من أجله ، وعلى صخرة الأمل هذه قامت الكنيسة . وكانت في بادئ أمرها هيئة بسيطة من المؤمنين تختار لها واحداً أو أكثر من الكبراء أو القساوسة ليرشدها ، وواحداً أو أكثر من القراء ، والسدنة . والشمامسة ، ليساعدوا الكاهن . ولما كثر عدد العابدين ، وتعقدت شئونهم ، اختاروا لهم في كل مدينة قساً سموه إيسكوبس *episcopus* أي مشرفاً أو أسقفاً لينسق هذه الشئون . ولما زاد عدد الأساقفة أصبحوا هم أيضاً في حاجة إلى من يشرف على أعمالهم وينسقها ، ولهذا بدأنا نسمه

في القرن الرابع عن كبار الأساقفة ، أو المطارنة المشرفين على الأساقفة والمسيطرين على الكنائس في ولاية بأكملها ، وكان يحكم هذا الطبقات من رجال الدين بطارقة يقيمون في القسطنطينية ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية ، ورومة . وكان الأساقفة وكبار الأساقفة يجتمعون بناء على دعوة البطرقي أو الإمبراطور في المجمع المقدس ، فإذا كان هذا المجمع لا يمثل إلا ولاية بمفردها سمي مجمع الولاية ، وإذا كان يمثل الشرق أو الغرب سمي المجمع الكلي ، وإذا ما مثلهما جميعاً كان مجعاً عاماً ، وإذا ما كانت قراراته ملازمة لجميع المسيحيين كان هو المجمع الأكبر . وكانت الوحدة الناشئة من هذا النظام هي التي أكسبت الكنيسة اسم الكاثوليكية أو العالمية .

وكان هذا النظام الذي تعتمد قوته في آخر الأمر على العقيدة والهيئة يتطلب شيئاً من تنظيم الحياة الكنسية . ولم يكن يطلب إلى القس في الثلاثة القرون الأولى من المسيحية أن يظل أعزب ، وكان في مقدوره أن يحتفظ بزوجه إذا كان قد تزوج بها قبل رسامته ، ولكنه لم يكن يجوز له أن يتزوج بعد أن يلبس الثياب الكهنوتية ، ولم يكن يجوز لرجل تزوج بائنتين أو بأملة ، أو طلق زوجته أو اتخذ له خلية ، أن يصبح قسيساً . وكان في الكنيسة ، كما كان في معظم الهيئات المنظمة متطرفون يزعمونها بتطرفهم ، من ذلك أن بعض المتحمسين من المسيحيين ، في ثورتهم على ما كان في أخلاق الوثنيين من إباحية جنسية ، استنتجوا من فقرة إحدى رسائل القديس بولس أن كل اتصال بين الجنسيتين خطيئة ، ولذلك كانوا يعارضون في الزواج بوجه عام ، وتستك مسامعهم من الهلع إذا سمعوا أن قساً تزوج . وقد أعلن مجلس جنجرا Oengra الديني (حوالي ٣٦٢) أن هذه الآراء لا تتفق مع الدين ، ولكن الكنيسة مع ذلك ظلت تطالب

قساوستها وتلح عليهم إلحاحا متزايدا أن يظلوا بلا زواج . ولقد ظلت الأملاك توهب للكنائس ويزداد مقدارها زيادة مطردة ، وكان يحدث من آن إلى آن أن يوصى لقس متزوج ، وأن ينتقل المال الموصى له إلى خريته من بعده . وكان زواج رجال الدين يؤدي في بعض الأحيان إلى الزنى أو غيره من الفضائح ، وإلى انحطاط مكانة القس في أعين الشعب ، ولهذا فإن مجمعا مقدسا عقد في عام ٣٨٦ أشار على رجال الدين بالعفة المطلقة ، وبعد عام من ذلك الوقت أمر البابا سريسيوس Siricius بتجريد كل قس يتزوج أو يبقى مع زوجته التي تزوج بها من قبل . وأيد جيروم ، وأمبروز ، وأوغسطين هذا المرسوم بقواتهم الثلاث ، وبعد أن لقي مقاومة متفرقة ، دامت جيلا بعد جيل من الزمان ، نفذ في الغرب بنجاح قصير الأجل .

وكانت أخطر المشاكل التي لاقها الكنيسة ، والتي تلى في خطورتها مشكلة التوفيق بين مثلها العليا وبقائها ، هي الوسيلة التي تمكنها من الحياة مع الدولة ذلك أن قيام نظام كهتوتى إلى جانب موظفى الحكومة كان من شأنه أن يخلق نزاعا على السلطة لا يسود معه سلم إلا إذا خضعت إحدى الهيئتين للأخرى ؛ فأما في الشرق فقد خضعت الكنيسة ، وأما في الغرب فقد أخذت تحارب دفاعا عن استقلالها ، ثم أخذت بعدئذ تحارب تأييدا لسيادتها على الدولة . وكان اتحاد الكنيسة والدولة في كلتا الحالتين يتضمن تعديلا أساسيا في المبادئ الأخلاقية المسيحية . من ذلك أن ترتليان Tertullian وأرجن Origen ، ولكتنتيوس Lactantius كانا يُعلّمان من قبل أن الحرب غير مشروعة في جميع الأحوال ، أما الآن فإن الكنيسة ، وقد أصبحت تحت حماية الدولة ، قد رضيت بالحروب التي تراها ضرورية لحماية الدولة . أو الكنيسة ، وكانت الكنيسة نفسها عاجزة

عن اصطناع القوة ، ولكنها إذا رأت أن القوة لازمة لها كانت تلجأ إلى القوة الدنيوية لفرض إرادتها . وكانت تتلقى من الدولة ومن الأفراد هبات قيمة من المال ، والمعابد والأراضي ، فأثرت وأصبحت في حاجة إلى الدولة لتحمي كل ما كان لها من حقوق الملكية ، وظلت تحتفظ بثروتها حتى بعد أن سقطت الدولة . ذلك أن الفاتحين البرابرة ، مهما كان خروجهم على الدين ومخالفة أوامره قلما كانوا ينهبون الكنائس أو يجرّدونها من أملاكها لأن سلطان القول أصبح بعد قليل يضارع سلطان السيف .

الفصل الثاني

المارقون

لقد كان أشق الواجبات التي واجهها التنظيم الكنسي هو منع تفتت الكنيسة بسبب تعدد العقائد المخالفة لتعاريف العقيدة المسيحية كما قررتها المجالس الدينية . ولم تكد الكنيسة تظهر بالنصر على أعدائها حتى امتنعت عن المناذاة بالتسامح ، فكانت تنظر إلى الفردية في العقيدة بنفس النظرة المعادية التي تنظر بها الدولة إلى الانشقاق عنها أو الثورة عليها ، ولم تكن الكنيسة ولا الخارجون عليها يفكرون في هذا المروق على أنه مسألة دينية خالصة ، وكان المروق في كثير من الحالات مظهراً فكرياً لثورة محلية تهدف إلى التحرر من سلطان الإمبراطورية فاليعقوبيون Monophysites كانوا يريدون أن يحرروا سوريا ومصر من سيطرة القسطنطينية وكان الدوناتيون(*) يرجون أن يحرروا أفريقيا من نير رومة ، وإذا كانت الكنيسة والدولة قد توحدتا في ذلك الوقت ، فقد كان الخروج على إحدهما خروجاً على الاثنين معاً . وكان أصحاب العقيدة الدينية الرسمية يقاومون القومية ، كما كان المارقون يؤيدونها ويدافعون عنها ، وكانت الكنيسة تعمل جاهدة للمركزية وللوحدة ، أما المارقون فكانوا يعملون في سبيل الاستقلال المحلي والحرية .

وأحرزت الآريوسية نصراً مؤزراً بين البرابرة بعد أن غلبت على أمرها في داخل الإمبراطورية . وكانت المسيحية قد جاءت إلى القبائل التيوتونية على أيدي

(*) شئمة مسيحية قامت في أفريقية في القرنين الرابع والخامس كانت تعارض في كل ما ينقص من الاحترام الواجب لشهداء الكنيسة ، وتعامل الخاطئين بمنتهى القسوة ، وتعيد تعميد من يعتقدون مبادئها من أتباع الكنيسة السكاثوليكية . وهي تنتسب إلى دوناتس Donatus أحد زعمائها . (المترجم)

الأسرى الرومان الذين قبض عليهم القوط أثناء غزوهم آسية الصغرى في القرن الثالث . ولم يكن « الرسول » ألفلاس Alfilas (٣١١ ؟ - ٣٨١) رسولا بالمعنى الصحيح لهذا اللفظ ، بل كان من أبناء أسير مسيحي من كبدوكية ، ولد بين القوط الذين كانوا يعيشون في شمال نهر الدانوب وترى بين ظهرانيهم . وفي عام ٤٣١ رسمه يوسبيوس مطران نقوميديا الأريوسى أسقفا عليهم . ولما اضطهد أثريك Athanaric الزعيم القوطى من كان فى أملاكه من المسيحيين أذن قنستنتيوس الأريوسى لألفلاس أن يعبر بالبحالية القوطية المسيحية القليلة العدد نهر الدانوب ، وينزلها فى تراقية ، وأراد أن يعلم معتق دينه من القوط أصول هذا الدين ، وأن يكثر عددهم ، فترجم فى صبر وأناة جميع أسفار الكتاب المقدس إلى اللغة القوطية ما عدا أسفار الملوك فقد جذفها لأنها فى رأيه ذات نزعة عسكرية خطيرة ، وإذ لم يكن للقوط وقتئذ حروف هجائية يكتبون بها ، فقد وضع لهم هذه الحروف معتمداً فى وضعها على الحروف اليونانية . وكانت ترجمته هذه أول عمل أدبى فى جميع اللغات التيوتونية . ووثق القوط بحكمة ألفلاس واستقامته لشدة إخلاصه وتمسكه بأهداب الفضيلة ، ثقة حملتهم على أن يقبلوا مبادئه المسيحية الأريوسية دون مناقشة . وإذا كان غير هؤلاء من البرابرة قد تلقوا أصول المسيحية فى القرنين الرابع والخامس عن القوط أنفسهم ، فقد كان جميع من غزوا الإمبراطورية ، إلا قليلا منهم ، من الأريوسيين ، كما كانت الممالك الجديدة ، التى أقامها فى البلقان ، وغالة وأسبانيا ، وإيطاليا ، وأفريقية أريوسية من الناحية الرسمية . ولم يكن الفرق بين دين الغالبين والمغلوبين إلا فرقا ضئيلا : ذلك أن أتباع الدين القويم كانوا يعتقدون أن المسيح مطابق فى كينونته (homousios) لله الأب ، أما الأريوسيون فكانوا يعتقدون أنه مشابه لا أك ، فى كينونته (homorousios) لله الأب . ولكن هذا الفرق الضئيل أصبح عظيم الأثر فى الشئون السياسية فى القرنين الخامس والسادس . وبفضل تتابع الحوادث على هذا النحو ثبتت الأريوسية حتى غلب

الفرنجية أتباع الدين القويم القوط الغربيين في غالة ، وفتح بلساريوس Belisarius أفريقية الوندالية ، وإيطاليا القوطية ، وغير ريكارد Recared (٣٨٩) عقيدة القوط الغربيين في أسبانيا .

وليس في وسعنا الآن أن نشغل أنفسنا بجميع العقائد الدينية المختلفة التي كانت تضطرب بها الكنيسة في تلك الفترة من تاريخها — عقائد اليونانيين Eupomians والأنوميين Anomeans والأبليين Appollinarians والمقدونيين ، والسبليين Sabellians ، والمساليين Maasilians ، والنوفاثيين Norvatians ، والبرسليانيين Priscillianists ، وكل ما في وسعنا أن نفعله هو أن نرثي لهذه السخافات التي امتلأت بها حياة الناس ، والتي ستظل تملؤها في المستقبل . ولكن من واجبنا أن نقول كلمة عن المانية Manicheism تلك العقيدة التي لم تكن مروقاً من المسيحية بقدر ما كانت ثنائية فارسية تجمع بين الله والشيطان ، والخير والشر ، والضوء والظلام . وقد حاولت أن توفق بين المسيحية والزردشتية ، ولكن الدينين قاوماها مقامة شديدة . وقد واجهت هذه العقيدة بصراحة منقطة النظر مشكلة الشر ، وما في العالم الذي تسيطر عليه العناية الإلهية من عذاب وآلام كثيرة يبدو أن من ينوءون بها لا يستحقونها ، وشعرت بأن ليس أمامها إلا أن تفترض وجود روح خبيثة ، أزلية ، كالروح الخيرة . واعتنق المانية كثيرون من الناس في الشرق والغرب ، ولجأ بعض الأباطرة في مقاومتها إلى وسائل غاية في القسوة ، وعدها جستنيان من الجرائم الكبرى التي يعاقب عليها بالإعدام ؛ ثم ضعف شأنها شيئاً فشيئاً وأخذت في الزوال ، إلا أنها تركت بعض آثارها في بعض الطوائف المارقة المتأخرة كالپوليسية Paulicians ، والبجوميلية Bogomiles ، والألبجنسية Albegensians . وقد اتهم أسقف أسباني يدعى پرسليان Priscilian في عام ٣٨٥ بأنه يدعو إلى المانية وإلى العزوبة العامة ؛ وأنكر الرجل التهمة ، ولكنه

حوكم أمام مكسموس الإمبراطور المغتصب في تريير ، وكان اللذان اتهماه اثنين من الأسقفية ، وأدين الرجل وحرق هو وعدد من رفاقه في عام ٣٨٥ بالرغم من احتجاج القديسين أمبروز ومارتن .

ويضا كانت الكنيسة تواجه كل أولئك المهاجمين ، إذ وجدت نفسها يكاد يغمرها سيل المارقين اللوثانيين في أفريقية . وتفصيل ذلك أن دوناتوس Donatus ، أسقف قرطاجنة (٣١٥) ، كان قد أنكر ما للعشاء الرباني الذي يقدمه القساوسة من أثر في الخطيئة ، ولم تشأ الكنيسة أن تنزع من رجالها هذه الميزة الكبيرة فهدتها حكمتها إلى عدم الأخذ بهذه الفكرة . ولكن هذه العقيدة المارقة أخذت تنتشر على الرغم من هذا انتشاراً سريعاً في شمالي أفريقية ، وتحمس لها الفقراء من الأهلين ، واستجال هذا الانحراف الديني إلى ثورة اجتماعية ، وغضب الأباطرة أشد الغضب على هذه الحركة ، وأصدروا المراسم المتعاقبة ضد من يستمسكون بها ، وفرضوا عليهم الغرامات الفادحة ، وصادروا أملاكهم ، وحرموا على اللوثانيين حق التصرف فيما يمتلكون بالبيع أو الشراء أو الوصية ، وأخرجهم جنود الأباطرة من كنائسهم بالقوة ، وأعطيت هذه الكنائس للقساوسة أتباع الدين القويم . وسرعان ما تألفت عصابات مسيحية - شيوعية في آن واحد - وسميت باسم الجوابين Circumcelliones ؛ وأخذت تندد بالفقر والاسترقاق ، فألغت الديون ، وحررت الرقيق ، وحاولت أن تعيد المساواة المزعومة التي كان يتمتع بها الإنسان البدائي . وكانوا إذا قابلوا عربة يجرها عبيد ، أركبوا العبيد العرب ، وأرغموا سيدهم على أن يجرها خلفه . وكانوا يقتنعون عادة بالسرقة وقطع الطريق على المارة ، ولكنهم كانوا في بعض الأحيان يغضبون من المقاومة ، فيعمدون أعين أتباع الدين القويم أو أعين الأغنياء بمسحها بالخير ، أو يضربونهم بالعصى الغليظة حتى يموتوا . وكانوا إذا واجهوا الموت ابتهجوا به لأنه يضمن لهم الجنة . واستبد بهم التعصب الديني آخر الأمر ، فكانوا يسلمون أنفسهم إلى ولاية

الأمور معترفين بأنهم مارقون من الدين ، ويطلبون بالاستشهاد . وكانوا يعترضون السابلة ، ويطلبون إليهم أن يقتلوهم ، ولما أن تعب أعداؤهم أنفسهم من إجابتهم إلى ما يريدون أخذوا يطلبون الموت بالقفز في النيران المتقدة أو بإلقاء أنفسهم من فوق الأجراف العالية ، أو بالمشي فوق ماء البحر^(٢) . وحارب أوغسطين الدوناتيين بكل ما كان لديه من الوسائل ، وبدأ في وقت من الأوقات أنه قد تغلب عليهم ؛ ولكن الدوناتيين عادوا إلى الظهور أكثر مما كانوا عددا حين جاء الوندال إلى أفريقية ، وسروا أعظم السرور لطرده قساوسة الدين القويم . وبقي الحقد الطائفي يأكل الصلور ، وينتقل من الأبناء إلى الآباء ، وهو أشد ما يكون قوة ، حتى جاء العرب إلى أفريقية في عام ٦٧٠ فلم يجدوا في البلاد قوة متحدة تقف في وجههم .

وكان بلاجيوس Pelagius في هذه الأثناء يثير قارات ثلاثاً بهجومه على عقيدة الخطيئة الأولى ، كما كان نسطوريوس يطلب الاستشهاد بما يجهر به من شكوك في أم المسيح ، وكان نسطوريوس في بدء حياته من تلاميذ ثيودور المبسوستيائي Theodore of Mopsuestia (٣٥٠ ؟ — ٤٢٨ ؟) الذي كاد أن يبتدع النقد الأعلى للكتاب المقدس . وكان من أقوال ثيودور هذا أن سفر أيوب إن هو إلا قصيدة مأخوذة بتعديل من مصادر وثنية ، وأن نشيد الإنشاد إن هو إلا إحدى أغاني الفرس ذات معنى شهواني صريح ؛ وأن الكثير من نبوءات العهد القديم التي يزعم الزاعمون أنها تشير إلى يسوع ، لا تشير إلا إلى حوادث وقعت قبل المسيحية ؛ وأن مريم ليست أم الله ، بل هي أم الطبيعة البشرية في يسوع^(٣) . ورفع نسطوريوس نفسه إلى كرسي الأسقفية في القسطنطينية (٤٢٨) ، والتفت حوله الجموع لفصاحته وذلاقة لسانه ، ولكنه خلق له أعداء بتعسفه في عقائده ، وأتاح الفرصة لهؤلاء الأعداء بقبوله فكرة ثيودور غير الكريمة في مريم . وكانت كثرة المسيحيين تقول : إذا كان المسيح إلها ، كانت مريم قد حملت في الله theotokos

أى أنها أم الله ، ولكن نسطوريوس يقول إن هذا أكثر مما يطبق ويرد عليهم بقوله إن مريم لم تكن أم الطبيعة الإلهية في المسيح بل أم طبيعته البشرية ، وإن خيراً من تسميتها بأم الله أن تسمى أم المسيح .

وألقي سيريل Cyril ، كبير أساقفة الإسكندرية ، موعظة في يوم عيد القيامة من عام ٤٢٩ أعلن فيها العقيدة التي تدين بها كثرة المسيحيين ، وهي أن مريم ليست أم الله الحق بل هي أم كلمة الله ، المشتمة على طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية معاً^(٤) . واستشاط البابا سلاستين Celestine الأول غضباً على أثر رسالة تلقاها من سيريل فعقد مجلساً في رومة (٤٣٠) ، طالب بأن يرجع نسطوريوس عن آرائه أو يعزل من منصبه . فلما رفض نسطوريوس كلا المطلبين اجتمع في إفسوس (٤٣١) مجلس عام ، لم يعزل نسطوريوس فحسب بل حرمه أيضاً من الكنيسة المسيحية ، واحتج على ذلك كثيرون من الأساقفة ، ولكن أهل إفسوس قاموا بمظاهرات صاخبة يعلنون فيها ابتهاجهم بقرار الحرمان ، وكانت مظاهرات أحييت بلا ريب ذكريات ديانا - أرتيميس . وسمح لنسطوريوس أن يرتحل إلى أنطاكية ، ولكنه وهو فيها ظل يدافع عن آرائه ، ويطالب بالعودة إلى منصبه ، فنفاه الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني إلى واحة في صحراء ليبيا ، بقى فيها سنين كثيرة ، حتى أشفقت عليه حاشية الإمبراطور في الدولة الشرقية فبعثت إليه بعفو إمبراطوري . فلما جاءه الرسول وجده يحتضر (حوالى ٤٥١) وانتقل أتباعه من بعده إلى شرق سوريا ، وشادوا لهم كنائس وأنشأوا مدرسة لتعليم مذهبهم في الرها وترجموا التوراة وكتب أرسطو وجالينوس إلى اللغة السريانية ، وكان لهم شأن أعظم شأن في تعريف المسلمين بعلوم اليونان وطبهم وفلسفتهم . ولما اضهدهم الإمبراطور زينون انتقلوا إلى فارس وأنشأوا مدرسة عظيمة الأثر في نصيبين . وعلا شأنهم بسبب اضطهاد الفرس لهم ، وتكونت منهم جماعات في بلخ وسمرقند وفي الهند والصين ، ولا يزالون حتى الآن يعيشون جماعات متفرقة في آسية ، ولا يزالون ينكرون عبادة مريم .

وكانت آخر الشيع المارقة الكبرى في ذلك العصر المضطرب وأعظمها أثراً في تاريخ المسيحية هي التي أنشأها أوتيكيس Eutyches رئيس دير قريب من القسطنطينية . وكان أوتيكيس هذا يقول إن المسيح ليست له طبيعتان بشرية وإلهية ، بل إن له طبيعة واحدة هي الطبيعية الإلهية . ودعا فلافيان Flavian بطريق القسطنطينية مجمعاً محلياً مقدساً أنكر هذه البدعة القائلة بالطبيعة الواحدة ، وحرّم أوتيكيس من الكنيسة المسيحية . ولجأ الراهب إلى أسقف الإسكندرية ورومة ؛ وأقنع ديوسكوراس ، الذي خلف سيريل ، الإمبراطور ثودوسيوس بأن يدعو مجلساً آخر في إفسوس (٤٤٩) . وكان الدين وقتئذ خاضعاً للسياسة ؛ وكان كرسي الإسكندرية لا يزال يعارض كرسي القسطنطينية ؛ فبرئ أوتيكيس وهوجم فلافيان هجوماً خطاياً عنيفاً قضى على حياته^(٥) . وأصدر المجلس قراراً بلعنة كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح . ولم يحضر البابا ليو الأول المجلس ، ولكنه بعث إليه بعدة رسائل يؤيد فيها فلافيان . وارتاع ليو من التقرير الذي أرسله إليه مندوبوه ، فأطلق على هذا المجلس اسم « مجمع اللصوص » وأبى أن يوافق على قراراته ثم عقد مجلس آخر في خلقيدون Chalcedon عام ٤٥١ أبدى استحسانه لرسائل ليو وسخطه على أوتيكيس ، وأيد من جديد ازدواج طبيعة المسيح . ولكن القاعدة الثامنة والعشرين من القواعد التي أقرها المجلس أكدت مساواة سلطة أسقف القسطنطينية لسلطة أسقف رومة . وكان ليو قبل ذلك يدافع عن حقه في أن تكون لكرسيه السلطة العليا لأنه يرى ذلك ضرورياً لوحدة الكنيسة وسلطانها . ولذلك رفض هذه القاعدة وبدأ بذلك نزاع طويل الأمد بين الكرسيين .

وزاد الاضطراب حتى أوفى على غايته حين رفضت كثرة المسيحيين في سوريا ومصر عقيدة الطبيعتين في شخص المسيح المفرد ، وظل رهبان سوريا يعلمون الناس عقائد اليعقوبيين ، ولما أن عين أسقف لكرسي الإسكندرية من أتباع الدين القويم قتل ومزق جسمه إرباً في كنيسة في يوم الجمعة الحزينة^(٦) . وأصبحت

اليقونية من ذلك الحين الدين القوي لمصر واثيوبيا المسيحتين ، ولم يحل
القرن السادس حتى كانت لها الغلبة في غربي سوريا ، وأرمينية ، بينما انتشرت
النسطورية فيما بين النهرين وشرق سوريا . وكان نجاح الثورة الدينية من أكبر
العوامل في نجاح الثورة السياسية ، ولما تدفق سيل العرب الجارف على مصر
والشرق الأدنى في القرن السابع رحب بهم نصف سكانها ورأوا فيهم محررين
لهم من استبداد العاصمة البيزنطية الدينية والسياسي والمالي .

الفصل الثالث

الغرب المسيحي

(١) رومة

لم يظهر أساقفة رومة في القرن الرابع بالمظهر الذي يشرف الكنيسة ، ويعلى من قدرها . فهاهو ذا سلفستر (٣١٤ - ٣٣٥) يعزى إليه فضل اعتناق قسطنطين المسيحية . ثم تقول الطائفة التقية المتدينة إنه تلقى من قسطنطين هبته المعروفة « بعطية قسطنطين » وهي غرب أوربا بأكمله تقريباً ، ولكنه لم يسلك مسلك من يمتلك نصف عالم الرجل الأبيض . وقد أكد يوليوس الأول (٣٣٧ - ٣٥٢) سلطة كرسي رومة العليا ، ولكن ليريوس (٣٥٢ - ٣٦٦) خضع بسبب شيخوخته أو ضعفه إلى أوامر قسطنطين الأريوسية . ولما مات تنازع دماسوس Damasus ويورنسوس Urinsus البابوية ، وانقسم الغوغاء أيضاً في تأييد المتنازعين بكل ما عرفته تقاليد الديمقراطية الرومانية من عنف يستطيع القارئ أن يتصوره إذا عرف أنه قتل في يوم واحد وفي كنيسة واحدة ١٣٧ شخصاً في نزاع قام بين أنصار الرجاين (٧) . وقد أدى هذا إلى أن نفي بريتكستاتوس ، حاكم رومة الوثني ، يورنسوس منها ، فاستتب الأمر للدماسوس وظل يصرف الشئون الدينية بغير قليل من المتعة والحذق . وكان الرجل من علماء الآثار ، فأخذ يزين قبور الشهداء الرومان بالنقوش الجميلة ، وكان كما يقول بعض الوقحين ، من الذين « يخلشون آذان السيدات » أي أنه كان بارعاً في جلب الهدايا إلى الكنيسة من نساء رومة الموصرات (٨) .

وجلس ليو الأول ، الملقب بليوالأكبر ، على عرش بطرس خلال جيل (٤٠٠ - ٤٦١) من الأزمات ، استطاع فيه بشجاعته وحسن سياسته أن يزيد

سلطة الكرسي الرسولي وهيبته . ولما لئن رفض هيلاري أسقف پواتيه Hilary of Poitiers أن يدعن لحكمه في نزاع شجر بينه وبين أسقف غالي آخر ، أرسل إليه ليو أوامر حاسمة عاجلة ، أيدها الإمبراطور فلنتيان الثالث بمرسوم من أهم المراسيم الإمبراطورية يؤكد فيه سلطة أسقف رومة على جميع الكنائس المسيحية ، واعترف أساقفة الغرب بوجه عام بهذه السلطة العليا ، أما أساقفة الشرق فقاوموها . وقال بطارقة القسطنطينية وأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية إن لهم من السلطة ما لكرسي رومة ، وظل الجدل العنيف قائماً بين الكنائس الشرقية ، وكانت في خلاله لا تطيع أوامر أسقف رومة إلا في القليل النادر . واجتمعت صعاب النقل والاتصال مع اختلاف اللغة فزادت الفرة بين الكنيسة الشرقية والغربية . لكن بابوات الغرب أخذوا يزيدون من نفوذهم حتى في غير الشؤون الدينية . لقد كانوا يخضعون في غير الشؤون الدينية إلى الدولة الرومانية وإلى حكام رومة ، وظلوا حتى القرن السابع يطلبون إلى الإمبراطور أن يعتمد اختيارهم لمنصبهم الديني . ولكن بعدهم عن أباطرة الشرق وضعف حكام الغرب قد تركا البابا صاحب السلطان الأعلى في رومة ، ولما أن فر أعضاء مجلس الشيوخ وفر الإمبراطور من وجه الغزاة ، وتقوضت دعائم الحكومة المدنية ، وظل البابوات في مناصبهم لم يرههم شيء من هذا كله ، لما حدث هذا ارتفعت مكانتهم ارتفاعاً سريعاً ، وزادت هيبتهم . ولما اعتنق البرابرة الغربيون المسيحية زاد ذلك من سلطة كرسي رومة ونفوذه زيادة كبرى .

ولما تركت الأسر الغنية والأرستقراطية الدين الوثني واعتنقت المسيحية كان للكنيسة الرومانية نصيب متزايد من الثروة التي جاءت إلى عاصمة الدولة الغربية ، ولشد مدهش أميانوس حين وجد أن أسقف رومة يعيش عيشة الأمراء في قصر لاتران Lateran ، ويمشي في المدينة بمظاهر الأبهة الإمبراطورية^(٩) . وازدانت المدينة وقتئذ بالكنائس الفخمة ، ونشأ فيها مجتمع ديني راق اختلط فيه رجال

الدين الظرفاء اختلاطاً ممتعاً بالغانيات الموسرات ، وساعدوهن على أن يكتبن وصاياهن .

وكانت جمهرة الشعب المسيحي تشترك مع البقية الباقية من الوثنيين في مشاهدة التمثيل والسباق والألعاب ، ولكن أقلية منهم حاولت أن تحيا حياة تتفق مع ما جاء في الأناجيل . وكان أنطاسيوس قد جاء إلى رومة براهبين مصريين ، وكتب ترجمة لحياة أنطونيوس ، وكان روفينوس Rufinus قد نشر في الغرب تاريخ الأديرة في الشرق ، فتأثرت عقول أنقياء المسيحيين بما ذاع عن تدين أنطونيوس ، وشنوده ، وباخوم ، وأنشأ سكستوس الثالث Sextus III (٤٣٢ - ٤٤٠) وليو الأول أديرة في رومة ، ورضيت كثير من الأسر أن تحيا حياة العفة والفقر التي يحياها الرهبان في الأديرة ، وإن ظلت تقيم في منازلها . وخرجت كثير من السيدات ذوات الثراء مثل مرسلا Marcella ، وبولا ، وثلاثة أجيال من أسرة ملانيا من الجزء الأكبر من مالهن للصدقات ، وأنشأن المستشفيات والأديرة ، وحججن إلى رهبان الشرق ، وبلغ من تقشفهن وزهدهن أن مات بعضهن من الحرمان . وأخذت الدوائر الوثنية في رومة تشكو من أن هذا النوع من المسيحية لا يتفق مع حياة الأسر ، أو مع نظام الزواج ، أو مع القوة التي تحتاجها الدولة ، وثار الجدل الشديد حول آراء زعيم الزاهدين في الغرب ، وهو في الوقت نفسه من أكبر العلماء وأنبه الكتاب الذين أنجبهم الكنيسة المسيحية .

٢ - القديس جيروم

ولد حوالي عام ٣٤٠ في استريدو Strido القرية من أكويليا ، وأغلب الظن أنه من أصل دلاشي ، وكانما كان أهله يتنبتون بما سيكون له من شأن فسموه يوسبيوس هيرونيوموس سفرونيوس Eusebius Hieronymus Sophronius « أي الحكيم المبجل صاحب الاسم المقدس » ، ونال قسطاً كبيراً من التعليم في قرير ورومة ، ودرس الكتب اللاتينية القديمة دراسة طيبة ، وأحبها حباً وصل

في ظنه إلى حد الخطيئة . ولكنه مع هذا كان مسيحياً شديداً التمسك
بدينه ، عاملاً بأوامره ، ساعياً إلى خيره ، انضم إلى روفينوس وغيره من
أصدقائه في تكوين جماعة من الإخوان الزهاد في أكويليا . وكان يعظهم
مواظب يدعوهم فيها إلى الكمال ، حتى لأمه أسقفه لقلّة صبره على ما في الطبيعة
البشرية من أسباب الضعف . وكان جواب جيروم أن قال للأسقف إنه
جاهل ، فظ ، آثم ، خالق بالقطيع العالى الذى يقوده ، مرشد غير حاذق
لسفينة ضالة^(١٠) . وترك جيروم وبعض أصدقائه مدينة أكويليا تتردى في
خطاياها ، ورحلوا إلى الشرق الأدنى ودخلوا ديراً في صحراء خلقيس بالقرب
من أنطاكية (٣٧٤) ، ولكنهم لم يحتملوا حرها القاسى غير الصحى فأت
اثنان منهم ، وأوشك جيروم هو أيضاً أن يموت . ولكن هذا لم يشنه عما
أراده لنفسه ، فغادر الدير ليعيش عيشة النساك في صومعة في الصحراء ،
وكان يرجع بين الفنية والفينة إلى فرجيل وشيشرون . ذلك أنه جاء معه
بمكتبته ، ولم يكن في وسعه أن يقطع صلته بالشعر والنثر اللذين كان جالها
يستهو به كما يستهوى جمال الفتيات غيره من الرجال . وإن ما يقوله هو نفسه
عن هذا ليكشف عن طبيعة الناس في العصور الوسطى ، فقد رأى فيما
يراه النائم أنه مات :

« وجيء بى إلى مجلس القضاء الأعلى ، وطلب إلى أن أفصح
عن أمرى ، فأجبت بأننى مسيحى . ولكن من كان يرأس الجلسة قال :
« إنك لتكذب ، فإ أنت بمسيحى ، ولكنك من أتباع شيشرون » فحيثما
يكون كنزك يكون أيضاً قلبك » فعقد لسانى من فورى ولم أحر جواباً ،
« ثم شعرت » بضربات السوط لأنه أمر بى أن أجلد . . . وفى آخر
الأمر خر من كانوا يشهدون المحاكمة سجداً بين يدى رئيس الجلسة
وتوسلوا إليه أن يرحم شبابى ويتيح لى فرصة التوبة من ذنبى ، على
أن يصب على أقصى أنواع العذاب إذا ما عدت إلى قراءة كتب المؤلفين
غير المسيحيين . . . ولم تكن هذه التجربة أضغاث أحلام لذيلة . . . بل لى

لأقر بأن جلد كنى قد ازرق واسود من شدة الضرب ، وأنى ليشت أنحس بالرضوض بعد أن صحت بزمان طويل وأخذت من ذلك الحين أقرأ كتب الله بمحاسة أكثر من التى كنت أقرأ بها من قبل كتب بنى الإنسان ، (١١) .

وعاد إلى أنطاكية . فى عام ٣٧٩ ورسم فيها قسيساً . وفى عام ٣٨٢ نجده فى رومة أميناً للبابا دماسوس الذى كلفه بترجمة العهد الجديد إلى اللغة اللاتينية ترجمة خيراً من التراجم الموجودة فى ذلك الوقت . وظل فى منصبه الجديد يلبس الثوب القائم والجلباب اللذين كان يلبسهما أيام نسكه ، ويعيش عيشة الزهد فى بلاط البابا المترف ، وكانت مرسلات وپولا التقيتان تستقبلانه فى بيتيهما الأرستقراطيين وتهتديان بهديه الروحى ، وكان تقاده الوثنيون يظنون أنه يستمتع بصحبة النساء أكثر مما يليق برجل مثله بمدح بأقوى الألفاظ عزوبة الرجال ، وبقاء البنات عذارى . وقد رد عليهم بأن وجه إلى المجتمع الرومانى فى عصره هجاء بألفاظ سيظل يذكرها الناس إلى أبد الدهر قال :

أولئك النسوة اللاتى يصبغن خلودهن بالأصباغ الحمراء ، ويكتحلن بالإثمد ويضعن المساحيق على وجوههن . . . واللاتى لا تقنعن السنون مهما طالن بأنهن قد تقدمت بهن السن ، واللاتى يكدمن الغدائر المستعارة ، على رعوسهن . ويسلكن أمام أحفادهن مسلك فتيات المدارس اللاتى يرتجفن من الخوف . . . إن الأرامل الخارججات على الدين المسيحى يتباهين بأثوابهن الحريرية ، ويتحلين بالجواهر البراقة ، وتفوح منهن رائحة المسك . . . ومن النساء من يلبسن ملابس الرجال ، ويقصصن شعرهن . . . ويستحجن من أنوثتهن ، ويفضلن أن يظهرن بمظهر الخصيان . . . ومن النساء غير المتزوجات من يستعن بالسوائل لمنع الحمل ، ويقتلن بنى الإنسان قبل أن يحملن بهم ، ومنهن من إذا وجدن أنهن قد حملن نتيجة لإثمنهن ، يجهضن أنفسهن بما يتعاطين من العقاقير . . . لكن من النساء من

يقول : « إن كل شيء ظاهر عند الطاهرات . . . فلم إذن أحرم على نفسى ما خلقه الله لأستمتع به ؟ » (١٢) .

وهو يؤنب امرأة رومانية بعبارات تم عن تقديره لجمال النساء :

« إن صدرتك مشقوقة عن عمد . . . وثديك مشدودان بأربطة من التيل ، وصدرك سجين في منطقة ضيقة . . . ونحارك يسقط أحياناً حتى يترك كتفك البيضاء عاريتين ، ثم تسرعين فتغطين به ما كشفته عن قصد » (١٣) ، ويضيف جيروم إلى تحير الرجل الأخلاقى مغالاة الفنان الأديب الذى يصور عصراً من العصور ، والمحامى الذى يتبسط في ملخص دعوى : ويذكرنا هجاؤه بهجاء جوفثال ، أو بما نقرأه من هجاء هذه الأيام . ومن الطريف أن نعرف أن النساء كن على الدوام ذوات سحر ودلال كما هن في هذه الأيام . ويشبه جيروم جوفثال في أنه حين يطعن في أمر لا يرضيه يتقصاه بنزاهة وشجاعة . وقد روعه أن يجد التسرى منتشراً حتى بين المسيحيين ، وروعه أكثر من هذا أن وجده يتخفى وراء ستار التعفف من أشق السبل . ومن أقواله في هذا : ترى من أى مصدر وجد هذا الوباء وباء « الأخت العزيزة المحبوبة » طريقه إلى الكنيسة ؟ ومن أين جاءت هذه الزوجات اللاتي لم يتزوج أحد بهن ؟ هذه السرارى الحديثات ، وهذه العاهرات اللاتي اختص بهن رجل واحد ؟ إنهن يعشن مع أصدقائهن من الذكور في بيت واحد ويشغلن معهن حجرة واحدة ، وكثيراً ما يشتركن معهم في فراش واحد ، ومع هذا فهم يقولون عنا إننا نسيء بهن الظن إذا رأينا في هذا عيباً (١٤) . وهو يهاجم القساوسة الرومان الذين كان في مقدورهم أن يرفعوه بتأييدهم إلى كرسي البابوية ، ويسخر من رجال الدين الذين يعتمصون شعورهم ، ويعطرون ثيابهم ، ويترددون على المجتمعات الراقية ، والقسيسين الذين يحرون وراء الوصايا ويستيقظون قبل مطلع الفجر ليذكروا النساء قبل أن يقمن من فراشهن (١٥) ، ويندد بزواج القساوسة ، ويشذوهم الجنسي ، ويدافع دفاعاً قوياً

عن بقاء رجال الدين بلا زواج ؛ ويقول إن الرهبان وحدهم هم المسيحيون الحقيقيون المبرءون من الملك والشهوات ، والكبرياء ؛ ويدعو جيروم الناس كافة ، ببلاغة لو سمعها كسنوثا Casanova لتعلق به وصار من أتباعه ، لأن يخرجوا عن كل مالم ويتبعوا المسيح ؛ ويطلب إلى الأمهات أن يهبن أول أبنائهن إلى الله ، لأن أولئك الأبناء من حقه عليهن حسب نص الشريعة^(١٦) ؛ وينصح صديقاته من النساء أن يعشن عذارى في بيوتهن إذا تعذر عليهن أن يدخلن الدير . ويكاد جيروم أن يعد الزواج من الخطايا ويقول : « إني لا أمدح الزواج إلا لأنه يأتي بالعذارى^(١٧) » ، ويريد أن « يقطع بفأس البكورية خشب الزواج »^(١٨) ؛ ويفضل بوحنا الرسول الأعزب على بطرس الذي تزوج^(١٩) . وأظرف رسائله كلها هي التي كتبها إلى فتاة (٣٨٤) تدعى أوستكيوم Eustochium في لذة البكورية ، ويقول فيها إنه لا يعارض في الزواج ، ولكن الذين يتجنبونه ينجون من سدوم Sodom ومن آلام الحمل ، وصراخ الأطفال ، ومناعب البيوت ، وعذاب الغيرة . وهو يعترف بأن طريق العفة شاق أيضاً ، وأن ثمن البكورية هو اليقظة الدائمة :

« إن فكرة واحدة قد تكفي لضياغ البكورية . . . فليكن رفاقك هم صفر الوجوه الذين هزلت أجسامهم من الصوم . . . وليكن صومك حادثاً يتكرر في كل يوم ، اغسل سريرك ، ورشي مخدعك كل ليلة بالدموع . . . ولنكن عزلة غرفتك هي حارسك على الدوام . . . ودعى الله عريسك هو الذي يلعب معك في داخلها . . . فإذا غلبك النوم جاءك من خلف الجدار ، ومد يده من خلال الباب ، ومس بها بطنك ، فصاحوت من النوم وقت واقفة وناديت « إني أهيئ بحبك » فتسمعنه يقول : « إن أختي ، حبيبتي ، جنة مغلقة ، وعين ماء غير مفتوحة ، وينبوع مختوم »^(٢٠) .

ويقول جيروم إنه لما نشرت هذه الرسالة : « حياها الناس بوابل من

الحجارة » ؛ ولعل بعض قرائها قد أحسوا في هذه النصائح بلوعة سقيمة في رجل يبدو أنه لم يسلم بعد من حرارة الشهوات . ولما ماتت بليسلا Blesilla الفتنة الزاهدة بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت (٣٨٤) ، أخذ الكثيرون ينددون بالزهد الصارم الذي علمها إياه جيروم ، وأشار بعض الوثنيين بإلقائه هو وجميع رهبان رومة في نهر التيبر . لكن جيروم لم يندم على ما فعل ، ووجه إلى أمها التكللى ، التى كاد الحزن أن يذهب بعقلها ، رسالة تعزية وتقريع . ولما توفى البابا دماسوس فى ذلك العام نفسه لم يجدد خلفه تعيين جيروم أميناً لسره ، فخرج من رومة فى عام ٣٨٥ ولم يعد إليها أبداً ، وصحب معه پولا Paula أم بليسلا وأوستكيوم أختها . وأنشأ فى بيت لحم ديراً للرهبان صار هو رئيسه ، وآخر للراهبات تولت رياسته پولا ومن بعدها أوستكيوم ، كما أنشأ كنيسة ليتعبد فيها الرهبان والراهبات مجتمعين ، ومضيفة لحجاج الأراضى المقدسة .

واتخذ له خلوة فى كهف جمع فيها كتبه وأوراقه ، وقضى وقته كله فى الدرس والكتابة ، وتعليم الناس الأسرار القدسية ، وأقام فيها الأربعة والثلاثين عاماً الباقية من حياته . وكان يجادل بقلمه كريسستوم ، وأمبروز ، وپلاجيوس ، وأوغسطين . وكتب نحو خمسين كتاباً فى المشكلات الدينية ، وفى تفسير الكتاب المقدس ، تمتاز كلها بقوة العقيدة التى لاتقبل جدلاً ، وكان أعداؤه وأصدقاؤه على السواء يحرصون على قراءة كتبه . وقد أنشأ مدرسة فى بيت لحم ، كان هو نفسه يعلم فيها الأطفال من غير أجر وبتواضع منقطع النظير كثيراً من الموضوعات المختلفة ، منها اللغة اللاتينية واليونانية . والآن وقد أصبح قديساً ثابت العقيدة أحس بأن لاخرج عليه فى أن يقرأ مرة أخرى الكتب القديمة التى حرمها على نفسه فى شبابه . وواصل دراسة اللغة العبرية ، وكان قد بدأ يدرسها حين أقام فى بلاد الشرق أول مرة ، وأخرج بعد ثمانية عشر عاماً من الجلد والدرس تلك الترجمة اللاتينية العظيمة الرائعة للكتاب المقدس ، وهى الترجمة اللاتينية الشائعة

التي تعد حتى الآن أهم الأعمال الأدبية التي تمت في القرن الرابع وأعظمها أثراً . ولسنا ننكر أن في الترجمة ، كما في كل عمل عظيم مثلها ، أخطاء ، وأن فيها « عجمة » وعبارات عامية ينفر منها المدقق الحريص على نقاء اللغة ؛ ولكن لغة الكتاب اللاتينية أصبحت هي لغة الدين والأدب طوال العصور الوسطى ، وصبت سيلاً من العواطف والخيالات العبرية في قوالب لاتينية ، وأدخلت في الأدب آلاف من العبارات الرائعة الفصيحة القوية ، التي تعد من جوامع الكلم(*) وبفضل هذه الترجمة عرف العالم اللاتيني الكتاب المقدس كما لم يعرفوه من قبل .

ولم يكن جيروم قديساً إلا في أنه كان يحيا حياة الزهد ، وأنه وهب نفسه للكنيسة ، لكننا لا نستطيع أن نعهده قديساً في أخلاقه أو أقواله . ومما يؤسف له أشد الأسف أن يجد الإنسان في أقوال هذا الرجل العظيم كثيراً من العبارات الدالة على الغيظ . والحقد والجدل ، وتحريف القول ، والشراسة في الجدل ، فهو يلقب يوحنا بطريق بيت المقدس بيهودا (خائن المسيح) ، وبالشيطان ، ويقول إن الجحيم لا تجد فيها ما يليق به من العقاب^(٢١) ؛ ويصف الرجل العظيم أمبروز بأنه « غراب مشوه الخلق »^(٢٢) ، وقد خلق المتاعب لصديقه القديم روفينوس بأن أخذ ينقب لأرجن Origen بعد وفاته . عن أخطاء ، وكان في عمله هذا عنيفاً إلى حد لم يرمعه البابا أنستاسيوس بدأ من إدانته (٤٠٠) ، ولو أن جيروم قد ارتكب بعض الخطايا المادية لغفرناها له أكثر مما نغفر هذا الحقد الروحي الشديد .

(*) كانت ترجمة جيروم في معظم أجزائها من اللغة العبرية أو اليونانية الأصلية مباشرة . لكنه كان في بعض الأحيان يترجم عن النص اليوناني الذي كتبه أكويلا ، أو سيماكوس أو ثيودوتيون . ولا تزال ترجمته التي روجعت في عامي ١٥٩٢ ، ١٩٠٧ هي النص المعتمد للكتاب المقدس في جميع البلاد التي تدين بالمذهب الكاثوليكي الروماني . و« كتاب دويه Douai المقدس » هو النص الإنجليزي لهذه الترجمة اللاتينية .

ولم يتوان نقاده عن أن ينزلوا به أشد القصاص ، فلما رأوه يُعَلِّم الكتب اليونانية واللاتينية ، اتهموه بالوثنية ؛ ولما رأوه يَدْرُس اللغة العبرية على أحد اليهود ، اتهموه بأنه قد ارتد إلى الدين اليهودي ؛ ولما أهدى كتبه للنساء قالوا إن الباعث له على هذا هو الجشع المادى ، أو ما هو أسوأ من الجشع المادى (٢٣) . ولم يكن سعيداً في شيخوخته ؛ ذلك أن البرابرة انقضوا على بلاد الشرق الأدنى ، واجتاحوا سوريا وفلسطين (٣٩٥) « وكم من أديرة استولوا عليها ، وكم من أنهار خضبت مياهها بالدماء ! » ثم ختم أقواله بهذه العبارة « إلى العالم الرومانى يتساقط » (٢٤) : وماتت في أثناء حياته بولا ومرسالا ، وأوستكيوم وكن عزيزات عليه . وظل الرجل يواصل العمل في كتاب بعد كتاب ، وقد ذبل جسمه وضعف صوته من فرط زهده ، وتقوس عوده . وحضرته الوفاة وهو يكتب شرحاً لسفر أرميا : لقد كان رجلاً عظيماً أكثر مما كان رجلاً صالحاً ؛ وكان هجاءً لا ذعاً لا يقل في ذلك عن جوفثال ، وكاتب رسائل لا تقل فصاحة عن سنكا ، وعالماً مجداً لا ينقطع عن الدرس والتبحر في الدين .

٣ - الجنود المسيحيون

لم يكن چيروم وأوغسطين إلا أعظم الرجلين في هذا العصر العجيب ، فقد امتاز من « آباء » الكنيسة في بداية العصور الوسطى ثمانية من علماء الدين : منهم في الشرق أثناسيوس ، وباسيلي ، وجريجورى ، ونزيانزين ، ويوحنا كريسستوم ، ويوحنا الدمشقى ؛ وفي الغرب أمبروز ، ، وچيروم ، وأوغسطين ، وجريجورى الأكبر .

وتدل سيرة أمبروز (٣٤٠ ؟ - ٣٩٥) على قدزة الكنيسة على أن تجتذب لخدمتها رجالاً من الطراز الأول ، لو أنهم وجدوا قبل وقتهم بجيل واحد لكانوا خدماً للدولة . وقد ولد أمبروز في تريير ، وكان أبوه والياً على غالة ، وكانت مخايل الأمور كلها والسوابق بأجمعها توجى بأنه سيكون من رجال السياسة . ولسنا ندهش

حين نسمع بعد ذلك أنه كان والياً على شمالى إيطاليا . وكان بحكم إقامته في ميلان وثيق الصلة بإمبراطور الغرب ، وقد وجد فيه الإمبراطور الحلال الرومانية القديمة : العقل الراجح ، والقدرة على التنفيذ ، والشجاعة الهائلة . ولما علم أن الأحزاب المتنازعة قد اجتمعت في الكنيسة لتختار أسقفاً جديداً ، أسرع إلى مكان الاجتماع وقمع بهيبته وقوة عبارته بواخر الفتنة بين المجتمعين . ولما عجزت الأحزاب المتنازعة عن الاتفاق على رجل يختارونه لهذا المنصب الدينى ، اقترح بعضهم أمبروز ، وما كاد يُسمع اسمه حتى اجتمعت كلمة الحاضرين في حماسة منقطعة النظير ، وأُخذ الحاكم من فوره رغم احتجاجه فعُمد ، لأنه لم يكن قد عمد بعد ، ورسم شماساً ، ثم قساً ، ثم أسقفاً ، وتم ذلك كله في أسبوع واحد (٣٧٤) (٢٥) .

وشغل الرجل منصبه الجديد ، بالهبة والمقدرة الخليقتين بالحاكم القدير ، وبادر بالنخلى عن زخرف المنصب السياسى ، وعاش عيشة تعد مضرب المثل في البساطة ، فوزع أمواله وأملاكه على الفقراء ، وباع الآنية المقدسة في كنيسته ليفتدى شتمها أسرى الحرب (٢٦) . وكان عالماً متفهماً في الدين دافع بكل قوة عن المبادئ التى أقرها مجمع نيقية ، وكان خطيباً مفوهاً لمواعظه الفضل في هدى أوغسطين ، وشاعراً ألف عدداً من أقدم ترانيم الكنيسة وأنبأها ، وقاضياً فضح بعلمه واستقامته مفساد المحاكم المدنية ، وسياسياً تعهد لإيه الكنيسة والدولة بأشق المهام وأعظمها خطراً ، ومنظماً دقيقاً كان سنداً قوياً للبابا وإن كان قد غطى عليه وحجبه ، وعالماً دينياً أرغم ثيودسيوس العظيم على التوبة ، وكانت له السيطرة على خطط فلنتينيان الثالث . وكان سبب هذه السيطرة أن كانت للإمبراطور الشاب أم أريوسية العقيدة تدعى جوستينا Justina ، حاولت أن تحصل على كنيسة في ميلان لتس أريوسى . ولكن المصلين من أتباع أمبروز ظلوا في الكنيسة المحاصرة ليلاً ونهاراً « معتصمين فيها ، اعتصاماً مقدساً يتحدون أمر الإمبراطورة بتسليم البناء » ومن ثم « كما يقول أوغسطين » نشأت عادة إنشاد الترانيم والأغاني . تقليداً لعادات الولايات الشرقية

لإنقاذ الشعب من أن يضنيه طول يقظته وحزنه « (٢٧) ، وقاوم أمبروز الإمبراطورة مقاومة عنيفة ذاع صيتها في الخافقين ونال التعصب على يديه نصراً مؤزرًا .

وكان پولينوس Paulinus (٣٥٣ - ٤٣١) يمثل في نولا Nola بجنوب إيطاليا نوعاً من القديسين أرق حاشية وألطف معشراً من أمبروز . وكان پولينوس ينتمي إلى أسرة مثرية عريقة تقطن بردو Bordeaux ، وقد تزوج من سيدة تنتمي إلى أسرة لا تقل عن أسرته في بكرم المحدث ، ودرس على الشاعر أوسنيوس Ausonius ، وخاض غمار السياسة وارتقى رقباً سريعاً . ثم « انقلب » فجأة وتحول عن العالم تحولا تاماً : فباع أملاكه ، ووزع ماله كله على الفقراء ؛ ولم يبق لنفسه منه إلا ما يسد ضرورات الحياة ، ورضيت زوجته ثراسيا Therasia أن تعيش معه « أختاً له في المسيح » طاهرة . ولم تكن حياة الأديرة قد نشأت في الغرب ولهذا فقد اتخذوا من بينهما المتواضع في نولا ديراً خاصاً ، عاشا فيه خمسة وثلاثين عاماً ممتنعين عن اللحم والخمر ، يصومان عدداً كثيراً من الأيام في كل شهر ، وكانا سعيدين لأنهما تخلصا من متاعب الثروة ومشاغلها . واعترض أصدقاء شبابه الوثنيون ، وخاصة أوسنيوس أستاذه القديم ، على ما بدا لهم أنه هروب من واجبات الحياة المدنية ، فكان جوابه أن دعاهم ليشاركوه في سعادته . وقد احتفظ إلى آخر حياته بروح التسامح في هذا القرن المليء بالحقد والعنف . ولما مات اشترك الوثنيون واليهود مع المسيحيين في تشييع جنازته .

وكتب پولينوس شعراً مطرباً ساحراً ، ولكنه لم يكتبه إلا عرضاً ، أما الشاعر الذي كان يمثل النظرة المسيحية إلى الحياة في ذلك العصر أصدق تمثيل فهو أورليوس پرودنتيوس كلمنز Aurelius Prudentius Clemens الأسباني (٣٤٨ - ٤١٠ تقريباً) . فبينما كان كلوديان وأوسنيوس يملآن أشعارهما بالآلهة الموتي ، كان پرودنتيوس يترنم بالأوزان القديمة في الموضوعات الحية الجديدة : كقصص الشهداء (في كتاب التيجان) ، ويضع الترانيم لكل ساعة من ساعات اليوم ، ويكتب

بالشعر رداً على دفاع سيماكوس عن تمثال النصر . وفي هذه القضية الأخيرة وجه إلى هونوريوس تلك الدعوة الحارة الدائعة الصيت ، التي أهاب به فيها أن يمنع معارك المجالدين . ولم يكن يكره الوثنيين ، بل إنا لنجد في أقواله ألفاظاً طيبة عن سيماكوس ، وعن يوليان نفسه ، وكان يرجو أبناء دينه المسيحيين ألا يتلفوا أعمال الوثنيين الفنية . وكان يشارك كلوديان في إعجابه برومة ، ويثلج صدره أن يستطيع الإنسان التنقل في معظم أنحاء عالم الرجل الأبيض وهو خاضع لقوانين واحدة آمنة على حياته أينما حل ، « نعيش زملاء مواطنين أينما كنا » (٢٨) . وإنا لنجد في أقوال هذا الشاعر المسيحي آخر أصداء أعمال رومة المجيدة وسيادتها .

ولم يكن أقل مفاخر رومة أن أصبحت لغالة في ذلك الوقت حضارة من أرق الحضارات . فقد كان في القرن الرابع أساقفة عظام لا يقلون شأنًا عن أوسنيوس وسيدونيوس في عالم الأدب ، نذكر منهم هيلاري الهواتيري Hilary of Poitiers وزيمى الريمسى Remi of Reims ويفرونيوس الأوتوني Euphaonius of Autun ، ومارتن التورى Martin of Tours . وكان هيلاري (المتوفى حوالي عام ٣٦٧) من أنشط المدافعين على قرارات مجمع نيقية ، وقد كتب رسالة من اثنتي « عشرة مقالة » حاول فيها أن يشرح عقيدة التثليث . ولكننا نراه في كرسيه المتواضع في پواتييه يحيا الحياة الصالحة الخليقة بالرجل المسيحي المخلص لدينه — يستيقظ في الصباح الباكر ، ويستقبل كل قادم عاياه ، ويستمع للشكايات ، ويفصل في الخصومات ، ويتلو القداس ، ويعظ ، ويعلم ، ويملى الكتب والرسائل ، ويستمع في أثناء وجبات الطعام لقراءات من الكتب الدينية ، ويقوم في كل يوم ببعض الأعمال اليدوية كزرع الأرض أو نسج الثياب للفقراء (٢٩) وكان بسيرته هذه يمثل رجل الدين الصالح أصدق تمثيل .

وقد خلف القديس مارتن St. Martin شهرة أوسع من شهرة هؤلاء جميعاً . ففي فرنسا الآن ٣٦٧٥ كنيسة و ٤٢٥ قرية تسمى كلها باسمه . وقد ولد في پتونيا

حوالى عام ٣١٦ ؛ وأراد ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، أن يكون راهباً ، ولكن أباه أرغمه ، وهو فى الخامسة عشرة ، على الانضمام إلى الجيش ؛ فلما فعل كان فيه جندياً غير عادى ، فكان يهب مرتبه للفقراء ، ويساعد البائسين ، ويتحلى بالوداعة والصبر كأنه يريد أن يتخذ من معسكر الجيش ديراً . ونال مارتن أمنيته بعد أن قضى فى الخدمة العسكرية خمس سنين ، فغادر الجيش ليعيش راهباً فى صومعة ، فى إيطاليا أولاً ، ثم فى پواتييه بالقرب من هيلارى الذى كان يحبه . وفى عام ٣٧١ خرج أهل تور يطالبون بأن يكون أسقفاً عليهم ، على الرغم من ثيابه الرثة وشعره الأشعث . فوافق على طلبهم ، ولكنه أصر على أن يعيش كما كان عيشة الرهبان . وأنشأ فى مرموتيه Marmoutier على بعد ميلين من تور ديراً جمع فيه ثمانين راهباً ، وعاش معهم عيشة التقشف الحالية من الادعاء والتظاهر . وكان الأسقف فى رأيه رجلاً لا يكتفى بالاحتفال بالقداس ، والوعظ ، وتقسيم العشاء الربانى ، وجمع المال ، بل يعمل أيضاً على تقديم الطعام للجوع ، والكساء للعرايا ، وعيادة المرضى ، ومساعدة البائسين . وقد أحبته غالة كلها حباً جعل الناس فى جميع أنحاء يروون القصص عن معجزاته ، ولقد بالغوا فى هذا حتى قالوا إنه أحيى ثلاثة من الأموات (٣٠) . وقد اتخذته فرنسا من نديسها الشفعاء .

وكان الدير الذى أنشأه مارتن فى پواتييه (٣٦٢) بداية أديرة كثيرة نشأت بعده فى غالة . وإذا كانت فكرة الأديرة قد جاءت إلى رومة عن طريق كتاب أثناسيوس المسمى « حياة أنطونيوس » ، ودعوة چيروم القوية التى أهاب فيها بالناس أن يحيا حياة الزهد ، فقد كان طراز الرهبنة الذى انتشر فى الغرب هو أشقها وأكثرها عزلة . وقد حاول أصحابه أن يمارسوا أقصى شعائرها فى جو غير رحيم كما كان يمارسها المصريون فى شمس مصر الدفيئة وجوها المعتدل . فقد عاش الراهب ولفليك Wulfilaich على سنين عارى الساقين حافى القدمين فوق

عمود في تير ؛ وكانت أطراف أصابع قدميه تتساقط في الشتاء ، وتتعلق قطع
الجليد بلحيته . وحبس القديس سينوخ نفسه بالقرب من تور في مكان ضيق
بين أربعة جدران لم يستطع فيه أن يحرك النصف الأسفل من جسمه . وعاش
على هذا النحو سنين كثيرة ، كان فيها موضعاً لإجلال الشعب (٣١) . وأدخل
القديس يوحنا كسيان John Cassian في الرهبة آراء باخوم ليوازن بها
نشوة أنطونيوس الروحية . فقد أوحى إليه بعض واعظ كريستوم أن ينشئ
ديرًا للرجال وآخر للنساء في مرسيلية (٤١٥) ، وأن يضع لهما أول ما وضع
في الغرب من قوانين لحياة الرهبة . وكان خمسة آلاف راهب في بروفانس
Provence يعيشون حسب ما وضعه من القواعد قبل أن يموت في عام ٤٣٥ .
وبعد عام ٤٠٠ بقليل أنشأ القديسان هونوراتوس Honoratus وكيراسيوس
Caprasius ديرًا على جزيرة ليرن Lérins المواجهة لمدينة كان Cannes .
وكانت هذه الأديرة تعود الناس التعاون في العمل ، والدرس ، والتبحر في
العلوم ، أكثر مما تعلمهم التعب في عزلة ، ولم تلبث أن صارت مدارس لتعليم
أصول الدين ، كان لها أبلغ الأثر في أفكار الغرب . ولما تولى القديس بندكت
حكم غالة من الوجهة الدينية في القرن التالي ، أقام حكمه على تقاليد كاسيان
التي كانت من خير النظم الدينية في التاريخ كله .

الفصل الرابع

الشرق المسيحى

١ - رهبان الشرق

لما أن أصبحت الكنيسة منظمة تحكم الملايين من بني الإنسان ، ولم تعد كما كانت جماعة من المتعبدين الخاشعين ، أخذت تنظر إلى الإنسان وما فيه من ضعف نظرة أكثر عطفاً من نظرتها السابقة ، ولا ترى ضيراً من أن يستمتع الناس بملاذ الحياة الدنيا ، وأن تشاركهم أحياناً في هذا الاستمتاع ، غير أن أقلية من المسيحيين كانت ترى في النزول إلى هذا الدرك خيانة للمسيح ، واعتزمت أن تجد مكانها في السماء عن طريق الفقر ، والعفة ، والصلاة ، فاعتزلت العالم اعتزالاً تاماً . ولربما كان مبشرو أشوكا Ashoka (حوالى ٢٥٠ ق . م) قد جاءوا إليه بنظرية البوذية وقوانينها الأخلاقية ؛ ولربما كان النساك الذين وجدوا في العالم قبل المسيحية أمثال سراپيس Serapis في مصر أو جماعات الإسينيين في بلاد اليهود قد نقلوا إلى أنطونيوس وباخوم المثل العليا للحياة الدينية الصارمة وأساليب هذه الحياة . وكان الكثيرون من الناس يرون في الرهبنة ملاذاً من الفوضى والحرب اللذين أعقبا غارات المتبربرين ؛ فلم يكن في الدير ولا في الصومعة الصحراوية ضرائب ، أو خدمة عسكرية ، أو منازعات حربية ، أو كدح ممل . ولم يكن يطلب إلى الراهب ما يطلب إلى القسيس من مراسم قبل رسامته ، وكان يوقن أنه سوف يحظى بالسعادة الأبدية بعد سنين قليلة من حياة السلام .

ويكاد مناخ مصر أن يغرى الناس بحياة الأدبرة ، ولهذا غصت

بالرهبان النساك الفرادى والمتجمعين فى الأديرة يعيشون فى عزلة كما كان يعيش أنطونيوس ، أوجاعات كما كان يعيش باخوم فى تابن Tabenne . وأنشئت الأديرة للرجال والنساء على طول ضفتى النيل ، وكان بعضها يحتوى نحو ثلثمائة من الرهبان والراهبات . وكان أنطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦) أشهر النساك الفرادى ، وقد أخذ ينتقل من عزلة إلى عزلة حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطئ البحر الأحمر . وعرف مكانه المعجبون به فحذوا حذوه فى تعبده ونسكه ، وبنوا صوامعهم فى أقرب مكان منه سمح لهم به ، حتى امتلأت الصحراء قبل موته بأبنائه الروحيين . وقلم كان يغتسل ، وطالت حياته حتى بلغ مائة وخمسا من السنين : ورفض دعوة وجهها إليه قسطنطين ، ولكنه سافر إلى الإسكندرية فى سن التسعين ليؤيد أثناسيوس ضد أتباع أريوس : وكان يليه فى شهرته باخوم الذى أنشأ فى عام ٣٢٥ تسعة أديرة للرجال وديرأ واحدا للنساء . وكان سبعة آلاف من أتباعه الرهبان يجتمعون أحيانا ليحتفلوا بيوم من الأيام المقدسة ، وكان أولئك الرهبان المجتمعون يعماون ويصلون ، ويركبون القوارب فى النيل من حين إلى حين ليذهبوا إلى الإسكندرية حيث يبيعون ما لديهم من البضائع ويشترون حاجياتهم ويشتركون فى المعارك الكنسية - السياسية .

ونشأت بين النساك الفرادى منافسة قوية فى بطولة النسك يتحدث عنها دوشين Abbé Duchesne بقوله إن مكاريوس الإسكندري « لم يكن يسمع بعمل من أعمال الزهد إلا حاول أن يأتى بأعظم منه » ، فإذا امتنع غيره من الرهبان عن أكل الطعام المطبوخ فى الصوم الكبير امتنع هو عن أكله سبع سنين ؛ وإذا عاقب بعضهم أنفسهم بالامتناع عن النوم شوهه مكاريوس وهو « يبذل جهد المستميت لكى يظل مستيقظا عشرين ليلة متتابة » . وحدث مرة فى صوم كبير أن ظل واقفا طوال هذا الصوم ليلا ونهارا لا يذوق الطعام إلا مرة واحدة فى الأسبوع ، ولم يكن طعامه هذا أكثر من بعض أوراق الكرنب ،

ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التي اختص بها وهي صناعة السلال (٣٢) . ولبت ستة أشهر ينام في مستنقع ، ويعرض جسمه العريان للذباب السام (٣٣) . ومن الرهبان من أوفوا على الغاية في أعمال العزلة ؛ من ذلك سراييون Serapion الذي كان يعيش في كهف في قاع هاوية لم يجروا على النزول إليها إلا عدد قليل من الحجاج . ولما وصل جيروم وبولا إلى صومعته هذه وجدوا فيها رجلا لا يكاد يزيد جسمه على بضعة عظام وليس عليه إلا خرقة تستر حقويه ، ويغطي الشعر وجهه وكتفيه ، ولا تكاد صومعته تتسع لفراشة المكوّن من لوح من الخشب وبعض أوراق الشجر . ومع هذا فإن هذا الرجل قد عاش من قبل بين أشراف رومة (٣٤) . ومن النسالك من كانوا لا يرقدون قط أثناء نومهم ومنهم من كان يداوم على ذلك أربعين عاماً مثل بساريون Bessarion أو خمسين عاماً مثل باخوم (٣٥) . ومنهم من تخصصوا في الصمت وظلوا عدداً كبيراً من السنين لا تنفرج شفاههم عن كلمة واحدة . ومنهم من كانوا يحملون معهم أوزاناً ثقالا أينما ذهبوا . ومنهم من كانوا يشدون أعضاءهم بأطواق أو قيود أو سلاسل ؛ ومنهم من كانوا يفخرون بعدد السنين التي لم ينظروا فيها إلى وجه امرأة (٣٦) . وكان النسالك المنفردون جميعهم تقريباً يعيشون على قدر قليل من الطعام . ومنهم من عمّروا طويلا . ويحدثنا جيروم عن رهبان لم يطعموا شيئاً غير التين وخبز الشعير . ولما مرض مكاريوس جاءه بعضهم بعنب فلم تطاوعه نفسه على التمتع بهذا الترف ، وبعث به إل ناسك آخر ، وأرسله هذا إلى ثالث حتى طاف العنب جميع الصحراء (٣٧) كما يؤكّد لنا روثينس) ، وعاد مرة أخرى كاملاً إلى مكاريوس (٣٨) . وكان الحجاج ، الذين جاءوا من جميع أنحاء العالم المسيحي ليشاهدوا رهبان الشرق ، يعزّون إلى أولئك الرهبان معجزات لا تقل في غرابتها عن معجزات المسيح ، فكانوا — كما يقولون — يشفون الأمراض . ويطردون الشياطين باللمس أو بالنطق بكلمة ؛ وكانوا يروّضون الأفاعي أو الآساد بنظرة

أو دعوة ، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح . وقد أصبحت مخلفات النساك
أثمن ما تمتلكه الكنائس المسيحية ، ولا تزال مدخرة فيها حتى اليوم .

وكان رئيس الدير يطلب إلى الرهبان أن يطيعوه طاعة عمياء ، ويمتحن
الرهبان بالحدد بأوامر مستحيلة التنفيذ يلقيها عليهم . وتقول إحدى القصص
إن واحداً من أولئك الرؤساء أمر راهباً جديداً أن يقفز في نار مضطربة
فصدع الراهب الحديد بالأمر ؛ فانشقت النار حتى خرج منها بسلام .
وأمر راهب جديد آخر أن يغرس عصا رئيسه في الأرض ويسقيها حتى
تخرج أزهاراً ؛ فلبث الراهب عدة سنين يذهب إلى نهر النيل على بُعد
ميلين من الدير يحمل منه الماء ليصبه على العصا ، حتى رحمه الله في السنة
الثالثة فازهرت (٣٨) . ويقول جيروم (٣٩) إن الرهبان كانوا يؤمرون بالعمل
« لئلا تضلهم الأوهام الخطرة » . فمنهم من كان يحرق الأرض ، ومنهم
من كان يعنى بالحدائق ، أو ينسج الحصر أو السلال ، أو يصنع أحذية من
الخشب ، أو ينسخ المخطوطات . وقد حفظت لنا أقلامهم كثيراً من الكتب
القديمة . على أن كثيرين من الرهبان المصريين كانوا أميين يحتقرون العلوم
الدنيوية . ويرون أنها غرور باطل (٤٠) . ومنهم من كان يرى أن النظافة
لا تتفق مع الإيمان ؛ وقد أبت العذراء سلفيا أن تغسل أى جزء من جسدها
عدا أصابعها ، وكان فى أحد الأديرة النسائية ١٣٠ راهبة لم تستحم واحدة
منهن قط أو تغسل قدميها ، لكن الرهبان أنسوا إلى الماء حوالى آخر
القرن الرابع ، وسخر الأب اسكندر من هذا الانحطاط فأخذ يحن إلى
تلك الأيام التى لم يكن فيها الرهبان « يغسلون وجوههم قط » (٤١) .

وكان الشرق الأدنى ينافس مصر فى عدد رهبانها وراهباتها وعجائب فعالهم .
فكانت أنطاكية وبيت المقدس خليتين مليئتين بالصوامع وبالرهبان والراهبات ،
وكانت صحراء سوريا غاصة بالنساك ، منهم من كان يشد نفسه بالسلاسل إلى صخرة
ثابتة لا تتحرك كما يفعل فقراء الهنود ، ومنهم من كان يحتقر هذا النوع المستقر

من المساكن ، فيقضى حياته في الطواف فوق الجبال يطعم العشب البري^(٤٢) . ويروى لنا المؤرخون أن سمعان العمودي Simeon Stylites (٣٩٠ ؟ - ٤٥٩) كان لا يذوق الطعام طول الصوم الكبير الذي يدوم أربعين يوماً . وقد أصر في عام من الأعوام أثناء هذا الصوم كله على أن يوضع في حظيرة وليس معه إلا قليل من الخبز والماء . وأُخرج من بين الجدران في يوم عيد الفصح فوجد أنه لم يمس الخبز أو الماء . وبني سمعان لنفسه في عام ٤٢٢ عموداً عند قلعة سمعان في شمالي سوريا وعاش فوقه . ثم رأى أن هذا اعتدال في الحياة يجلبه العار فأخذ يزيد من ارتفاع العمود التي يعيش فوقها حتى جعل مسكنه الدائم فوق عمود يبلغ ارتفاعه ستين قدماً ولم يكن محيطه في أعلاه/يزيد على ثلاث أقدام ، وكان حول قمته سور يمنع القديس من السقوط على الأرض حين ينام . وعاش سمعان على هذه البقعة الصغيرة ثلاثين عاماً متوالية معرضاً للمطر والشمس والبرد ، وكان أتباعه يصعدون إليه بالطعام وينقلون فضلاته على سلم يصل إلى أعلى العمود ، وقد شد نفسه على هذا العمود بحبل حَزَّ في جسمه ، فتعفن حوله ، وتتن وكثرت فيه الديدان ، فكان يلتقط الدود الذي يتساقط من جروحه ويعيده إليها ويقول : « كلى مما أعطاك الله ! » . وكان يلقي من منبره العالي مواعظ على الجماهير التي تحضر لمشاهدته ، وكثيراً ما هدى المتبررين ، وعالج المرضى ، واشترك في السياسة الكنسية ، وجعل المرابين يستحون فينقصون فوائد ما يقرضون من المال إلى ستة في المائة بدل اثني عشر^(٤٣) . وكانت تقواه سبباً في إيجاد طريقة النسك فوق الأعمدة ، وهي الطريقة التي دامت اثني عشر قرناً ، ولا تزال باقية حتى اليوم بصورة دنيوية خالصة .

ولم ترض الكنيسة عن هذا الإفراط في التقشف ، ولعلها كانت تحس بشيء من الفخر الوحشي في هذا الإذلال النفسي ، وبشيء من الشراهة الروحية في هذا الإنكار الذاتي ، وبشيء من الشهوانية الخفية في هذا الفرار من النساء ومن العالم

كله . وسجلات أولئك الزهاد حافلة بالرؤى والأحلام الجنسية ، وصوامعهم تتردد فيها أصداً أنينهم وهم يقاومون المغريات الخيالية والأفكار الغرامية . وكانوا يعتقدون أن الهواء الذى يحيط بهم غاص بالشياطين التى لا تنفك تهاجمهم ؛ ويبدو أن الرهبان قد وجدوا أن حياة الفضيلة فى العزلة أشق منها لو أنهم عاشوا بين جميع مغريات المدن . وكثيراً ما كان الناسك تختل موازين عقله ؛ فها هوذا روفينس يحدثنا عن راهب شاب دخلت عليه فى صومعته امرأة جميلة ، فلم يستطع أن يقاوم سحر جمالها ، ثم اختفت من فوزها فى الهواء كما ظن هو . فما كان من الراهب إلا أن خرج هائماً على وجهه ، إلى أقرب قرية له ، وقفز فى فرن حمام عام ليطفى النار المستعرة فى جسمه . وتروى قصة أخرى عن فتاة استأذنت فى الدخول إلى صومعة راهب مدعية أن الوحوش تطاردها فرضى أن يؤويها وقتاً قصيراً ، ولكن حدث فى تلك الساعة أن مست جسمه مصادفة ، فاشتعلت نار الشهوة فيه كأن سنى التقشف الطوال التى مرت به قد انقضت دون أن تحدث فيها أقل أثر . وحاول الراهب أن يمسك بها ، ولكنها اختفت عن ذراعيه وعن عينيه . ويقول الرواة إن جماعة من الشياطين أخذت تغنى وتهلل طرباً وتضحك من سقطته . ويقول روفينس إن الراهب لم يطق حياة الرهبنة بعد تلك الساعة ؛ فقد عجز كما عجز پفنوس Paphnuce فى مسرحية تيسيس Thais لأتاتول فرانس عن أن يبعد عنه رؤيا الجمال التى أبصرها أو تخيلها ، فغادر صومعته وانغمس فى حياة المدينة ، وسار وراء هذه الرؤيا حتى أوصلته آخر الأمر إلى الجحيم (٤٤) .

ولم يكن للكنيسة النظامية سلطة ما على الرهبان فى أول الأمر ؛ وقلما كان أولئك الرهبان يحصلون على أية رتبة كهنوتية ، غير أنها مع ذلك كانت نحس بأن تبعة إفراطهم هذا واقعة عليها ، فقد كان لها نصيب من المجد الذى ينالونه بأعمالهم . ولم يكن فى وسع الكنيسة أن ترضى كل الرضا عن المثل العليا للرهبنة ..

نعم لأنها كانت تمتدح العزوبة ، والبكورية ، والفقر ، ولكن لم يكن وسعها أن تعد الزواج ، أو الأبوة ، أو الملكية من الخطايا ، بل لقد أصبح الآن من مصلحتها أن يدوم الجنس البشرى ويتناسل ويكثر . وكان بعض الرهبان يغادرون الأديرة باختيارهم ، ويضايقون الناس بلحافهم في السؤال . ومنهم من كانوا يتنقلون من بلدة إلى بلدة ، يدعون إلى الزهد ويبيعون مخلفات حقيقية أو زائفة ، ويرهبون المجامع الدينية المقدسة ، ويحرضون ذوى الطبائع الحامية من الناس على تدمير الهياكل أو التماثيل الوثنية ، أو يدعونهم في بعض الأحيان إلى قتل امرأة من طراز هيباشيا Hypatia . ولم تكن الكنيسة راضية عن هذه الأعمال الفردية التي يأتيها هؤلاء الرهبان من تلقاء أنفسهم . وقد قرر مجلس خلقدون (٤٥١) أن تفرض رقابة شديدة على من يدخلون الأديرة ، وأن الذين يهبون أنفسهم لها لا يجوز لهم أن يخرجوا بعدئذ منها ، وألا يسمح لإنسان بأن ينشئ ديراً أو يغادره إلا إذا أذن له بذلك أسقف الأبرشية .

٢ — الأساقفة الشرقيون

لقد نالت المسيحية في الوقت الذي نتحدث عنه نصراً في بلاد الشرق يكاد أن يكون تاماً ، ففي مصر أصبح المسيحيون المحليون أو القبط (*) هم أغلبية السكان ، وكانوا يمدون بالمال مئآت من الكنائس والأديرة . واعترف تسعون أسقفاً مصرياً بسلطة بطريق الإسكندرية ، وهي سلطة تكاد تضارع سلطة القراغة والبطالمة . وكان بعض هؤلاء البطارقة ساسة من رجال الدين ومن طراز غير محبوب أمثال توفيلس الذي حرق هيكل سرايدس الوثني ومكتبته (٣٨٩) . وكان خيراً منه وأحب إلى النفوس الأب سينسيوس Sinesius أسقف بطوليمائس

(*) كلمة Copt الأوربية مأخوذة من كلمة قبط العربية وهذه محرفة عن إيجيبتوس Aigyptos اليونانية ومعناها مصرى .

التواضع . وكان مولده في قوريني (حوالى عام ٣٦٥) ، وقد درس علوم الرياضة والفلسفة في الإسكندرية على هيباشيا ؛ وظل إلى آخر أيام حياته صديقها الوفي ، وكان يسميها : « الشارحة الحققة للفلسفة الحققة » . ثم زار أثينة ، وفيها قويت عقيدته الوثنية ، ولكنه تزوج بإمرأة مسيحية في عام ٤٠٣ ، واعتنق على أثر ذلك الدين المسيحى ، ووجد أن من المجاملة البسيطة لزوجته أن يحول ثلوث الأفلاطونية الحديثة المكوّن من الواحد ، والفكر ، والنفس ، إلى الأب ، والروح ، والابن (٤٥) . وكتب كثيراً من الرسائل البديعة ، وبعض الكتب الفلسفية القليلة الشأن التى لا يوجد بينها شىء ذو قيمة للقارئ في هذه الأيام ، إذا استثنينا مقاله « فى مدح الصلح » . وفى عام ٤١٠ عرض عليه توفيلس أسقفية بطوليمائس ، وكان وقتئذ من سراة الريف وبمن كان مألهم أكثر من مطامعهم ، فقال إنه غير أهل لهذا المنصب ، وإنه لا يؤمن ببعث الجسم (كما تتطلب ذلك عقائد مؤتمر نيقية) وإنه متزوج ، ولا يريد أن يهجر زوجته . ولكن العقائد المقررة كانت فى نظر توفيلس مجرد آلات ، فغض النظر عن هذه المخالفات وعيّن سينسيوس أسقفاً قبل أن يفصل الفيلسوف فى أمره . ومن الحوادث الطريفة التى تتفق مع ما عرف عن هذا الأسقف أن آخر رسالة كتبها كانت موجهة إلى هيباشيا وأن آخر صلاة له كانت للمسيح (٤٦) .

وعوملت الهياكل الوثنية فى سوريا بالطريقة التى تتفق مع طباع توفيلس ، فقد صدر أمر إمبراطورى يقضى بإغلاقها ؛ وقاومت البقية الباقية من الوثنيين أمره هذا ولكنهم استسلموا أخيراً للهزيمة حين رأوا آلهتهم ترضى بتخريب هياكلها دون مبالاة . وكان للمسيحية فى آسية زعماء أعظم حكمة من زعمائها فى مصر (*) . فمن هؤلاء باسيلي العظيم الذى تعلم فى حياته القصيرة التى لا تزيد على

(*) شغل القديس نقولا Micholas فى القرن الرابع كرسي أسقفية ميرا Myra فى ليشيا Lycia . وكان جم التواضع لم يدر قط بخالده أنه سيصبح فى يوم من الأيام القديس =

خمسين عاماً (٣٢٩؟ - ٣٧٩) البلاغة على ليبيانوس في القسطنطينية ، ودرس الفلسفة في أثينة ، وزار النساك في مصر وسوريا ، ولم يوافق على زهدهم وانطوائهم على أنفسهم ، ثم صار أسقفاً لقيصرية في كپدوكيا ، ونظم شئون المسيحية في بلاده ، فأعاد النظر في شعائرها ، وأدخل فيها نظام رهبنة الأديرة التي تنتج كل ما يحتاجه المقيمون فيها ، ووضع قانوناً للأديرة لا يزال هو المسيطر على جميع أديرة العالم اليوناني الصقلي . وقد نصح أتباعه بأن يتجنبوا ما يأتيه النساك المصريون من أعمال القسوة المسرحية ، وأن يستعصبوا عنها بخدمة الله وخدمة صحتهم وعقولهم بالعمل النافع . وهو يرى أن حرث الأرض من خير أنواع العبادة . ولا يزال الشرق المسيحي حتى الآن يعترف بما له في المسيحية من أثر لا يضارعه أثر أحد غيره .

أما القسطنطينية فلم يكذب فيها أثر للعبادات الوثنية . بيد أن المسيحية نفسها قد تفرقت شيعاً بسبب النزاع الدائم بين أهلها . فقد كانت الأريوسية لا تزال قوية ، وكانت بدع دينية خارجة على الدين لا تنقطع عن الظهور ، حتى ليكاد يكون لكل رجل فيها آراؤه الخاصة في الدين . وفي ذلك يقول جريجورى النيسى Gregory of Nyassa أخو باسيلي : « هذه المدينة مملآة بالصناع والعبيد ، وكلهم من المتفقهين في الدين الذين يعطون الناس في الشوارع والحوانيت . فإذا طلبت إلى أحد منهم أن يبدل لك قطعة نقود فضية ، أخذ يحدثك عن الفوارق بين الابن والأب ، وإذا سألت عن ثمن رغيف . . . قيل لك إن الابن أقل منزلة من الأب ؛ وإذا سألت هل أعد لك الحمام ، كان الجواب أن الابن قد خلق من لا شيء » (٤٧) . وكان أول دير أنشئ في العاصمة الجديدة هو الذي أنشأه إسحق السورى في أيام ثيودوسيوس الأول ، وسرعان ما تضاعف

= زاعى روسيا ، وراعى اللصوص ، والأولاد ، والبنات ، ثم يدخل أخيراً باسمه الهولندى - سنتا كلوز Santa Claus في الأساطير المسيحية المنتشرة في نصف العالم المسيحي .

عُدد الدير فيها حتى إذا وافى عام ٤٠٠ كان الرهبان طائفة ذات قوة وبأس
تفسر الرغب في المدينة ، وكان لهم شأن صاحب في النزاع القائم بين هذا
البطريق وذاك وبين البطريق والإمبراطور .

وتعلم جريجورى نزيانزى مرارة الحقد الطائفى حين قبل دعوة وجهها
إليه مسيحيو القسطنطينية لأن يكون أسقفاً عليهم (٣٧٩) . وكان قالنز قد
مات توتاً ، ولكن أتباع أريوس الذين ناصرهم الإمبراطور من قبل ، كانوا
لا يزالون يتولون معظم المناصب الكنسية ، ويقيمون صلواتهم فى كنيسة
أياصوفيا . ولذلك اضطر جريجورى أن يصنع مذبحه ويأوى أتباعه فى بيت
صديق له ، ولكنه أطلق على كنيسته المتواضعة اسماً يدل على كبير أمله فيها ،
فقد سماها أناستازيا Anastasia (البعث) . وكان رجلاً أوتى من التقوى
بقدر ما أوتى من العلم ، درس فى أثينة مع مواطنه باسيلى ، ولم يكن أحد
أفصح منه إلا الرجل الذى جاء بعد خلفه . وزاد أتباعه زيادة مطردة حتى
كانوا أكثر من المتعبدين فى الكنائس الرسمية . وفى عشية عيد الفصح من
عام ٣٧٩ هجم جماعة من الأريوسيين على كنيسة الأناستازيا ورجعوها
بالحجارة ، وبعد ثمانية عشر شهراً من هذا الحادث أخذ الإمبراطور
ثيودوسيوس بيد جريجورى ورفع على عرشه الخلق به فى كنيسة أياصوفيا
وسط مظاهر التكريم والنصر العظيم . ولكن السياسة الكهنوتية لم تلبث أن
قضت على هدوئه واطمئنانه ، فقام جماعة من شائثيه الأساقفة يعلنون أن
تعيينه باطل ، وأمره أن يدافع عن نفسه أمام مجلس دينى . ورأى جريجورى
أنه أكبر من أن يدافع عن كرسيه ، فاعتزل منصبه (٣٨١) ، وعاد إلى
نزيانزوس Nazianzus فى كهدوكيا ليقضى فيها الثمانى السنين الباقية من حياته
بعيداً عن أعين الخلق فى عزلة وهدوء .

وخلفه فى منصبه رجل خامل غير خلى بالذكر ، ولما مات دعت الحاشية
الإمبراطورية إلى كنيسة أياصوفيا قساً من أنطاكية يعرف فى التاريخ باسم

القديس يوحنا كريستوم — أى صاحب الفهم الذهبي . وقد ولد حوالى عام ٣٤٥ من أسرة شريفة ، وتلقى فنون البلاغة على ليبيانيوس ، وألم بالآداب والفلسفة الوثنية ، وكان الأحبار الشرقيون بوجه عام أغزر علماء وأكثر براعة فى الجدل من أحبار الغرب . وكان يوحنا رجلاً قوى الذهن حاد الطبع ، أزعج أتباعه بالحداد باصطناع الجدل فى المسيحية ، والتنديد بمظالم العصر وفساده الخلقى بأصرح الألفاظ^(٤٨) . وصف المسرح بأنه معرض للنساء الفاجرات ، ومدرسة للفسق والغوايات والدسائس . وأخذ يسائل سراة المسيحيين فى العاصمة لمَ ينفقون الكثير من أموالهم فى الخلاعة والمجون ، ولا يهبون الكثير منها إلى الفقراء كما أمرهم المسيح . ويعجب كيف يكون لبعض الناس عشرون قصراً ، وعشرون حماماً ، وألف عبد ، وأبواب من العاج ، وأرض من الفسيفساء ، وجدران من الرخام ، وسقف من الذهب ؛ وينذر الأغنياء بعذاب النار لأنهم يحبون ضيوفهم بالبنيات الفاسدات الراقصات^(٤٩) . وكان يلوم أتباعه من رجال الدين على حياة التبطل والنعم^(٥٠) ، وعلى قيام النساء بخدمتهم فى بيوتهم الكنسيّة مما يحمل الناس على الارتياح فيهم وإساءة الظن بهم . وقد أقال ثلاثة عشر أسقفاً من الخاضعين لسلطته لفساد أخلاقهم أو متاجرتهم بالدين ، وأنب رهبان القسطنطينية . لأنهم يقضون فى الشوارع من الوقت أكثر مما يقضونه فى صوامعهم . وكان هو نفسه يضرب أحسن الأمثلة فى العمل بما يعظ به : فلم يكن ينفق لإيراد دائرته الدينية فى المظاهر الكاذبة التى كانت من مميزات الأسقفيات الشرقية ، بل كان ينفقها فى بناء المستشفيات ، ومساعدة الفقراء . ولم تسمع القسطنطينية قبله مواعظ تضارع مواعظه قوة ، وبلاغة ، وصراحة ؛ فلم تكن مليئة بالمعنويات الدالة على التقى والورع ، بل كانت سنناً مسيحية تطبق تطبيقاً صارماً إلى أقصى حدود الصرامة .

« هل فى الناس من هم أظلم من الملاك ؟ فأنت إذا نظرت إلى الطريقة التى معاملون بها مستأجرى أملاكهم رأيتهم أشد وحشية من البرابرة . فهم يفرضون

ضرائب فادحة لا آخر لها على الذين أنهك الجوع والكدح أجسامهم طوال حياتهم ، ثم يفرضون عليهم فوق ذلك خدمات لا طاقة لهم بها . . . يرغمونهم على العمل طوال فصل الشتاء في البرد والمطر ، ويحرمونهم من النوم ويرسلونهم إلى بيوتهم محرومين من كل شيء . . .

« وإن ما يقاسيه أولئك الرجال على أيدي عمال الملاك من عذاب ، وضرب ، وما يرغمون على أدائه من ضرائب فادحة ، وخدمات نخالية من الرحمة ، لأشدّ عليهم من ألم الجوع . ومنذ الذي يستطيع إحصاء الوسائل التي يلجأ إليها أولئك الوكلاء لاستخدام المستأجرين في جر المغانم لهم ثم حرمانهم من ثمار كدحهم ؟ فهم يديرون بقوة عضلاتهم ما يمتلكه أولئك الوكلاء من معاصر الزيتون ، ولكنهم لا ينالون نصيباً مهماً قلّ من الزيت الذي يرغمون على تعبئته في الزجاجات لأولئك الوكلاء ظلماً وعدواناً ؛ وهم لا يوثجرون على عملهم هذا إلا أجراً ضئيلاً^(٥١) . »

وبعد ، فإن جماعة المصلين في الكنائس يحبون أن يؤثبوا ، ولكنهم لا يحبون أن يقوّموا . ومن أجل هذا ظلت النساء يتعطرن ، وظل الأغنياء يقيمون المآدب الفخمة ، وظل رجال الدين منهمكين في شئونهم النسائية الخاصة ، وبقيت دور التمثيل تعرض مناظرها المألوفة ؛ وسرعان ما وقفت كل طائفة في المدينة ، عدا الفقراء الذين لا حول لهم ولا طول ، تعارض لرجل ذا الفم الذهبي . وكانت الإمبراطورة يودكسيا زوجة أركاديوس تنزع الطائفة المتنوعة من أهل العاصمة في حياة الترف . وقد فسرت إحدى العبارات الواردة في مواعد يوحنا بأنها تشير إليها هي ، وطلبت إلى زوجها الضعيف أن يعقد مجلساً دينياً لمحاكمة البطريق . وأجابها الإمبراطور إلى طلبها ، وعُقد في عام ٤٠٣ مجلس من أساقفة الشرق في خلقيدون . ورفض يوحنا المثل أمامه محتجاً بأنه يجب ألا يحاكم أمام أعدائه فقرر المجلس نخله ، وذهب الرجل إلى المنفى في هدوء ، ولكن

الناس ضجوا بالاحتجاج ضجيجاً أخاف الإمبراطور ، فأرجعه إلى كرسيه . ولم تمض إلا بضعة أشهر حتى قام مرة أخرى يندد بالطبقات الغنية ، ويبدى بعض آراء انتقادية على تمثال للإمبراطورة ، فطلبت يودكسيا مرة أخرى طرده ، وقام توفيلس بطريق الإسكندرية ، وهو الرجل المتأهب على الدوام لأن يضعف الكرسي المنافس له . يذكر أركاديوس بأن قرار خلقيدون القاضى بخلعه لا يزال قائماً ، يمكن تطبيقه عليه . وأرسل الجند للقبض على كريستوم ؛ ونقل الرجل إلى الضفة الأخرى من البسفور ونفى في قرية من قرى أرمينية (٤٠٤) . ولما أن سمع أتباعه الأوفياء بهذا النبأ ثاروا ثورة عنيفة ، أحرقت في أثنائها كنيسة أياصوفيا ومجلس الشيوخ القريب منها . وأرسل كريستوم من منفاه رسائل استغاثة إلى هونوريوس وإلى أسقف رومة ، فأمر أركاديوس بنقله إلى صحراء پتيوس البعيدة في پنطس . ولكن الأب المنهوك القوى مات في الطريق عند بلدة كوماننا Comana في الثانية والستين من عمره (٤٠٧) . وظلت الكنيسة الشرقية من ذلك اليوم حتى الآن — مع استثناء فترات قصيرة — خادمة للدولة خاضعة لأوامرها .

الفصل الخامس

القديس أوغسطين

١ - الآثم

كانت أفريقية الشمالية التي وُلد فيها أوغسطين موطن خليط من الأجناس والعقائد ، امتزج في أهلها الدم الهوني والنوميدي بالدم الروماني ، ولعلهما امتزجا في أوغسطين . وكان كثيرون من الناس يتكلمون اللغة الهونية - وهي لغة قرطاجنة الفينيقية القديمة ، وقد بلغوا من الكثرة حداً اضطر معه أوغسطين وهو أسقف ألاّ يعين من القساوسة إلا من كان يتكلم هذه اللغة . وكانت الدوناتية فيها تتحدى الديانة القويمة ، والمانية تتحداها جميعاً ، ويلوح أن كثرة الأهلين كانت لا تزال وثنية^(٥٢) . وكان مسقط رأس أوغسطين هو بلدة تاجستي Tagaste في نوميديا . وكانت أمه القديسة منكا Monica مسيحية مخلصمة قضت حياتها كلها تقريباً في العناية بولدها الفضال والدعاء له بالهداية . أما والده فكان رجلاً قليل المال ، ضعيف المبادئ ، صبرت مونكا على عدم وفائه ليقينها أنه لن يستمر على هذا إلى أبد الدهر .

ولما بلغ الغلام الثانية عشرة من عمره أُرسل إلى المدرسة في مدورا Madaura ، ولما بلغ السابعة عشرة أُرسل ليتم دراساته العليا في قرطاجنة . وقد وصف سلقان أفريقية بعد ذلك الوقت بقليل بأنها « بالوعة أقدار العالم » ، كما وصف قرطاجنة بأنها « بالوعة أقدار أفريقية » . ومن أجل هذا كانت النصيحة التي أسدتها مونكا لولدها وقت وداعه هي كما جاءت على لسانه

« لاتنه أمرتي ، وحذرني في جد وصرامة من مخالفة أمرها ، وألاّ أرتكب

الفحشاء ، وخاصة ألا أدنس عرض امرأة متزوجة . وخيل إلى أن هذه الأقوال لا تعدو أن تكون نصائح امرأة ، وأن من العار على أن أعمل بها ... واندفعت في غوايتي اندفاع الأعمى ، حتى كنت أخجل وأنا بين لدائي من أن ارتكب ذلك الجرم الشنيع فأكون أقل منهم قحة حين كنت أستمع إليهم يتفاخرون أعظم الفخر بآثامهم ؛ نعم فقد كان تفاخرهم يعظم كلما زادت حيوانيتهم . وكنت أسر من هذه الأعمال الفاضحة ، ولم يكن ذلك لما فيها من لذة فحسب ، بل لما أناله بسببها من المديح . . . فإذا عدت فرصة ارتكاب عمل من الأعمال الإجرامية ، التي تسلكني مع السفلة الخاسرين ، تظاهرت بأني قد فعلت ما لم أفعله قط » (٥٤) .

وقد أظهر أوغسطين أنه تلميذ مجد في اللغة اللاتينية ، وفي العلوم الرياضية ، والموسيقى والفلسفة « وكان عقلى القلق عاكفاً على طلب العلم » (٥٥) . ولم يكن يحب اللغة اليونانية ، ولذلك لم يتقنها أو يتعلم آدابها ، ولكنه افتتن بأفلاطون افتتانا جعله يلقبه « نصف الإله » (٥٦) ، ولم يمتنع عن أن يكون أفلاطونياً بعد أن صار مسيحياً . وقد هياه مرانه الوثني في المنطق والفلسفة لأن يكون أعظم الفقهاء دهاء في الكنيسة المسيحية .

ولما أتم دراسته أخذ يعلم النحو في تاجستي ثم البلاغة في قرطاجنة . وإذا كان قد بلغ وقتئذ السادسة عشرة من عمره فقد « كثر الكلام حول اختيار زوجة لي » . ولكنه فضل أن يتخذ له خليلة — وهي طريقة سهلة ترضاه المبادئ الأخلاقية الوثنية والقوانين الرومانية . وإذا لم يكن أوغسطين قد عمّد بعد ، فقد كان في وسعه أن يستمد مبادئه الخلقية أنى شاء . وكان انجازه خليلة له ارتقاء من الناحية الأخلاقية ، فقد انقطع بعدها عن الاختلاط الجنسي الطليق ، ويلوح أنه ظل وفيًا لخليلته حتى أفرقا في عام ٣٨٥ . ووجد أوغسطين نفسه في عام ٣٨٢ وهو لا يزال في الثامنة عشرة من عمره أبا لولد ذكر على كره منه ، وقد لقّب هذا الولد في وقت من الأوقات « ابن خديتي » ، ولكنه كان يسميه عادة أديوداثوس

Adeodatus — أى عطية الله ، وقد أحب الولد فيما بعد حبا شديداً ، ولم يكن يسمح له أن يبتعد عنه قط .

لما بلغ التاسعة عشرة من العمر غادر قرطاجنة إلى عالم رومة الواسع . وخشيت أمه ألا يعمد فرجته ألا يذهب إلى رومة ، فلما أصر على الذهاب ، توسلت إليه أن يأخذها معه . فتظاهر بموافقتها على توسلها ، ولكنه حين ذهب إلى الميناء تركها تصلى في معبد صغير وأبحر دون أن يأخذها معه (٥٧) . وقضى عاماً في رومة يعلم البلاغة ، ولكن تلاميذه لم يؤدوا إليه أجره ، فطلب أن يعين أستاذاً في ميلان ، وامتحنه سيماخوس ووافق على طلبه وأرسله إلى ميلان بهريد الدولة . وهناك لحقت به أمه الشجاعة ، وأقنعتة بأن يستمع معها إلى مواعظ أمبروز ، وتأثر هو بهذه المواعظ ، ولكنه تأثر أكثر من هذا بالترنيمة التى ترنم بها المصلون . وأقنعتة منكا في الوقت عينه بأن يتزوج ، ثم خطبت له عروساً بالفعل ، وكان الآن في الثانية والثلاثين من عمره ، وكانت عروسه بنتاً صغيرة السن عظيمة الثراء ورضى أوغسطين أن ينتظر عامين حتى تبلغ الثانية عشرة . وكان أول ما استعده له لزواجه أن أعاد حظيته إلى أفريقية ، حيث دفنت أجزائها في دير النساء . وكان امتناعه عن النساء أسابيع قليلة كافياً لأن يسبب له انهياراً في أعصابه ، فاستبدل بالزواج حظية أخرى ، ودعا الله قائلاً : « ارزقنى العفة ، ولكنها لم يحل أوانها بعد » (٥٨) .

وقد وجد في خلال هذه المشاغل المختلفة وقتاً لدراسة العلوم الدينية . لقد بدأ الرجل حياته بعقيدة أمه البسيطة ، ولكنه نبذها بأنفة وكبرياء حين ذهب إلى المدرسة ، ثم ظل تسع سنين معتقاً عقيدة الأثنينية المانية لأنه رأى فيها وسيلة لفهم العالم المركب من الخير والشر بلاميز بينهما . وقضى بعض الوقت يداعب تشكك المجمع العلمى المتأخر ، ولكن مزاجه الشديد التأثير والانفعال لم يكن يطيق البقاء زمناً طويلاً معلق الحكم . ودرس وهو في رومة وميلان كتب أفلاطون وأفلاطون

وتأثرت فلسفته أشد التأثير بالأفلاطونية الجديدة ، وظلت تسيطر عن طريقه على علوم الدين المسيحية إلى أيام أبيلار Abélard . وكانت هذه الفلسفة سبيل أوغسطين إلى المسيحية . وكان أمبروز قد أشار عليه بأن يقرأ الكتاب المقدس على ضوء ما قاله بولس من أن « الحرفية تقتل ولكن الروح تعمل للحياة » . ووجد أوغسطين أن التفسير الرمزي للكتاب المقدس يزيل ما كان يبدو له في سفر التكوين من سخف . ولما قرأ رسائل بولس شعر بأنه قد وجد رجلا مرت به مثله آلاف الشكوك ، فلما ثبتت عقيدته آخر الأمر لم يكن عقلا أفلاطونياً مجرداً بل وجد كلمة الله التي أصبحت إنساناً . وبينما كان أوغسطين جالساً في يوم من الأيام في إحدى حدائق ميلان مع صديقه أليبيوس ، خيل إليه أنه يسمع صوتاً يطن في أذنيه ويناديه : « خذ واقرأ ، خذ واقرأ » . ففتح رسائل بولس مزة أخرى وقرأ :

لا بالبطر والسكر ، لا بالمضاجع والعهر ، لا بالخصام والحسد . بل ألبسوا الرب يسوع المسيح ، ولا تضعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات (*) . وكانت هذه الفقرة خاتمة تطور طويل الأمد في مشاعر أوغسطين وأفكاره وقد وجد في هذا الدين العجيب شيئاً أعظم حرارة وأعمق فكراً من كل ما في منطق الفلسفة ؛ لقد جاءت المسيحية لترضى فيه عاطفته المنفعلة القوية ؛ فلما أن تخلص من التشبك الذهني وجد لأول مرة في حياته دافعاً خُلِقياً قوياً ، وراحة عقلية ، وأقر صديقه أليبيوس أنه هو الآخر مستعد لأن يخضع مثله لهذا الصوت الجديد . وتلقت منكاً هذا الاستسلام منهما فعكفت على الصلاة حمداً لله على هذه النعمة .

(*) من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية الأصحاح الثالث عشر الآية ، ١٤ :
(المترجم)

وفي يوم عيد الفصح من عام ٣٨٧ عمّد أمبروز أوغسطين ، وأليبيوس وأديوداتس ، ووقفت منكا إلى جانبهم أثناء التعميد فرحة مستبشرة . وصمم أربعتهم على أن يذهبوا إلى أفريقية ليعيشوا فيها معيشة الرهبان . ثم ماتت منكا في أستييا Ostia وهي واثقة من أنها ستجتمع بهم في الجنة . ولما وصلوا إلى أفريقية باع أوغسطين ما خلفه له أبوه من ميراث صغير ووزع ثمنه على الفقراء ، ثم ألف هو وأليبيوس وطائفة من الأصدقاء جماعة دينية وعاشوا معاً في تاجستي ، فقراء ، عزاباً ، منقطعين للدرس والصلاة . وعلى هذا النحو وجدت الطريقة الأوغسطينية (٣٨٨) ، وهي أقدم أخوة رهبانية في الغرب كله .

٢ - العالم الديني

توفي أديوداتس في عام ٣٨٩ وحزن عليه أوغسطين كأنه لم يزل وقتئذ يشك فيما ينتظره الذين يموتون وهم مؤمنون بالمسيح من سعادة أبدية . وكان عزائمه الوحيد في هذا الحزن العميق هو العمل والكتابة . وفي عام ٣٩١ استعان به فليريوس أسقف هيو Hpoو (بونة الحالية) على إدارة أبرشيته ، ورسمه قسيساً يمكنه من القيام بهذا العمل . وكثيراً ما كان فليريوس يترك له منبر الخطابة ، وكانت بلاغة أوغسطين تؤثر بأبلغ الأثر في المصلين سواء فهموها أو لم يفهموها . وكانت هيو ثغراً يسكنه نحو أربعين ألفاً من السكان ، وكان للكاثوليك فيه كنيسة ، وللدوناتيين كنيسة أخرى ، وكانت بقية السكان من المانين (*) ، أو الوثنيين . وكان فرتونانس Fartunatus الأسقف الماني صاحب السيطرة الدينية في هذه البلدة ، ولهذا انضم الدوناتيون إلى الكاثوليك في تحريض أوغسطين على أن يقابله في نقاش ديني ، وقبل أوغسطين هذا الطلب ، ولبت

(*) أتباع ماني وهو من أهل همدان (إكبانانا) عاش في القرن الثالث وكان يقول :
إن كل شيء ينشأ من أصلين رئيسيين النور والظلمة أو الخير والشر . (المترجم)

هذان الحصان ، أو إن شئت فقل المجالدان الحديدان يومين كاملين في جملهم أمام حشد كبير امتلأت به حمامات سوسيوس Socios . وفاز أوغسطين على مناظره ، فغادر فرتوناتس هيو ولم يعد إليها أبداً (٣٩٢) .

وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت طلب فليريوس إلى أتباعه أن يختاروا خلفه معللاً طلبه هذا بشيخوخته ، فأجمعوا أمرهم على اختيار أوغسطين ، لكنه عارض في هذا الاختيار وبكى ، وتوسل إليهم أن يسمحوا له بالعودة إلى دير ، غير أنهم تغلبوا عليه ؛ وظل الأربعة والثلاثين عاماً الباقية من عمره أسقفاً لهيو .

ومن هذه البقعة الصغيرة كان يحرك العالم . فبدأ عمله باختيار شماس أو شماسين ، وجاء براهبين من دير له يساعده في عمله ، وعاشوا جميعاً عيشة الدير الشيعية في مسكنهم الكنسي ، ولذلك استولت بعض الدهشة على أوغسطين حين رأى أحد أعوانه يترك حين وفاته ميراثاً لا بأس به (٥٩) . وكانوا جميعاً يعيشون على الخضر وبيقون اللحم للأضياف والمرضى . وقد وُصف أوغسطين نفسه بأنه قصير القامة ، نحيل الجسم ، ضعيف البنية على الدوام ؛ وكان يشكو اضطراباً في الرئة ، وكان شديد التأثر بالبرد . وكان مرهف الأعصاب ، سريع التهيج ، قوى الخيال مكتئبه ، حاد الذهن ، مرن العقل . وما من شك في أنه كان يتصف بكثير من الخلال المحبوبة رغم تمسكه الشديد بآرائه ، وتعسفه في أحكامه الدينية ، وعدم تسامحه في بعض الأحيان . وقبل كثيرون ممن جاءوه ليأخذوا عنه فنون البلاغة زعامته الدينية ، وظل أليبيوس من أتباعه إلى آخر حياته .

ولم يكد أوغسطين يجلس على كرسي الأسقفية حتى بدأ كفاحه الذي استمر مدى الحياة ضد الدونانية . فكان يتحدى زعماءهم ويدعوهم إلى المناقشة العلنية ، ولكن لم يقبل دعوته إلا عدد قليل منهم ؛ ثم دعاهم إلى مؤتمرات حبية ، ولكنهم أجابوه بالصمت ، ثم بالإهانة ، ثم بالعنف ؛ وشنوا هجوماً شديداً على عدد من الأساقفة الكاثوليك في شمالي أفريقية ؛ ويبدو أن عدة محاولات قد

بذلت لاغتيال أوغسطين نفسه^(٦٠) . على أننا لا نستطيع أن نقطع في هذا برأى حاسم لأنه ليس لدينا ما يقوله الدوناتية في هذا الشأن ؛ وفي عام ٤١١ اجتمع مجلس ديني في قرطاجنة استجابة للدعوة الإمبراطور هونوريوس ليضع حداً للنزاع مع الدوناتية ؛ وأرسل الدوناتيون ٢٧٩ من أساقفتهم ، كما أرسل الكاثوليك ٢٨٦ أسقفاً — لكننا يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن لفظ أسقف لم يكن له في أفريقية معنى أكثر من لفظ قسيس . وبعد أن سمع مرسيلينوس Marcellinus مندوب الإمبراطور حجج كل من الفريقين أمر ألا يعقد الدوناتية اجتماعاً عاماً بعد ذلك اليوم ، وأن يسلموا جميع كنائسهم إلى الكاثوليك . ورد الدوناتية على ذلك بأعمال في منتهى العنف منها ، على ما يقال ، أنهم قتلوا رستيتوتوس Restitutus أحد قساوسة هيو وبتروا بعض أعضاء رجل من رجال أوغسطين ، وألح أوغسطين على الحكومة أن تنفذ قرارها بالقوة^(٦١) ، وخرج على آرائه القديمة القائلة بأنه . « يجب ألا يرغم أحد على القول بوحدة المسيح . . . وأنه ينبغي لنا ألا نقاتل الناس إلا بقوة الحجج ، وألا نتغلب إلا بقوة العقل »^(٦٢) . ونخم دعوته بقوله إن الكنيسة هي الأب الروحي لجميع الناس ، ومن ثم يجب أن يكون لها ما للأب من حق في عقاب الإبن المشاكس لرده إلى ما فيه الخير له^(٦٣) ؛ وقد بدا له أن إيقاع الأذى ببعض الدوناتية خير « من أن فنصب اللعنة على الجميع لنحاجتهم إلى من يرغمهم »^(٦٤) . وكان في الوقت نفسه يكرر الدعوة إلى موظفي الدولة ألا ينفذوا عقوبة الإعدام على المارقين^(٦٥) .

وإذا غضضنا النظر عن هذا النزاع المرير ، وعن المشاغل التي تبطلها أعمال منصبه الديني ، حق لنا أن نقول إن أوغسطين كان يعيش في مملكة العقل وإن معظم عمله كان بقلمه . فقد كان يكتب في كل يوم تقريباً رسالة لا يزال لها أعظم الأثر في أصول المذهب الكاثوليكي ؛ وإن مواعظه وحدها لتملأ مجلدات ضخمة . ومع أن بعضها قد أفسدته البلاغة المصطنعة وما فيه من جمل متقابلة متوازنة ؛ ومع

أن الكثير من هذه المواعظ يبحث في موضوعات محلية ، لا شأن لها بغير الوقت الذي قيلت فيه ، ويبحث فيها بأسلوب بسيط يتفق مع عقلية الجماعات غير المتعلمة التي كانت تستمتع إليه ، ومع هذا كله فإن الكثير من هذه المواعظ يسمو إلى منزلة عليا من الفصاحة منشؤها عاطفته الصوفية القوية ، والعقيدة الثابتة المتأصلة في أعماق نفسه . ولم يكن في وسعه أن يحصر عقله في أعمال أبرشيته لأنه عقل دأب على العمل ومرن على منطق المدارس . وقد بذل غاية جهده فيما أصدره من الرسائل التي كان بعضها يأخذ برقاب بعض في أن يوفق بين العقل وبين عقائد الكنيسة التي كان يحلها ويرى أنها دعامة النظام والأخلاق الفاضلة في هذا العالم الحرب المضطرب . وكان يدرك أن التثليث هو العقبة الكوثر في سبيل هذا التوفيق ، ولهذا قضى خمسة عشر عاما يعمل في أدق كتبه وأحسنها تنظيما وهو كتاب التثليث De Trinitate — الذي حاول فيه أن يجد في التجارب الإنسانية نظائر لثلاثة أشخاص في إله واحد . ومما حيره أكثر من هذه المسألة ، وملأ حياته كلها بالدهشة والمجادلة ، مشكلة التوفيق بين حرية الإرادة وعلم الله الأزلي السابق لأعمال الإنسان . فإذا كان علم الله يشمل كل شيء فهو يرى المستقبل بكل ما فيه ، ولما كانت إرادة الله ثابتة لا تتغير فإن ما لديه من صورة للحوادث التي سوف تقع في المستقبل يحتم عليها أن تقع وفقاً لهذه الصورة ، فهي إذن مقررة من قبل لا تبدل فيها ولا تتغير . فكيف والحالة هذه يكون الإنسان حراً في أعماله ؟ ألا يجب على الإنسان إذن أن يعمل وفق ما هو سابق في علم الله ؟ وإذا كان الله عليماً بكل شيء ، فقد عرف منذ الأزل المصير الأخير لكل روح خلقها ؛ فلم إذن خلق الأرواح التي قدر عليها اللعنة ؟

وكان أوغسطين قد كتب في السنين الأولى من حياته المسيحية رسالة « في حرية الإرادة De libero arbitrio » . حاول فيها وقتئذ أن يوفق بين وجود الشر وبين الخير الذي يتصف به الله القادر على كل شيء . وكان الحل الذي

وصل إليه في هذه المشكلة هو أن الشر نتيجة لحرية الإرادة ؛ ذلك أن الله لا يمكن أن يترك الإنسان حراً ، دون أن يمكنه من أن يعمل الشر كما يعمل الخير . ثم تأثروا فيما بعد برسائل بولس فقال إن خطيئة آدم قد وصمت الجنس البشرى بوصمة الميل إلى الشر ، وإن الأعمال الصالحة مهما كثرت لا تستطيع أن تمكن النفس البشرية من التغلب على هذا الميل ، ومحو هذه الوصمة ، والنجاة منها ؛ بل الذي يمكنها من هذا هو النعمة الإلهية التي يهبها الله لكل من أراد . ولقد عرض الله هذه النعمة على الناس جميعاً ولكن الكثيرين منهم رفضوها . وكان الله يعلم أنهم سيرفضونها ، ولكن العقاب الذي قد يحل بهم نتيجة لهذا الرفض هو الثمن الذي يؤدونه لهذه الحرية الأخلاقية التي بغيرها لا يكون الإنسان إنساناً . وعلم الله السابق لا يتعارض مع هذه الحرية ، إذ كل ما في الأمر أن الله يرى من قبل ما سيختاره الإنسان بمحض حريته (٦٦) .

ولم يبتدع أوغسطين عقيدة الخطيئة الأولى ؛ ذلك أن بولس ، ورتليان ، وسبريان ، وأميروز كلهم قد علموها الناس ؛ ولكن الخطايا ، التي اوتكبها « والصوت » الذي هداه قد غرسا فيه اعتقاداً مقبضاً بأن إرادة الإنسان تنزع من مولده إلى عمل الشر ، وألا شيء يستطيع ردها إلى الخير إلا فضل الله الذي يهبه للناس من غير مقابل . ولم يكن في مقدور أوغسطين أن يفسر نزعة الإرادة البشرية إلى الشر بأكثر من أنها نتيجة لخطيئة حواء ، وحب آدم لها . ويقول أوغسطين إننا ونحن كلنا أبناء آدم ، نشاركه في إثمه ، بل إننا في الواقع أبناء هذا الإثم : لأن الخطيئة الأولى كانت نتيجة شهوته ، ولا تزال هذه الشهوة تدنس كل عمل من أعمال التناسل ؛ وبفضل هذه الصلة بين الشهوة الجنسية والأبوة ، كان الجنس البشرى « جمعا من الخاسرين » وحلت اللعنة على الكثرة الغالبة من آدميين . نعم إن بعضنا سوف ينجو ، ولكن نجاة هؤلاء لن تكون إلا نعمة ينالونها بسبب ما قاساه ابن الله من آلام ؛ وبشفاعة الأم التي حملت

فيه من غير دنس . « لقد حل بنا الهلاك بفعل امرأة ، وعادت إلينا النجاة بفضل امرأة » (٦٧) .

ولقد انحدر أوغسطين أكثر من مرة إلى مبالغات حاول فيما بعد أن يخفف منها ، وكان سبب انحداره إليها كثرة ما كتب وسرعته في كتابته التي كثيراً ما كان يملأها إملاء كما نظن . فكان في بعض الأحيان يدعو إلى العقيدة الكالفنية القائلة بأن الله قد اختار بمحض إرادته منذ الأزل « الصفوة » التي سيهبها نعمة النجاة (٦٨) . وقد قامت طائفة كبيرة من النقاد تصب عليه بجام غضبها لأخذه بأمثال هذه النظرية ؛ ولكنه لم يتراجع عن شيء منها بل دافع عن كل نقطة منها إلى آخر أيام حياته . وجاءه من إنجلترا الراهب پلاجيوس Pelagius وهو أقدر معارضيه بدفاع قوى عن حرية الإنسان ، وعن قدرة الأعمال الصالحة على نجاته من العذاب . وكان مما قاله پلاجيوس إن الله في واقع الأمر يعيننا على الخير بما ينزله علينا من الشرائع والوصايا ، وبما يضربه قديسوه من الأمثلة الصالحة قولاً وفعلاً ، وبمياه التعميد المطهرة ، وبدم المسيح المنقذ . ولكن الله لا يرجح كفة خسراننا بأن يجعل الطبيعة البشرية آثمة بفطرتها . فلم تكن ثمة خطيئة أولى ، ولم يكن هناك سقوط للإنسان ، ولن يعاقب على الذنب إلا من ارتكبه ، ولن ينتقل منه جرم إلى أبنائه (٦٩) . والله لا يُقَدَّر على هؤلاء الأبناء أن يكون مصيرهم الجنة أو النار ، ولا يختار متعسفاً من يلعنه ومن ينجيهِ ، بل يترك لنا نحن أن نختار مصيرنا . ويمضى پلاجيوس فيقول إن القائلين بفساد الإنسان الأخلاقي إنما يلومون الله على خطايا البشر . إن الإنسان يشعر بأنه مسئول عما يعمل ومن أجل هذا فهو مسئول عنه حقاً ، « وإذا كنت مرغماً فإني قادر » .

وجاء پلاجيوس إلى رومة حوالي عام ٤٠٠ وعاش فيها مع أسر صالحة ، واشتهر بالتق والفضيلة . وفي عام ٤٠٩ فرّ من أليزيك ، وكان فراره إلى قرطاجنة ثم إلى فلسطين ، حيث عاش في سلام حتى جاء أورسيوس الشاعر الأسباني من

عند أوغسطين يحذر منه جيروم (٤١٥) : وعقد مجمع ديني شرقي ليحاكم الراهب ، ولكنه قرر صحة عقائده ؛ غير أن مجعاً أفريقياً نقض هذا الحكم بتحريض أوغسطين ولجأ إلى البابا إنوسنت Innocent الأول فأعلن أن پلاجيوس مارق من الدين ؛ وحينئذ ملأ الأمل صدر أوغسطين فأعلن أن « القضية قد أصبحت مفروغا منها Causa finita est » (*) . ثم مات إنوسنت وخلفه زوسموس Zosimus وأعلن أن پلاجيوس بريء . ولجأ أساقفة أفريقية إلى هونوريوس ، وسرّ الإمبراطور أن يصحح خطأ البابا ، ونخضع زوسموس للإمبراطور (٤١٨) ، وأعلن مجلس إفسوس أن ما يراه پلاجيوس من أن في مقدور الإنسان أن يكون صالحاً دون أن يستعين بنعمة الله زيغ وضلال .

وفي استطاعة الباحث أن يجد في أقوال أوغسطين متناقضات وسخافات بل وقسوة سقيمة في التفكير ، ولكن ليس من السهل أن يتغلب عليه لأن الذي يشكل آراءه الدينية في آخر الأمر هو مغامراته الروحية ، ومزاجه الجياش بالعاطفة لا تفكيره المنطقي المتسلسل . ولقد كان يعرف ما ينطوي عليه العقل البشري من ضعف ، ويدرك أن تجارب الفرد القصيرة هي التي تحكم حكماً طائشاً على تجارب الجنس البشري كله ويقول : « كيف تستطيع أربعون عاماً فهم أربعين قرناً ؟ » وقد كتب إلى صديق له يقول : « لا تعارض بحجج قوية هائجة فيما لا يزال عسير الفهم عليك ، أو فيما يبدو لك في الكتاب المقدس ... من تباين وتناقض ، بل أجّل ... في وداعة اليوم الذي تفهمه فيه » (٧١) . إن الإيمان يجب أن يسبق الفهم . لا تحاول أن تفهم لكي تؤمن ، بل آمن لكي تفهم » (٧٢) . « وقوة الأسفار المنزلة أعظم من جميع جهود الذكاء البشري » (٧٣) . لكنه يرى

(*) ليس في مقدورنا أن نجد فيما لدينا من مؤلفات أوغسطين أو في الروايات الموثوق بها عنه تلك الألفاظ التي ترمى له غالباً بهذه المناسبة وهي : « لقد تكلمت رومة وانتهت القضية » (Roma locuta est, Causa finita)

أن ليس من المحتم أن تفهم ألفاظ الكتاب المقدس حرفياً ؛ فقد كتبت أسفارهم لكي تفهمها العقول الساذجة ، ولهذا كان لا بد من أن تستخدم فيه ألفاظ خاصة بالجسم للدلالة على الحقائق الروحية^(٧٤) . وإذا اختلف الناس في تفسيرها كان علينا أن نرجع إلى حكم مجالس الكنيسة أى إلى الحكمة الجامعة المستمدة من أعظم رجالها حكمة^(٧٥) .

على أن الإيمان نفسه لا يكفي وحده للفهم الصحيح ؛ بل يجب أن يصحبه قلب طاهر يسمح بأن ينفذ فيه ما يحيط بنا من أشعة قدسية . فإذا تطهر الإنسان وتواضع على هذا النحو ارتقى بعد سنين كثيرة إلى الغاية الحققة وإلى جوهر الدين وهو « الاستحواذ على الله الحى » ؛ « إني أريد أن أعرف الله والنفس ، وهل ثمة شيء أكثر من هذا ؟ لا شيء أكثر من هذا على الإطلاق »^(٧٦) . إن أكثر ما تتحدث عنه المسيحية الشرقية هو المسيح ، أما عليم أوغسطين فيتحدث عن « الشخص الأول » . يتحدث ويكتب عن الله الأب وإلى الله الأب . وهو لا يخلع على الله أوصافاً ، لأن الله وحده هو الذى يعرف الله حق المعرفة^(٧٧) . والراجح أن « الله الحق ليس بذكر ولا بأنثى ، وليس له عمر ولا جسم »^(٧٨) ، ولكن فى وسعنا أن نعرف الله ، معرفة أكيدة بمعنى ما ، عن طريق خَلْقِهِ ، لأن كل شيء فى العالم أعجوبة من أعظم العجائب فى نظامها وفى وظيفتها ، ولا يمكن أن توجد إلا إذا أوجدها عقل خلّاق^(٧٩) ؛ وإن ما فى الكائنات الحية من نظام ، وتناسب ، واتزان ، ليدل على وجود نوع من القدرة الإلهية الأفلاطونية يتوحد فيها الجمال والحكمة^(٨٠) .

ولا شيء يضطرنا إلى الاعتقاد بأن العالم خلّيق فى ستة « أيام » ؛ وأكبر الظن أن الله قد خلّيق فى أول الأمر كتلة سديمية (nebulous species) ، ولكن النظام البذرى ، أو القدرة الإنتاجية rationes seminales كانت كامنة فى هذا النظام . ومن هذه القدرة الإنتاجية نشأت الأشياء كلها بعلى طبيعية^(٨١) .

وكان أوغسطين يرى - كما يرى أفلاطون - أن ما في العالم من أشياء حقيقية وحوادث قد وجدت كلها أولاً في عقل الله قبل أن توجد على سطح الأرض « كما يوجد تخطيط البناء في عقل المهندس قبل أن يقيمه » (٨٢) ، ويتحدث الخلق في الوقت المناسب حسب هذه الصورة الأزلية الموجودة في العقل الإلهي .

٣ - الفيلسوف

تُرى كيف نستطيع في هذا الحيز الصغير أن نوفى صاحب هذه الشخصية القوية وهذا القلم الحبيب حقه من التمجيد والتكريم ؟ إن هذا الرجل لم يكد يترك مشكلة دينية أو سياسية إلا جهر فيها برأيه وبحجتها في رسائله البالغ عددها ٢٣٠ رسالة ، كتبها بأسلوب يفيض بقوة الشعور الحار وبعبارات خلاّبة استعمل فيها ألفاظاً جديدة صاغها من معينه الذي لا ينضب ؛ فقد بحث في حياء ودهاء طبيعة الزمن (٨٣) ، وسبق ديكارت إلى قوله : « إنى أفكر ولهذا فأنا موجود » ففند آراء رجال المجمع العلمي الذين يقولون إن الإنسان لا يستطيع أن يكون واثقاً من أى شئ ، وقال : « منذاً الذي يشك في أنه حى وأنه يفكر ؟ ... ذلك بأنه إن شك فهو حى » (٨٤) . وكذلك سبق برجسن Bergeson في شكواه من أن العقل لطول بحثه في الأشياء الجسمية قد أصبح مادي النزعة ؛ وأعلن كما أعلن كانت Kant أن الروح هي أكثر الحقائق كلها علماً بنفسها ، وعبر تعبيراً واضحاً عن النزعة المثالية القائلة إنه « لما كانت المادة لا تعرف إلا عن طريق العقل فليس في مقدورنا من الناحية المنطقية أن نهبط بالعقل فنجعله مادة » (٨٥) . وأشار إلى مبحث شوپنهاور في أن الإرادة ، لا العقل ، هي العنصر الأساسى في الإنسان ، واتفق مع شوپنهاور في أن العالم يصلح إذا وقف كل ما فيه من تناسل (٨٦) .

ومن مؤلفاته كتابان يُعدان من خير كتب الأدب القديم في العالم كله .

فاعترافاته (حوالى عام ٤٠٠) هى أول ما كتب من التراجم الذاتية وأوسعها شهرة . والكتاب موجه إلى الله مباشرة بوصفه توبة إليه من الذنوب صيغت فى مائة ألف كلمة . ويبدأ الكتاب بوصف ما اقترفه من الذنوب فى صباه ، ثم يروى قصة هدايته فى وضوح ، وتتخلل هذه القصة أحياناً نشوة قوية من الصلوات والأدعية . إن الاعترافات كلها ستار للجريمة ، ولكن فى اعترافات أوغسطين بالذات إخلاصاً ذهل منه العالم كله . ولقد قال هو نفسه — بعد أن بلغ الرابعة والستين من عمره وأصبح أسقفاً — إن الصورة الشهوانية القديمة ، « لا تزال حية فى ذاكرتى ، تندفع إلى أفكارى فهى تساورنى فى نوى لا لتسرنى فحسب بل قد يبلغ بى الأمر أن أراضى عنها وأوافق عليها وأحب أن أخرجها من التفكير إلى التنفيذ » (٨٧) . وتلك صراحة وتحليل نفسانى لا نجدهما عادة فى الأساقفة . وكتابه هذا الذى يعد خير كتبه كلها هو قصة نفس بلغت أعلى درجات الإيمان والسلام . وإنا لنجد فى سطورهِ الأولى خلاصة له كله : « لقد خلقتنا يا رب لنفسك ولن تعرف قلوبنا الراحة حتى تستريح لديك » . ولما بلغ هذه المرحلة كانت عقيدته ثابتة لا تتسرب إليها ريبة مؤمنة بما فى خلق الكون من عدالة :

« لقد أحبتك يا رب بعد فوات الأوان ، يا إلهى يا ذا الجمال التليد والطارف .. إن السماء والأرض وكل ما فيهما لتوحى إلىّ من جميع نواحيّ أن الواجب علىّ أن أحبك ... فأى شيء أحب الآن حين أحبك يا رب ؟ ... لقد سألت الأرض فأجابت لست أنا الذى تحب ... وسألت البحر والأعماق البعيدة وكل ما يدب على الأرض فأجابت كلها : لسنا نحن إلهك ، فابحث عنه من فوقنا . وسألت الرياح العاصفة فأجابنى الهواء بكل ما فيه : لقد كان أنكسيانوس مخدوعاً ، لست أنا الله . وسألت السموات ، والشمس والقمر والنجوم فقالت : لسنا نحن الله الذى تبحث عنه . فأجبتها كلها ... حدثنى عن الله ، إذ لم تكونى أنت

هو فحدثني عنه . فصاحت كلها بصوت عال : لقد خلقتنا ... وإن الذين لا يجدون السرور في كل شيء خلقتهم لقوم فقدوا عقولهم ... وفي رضاك يا إلهي عنا سلامنا(*) (٨٨) .

واعترافات أوغسطين شعر في صورة نثر ؛ أما كتابه الآخر « مدينة الله » (٤١٣ - ٤٢٦) فهو فلسفة في صورة تاريخ . وكان الباعث له على كتابته أنه لما ترامت إلى أفريقية أنباء نهب ألريك لرومة ، وما أعقبه من فرار آلاف اللاجئين ثارت نفس أوغسطين ، كما ثارت نفوس جيروم وغيره ، لهذه المفاجعة التي بدت لهم كأنهم عملاً شيطانياً لا يفعله من أوتي ذرة من العقل . وتساءل الناس قائلين : لم يترك الإله الخير الرحيم تلك المدينة التي أبدع الناس جمالها وأنشأوا قوائمها وظلوا يجلونها القرون الطوال ، والتي أضحت الآن حصن المسيحية الحصين ، لم يتركها الإله إلى البرابرة يعيشون فيها فساداً ؟ وقال الوثنيون في كل مكان إن المسيحية هي سبب ما حل بالمدينة من دمار : ذلك أن الآلهة القديمة قد تخلت عن حماية رومة بسبب ما أصاب تلك الآلهة من نهب ، وثل لعروشها ، وتحريم لعبادتها . وكانت هذه المدينة قد نمت وازدهرت وعمها الرخاء مدى ألف عام بفضل هداية هذه الآلهة . وتزعزع إيمان كثيرين من المسيحيين بسبب هذه الكارثة . وشعر أوغسطين في قرارة نفسه بهذا التحدي ، وأدرك أن ذلك الصرح الديني العظيم الذي شاده لنفسه على مر السنين ، يوشك أن ينهار إذا لم يعمل شيئاً يخفف من هذا الدعر المستولي على النفوس . ولهذا قرر أن يبذل كل ما وهب من عبقرية لإقناع العالم الروماني أن هذه الكارثة وأمثالها لا تعيب المسيحية ولا تزيى بفضلها . وظل ثلاثة عشر عاماً يواصل الليل بالنهار في تأليف هذا الكتاب بالإضافة إلى ما كان يقوم به من واجبات وما يحيط به من مشاغل تشتت أفكاره . وكان ينشره أجزاء متقطعة في فترات متباعدة حتى نسي وسطه

(*) انظر قول دانتي في الجنة Paradiso (٣ : ٨٥) إن إرادته هي سلامنا .

أوله ولم يدر ما سيكون آخره . ومن أجل هذا كان لابد أن تصبح صفحاته البالغة ١٢٠٠ صفحة سلسلة من المقالات المهوشة في جميع الموضوعات من الخطيئة الأولى إلى يوم الحساب . ولم يرفعه من الفوضى السارية فيه إلى أعلى مكانة في أدب الفلسفة المسيحية إلا عمق تفكيره وبراعة أسلوبه .

وكان جواب أوغسطين الأول عما يدور بخلد الناس من أسئلة محيرة أن ما حل برومة لم يكن عقابا لها لاعتناقها الدين الجديد بل كان جزاء لها على ما لا تنفك ترتكبه من آثام ، ثم أخذ يصف ما يمثل على المسرح الوثني من مفسد ، ونقل عن سالست وشيشرون ما قالاه عن مفسد السياسة الرومانية ، وقال إن الرومان كانوا في وقت من الأوقات أمة من الرواقين يبعث فيها القوة رجال من أمثال كاتو وسپيو ، وكادت أن تخلق القانون خلقا ، ونشرت لواء السلم والنظام على نصف العالم ، وفي هذه الأيام القديمة أيام النبل والبطولة تجلّى الله عليها يوجّهه ، وأشرق عليها بنوره ، ولكن بذور الفساد الخُلّقي كانت كامنة في دين رومة القديم نفسه ، كامنة في ثنايا تلك الآلهة التي كانت تشجع الغرائز الجنسية بدل أن تقاومها ، تشجع الإله فرچنيوس على أن يحل حزام العذراء ، وسبجوس Subigus على أن يضعها تحت الرجل ، وپريما Prema على أن تتكى عليها . . . وتشجع پريابوس Priapus الذي أمرت العروس الجديدة أن تقوم وتجلس فوق عضوه الضخم الحيواني^(٨٩) . لقد عوقبت رومة ، لأنها كانت تعبد أمثال تلك الآلهة لأنها غفلت عن عبادتها . ولقد أبقي البرابرة على الكنائس المسيحية وعلى الذين لجأوا إليها ، ولكنهم لم يرحموا المعابد الوثنية ، فكيف إذن يكون الغزاة صوت عذاب في أيدي الآلهة الوثنية ؟

وكان رد أوغسطين الثاني ضربا من فلسفة التاريخ — فقد كان محاولة منه لتفسير الحوادث التي وقعت في أزمنة التاريخ المدون على أساس عام واحد . فقد استمد أوغسطين من فكرة أفلاطون عن الدولة المثالية القائمة

« في مكان ما في السماء » ، ومن فكرة القديس بولس عن وجود مجتمع من القديسين الأحياء منهم والأموات^(٩٠) ، ومن عقيدة تيكونيوس Tyconius الدوناتي عن وجود مجتمعين أحدهما لله والآخر للشيطان ، استمد من هذا كله الفكرة الأساسية التي قام عليها كتابه وهو أنه قصة مدينتين : مدينة أرضية يسكنها رجال هذه الدنيا المنهمكون في شئون الأرض ومباهجها ، ومدينة إلهية هي مدينة عباد الله الواحد الحق في الماضي والحاضر والمستقبل . ولما ركس أورليوس في هذا المعنى عبارة ما أعظمها : « في وسع الشاعر أن يقول لأثينة : أي مدينة سكربس Cecrops الجميلة ! فهلاً قلت أنت للعالم أي مدينة الله الجميلة ؟ »^(٩٢) . وكان أورليوس يقصد بقوله هذا الكون المنظم كله . ويقول أوغسطين إن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة وإن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانه بسبب الشياطين . والجنس البشري منقسم قسمين مختلفين : منهم قسم يعيش طبقاً لسنن الآدميين ، وقسم يعيش طبقاً لسنة الله . ونحن نطلق على هذين القسمين اسمين رمزيين فنسميهما « المدينتين » أو « المجتمعين » . فواحدة منهما قدّر لها أن تتحرك إلى أبد الدهر مع الله ، وأخرى قد حُكِمَ عايتها أن تعذب إلى أبد الدهر مع الشيطان^(٩٣) . وليس حتماً أن تنحصر المدينة أو الإمبراطورية الواقعية من جميع نواحيها في داخل نطاق المدينة الأرضية ؛ فقد تقوم بأعمال طيبة ، فتسنّ الشرائع الحكيمة ، وتصدر الأحكام العادلة ، وتساعد الدين ، كأن هذه الأعمال الصالحة تحدث في داخل مدينة الله ؛ كذلك ليست المدينة الروحية هي بعينها الكنيسة الكاثوليكية . فإن الكنيسة أيضاً قد تكون لها مصالح أرضية ، وقد يتعاطف أتباعها فيعملون لمصلحتهم الخاصة ، ويرتكبون الذنوب ، وينحدرون من إحدى المدينتين إلى الأخرى ، ولن تنفصل المدينتان وتصبح كلتاها معزول عن الأخرى إلا في يوم الحساب^(٩٤) .

وفي وسع الكنيسة أن تكون هي بعينها مدينة الله ، وإن أوغسطين ليجعلها

كذلك في بعض الأحيان ، وذلك بأن تتسع عضويتها اتساعاً رمزياً للأرواح السماوية والأزواح الأرضية ، وللصالحين من الناس الذين عاشوا قبل المسيحية وفي أيام المسيحية^(٩٥) . وقد احتضنت المسيحية فيما بعد هذه الفكرة القائلة بأنها هي مدينة الله واتخذتها سلاحاً أدبياً استخدمته في الشؤون السياسية ، كما أنها استنتجت استنتاجاً منطقياً من فلسفة أوغسطين عقيدة الدولة الدينية تخضع فيها السلطات الدنيوية المستمدة من البشر إلى السلطة الروحية الممثلة في الكنيسة والمستمدة من الله . وقد قضى هذا الكتاب على الوثنية بوصفها فلسفة ، كما بدأت به المسيحية من حيث هي فلسفة ، وهو أول صياغة محددة جازمة لعقلية العصور الوسطى .

٤ - البطريق

وكان البطل المؤمن الشيخ لا يزال في منصبه حين هجم الوندال على شمالى أفريقية ، وقد بقي في صراعه الديني إلى آخر أيام حياته يقضى على البدع الجديدة ، ويلاقى الناقدين ، ويرد على المعترضين ، ويحل المشاكل . وكان يبحث في جده هل تبقى النساء نساء في الدار الآخرة ، وهل يبعث المشوهون ، والمبتورو الأعضاء ، والنحاف والسمان في تلك الدار كما كانوا في حياتهم الدنيوية ، وكيف السبيل إلى عودة الذين أكلهم غيرهم في أيام القحط؟^(٩٦) ، ولكن الشيخوخة أدركته ولحقته معها إهانات محزنة ، وسئل في ذلك الوقت عن صحته فأجاب : « أما من حيث الروح فأنا سليم . . . وأما من حيث الجسم فأنا طريح الفراش ، لا أقوى على المشي أو الوقوف أو الجلوس لإصابتي بالبواسير المتورمة . . . ومع ذلك فما دام هذا هو الذي ارتضاه لي الله ، فماذا أقول غير أني في حالة طيبة ؟ »^(٩٧) .

وكان قد بذل غاية جهده في أن يؤجل خروج بنيفاس على رومة ، واشترك في دعوته إلى الاحتفاظ بولائه لها . ولما تقدم جيسريك في زحفه استشاره كثيرون

من الأساقفة والقساوسة هل يبقون في مناصبهم أو يلجأون إلى الفرار ؟ فأمرهم بالبقاء وضرب لهم المثل بنفسه . ولما أن حاصر الوندال مدينة هيوكان أوغسطين يعمل على تقوية الروح المعنوية للأهلين الجياع بمواعظه ودعواته ، وظل كذلك حتى مات في الشهر الثالث من أشهر الحصار في السادسة والسبعين من عمره ، ولم يترك وصية لأنه لم يكن يمتلك شيئاً ، ولكنه كتب بنفسه قبريته : « ما الذى يثقل قلب المسيحى ؟ إن الذى يثقله هو أنه حاج مشتاق إلى بلده » (٩٨) .

وقلَّ أن نجد في التاريخ رجلاً يضارعه في نفوذه وقوة أثره . نعم إن الكنيسة الشرقية لم تشغف بتعاليمه ؛ ويرجع بعض السبب في هذا إلى أنه كان بعيداً كل البعد عن اليونانية في قلة علمه وفي إخضاعه الفكر للشعور والإرادة ؛ كما يرجع بعضه إلى أن الكنيسة الشرقية قد خضعت قبل أيامه لسلطان الدولة . أما في الغرب فقد طبع المذهب الكاثوليكي بطابعه الخاص ، وسبق جريجورى السابع وإنسنت الثالث فيما طلبته الكنيسة من أن تكون لها السلطة العليا على عقول الناس وعلى الدولة ، ولم تكن المعارك الكبرى التى شبت بين البابوات والأباطرة والملوك إلا نتيجة سياسية لتفكيره . ولقد ظل حتى القرن الثالث عشر المسيطر على الفلسفة الكاثوليكية ، وصبغها بصبغة الفلسفة الأفلاطونية ، وحتى أكويناس الأرسطوطيلى النزعة قد سار في ركابه . وكان ويكلف Wyclif ، وهوس Huss ، ولوثر Luther ، يعتقدون أنهم يعودون إلى أوغسطين حين خرجوا على الكنيسة . ولقد أقام كلفن Calvin عقيدته الصارمة على نظريات أوغسطين الخاصة بالصفوة المختارة والطائفة الملعونة . وفي الوقت الذى كان يبعث رجال الفكر على التدبر والتفكير ، كان هو الملهم لمن كانت مسيحيتهم خارجة من القلب أكثر من خروجها من العقل . فكان المتصوفة يحاولون أن يترسموا خطاه وهم يتطلعون إلى رؤية الله ، وكان الرجال والنساء يجدون في خشوعه ورقة دعواته وصلواته حاجتهم من الغذاء الروحى ومن الألفاظ القوية التى تأخذ

بمجامع القلوب ولعل سر نفوذه وسلطانه على الأجيال التالية أنه ألف بين العناصر الفلسفية والصوفية في الديانة المسيحية ، وبعث فيها قوة لم تكن لها من قبل ، فهد بذلك الطريق لثومس أكوناس ولتومس أكبيس Thomas à Kempis أيضاً .

وكانت عباراته القوية العاطفية التي لا يلجأ بها إلى العقل بل إلى الشعور ، إيذاناً بانتهاء الأدب القديم ، وانتصار أدب العصور الوسطى . وإذا شئنا أن نفهم العصور الوسطى على حقيقتها وجب علينا أن ننسى نزعتنا العقلية الحديثة ، وثقتنا التي نفخر بها بالعقل والعلم ، ودأبنا في البحث عن الثروة والسلطان والجنة الأرضية ، ثم يجب علينا بعدئذ أن ندرك مزاج أولئك الرجال الذين كانت آمالهم في هذه المطالب ، والذين وقفوا عند نهاية ألف عام من أعوام النزعة العقلية ، ووجدوا أن جميع ما كانوا يحلمون به من قيام دولة فاضلة خالية من جميع الآلام والآثام قد حطمتها الحرب والفقر والبربرية ، فأخذوا يبحثون عن عزاء لهم فيما يؤملونه من سعادة في الدار الآخرة ، ووجدوا لهم سلوى وراحة وإلهاماً في قصة المسيح وفي شخصيته ، فألقوا بأنفسهم تحت رحمة الله ورضوانه ، وعاشوا حياتهم يفكرون في وجوده السرمدى ، وفي حسابه الذى لا مفر منه ، وفي موت ابنه الذى كفر به عن خطاياهم . ويكشف أوغسطين أكثر من غيره ، حتى في أيام سيماخوس ، وكلوديان ، وأوسينيوس عن هذه النزعة ويعبر عنها أحسن تعبير . وبهذا كان أقوى وأصدق وأفصح صوت ارتفع في المسيحية في عصر الإيمان .

الفصل السادس

الكنيسة والعالم

كانت حجج أوغسطين ضد الوثنية آخر رد في أعظم جدل قام في التاريخ ، وقد بقيت بعده الوثنية بمعناها الأخلاقي أى بوصفها إطلاقاً ممتعاً للشهوات الغريزية ؛ أما بوصف كونها ديناً فلم تبق إلا في صورة طقوس قديمة وعادات تغتفرها ، أو تقبلها ، الكنيسة الكثيرة التسامح ثم تعدلها بعد قبولها . ولقد حلت عبادة القديسين المخلصة الواثقة محل شعائر الآلهة الوثنية ، وأرضت نزعة الشرك التي توائم أصحاب العقول الساذجة أو الشعرية . وبُدِّلَ اسمائهم إيزيس وحورس باسمي مريم وعيسى ، وأصبح عيد اللوڤركاليا وتطهير إيزيس عيد مولد المسيح^(٩٩) ؛ واستبدلت حفلات الساترناليا حفلات عيد الميلاد ، وبحفلات عيد الزهور حفلات عيد العنصرة ، وبعيد قديم للأموات عيد جميع القديسين^(١٠٠) ، وبيعث أتيثس بعث المسيح^(١٠١) . وأعيد تكريس المذابح الوثنية للأبطال المسيحيين ، وأدخل في طقوس الكنيسة ما كان يغبط به الناس في الشعائر القديمة من يخور ، وأنوار ، وأزهار ، ومواكب ، وملابس ، وترانيم ؛ وتسامت العادة القديمة عادة ذبح الضحية الحية فكانت هي التضحية الروحية في العشاء الرباني .

وكان أوغسطين قد عارض في عبادة القديسين ، واحتج على ذلك بعبارات خليقة بأن ينطق بها فلتير في تدشين كنيسته في فيرني Ferney . « علينا ألا ننظر إلى القديسين على أنهم آلهة ، إننا لا نريد أن نقلد أولئك الوثنيين الذين يعبدون الموتى ، ولهذا يجب ألا نبني لهم معابد ، ولا نقيم لهم مذابح ، بل أن نرفع بمخلفاتهم مذبحاً إلى الإله الواحد »^(١٠٢) . لكن الكنيسة قبلت عن حكمة هذا التجسد

الذى لا بد منه في دين الشعب . لقد قاومت في بادئ الأمر (١٠٣) ، عبادة القديسين ومخلفاتهم ، ثم استعانت بعدئذ بها ، ثم أساءت استخدامها . وعارضت في عبادة التماثيل والصور ، وحذرت المؤمنين من تعظيمها إلا إذا فعلت ذلك بوصفها رموزاً (١٠٤) لا أكثر ؛ ولكن قوة الشعور العام تغلبت على هذا التحذير ، وأدت إلى ذلك الإسراف الذى أثار مشاعر محطى الصور والتماثيل الدينية البيزنطيين . كذلك قاومت الكنيسة السحر والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، ولكن آداب العصور الوسطى ، كالأداب القديمة ، ملأت بهذا كله ؛ وما لبث الشعب والقساوسة أن استخدموا علامة الصليب على أنها رقية سحرية تفيد في طرد الشياطين أو إبعادها . وكانت التعاويذ تقرأ على رأس طالب التعميد ، كما كان يطلب إليه أن يغمره الماء وهو عار من جميع ملابسه حتى لا يختبئ شيطان في ثوب يلبسه أو حلية يزين بها (١٠٥) . وأضحى العلاج بالأحلام الذى كان يسعى إليه من قبل في هيكل إيسكولابيوس Aesculapius موفوراً في محراب القديسين كزمس Cosmos ودميان في رومة ، ثم أصبح من المستطاع أن يحصل عليه في مائة ضريح أخرى ، ولم يكن رجال الدين هم الذين أفسدوا الشعب في هذه الأمور ، بل إن الشعب هو الذى أقنع رجال الدين بما يريد . ذلك أن روح الرجل الساذج لا تتأثر إلا عن طريق الخواص والخيال ، والحفلات والمعجزات ، والأساطير ، والخوف ، والأمل ؛ فإذا خلا الدين من هذا كله بفضه ، أو عدله حتى يدخله فيه . ولقد كان من الطبيعى أن يلجأ الشعب الخائف الذى يحيط به الحرب والحراب ، والفقر والمرض ، إلى الأضرحة والكنائس الصغرى والكبرى ، وإلى الأضواء الخفية ، ونغمات الأجراس المطربة ، وإلى المواكب ، والأعياد ، والطقوس الممتعة ليجد فيها سلواه .

واستطاعت الكنيسة بالتجائها إلى هذه الضرورات الشعبية أن تغرس في قلوب الناس مبادئ أخلاقية جديدة . فقد حاول أمبروز ، وهو الإدارى الرومانى الحازم في جميع مراحل حياته ، أن يصوغ المبادئ الأخلاقية الرومانية

فى ألفاظ وعبارات رواقية ، وببدل عبارات شيشرون لكى توافق حاجاته ، وكانت أخلاق عظماء المسيحيين فى العصور الوسطى ، من أوغسطين إلى سقرولا ، وفضيلتنا ضبط النفس والتمسك التام بأهداب الفضيلة وهما من المثل العليا للرواقية ، كانت هذه هى التى شكلت النمط المسيحى للأخلاق ، لكن أخلاق الرجولة لم تكن هى المثل الأعلى عند عامة الشعب ؛ لقد طال عهد الشعب بالرواقين ، ورأوا فضائل الرجولة تصبغ نصف العالم بالدماء ، وتناقت نفوسهم إلى أساليب أرق وأهدأ من الأساليب السابقة ، يُستطاع بفضلها إقناع الناس بأن يعيشوا مستقرين مسالمين ؛ ولذلك أخذ معلمو الجنس البشرى ينشرون على الناس لأول مرة فى تاريخ أوربا مبادئ الرأفة والحنان ، والطاعة ، والخشوع ، والصبر ، والرحمة ، والطهارة ، والعفة ، والبرقة ، وكلها فضائل لعلها مستمدة من الأصول الاجتماعية الدنيا للكنيسة المسيحية ومن كثرة انتشارها بين النساء ، ولكنها خليقة إلى أعظم حد بأن تعيد النظام إلى شعب فقد قوته المعنوية ، وأن تروض أخلاق البرابرة النهابين ، وأن تهدئ من عنف العالم المتداعى الآخذ فى الانهيار .

وكان أعظم إصلاح قامت به الكنيسة هو الخاص بالمسائل الجنسية بين الرجال والنساء . ذلك أن الوثنية قد أجازت الدعارة على أنها وسيلة لتخفيف مشاق وحدة الزواج ، فجاءت الكنيسة تشن على الدعارة حملة شعواء لا هوادة فيها ، وتطلب إلى الرجل والمرأة أن يلتزما فى زواجهما بمستوى واحد من الوقار لا تفريق فيه بينهما . نعم إنها لم تنجح النجاح كله ؛ فقد رفعت من المستوى الأخلاقى فى البيت ، ولكن البغاء ظل على حاله ، وإن اندفع إلى الخفاء وإلى الدرك الأسفل من الانحطاط . ولعل الأخلاق الجديدة قد أرادت أن تقاوم الغريزة الجنسية التى تحلت من جميع القيود ، ففتالت فى العفة حتى جعلتها شغلها الشاغل ، وجعلت الزواج والأبوة أقل منزلة من العزوبة أو البكورية مدى الحياة ، ورفعت هذه العزوبة أو البكورية إلى مقام المثل العليا ، ومضى بعض الوقت قبل أن يدرك آباء الكنيسة أن لابقاء لأى

مجتمع يعيش على هذه المبادئ العقيمة . على أن من اليسير أن يدرك الإنسان هذا الارتداد إلى التزمّت إذا ذكرنا ما كان عليه المسرح الروماني من فساد خلقي طليق ، وإلى ما كان في بعض الهيكل اليونانية والرومانية من بغاء ، وإلى انتشار الإجهاض وقتل الأطفال ، وإلى ما كان يرسم على جدران عبي من الرسوم المخلة بالآداب ، وإلى رذائل الشذوذ الجنسي التي كانت واسعة الانتشار في بلاد اليونان والرومان ، وإلى الإفراط الشائع عند الأباطرة ، والشهوانية المنتشرة بين الطبقات العليا كما يكشف عنها كاتلوس ومارتيال ، وتاسيتوس ، وجورفنال . ووصلت الكنيسة في آخر الأمر إلى آراء أسلم من هذه وأحكم ، ووقفت بعد زمن ما موقفاً لنا معتدلاً من خطايا الجسم . غير أنه قد أسىء بعض الإساءة إلى فكرة الأبوة والأسرة ، فقد كثر في هذه القرون الأولى عدد المسيحيين الذين يظنون أن خير ما يؤدونه من خدمات لله سبحانه وتعالى - أو على الأصح أن خير طريقة ينجون بها من عذاب النار - أن يتركوا آباءهم ، أو أزواجهم ، أو أبناءهم ، ويفروا من تبعات الحياة سعياً وراء النجاة بأشخاصهم نجاة قائمة على الأثرة المرذولة ، مع أن الأسرة كانت في عهد الوثنية وحدة اجتماعية ودينية ؛ وكان من أعظم الحسائر أن أصبح الفرد هو هذه الوحدة في مسيحية العصور الوسطى .

غير أن الكنيسة قد قوت الأسرة لما أحاطت به الزواج من مراسم جدية رهيبة ورفعته من تعاقد إلى عمل مقدس لأنها جعلت رابطة الزواج غير قابلة للحل فرفعت بذلك كرامة الزوجة وأمنتها على مركزها . وشجعت على الصبر الذي يولده فقد الأمل . ولقد أصاب منزلة المرأة بعض الأذى القصير الأجل من جراء عقيدة بعض آباء الكنيسة المسيحية القائلة بأن المرأة أصل الخطيئة وأداة الشيطان ، ولكن هذه العقيدة قد خفف من أثرها ما تلقاه أم الإله من تكريم . ولما كانت الكنيسة قد رضيت عن الزواج ، فقد حبذت كثرة النسل وباركته ، وحرمت الإجهاض وقتل الأطفال تحريماً قاطعاً ؛ ولعل تحريمها هذا وذاك هو الذي

حددا بعلماء الدين المسيحيين إلى إنزال اللعنة على كل طفل يموت من غير تعميد ، وإلى القول بأن جزاءه في الدار الآخرة هو السجن في الظلام السرمدي . وبفضل نفوذ الكنيسة جعل قلتنيان الأول وأد الأطفال من الجرائم التي يعاقب عليها بالإعدام .

ولم تحرم الكنيسة الاسترقاق ، بل كان أتباع الدين القويم والمارقون ، والرومان ، والبرابرة ، كان هؤلاء جميعاً يرون أن الاسترقاق نظام طبيعي لا يمكن القضاء عليه . وقام عدد كبير من الفلاسفة يحتجون على هذا الرأي ، ولكنهم هم أيضاً كان لهم عيب . والشرائع التي سنّها الأباطرة المسيحيون في هذا الموضوع لا تسمو إلى منزلة شرائع أنطونينس بيوس أو ماركس أورليوس . مثال ذلك أن الشرائع الوثنية كانت تحكم على المرأة الحرة التي تزوج رقيقاً بأن تكون هي الأخرى جارية ، أما قوانين قسطنطين فكانت تقضي بقتل هذه المرأة ، وإحراق العبد الذي تزوجها حياً . وأصدر الإمبراطور جراتيان مرسوماً يقضي بأن يحرق العبد حياً إذا وجه لسيده أي تهمة عدا تهمة الخيانة العظمى للدولة ، وأن تنفذ فيه العقوبة على الفور دون بحث أو تحقيق في صحة التهمة (١٠٦) . ولكن الكنيسة ، وإن رضيت بالاسترقاق وعدته جزءاً من قوانين الحرب ، قد فعلت أكثر من أية هيئة أخرى في ذلك الوقت لتخفيف شرور الرق . فقد أعلنت مثلاً ، على لسان آباء الكنيسة ، المبدأ القائل بأن الناس جميعاً أكفاء ، ولعل المعنى الذي كانت تقصده من هذا اللفظ أنهم أكفاء في الحقوق القانونية والأدبية ؛ وطبقت هذا المبدأ فرضيت أن يدخل فيها الناس جميعاً من كل الطوائف والطبقات ؛ وكان في وسع أفقر رجل حر أن يرقى إلى أعلى المناصب الدينية ، وإن لم يكن في مقدور العبد أن يكون قسيساً . وألغت الكنيسة ما كان في الشرائع الوثنية من تمييز بين الضرر الذي يلحق بالحر ، والذي يلحق بالعبد . وكانت تشجع عتق العبيد ، فجعلت فك الرقاب من وسائل التكفير عن الذنوب ، والاحتفال بحظ يصيب صاحب العبد

والقرب من كرسي القضاء الإلهي . وقد أنفقت أموالاً طائلة في تحرير
المسيحيين أسرى الحروب من الاسترقاق (١٠٧) . لكن الاسترقاق ، رغم
هذا ، ظل قائماً طوال العصور الوسطى ، ولما مات لم يكن لرجال الدين
فضل في موته .

وكان أكبر فضل للكنيسة من الناحية الأخلاقية هو ما وضعته للصدقات
من نظام واسع النطاق . وكان الأباطرة الوثنيون قد قرروا إعانات من
أموال الدولة للأسر الفقيرة ، كما كان أعيان الوثنيين يعينون « مواليتهم »
وفقراءهم . ولكن العالم لم يشهد قبل المسيحية نظاماً لتوزيع الصدقات كالنظام
الذي أقامته الكنيسة ؛ فقد كانت تشجع الإيحاء بالمال للفقراء ، على أن
توزعه هي عليهم . ولنا نذكر أن بعض المفسد والخيانات قد تسربت إلى
هذا النظام ، ولكن حرص الإمبراطور يولييان على منافسة الكنيسة في هذه
الناحية يشهد بأنها قد قامت بواجبها على نطاق واسع . فقد كانت تساعد
الأرامل ، واليتامى ، والمرضى ، والعجزة ، والمسجونين ، وضحايا
الكوارث الطبيعية ؛ وكثيراً ما تدخلت لحماية الطبقات الدنيا من الاستغلال
أو الضرائب الباهظة (١٠٨) . وكثيراً ما كان القساوسة يهبون أملاكهم كلها
للفقراء إذا وصلوا إلى مرتبة الأساقفة . وخصصت كثير من النساء مثل
فابيولا Fabiola ، وبولا ، وملانيا ثروات طائلة للأغراض الخيرية ، وقد
حدثت الكنيسة حذو الوثنيين في إقامة المصحات والمستشفيات ، فأنشأت
أو أنشأت أثيراؤها مستشفيات عامة على نطاق لم يعرف قط من قبل . فأقام
باسيلي مستشفى ذائع الصيت ، كما أقام في قيصرية بكپدوكيا أول مستشفى
للمصابين بالجذام . وقامت خانات للاجئين أو أبناء السبيل على طول طرق
الحجاج ، وقرر مجمع نيقية أن يقام خان من هذا النوع في كل مدينة .
واستخدمت الكنيسة الأرامل لتوزيع الصدقات فوجدن في هذا العمل قيمة
جديدة لحياة الوحدة . وكان الوثنيون يعجبون بدأب المسيحيين على العناية
بالمريض في المدن التي يجتاحها القحط أو الوباء (١٠٩) .

هذا ما فعلته الكنيسة في تلك العهود لأجسام الناس ، فماذا فعلت لعقولهم ؟ لقد كانت المدارس الرومانية لا تزال قائمة في ذلك الوقت ، ولهذا لم تر من واجبها أن تعمل على ترقية العقول . هذا إلى أنها كانت ترفع الشعور فوق العقل ، وبذلك كانت المسيحية من هذه الناحية بمثابة رد فعل « إبداعي » على الإيمان « الإتباعي » بالعقل والاعتماد عليه ؛ ولم يكن روسو من هذه الناحية إلا أوغسطين مصغرا . ولم يكن يخالج الكنيسة شك في أن بقاءها يتطلب تنظيمها ، وفي أن هذا التنظيم يتطلب الاتفاق على مبادئ وعقائد أساسية ، وأن الكثرة الغالبة من أتباعها تتوق إلى أن ترجع إلى عقائد مقررّة ثابتة ، فحددت من أجل ذلك عقيدتها في قواعد مقررّة لا تبديل فيها ، وجعلت الشك في هذه القواعد ذنباً ، وتورطت في نزاع لا نهاية له مع عقل الإنسان المرن وآرائه المتغيرة . وادعت الكنيسة أنها قد وجدت عن طريق الوحي الإلهي جواباً لكل مسألة من المسائل القديمة المتعلقة بأصل الخلق ، وطبيعتهم ، ومصيرهم ، وفي ذلك كتب لكتنيوس (٣٠٧) يقول : « نحن الذين أخذنا عن الكتاب المقدس علم الحقيقة نعرف بداية العالم ونهايته » (١١٠) وكان ترتليان قد قال هذا القول نفسه قبل ذلك الوقت بقرن من الزمان (١٩٧) . وأراد أن يخلق باب الفلسفة أمام الناس (١١١) . وإذا كانت المسيحية قد حولت اهتمام الناس من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة ، فقد عرضت عليهم تفسيرات سماوية للحادثات التاريخية ، فقاومت بذلك مقاومة سلبية البحث عن العلل الطبيعية ؛ وضحّت بكل ما ألتجّه العلم اليوناني من تقدم خلال سبعة عشر عاماً في سبيل علم نظام الكون وأصل الحياة كما وصفهما سفر التكوين .

وبعد فهل أدت المسيحية إلى اضمحلال في الأدب ؟ اسنا ننكر أن معظم آباء الكنيسة كانوا يعادون الآداب الوثنية ؛ لأنها تسرى فيها كنهها عقيدة الشرك الشيطانية ، والفساد الخلق المزرى بكرامة الإنسان ؛ ولكن أعظم هؤلاء الآباء كانوا على الرغم من هذا يحبون الآداب القديمة ، وكان المسيحيون أمثال فرنتاتوس

وإروودنتيوس ، وجيروم ، وسيلينيوس ، وأوسنيوس ، يتطلعون إلى أنه يكتبوا شعراً كشعر فرجيل ، أو نثراً كنثر شيشرون ؛ وإن كفة جريجورى ، نريزين ، وكريستوم ، وأمبروز ، وجيروم ، وأوغسطين لترجح ، من الناحية الأدبية نفسها ، على كفة معاصريهم الوثنيين أمثال أميانوس ، وسيمانخوس ، وكاوديان ، ويوليان . لكن أسلوب النثر تدهور بعد أيام أوغسطين ، وتسربت من اللغة العامية إلى الكتابة اللاتينية المفردات الخشنة غير المصقولة ، وقواعد البناء الحالية من العناية والدقة ، وانحط الشعر اللاتينى فى وقت من الأوقات حتى صار مجرد نظم ركيك ، قبل أن تصاغ الأنماط الجديدة فى التراجم الدينية الفخمة .

لكن العلة الأساسية فى تدهور الثقافة لم تكن المسيحية بل البربرية ، ولم تكن الدين بل الحروب . ذلك أن تيار البرابرة الجارف قد خرب المدن والأديرة ودور الكتب ، والمدارس ، وأقفرها ، وجعل حياة طالب العلم أو العالم مستحيلة . ولو أن الكنيسة لم تحتفظ بقدر من النظام فى هذه الحضارة المتداعية لكان الخراب أشد والبلى أعظم ؛ وفى ذلك يقول أمبروز « لقد ظلت الكنيسة ثابتة لا تززعها العواصف الهوج وسط ما حل بالعلم من اضطراب ، فالقوضى ضاربة أطنابها فى كل شىء حولها ، أما هى فتقدم لجميع المنكوبين مرفأً هادياً يجدون فيه الأمن والسلامة » (١١٢) . ولقد كان هذا شأنها فى معظم الأوقات .

وكانت الإمبراطورية الرومانية قد رفعت العلم ، والرخاء ، والسلطان ، إلى الذروة التى بلغت فى العهد القديم ، فلما اضمحلت الإمبراطورية فى الغرب ، وعم الفقر وساد العنف ، تطلب هذا مثلاً أعلى جديداً ، وأملاً جديداً ، ليكونا للناس سلوى وعزاء مما حل بهم من آرزاء ، وتشجيعاً لهم على الكدح المتواصل : فحل عصر الإيمان محل عصر السلطان . وسارت الحال على هذا المنوال فلم يرفض العقل الإيمان ، ويترك السماء لينشئ " المدينة الفاضلة على الأرض ، إلا بعد أن عاد الثراء والكبرياء إلى العالم فى عصر النهضة . ولكن إذا ما تخاب العقل وعجز عن حل

المشكلات ، ولم يجد العلم جواباً للأسئلة الكثيرة المحيرة ، بل زاد المعرفة والسلطان من غير أن يصلح ضمائر الناس أو يرقى بأهدافهم ، وإذا ما انهار كل ما تصوره الناس من مدائن فاضلة انهياراً تاماً لاستمرار الأقوياء على الإساءة إلى الضعفاء : إذا ما حدث هذا كله أدرك الناس لماذا ولى أسلافهم ظهورهم في بربرية القرون المسيحية الأولى نحو العلم ، والمعرفة ، والسلطان والكبرياء ، ولبأوامدى ألف عام إلى الإيمان ، والأمل ، والصدقات ، وما تستلزمه من تذلل وخشوع .

الباب الرابع

أوربا تتشكل

٥٢٩ - ٣٢٥

الفصل الأول

بريطانيا تصبح إنجلترا

٥٧٧ - ٣٢٥

. أثرت جميع الطبقات في بريطانيا تحت حكم الرومان علماً طبقة ملاك الأراضي الزراعية . ذلك أن الضياع الكبيرة زادت مساحتها بما نقص من مساحة الأملاك الصغرى ، فقد اشترى الملاك الكبار في كثير من الأحيان أراضي صغار الزراع الأحرار ، وأصبح هؤلاء زراعاً مستأجرين أو من صمالك المدن ، وأيد كثيرون من الفلاحين الغزاة الإنجليز - السكسون ضد كبار الملاك^(١) . وإذا استثنينا هذه الطبقة - طبقة صغار الزراع - استطعنا أن نقول إن بريطانيا الرومانية قد عمها الرخاء ، فقد كثرت المدن ونمت ، وازداد الثراء^(٢) ، واستمتعت كثير من المنازل بوسائل التدفئة المركزية ، والنوافذ الزجاجية^(٣) ، وأقام كثير من الكبراء قصوراً ذات حدائق ، وأخذ النسابون البريطانيون من ذلك الوقت البعيد يصدرون المنسوجات الصوفية الممتازة التي لا يزال لها المقام الأول بين أقمشة العالم الصوفية . وكانت بضعة فيالق رومانية تكفي في القرن الثالث لضمان الأمن الخارجي والسلام الداخلي .

لكن هذا الأمن أصبح في القرنين الرابع والخامس مهدداً من جميع الجهات : فكان يهدده من الشمال بيكت (Picts) كلدونيا ، ومن الشرق والجنوب المغيرون من أهل الشمال ومن السكسون ، ومن الغرب كيكت Celt ويلز الذين لم يخضعوا للرومان ، والجيل Gaels « والاسكتلنديون » المغامرون أهل أيرلندة . وازدادت غارات « الاسكتلنديين » والسكسون على سواحل بريطانيا بين عامي ٣٦٤ ، ٣٦٧ حتى أصبحت خطراً مروعاً يهدد البلاد ، وصدها الجنود البريطانيون والجيل ، ولكن هذه الغارات لم تنقطع ، واضطر استلوكو إلى أن يعيد الكرة عليهم بعد جيل من ذلك الوقت . وسحب مكسموس من بريطانيا في عام ٣٨١ والمغتصب قسطنطين في عام ٤٠٧ الفيالق التي كانا في حاجة إليها ليدافعا بها عن قلب الدولة وعن أغراضهما الشخصية ، ولم يرجع من هذه الفيالق بعدئذ إلى بريطانيا إلا عدد قليل . وبدأ الغزاة يحتاجون للتخوم ، وطلبت بريطانيا المعونة من استلوكو (٤٠٠) ، ولكنه كان منهمكاً في صد القوط والهون عن إيطاليا وغالة . ولما استغاثوا مرة أخرى بالإمبراطور هونوريوس أجابهم بأن على البريطانيين أن يعتمدوا على أنفسهم على أحسن وجه يستطيعون^(٤) . و « في عام ٤٠٩ انتهى حكم الرومان في بريطانيا »^(٥) ، كما يقول بيدى Bede .

وألنى الزعيم البريطاني فرتيجيرن Vortigern نفسه أمام غزوة كبرى يشنها البيكت Picts ، فاستغاث ببعض قبائل الجرمان الشمالية^(٦) ، فأقبل عليه السكسون من إقليم نهر الإلب Elbe ، والإنجليز من سلزويج Schleswig ، والچوت Jutes من جتلندة Jutland . وتقول بعض الروايات - أولعها القصص الخرافية - إن الچوت جاءوا في عام ٤٤٩ بقيادة أخوين يسميان باسمين . يدعوان إلى الريبة ، هما هنجست Hengist وهورسا Horsa ، أي الحصان والفرس . وطرده الجرمان الأشداء البيكت والاسكتلنديين ، وكوفثوا على عملهم هذا بمساحات من الأراضي ، وأدركوا ما كانت عليه بريطانيا من الضعف من

الناحية الحربية ، وبعثوا بهذا النبأ السار إلى مواطنيهم في بلادهم الأصلية^(٧) . وجاءت جموع كبيرة من الجرمان ، وتزلت على سواحل بريطانيا من غير دعوة من أهلها ، وقاومهم الأهلون بشجاعة تفوق ما كان لديهم من مهارة ، وظلوا قرناً كاملاً بين كروفر يحاربونهم حرب العصابات ، وانتهى هذا القتال بأن هزم التوتون البريطانيون عند ديرهام Deorham (٥٧٧) ، وأصبحت لهم السيادة على البلاد التي سميت فيما بعد أرض الإنجليز « إنجلترا England أو إنجلترا Anglere » . وقبل معظم البريطانيين فيما بعد هذا الفتح ، ومزجوا دماءهم بدماء الفاتحين ، وارتدت أقلية شديدة البأس إلى جبال ويلز وواصلت الحرب ضد الغزاة ، وعبر غيرهم القناة وأطلقوا اسمهم على بريطاني Brittany في فرنسا الحالية . وخربت مدائن بريطانيا في خلال هذا النزاع ، واضطربت وسائل النقل ، واضمحلت الصناعة ، وفسد القانون والنظام ، وحل بالفن سبات عميق ، وطغت على مسيحية الجزيرة — وكانت لا تزال في بداية عهدها — الآلهة الوثنية والعادات الجرمانية . وأصبحت إنجلترا ولغتها تيوتونية ، واختفت منها الشرائع والنظم اليونانية ، وحلت العشائر الفردية محل الهيئات البلدية ، ولكن عنصراً كلتياً ظل باقياً في دم الإنجليز ، وملاحظهم ، وأخلاقهم ، وأديبهم ، وفنهم ، وأما اللغة الإنجليزية فلم يبق فيها من هذا العنصر الكلتي إلا القليل الذي لا يكاد يذكر ، وأمسّت اللغة الإنجليزية في هذه الأيام مزيجاً من اللغتين الألمانية والفرنسية .

وإذا شئنا أن نعرف ما كان يسود تلك الأيام المربرة من اضطراب وثوران في النفوس فعلياً أن ننتقل من التاريخ إلى قصص الملك آرثر Arthur وفرسانه ، وما كاله من الضربات الشداد « لتحطيم الكفرة وتأييد المسيح » . ويحدثنا القديس جلداس St. Gildas وهو راهب من ويلز في كتاب له عجيب « عن

« تدمير بريطانيا On the Destruction of Britain » (٥٤٦ ؟) خلط فيه التاريخ بالمواعظ ، يحدثنا عن « حصار منزبادنكس Mons Badonicus » في تلك الحروب ، كما يحدثنا مؤرخ بريطاني بعده يدعى ننيوس Nennius (حوالى ٧٩٦) عن اثنتى عشرة معركة حارب فيها الملك آرثر كانت آخرها عند جبل بادون Mt. Ddon بالقرب من باث Bath^(٨) . ويورد جفرى الممنوئى Geoffrey of Monmouth (١١٠٠ ؟ — ١١٥٤) تفاصيل روائية يصف فيها : كيف خلف الملك آرثر والده أثير پندراجون Uther Pendragon على عرش بريطانيا ، وكيف قاوم الغزاة السكسون ، وفتح أيرلندة ، وأيسلندة ، والنرويج ، وغالة ، وحاصر باريس فى عام ٥٠٥ وطرده الرومان من بريطانيا ، وقع فتنة أوقد نارها مدرد Modred ابن أخيه كلفته كثيراً من الخسائر فى الأنفس ، وقتله فى واقعة ونشستر Winchester التى جرح فيها هو جرحاً بليغاً مميتاً ، مات من أثره فى السنة الثانية والأربعين بعد الخمسمائة من تجسد إلهنا^(٩) . ويحدثنا كاتب آخر يدعى وليم من أهل مالمزبرى Malmesbury (١٠٩٠ ؟ — ١١٤٣) فيقول :

ولما مات قرتمر Vortimer (أخو قرتيجرن Vortigern) ، اضمحلت قوة البريطانيين ، ولولا ما قام به أمبروزيوس Ambrosius ، الذى بقى وحده من الرومان ... من صد تيار البرابرة المتغطرسين بفضل ما قدمه له الملك آرثر صاحب البأس الشديد من معونة صادقة ، لولا هذا لهلك البريطانيون على بكرة أبيهم . وقضى آرثر زمناً طويلاً يدعم كيان الدولة المنهارة ، ويشير روح مواطنيه المحطمة ويحرضهم على القتال . ثم نازل بمفرده فى آخر الأمر ٩٠٠ من الأعداء معتمداً على صورة للعذراء ثبتها فى درعه ، وبدد شملهم بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة لا يصدقها العقل^(١٠) .

فلنقل مع القائلين أن هذا لا يصدقه العقل . وعلينا أن نقنع بأن آرثر شخصية غامضة ، ولكنه على أية حال شخصية تاريخية اتصفت بأهم الصفات الجوهرية التي يحدثنا عنها الكتاب ، وأنه عاش في القرن السادس ؛ والراجح أنه لم يكن من القديسين ، أو من الملوك . أما فيما عدا هذا فلنتركه إلى كرتين Chrétien من أهل تروى ، وإلى ملورى Malory الكاتب المطرب المبدع وإلى تنيسن Tennyson العف الطاهر .

الفصل الثاني

أيرلندة

١٦٠ — ٥٢٩

يقول الأيرلنديون — ولا نستطيع أن نكذبهم فيما يقولون — إن جزيرتهم جزيرة « الضباب والفاكهة الرطبة » قد سكنها في أول الأمر اليونان والسكوثيون قبل ميلاد المسيح بألف عام أو أكثر ، وإن زعماءهم الأولين ، كتشلين Cutchalain ، وكونور Conor ، وكونال Conall ، من أبناء الآلهة (١٢) . وقد مس هملكو Himilco المستكشف الفينيقي أرض أيرلندة حوالي عام ٥١٠ ق . م ووصفها بأنها بلاد خصبة كثيرة السكان (١٣) ولعل جماعة من المغامرين الكلت قد عبروا البحر إلى أيرلندة من غالة أو بريطانيا أو منهما معاً في القرن الخامس قبل الميلاد ، وغلبوا الأهليين الأصليين الذين لا نعرف عنهم شيئاً . ويبدو أن قد جاءوا معهم إلى أيرلندة بثقافة عصر الحديد الهولستاتية Hallstatt ، كما جاءوا معهم بنظام قوى من الصلات العائلية يجعل الفرد فخوراً بقبيلته فخراً يمنع أن يكون دولة مستقرة ، وظلت القبائل تحارب بعضها بعضاً ، والممالك تقتتل نحو ألف عام ، فإذا سكنت حرب القبائل أو الممالك فترة من الزمان اقتتل أفراد القبائل فيما بينهم ، فإذا ماتوا دفن الأيرلنديون الصالحون قبل أيام القديس باترك Patrick واقفين متأهبين للقتال ، ووجوههم متجهة نحو أعدائهم (١٤) . وقد مات معظم ملوك البلاد في المعارك الحربية أو اغتيلوا (١٥) . وتقول الروايات الأيرلندية إنه كان من حق هؤلاء الملوك أن يفضوا بكارة كل زوجة قبل أن يسلموها إلى زوجها ، ولعلمهم كانوا يفعلون هذا لأنه فريضة تتطلبها الرغبة في تحسين النسل ، أولعلمهم

كانوا يفعلونها بوصفهم خدام الآلهة الذين يتطلبون أن يجنوا هم أولى الثمار وقد وُجِّه إلى الملك كـنكوبار Conchobar أعظم الثناء لحرصه الشديد على أداء هذا الواجب^(١٦). وكانت كل قبيلة تحتفظ بسجل لأفرادها ، ونسبهم ، وللوكلها ووقائعها الحربية ، وتاريخها القديم « منذ بداية العالم »^(١٧).

وفرض الكلت سلطانهم على البلاد بوصفهم الطبقة الحاكمة ، ووزعوا قبائلهم في خمس ممالك ؛ أـلـصـتـر Ulster ، ولـيـنـسـتـر Leinster الشمالية ، ومـونـسـتـر Munster ، وكـنـوت Connaught . وكان كل ملك من هؤلاء الملوك تام السيادة في مملكته ، ولكن القبائل كلها رضيت أن تكون تارا Tara من أعمال ميث Meath عاصمتها القومية ، فيها يتوج كل ملك من الملوك ، وفيها يجمع في بداية حكمة الفيس Feis أو مؤتمر أعيان أيرلندة كلها لإقرار التشريعات التي تخضع لها الممالك بأجمعها ، ولتصحيح أنساب القبائل وتدوينها ، ثم تسجيلها في المحفوظات الأهلية . وشاد الملك كـرـمـاك ماك إيرت Cormac Mac Airt في القرن الثالث جهواً كبيراً لا يزال أساسه باقياً حتى الآن لتعقد فيه جلسات هذا المؤتمر . وكان مجلس إقليمي يدعى الأوناك Aonach يجتمع مرة كل سنة أو كل ثلاث سنين في عاصمة كل مملكة ، ليسن قوانينها ، ويقر الضرائب التي يجب على أهلها أدائها ، ويقوم بوظيفة محكمة الإقليم . وكانت الألعاب والمباريات تسير على النمط التقليدي الآتي : الموسيقى ، والغناء ، وألعاب الشعوذة ؛ والتثيل الهزلي ، والقصص ، وإنشاد الشعر ، وكانت تعقد في أثنائها الزيجات فزيدها بهجة ، وكان عدد كبير من السكان يشتركون في هذه الحفلات . ويبدو لمن يرجع بفكره من خلال القرون الطوال ، التي تخلع على القديم رواءً وسحراً ، إلى هذا التوفيق بين الحكومة المركزية والحرية الإقليمية أنه هو المثل الأعلى للنظم الحكومية . وظل المؤتمر (الفيس feis) قائماً حتى عام ١٥٦٠ ، أما المجلس المحلي (الأوناك Aonach) فقد بقي حتى عام ١٦٦٨ .

وأول شخصية نستطيع أن نعلمها واثقين شخصية تاريخية بحق هي شخصية توأثال Tuathal الذي حكم لينستر Leinster وميث حوالى عام ١٦٠ م . ومن ملوك أيرلندة أيضاً الملك نبال Niall (حوالى ٣٥٨) الذى غزا ويلز وعاد منها بغنائم لا تحصى ، وأغار على غالة ، ثم قتله رجل من أهل أيرلندة عند نهر اللوار . وكان معظم ملوك أيرلندة الذى جاءوا بعده من نسله . وفى السنة الخامسة من حكم ولده ليجير Laeghaire (ليرى Leary) وفد القديس پترىك على أيرلندة . وكان الأيرلنديون قد استنبطوا لهم حروفاً هجائية مكونة من خطوط مستقيمة ؛ وكان لهم أدب واسع من شعر وقصص يأخذ الناس مشافهة بعضهم عن بعض ، وكانت لهم مصنوعات طيبة من الخزف والبرنز والذهب . وكان دينهم من أديان الشرك وعبادة الطبيعة ؛ فكانوا يعبدون الشمس والقمر وغيرهما من مختلف الأجسام الطبيعية ، وقد أسكنوا بقاعاً لا حصر لها فى أيرلندة بالجن والشياطين والعفرات . وكانت طائفة من الكهنة ذوى الثياب البيض تتنبأ بالغيب ، وتسيطر فى زعمها على الشمس والرياح بعصى وعجلات سحرية ، وتنزل أمطاراً وتوقد نيراناً سحرية ، وتحفظ أخبار القبائل وأشعارها عن ظهر قلب ، وتلقنها إلى من يأتون بعدها ، وتدرس مواقع النجوم ، وتعلم الشبان ، وتسدى النصيح إلى الملوك ، وتجلس للقضاء بين الناس ، وتسب الشرائع ، وتقرب القرايين للآلهة من فوق مذابح قائمة فى الهواء الطلق . وكان من بين أوثانهم المقدسة تمثال مغطى بصفيائح الذهب يسمونه كرم كرواك Crom Cruach ؛ وكان هو إله جميع القبائل الأيرلندية ؛ ويلوح أنه كان يُقَرَّب إليه الابن الأول الذى يولد لكل أسرة فى البلاد (١٨) - وربما كان منشأ هذه العادة الرغبة فى الحد من كثرة النسل . وكان الأيرلنديون يؤمنون بتجسد الأرواح بعد الموت ، ولكنهم كانوا يحلمون بوجود جزيرة سماوية وراء البحر ، « ليس فيها عويل أو غلر ، ولا خشونة أو عنف ، بل فيها موسيقى حلوة تشنف الأسماع ، وفيها أرض جميلة عجيبية ذات منظر لا يدانيه شيء آخر فى روعته

وبهائه» (١٩) ٥ وتقول إحدى القصص إن الأمير كونال Conall تأثر بهذا الوصف فأبحر في قارب من اللؤلؤ ليكشف هذه الجزيرة السعيدة ٥

وكانت المسيحية قد دخلت إنجلترا قبل قدوم القديس پتريك إليها بنحو جيل أو أكثر من جيل . وقد ورد في أحد التواريخ الإخبارية ، التي يؤيدها بيدى ، ضمن حوادث عام ٤٣١ أن « البابا سلسيني Celestine قد رسم پلديوس Palladius أسقفاً وأرسله إلى من يؤمنون بالمسيح من الأيرلنديين ليكون أول أسقف لهم » ، لكن پلديوس توفي في ذلك العام ذاته ونال القديس پتريك راعى أيرلندة وحاميا شرف اعتناق أيرلندة المذهب الكاثوليكي الذي لم تتحول عنه قط .

وكان مولده حوالى عام ٣٨٩ في قرية بناقنتا Bonnaventa من قرى غربى إنجلترا ، من أسرة متوسطة الثراء والجاه . وإذ كان الطفل ابن مواطن روماني فقد سمي باسم روماني هو پتريكيوس Patricius . ولم ينل من التعليم إلا قسطاً قليلاً ، ولهذا كان يعتذر للناس عن خشونته ، ولكنه درس الكتاب المقدس دراسة متقنة يستطيع معها أن يورد منه شواهد من الذاكرة في كل ما يعرض له من المناسبات . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره أسره جماعة من المغيرين « الأسكتلنديين » (أى الأيرلنديين) وجاءوا به إلى أيرلندة ، حيث أقام ست سنين يرعى الخنازير (٢١) . و« تحول » في هذه الساعات التي كان يقضيها بعيداً عن الخلق فتبدلت حاله من عدم المبالاة بشئون الدين إلى الصلاح البالغ الحد ؛ ويقول هو عن نفسه إنه كان يستيقظ في كل يوم قبل الفجر ، ثم يخرج للصلاة مهما يكن الجو — سواء كان يتساقط فيه البرد أو المطر أو الثلج . ثم استطاع آخر الأمر أن يفر ، واتخذ سبيله إلى البحر ، وعثر عليه جماعة من الملاحين في مكان مقفر ، فأخذوه معهم إلى غالة أو اعلمهم أخذوه إلى إيطاليا . ثم تمكن من أن يسلك سبيله إلى إنجلترا ، وأن ينضم مرة أخرى إلى أسرته ، وأن يعيش معها بضع سنين .

ولكن شيئاً ما دعاه أن يعود إلى أيرلندة — وقد يكون هذا الشيء هو ذكرى جمالها الرقيق ، أو طيبة قلوب أبنائها وحنوهم . وفسر هو هذا الإحساس بأنه رسالة إلهية ، تدعوه إلى نشر المسيحية بين الأيرلنديين . فذهب من ليرنز Lerins وأوكسير Auxerr ودرس اللاهوت ، ورسم قسيساً . ولما وصل إلى أوكسير نبأ وفاة بلديوس ، عين پتريك أسقفاً ، وأعطى بعض مخلفات بطرس وبولس ، وأرسل إلى أيرلندة (٤٣٢) .

ووجد فيها ملكاً وثنياً مستنيراً يدعى ليچير يجلس على عرش تارا . وعجز پتريك عن هداية هذا الملك إلى الدين المسيحي ، ولكنه حصل على عهد منه بأن يكون له مطلق الحرية في التبشير بهذا الدين . وقاومه كهنة البلاد ، وعرضوا على الناس سحرهم . وقابل پتريك عملهم هذا بأن عرض على الأهلين تعاويز طاردي الأرواح الخبيثة ، وهم طائفة من صغار الكهان جاء بهم معه ليستعينهم على طرد الشياطين . ويحدثنا پتريك في « الاعترافات » التي كتبها حين تقدمت به السن عما تعرض له من الأخطار في عمله فيقول : إن حياته تعرضت للخطر اثنتي عشرة مرة ؛ ولأنه هو ورفاقه قبض عليهم في يوم من الأيام ، وظلوا في الأسر أسبوعين ، وهددوا بالقتل ؛ ولكن بعض أصدقائهم أفلحوا في إقناع من قبضوا عليهم بإطلاق سراحهم (٢٢) . وتقص الروايات المتواترة الصادرة عن بعض الأتقياء الصالحين من الكتاب مثلاً من القصص المدهشة عن معجزات پتريك . من ذلك ما قاله ننيوس Nennius من أنه « رد البصر للعمى والسمع للصم » (٢٣) ، وطهر المجذومين ، وأخرج الشياطين ، وأعاد الأسرى ، وأحيا تسعة من الموتى ، وكتب ٣٦٥ كتاباً . ولكن أغلب الظن أن أخلاق پتريك لا معجزاته هي التي هدّت الأيرلنديين إلى الدين المسيحي — هدتهم ثقته التي لا تززع بعقيدته ، ودأبه على عمله وتحمسه له . ولم يكن الصبر من طبعه ، وكان استعداداً لأن يصب اللعنات لا يقل عن استعداده لمنح البركات (٢٤) . على أن هذا العمل نفسه كان

يصدر عن إقناع تمليه عليه عقائده الواثق بها والتي لا يقبل فيها جدلاً . وكان يعين القساوسة ، رويشيد الكنائس ، وبنشئ الأديرة للرجال والنساء ، ويترك حاميات روحية قوية لتقوم بحراسة فتوحه الدينية في كل مكان غزاه ، وجعل الناس يظنون أن قبولهم في دولته الكهنوتية مغامرة من أسمى المغامرات وأجلها خطراً ، وجمع حوله رجالاً ونساء من ذوى الشجاعة والإخلاص ، يتحملون جميع ضروب الحرمان ليبشروا الناس بأن الإنسان قد نجا من الخطيئة . على أن ، بتريك لم يهد أيرلندة كلها ، بل بقيت فيها ثلوثلية جيوب منعزلة ، كما بقي لها شعرها ، ولا تزال فيها إلى الآن آثار من الدين القديم ، لكنه حين وافته منيته (٤٦١) كان يمكن أن يقال عنه ؛ ما لا يمكن أن يقال عن رجل غيره . وهو أن رجلاً واحداً قد هدى أمة بأجمعها .

وأقرب الناس بعده . لقاوب الأيرلنديين امرأة نكان لها أكبر الفضل في تثبيت دعائم نصره ، تلك هي القديسة بردج Brigid . ويقال إنها ابنة عبد وملك ، ولكننا لا نعرف عنها شيئاً موثقاً به قبل أن تهرب في عام ٤٧٦ . وقد استطاعت أن ننشئ « كنيسة شجرة البلوط » . (كل دارا Cill-dara) بعد أن تغلبت على عقبات يخططها الحصر ؛ ولا يزال الموضع الذي أقامت فيها فيه يسمى بهذا الاسم كلدير Kildare حتى اليوم . وسرعان ما استحوالت الكنيسة ديراً للرجال والنساء ، ومدرسة لا تقل شهرة عن المدرسة الأخرى التي قامت في أرماغ Armagh . وتوفيت بردج في عام ٥٢٥ ، معززة مكرمة من جميع الأيرلنديين ، ولا يزال عشرة آلاف من الأيرلنديين يسمين باسم ماري الجيلية Mary of Gael . وبعد جيل من ذلك الوقت حسب القديس روادهان لعنة على قارا ؛ ثم هجرت الأبناء القديمة بعد عام ٥٥٨ حين مات الملك ديرمويد Diarmuid ، واعتق ملوك أيرلندة الدين للمسيحي وإن ظلوا مع هذا وثنيين في ثقافتهم .

الفصل الثالث

بداية تاريخ فرنسا

١ - الأيام الأخيرة من تاريخ غالة القديمة

كانت غالة في القرنين الرابع والخامس أكثر الولايات الغربية في الإمبراطورية الرومانية رخاء من الناحية المادية وأعظمها رقياً من الناحية العقلية . فقد كانت تربتها خصبة كريمة ، وصناعاتها اليدوية متقدمة ، وأنهارها وبحارها تعج بالمتاجر وكان في نربونه وأرلينز ، وبردو ، وطولوز (طلوشة) ، وليون ، ومرسيلية ، وپواتيه ، وتربيه جامعات مزدهرة تنفق عليها الدولة ، وكان للمدرسين ، والخطباء ، والشعراء ، والحكماء منزلة لا ينالها في العادة إلا رجال السياسة والملاكون . وفي أيام أوسنيوس وسيدنيوس عقد لغالة لواء الزعامة الأدبية في أوربا كلها .

وكان ديسموس مجنوس أوسنيوس Deecimus Magnus Ausonius شاعر العصر الفضي في غالة ، وفيه تتمثل روح هذا العصر . وقد ولد في بردو حوالي عام ٣١٠ ، وكان والده كبير أطبائها ، وفيها تلقى علومه ، وقد حدث العالم فيما بعد في شعر كريم سداسي الأوتاد عن فضائل معلميه ، ذكر فيه بسماتهم وأغفل ضرباتهم (٢٥) . وسارت حياته بعدئذ سيراً هادئاً مطمئناً حتى عين أستاذاً في بردو وظل يعلم « النحو » (وكان يقصد به وقتئذ الأدب) و « البلاغة » (أي الخطابة والفلسفة) نحو ثلاثين عاماً ، وكان مريباً للإمبراطور جراتيان قبل أن يتولى عرش الإمبراطورية . وإن فيما كتبه عن والديه وأعمامه وأخواله ، وزوجته ، وأبنائه وتلاميذه ما يوحى بأن حياته في البيت وفي خارجه كانت شبيهة بحياة المدن الجامعية في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر . وهو يصف بعبارات جذابة البيت والحقول التي ورثها عن أبيه ، ويحدثنا عن المكان الذي يرجو أن

يقضى فيها أخريات أيامه ، ويقول لزوجته فى سنى زواجهما الأولى :
 « فلنعش على الدوام كما نعيش الآن ، ولنحتفظ بالاسمين اللذين سمى بهما
 كاللنا الآخر فى بداية حبنا . . . ويجب أن يبقى كاللنا فى سن الشباب ،
 وستكونين على الدوام جميلة فى عيني ، وعلينا ألا نحسب حساباً لمر
 السنين » (٢٦) . على أنهما سرعان ما فقدوا أول طفل رزقه منها ، وقد كتب
 يحيى ذكره بعبارات تفيض بالحب فقال : « لن أتركك دون أبكيك يا بكر
 أبنائى وياسمى . لقد اختطفك الموت منا فى الوقت الذى كنت تحاول فيه أن تبدل
 لغطك إلى أولى كلمات الطفولة . . . إنك الآن تترقد على صدر والد جدك الذى
 تشاركه قبره » (٢٧) . وماتت زوجته ولما يمض على زواجهما الموفق إلا زمن
 قليل ، وتركت له ابناً وبناتاً ؛ وقد بلغ من حبه ووفائه لها أنه لم يتزوج
 قط بعدها ؛ ووصف فى شيخوخته ألمه لفقدائها ولوعته التى لم يخففها مر
 السنين . كما وصف السكون المحزن المخيم على بينهما الذى طالما عرف
 عناية يديها وأحس بنغم وقع قدميها .

وكان الناس فى أيامه يحبون قصائده لما فيها من عواطف رقيقة ،
 وصور ريفية جميلة ، ولغتها اللاتينية الخالصة ، ولشعرها الذى لا يكاد يقل
 فى رفته عن شعر فرجيل .

وكان پولينس ، الذى أصبح فيما بعد من القديسين ، يشبه نثره بنثر
 شيشرون ، وكان سيماخوس يقول إنه لا يستطيع أن يجد فى شعر فرجيل
 شيئاً أجمل من قصيدة موزلا Mosella التى وصف فيها أوسنيوس نهر
 الموزل . وكان الشاعر قد أولع بذلك النهر حين كان مع جراتيان
 فى تربيته . ويقول فى وصفه إنه يجرى وسط جنة حقة من الكروم ،
 والساتين والقصور الصغيرة ذات الحدائق ، والمزارع الفاخرة الغنية .
 ونكاد نحس فى وقت ما بنخضة شواطئه ، وموسيقى جريانه . ثم لا يلبث
 أن يتبدل من هذا المستوى الرفيع فيصف فى عبارات تتكرر مراراً ما فى
 مجرى النهر من سمك لطيف . وتذكرنا هذه الرغبة الجامحة فى ذكر الأقارب

والمدرسين ، والتلاميذ ، والسملك بكتابات هوتمان Whitman ولكنها ينقصها شعور هوتمان الفياض وفلسفته القوية اللذين يخففان من سآمتها . وسبب ذلك النقض أن أوسنيوس بعد أن ظل ثلاثين عاما يعلم النحو كان يصعب عليه أن يضمن عباراته شيئا غير العاطفة الأدبية . فقصائده مسبحة صداقة ، وأوراد مدح ، ولكن الذين لم يعرفوا منا أمثال أولئك الأعمام والأخوال الذين نفتن بحبهم ، أو الأساتذة الذين يُغرونا بتمجيدهم قلما يتأثرون بهذا المديح .

ولما توفي فلنتنيان الأول (٣٧٥) ، وجلس جراتيان على عرش الإمبراطورية استدعى إليه معلمه القديم ، وأفاض عليه وعلى من معه كثيراً من المنح السياسية . فعين أوسنيوس حاكماً على إليركم Illyricum ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وغالة ، واحدة بعد واحدة في فترة قصيرة ، ثم عين آخر الأمر قنصلاً وهو في سن التاسعة والستين ، وبفضل مشورته أصدر جراتيان مراسيم تفرض إعانات من الدولة لشئون التعليم ، وللشعراء ، والأطباء ، ولحماية روائع الفن القديم . وبفضل نفوذه أيضاً عين سيماكس حاكماً على رومة ، وبولينس والياً على إحدى الولايات وحزن أوسنيوس حين اعتزل بولينس شئون الدنيا وانقطع للدين ، لأن الإمبراطورية المهددة من جميع نواحيها كانت في حاجة إلى أمثاله . نعم إن أوسنيوس نفسه كان أيضاً مسيحياً ، ولكنه لم يكن جاداً كل الجد في مسيحيته ، فقد كانت ميوله ، وموضوعات شعره ، وأوزانه ، وما فيه من أساطير كلها وثنية سارة مطربة .

ولما بلغ الشاعر الشيخ سن السبعين عاد إلى برودو حيث عاش عشرين سنة أخرى . وكان وقتئذ حياً ، في وسعه أن يوفق في قصائد البنية التي نظمها في شبابه وبين حب الأجداد لأحفادهم حين يبلغ هؤلاء الأجداد الشيخوخة . انظر إليه وهو يقول لحفيده : « لا تخف ، وإن كان صدى الضربات الكثيرة يتردد في المدرسة ، وإن تجهم وجه المدرس ، ولا ترتعد فرقاً إذا سمعت في أثناء ساعات الصباح صراخاً أو طرق أذنك صوت العصا ، فإذا كان المدرس يتخذ العصا

صوبلحاناً يهزه بيده ، وإذا رأيت لديه مجموعة كاملة من العصي ... فليس هذا وذلك إلا مظهراً خارجياً يبعث به الخوف الكاذب في النفوس . لقد مر أبوك وأمك بهذا كله في أيامهما ، ثم عاشا بعدهما ليخففا عني في شيخوختي الهادئة الصافية عبء السنين » (٢٨) . وما أسعد حظ أوسينيوس إذ عاش ومات قبل أن يحتاج البلاد تيار البرابرة الجارف .

وكانت منزلة أبلينارس سيدونيوس Appollinaris Sidonius في النغالي أثناء القرن الخامس كمنزلة أوسينيوس في الشعر الغالي في القرن الرابع . لقد خرج سيدونيوس على العالم فجأة من مدينة ليون (٤٣٢) حيث كان يقيم أبوه حاكم غالة . وكان جده قد شغل هذا المنصب نفسه قبل أبيه ، وكانت أمه من أقارب أفثوس Avitus الذي جلس على عرش الإمبراطورية في عام ٤٥٥ . والذي تزوج سيدونيوس بابنته عام ٤٥٢ . وكانت كل هذه سبلا ممهدة يصعب على الإنسان أن يجد خيراً منها . وجاءت إليه ببيانلا بيانته هي قصر ريني مترف بالقرب من كليرمنت Clermont . وقد قضى عدداً من سني حياته في الذهاب لزيارة أصدقائه من النبلاء والعودة من هذه الزيارات . وكان أولئك الأصدقاء أناساً ذوي ثقافة ورقة يميلون إلى الدعة والمغامرة (٢٩) ، يعيشون في بيوتهم الريفية ، وقلما يغمسون أيديهم في رجس السياسة . وكان في وسعهم أن يحموا حياتهم الناعمة المترفة من الغزاة القوط . ولم يكونوا يهتمون بحياة المدن ، فقد أخذ ذوو الألب الواسع من الإنجليز والفرنسيين من ذلك العهد يرون ما في حياة الريف من متع لا توجد في المدن . وقد جمعت هذه البيوت الريفية المنبسطة ذات الحدائق كل وسائل الراحة وأسباب الجمال ، من أرض مرصوفة بالفسيفساء ، وأبهاء ذات عمد ، وجدران منقوشة عليها مناظر طبيعية ، وتماثيل من الرخام أو البرنز ومواقد فخمة ، وحمامات ، وحدائق وملاعب للتنس (٣٠) ، ومن حولها ضياض يستطيع الرجال والسيدات أن يصيدوا فيها ويطلقوا البزاة . وكان بعضها يحتوي ١٢٥ حجرة ، وفي كل منها

إلا القليل النادر مكتبة عامرة بالكتب ، فيها كتب الوثنيين القديمة وبعض النصوص المسيحية الجلية^(٣١) . وكان بعض أصدقاء سودونيوس نفسه من هواة جمع الكتب ، ولا ريب في أنه كان في غالة كما كان في رومة كثير من الأثرياء الذين يقدرّون تجليد الكتب الجميل أكثر مما يقدرّون محتوياتها وحدها ، ويقنعون بالثقافة التي يستطيعون أن يحصلوا عليها من جلود كتبهم .

ويضرب لنا سيدونيوس أحسن مثل لهذه الحياة اللطيفة — حياة حسن الضيافة والمجاملة ، والبهجة ، والآداب الراقية ، وما فيها من شعر جيد الصقل ، ونثر حلو النغم . ولما ذهب أفتوس إلى رومة ليجلس على عرش الإمبراطورية ، صحبه سودونيوس ، واختير ليلقي بين يديه خطاب الترحيب (٤٥٦) ، ثم عاد إلى غالة بعد سنة من ذلك الوقت مع أفتوس المملوع ؛ ولكننا نجده في رومة مرة أخرى في عام ٤٦٨ يشغل منصب محافظ المدينة حين كانت الدولة في آخر مرحلة من مراحل الانهيار . وكان الرجل يسير مطمئنا وسط هذه الفوضى ، فاستطاع بذلك أن يصف المجتمعات العليا في غالة ورومة في رسائل من طراز رسائل بلني وسيماخوس ، ولا نقل عن رسائلهما مباهاة وظرفا .

ولم يكن الأدب في ذلك الوقت يجد ما يتحدث عنه إلا القليل ، وقد بُذِل في هذا القليل من العناية ما أبقى على شكل هذا الأدب وسحر ألفاظه بعد أن ذهب كل ما عداها ، وخير ما يمكن أن يقال عن هذه الرسائل أنها حوت ما في طبيعة الرجل المهلب المتعلم من تسامح وظرف وتفاهم وتعاطف . وهي الصفات التي ازدان بها أدب فرنسا منذ تلك الأيام التي لم يكن فيها أدبا فرنسيا . وقد جاء سيدونيوس إلى غالة بما يمتاز به الرومان من حب الحديث الممتع اللطيف الذي بدأ بشيشرون وسنكا وانتقل عن طريق بلني وسيماخوس ، ومكروبيوس ، وسيدونيوس إلى متنافي ومنسيكو ، وقلير ، ورينان ، وسانت بيث ، وأناطول ، فرانس ، وهولاء يكتون سلسلة متصلة الحلقات ، ومن نعم الله أنهم

يكادون يكونون كلهم ذوى عقلية واحدة .

وإذ كنا لا نحب أن نعطي القارئ صورة غير صادقة لسودونيوس ، فلا بد لنا أن نضيف هنا أنه كان مسيحياً صالحاً ، وأسقفاً شجاعاً . وقد وجد الرجل نفسه ، على حين غفلة ، وعلى كره منه ، يتدفع من منزله المدنية العلمانية إلى أسقفية كثرمت . وكان على الأسقف في تلك الأيام أن يكون حاكماً إدارياً وهادياً روحياً في آن واحد . وقد كان ذوو التجارب والثراء أمثال أمبروز وسيدونيوس يمتازون بمؤهلات أقوى أثراً وأعظم نفعا في مناصبهم الجديدة من علوم الدين مهما تعمقوا فيها . وإذا كان سيدونيوس لم يحصل من هذه العلوم إلا القليل ، فإنه لم يكن يصب اللعنات الدينية إلا على القليلين ، وكان يدل أن يشغل نفسه بهذا يعطى صحافه الفضية للفقراء ، ويغفر ذنوب الناس بسرعة روتت الكثيرين من رجال الدين . وتبين من إحدى رسائله أنه كان في بعض الأحيان يقطع صلوات المصلين في كنيسة حتى يتناولوا بعض المرطبات (٣٢) . ثم حطمت الحقيقة المرة هذه الحياة الممتعة حين قرر أوريك Euric ملك القوط الغربيين أن يضم أوفرني Auvergne إلى البلاد الخاضعة لحكمه . وظل القوط يحاصرون كابرمنت عاصمة هذه الولاية كلما حل فصل الصيف أربع سنين متوالية . وكان سيدونيوس يقاتلهم بالسياسة وبالصلوات ، ولكنه عجز عن صدحهم . ولما سقطت المدينة آخر الأمر ، أسر ، وسجن في حصن بالقرب من كاركسن Carcassonne . (٤٧٥) ثم أطلق سراحه بعد عامين وأعيد إلى كرسيه . ولنا نعرف كم من الزمن عاش بعدئذ ، ولكننا نعلم أنه قبل أن يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره كان يتمنى أن « يتخلص من آلام الحياة الحاضرة ومتاعها بأن يجعل الله بمنيته » (٣٣) . ذلك أنه كان قد فقد إيمانه بالإمبراطورية الرومانية ، وبني كل آماله في تقدم الحضارة على الكنيسة الرومانية . وقد غفرت له الكنيسة ما في شعره من نزعة وثنية وضمته إلى جماعة القديسين .

٢- الفرنجة

٣٤٠ - ٥١١

أرخبى ليل الهمجية سلوله على غالة بعد موت سيدونيوس . على أننا ليس من حقنا أن نبالغ في ظلام هذا الليل . فقد ظل الناس في خلاله يحتفظون بمهارتهم في الشئون الاقتصادية ، فكانوا يتجرون ، ويسكتون النقود ، ويقرضون الشعر ، ويشغلون بالفن ؛ وقد بلغت مملكة القوط الغربيين في جنوبي غالة الغربي أيام ملكها أوريك Euric (٤٦٦ - ٤٨٤) وألريك الثاني (٤٨٤ - ٥٠٧) درجة من النظام ، والحضارة ، والرقى ، أطلقت لسان سيدونيوس نفسه بالثناء عليها (٣٤) . وفي عام ٥٠٦ نشر ألريك الثاني موجزاً من القوانين لمملكته ، وكان دستوراً مستنبطاً بالنسبة لغيره من دساتير ذلك الوقت ، فقد كان يقرر العلاقة بين السكان الرومان الغالين والفاحين على قواعد ثابتة قائمة على العقل . وسن ملوك برغندية في عام ٥١٠ دستوراً شبيهاً بهذا ، وكان هؤلاء الملوك قد أسكنوا شعبهم في جنوبي غالة الشرق وبسطوا سلطانهم على هذا الإقليم بطريق السلم . وظلت أوروبا اللاتينية تحكمها الشرائع القوطية والبرغندية وشرائع الفرنجة التي لا تختلف عنهما كثيراً ، حتى عادت الشرائع الرومانية إلى الوجود في بولونيا في القرن الحادى عشر الميلادى .

. ويبدأ التاريخ يحدثنا عن الفرنجة في عام ٢٤٠ حين هزمهم الإمبراطور أورليان بالقرب من مينز . واستقر الفرنجة الربواريون Ripuarian (أى الشاطبيوز) في بداية القرن الخامس على منحدرات الرين الغربية ، واستولوا على كولوني (٤٦٣) ، واتخذوها عاصمة لهم ، وبسطوا سلطانهم على وادى الرين من آخن Aachen إلى متز . وبقيت بعض قبائل الفرنجة على ضفة النهر الشرقية وأطلقوا اسمهم على فرنكونيا Franconia . وربما كان الفرنجة الساليون The Salic Franks

قد اشتقوا اسمهم من نهر سالا Sala (المعروف الآن باسم إيسل Ijssel الذى يجرى فى الأرض الوطيدة . ثم تحركوا من هذا الإقليم نحو الجنوب والغرب ، واحتلوا حوالى عام ٣٥٦ الإقليم الواقع بين نهر الموز Meuse والمحيط ونهر السوم Somme . وكان أكثر انتشارهم بطريق الهجرة السلمية ، بل إن الرومان أنفسهم كانوا يدعونهم أحياناً إلى أن يعمروا الأراضى القليلة السكان . وبهذه الوسائل المختافة أصبحت غالة الشمالية نصف فرنجية قبل أن يحلّ عام ٤٣٠ . وقد جاء الفرنجة معهم بلغتهم الألمانية وعقيدتهم الوثنية ، وكان من أثر هذا أن اللغة اللاتينية لم تعد اللغة التى يتحدث بها المقيمون على مجرى الرين الأدنى ، كما لم تعد المسيحية دين هؤلاء الأقوام .

ويصف الفرنجة الساليون أنفسهم فى مقدمة « قانونهم السالى » بأنهم « الشعب الجيد ، الحكيم فى مجالسه ، النبيل فى جسمه ، الذى تشع منه الصحة والعافية ، الممتاز بجماله ، الجريء ، السريع ، الذى لا تلبس له قناة ... هذا هو الشعب الذى أتى عن عاتقه نير الطغاة الرومان » (٣٥) . ولم يكونوا يعدون أنفسهم برابرة بل كانوا يقولون إنهم ورجال أحرار انتزعوا حريتهم بأيديهم ، ومعنى لفظ فرنجة Franks هو الحر ، الذى نال حقوقه السياسية . وكانوا طوال القامة ، شقر الوجوه ، يجمعون شعرهم الطويل ويعقدونه فوق رؤوسهم ، ثم يتركونه يسقط منها وهو أشبه ما يكون بذيل الحصان ، وكانوا يطيلون شواربهم ، ويخلقون لحامهم ، ويشدون قباءهم على وسطهم بأحزمة من الجلد مغطاة فى بعض أجزائها بقطع من الحديد المظلى بالمينا . وفى هذه المنطقة يعلق السيف ، والبلطة الحربية ، وبعض أدوات الزينة كالمقصات والأمشاط (٣٦) ، وكان الرجال كالنساء مولعين بالحلى ، يزينون بالخواتم ، والأساور وعقود الخرز . وكان كل رجل قوى الجسم جندياً محارباً ، يتعلم منذ صباه الجرى ، والقفز ، والنباح ، وإصابة الهدف بالحرية أو البلطة . وكانت الشجاعة عندهم أسمى الفضائل كلها ، من أجلها يفتخر

القتل ، والنهب ، والاغتصاب ، . ولكن التاريخ ، بما يلقيه من ضوء ساطع على بعض الحوادث دون بعضها الآخر ، يخطئ في تصوير الفرنجة إذا تدخل في روعنا أنهم أقوام محاربون لا غير . والحق أن فتوحهم ووقائعهم الحربية لم تكن أكثر من فتوحنا نحن ووقائعنا ، كما كانت أقل منها اتساعاً وتخريباً . ويستدل من شرائعهم على أنهم كانوا يشتغلون بالزراعة والصناعات اليدوية ، وأنهم أنشأوا في شمالي غالة الشرق مجتمعاً ريفياً مزدهراً يتمتع عادة بالسلام .

وقننت الشرائع السالية في بداية القرن السادس ، وأكبر الظن أن ذلك كان في نفس الجيل الذي شهد آخر مرحلة من مراحل تطور قوانين جستنيان الرومانية . ويقولون إن « أربعة من الزعماء الموقرين » هم الذين كتبوه ، وإن ثلاثة جمعيات شعبية متتالية قد بحثته وأقرته (٣٧) . وكانت الطريقة المتبعة في محاكمة المتهمين هي طريقة التحكيم الإلهي والاستعانة بالشهود الذين يقسمون أن المتهم بريء . فإذا شهد عدد كان من الشهود الصالحين لهذه الشهادة أن المدعى عليه طيب الخلق ، بريء من أية تهمة لا يوجد دليل قاطع على أنه ارتكبها . وكان عدد الشهود يختلف تبعاً لجسامة الجرم المنسوب إلى المتهم : فسبعة وسبعون شاهداً يكفون لتبرئة المتهم بالقتل ، ولكن لما أن اتهمت إحدى ملكات فرنسا في عفتها تطلب الأمر ثلثمائة من النبلاء يشهدون بصحة انتساب ابنها إلى أبيه (٣٨) . فإذا ظل الأمر بعد هذا موضعاً للشك اتبع قانون التحكيم الإلهي . من ذلك أن المتهم كانت تربط يداه وقدماه ويلقى في النهر ، فإذا غطس كان بريئاً ، وإذا طفا كان مذنباً (وذلك لأن الماء كانت تقرأ عليه رقي خاصة في حفل ديني تجعله يرفض الشخص المذنب) (٣٩) ؛ أو كان يطلب إلى المتهم أن يمشي خافي القدمين في نار مثقفة أو فوق حديد يحمى حتى يحمر من الحرارة ؛ أو يمسك بيده قطعة من الحديد محمية إلى هذه الدرجة ويظل قابضاً عليها مدة محددة من الزمن ؛ أو يضع ذراعه عارية في وعاء به ماء يغلي ويخرج شيئاً من قاع الإناء ؛ أو يقف

المدعى والمدعى عليه ويمدان ذراعيهما على هيئة صليب ويظلان كذلك حتى تثبت التهمة على أحدهما إذا أنزل ذراعه من شدة التعب ؛ أو يأخذ المتهم ماء القربان المقدس ، فإذا كان مذنباً فلا بد أن تحمل به نقمة الله . وكانت المبارزة تفصل أحياناً في النزاع بين حزين إذا بقي بعد إيراد الأدلة القانونية مجال للشك المعقول . وتدل الأستناق على أن التحكيم الإلهي بالماء المغلي كان من الوسائل التي يستخدمها الفرس الأقدمون . وقد ورد في قوانين مانو Mnau (قبل عام ١٠٠ م) شيء عن التحكيم الإلهي عند الهنود بالإغراق في الماء ، كما ورد ذكر التحكيم الإلهي بطريق النار أو الحديد المحمى في مسرحية أنتيجون لسفكليس^(٤٠) . أما الساميون فكانوا يرون أن هذا التحكيم يأباه الدين ولذلك كانوا يرفضونه ، وكان الرومان يرون أنه خرافة ، أما الألمان فقد ساروا فيه إلى آخر مراحلهم ؛ وقبلته الكنيسة المسيحية وهي كارهة ، وأحاطته بمراسم دينية ، وأيمان مغلظة .

والمحاكمة بالاقتيال قديمة قدم التحكيم الإلهي . ويصفه ساكسو جراماتييكوس Saxo Grammaticus ، بأنه كان إجبارياً في الدنمركة في القرن الأول الميلادي ؛ وتدل شرائع الإنجليز ، والسكسون ، والفرنجة ، والبرغنديين ، واللمبارد على أنه كان شائعاً بينهم ، وقد وجدته القديس بتريك في أيرلندة ، ولما أن شكاً مسيحياً روماني إلى جندوباد Gondobad ملك برغانديا وقال له إن هذا التحكيم لا يحكم على الجريمة بل على المهارة ، أجابه الملك بقوله : « أليس حقاً أن نتائج الحروب والمبارزات إنما تنقرر بقضاء الله ، وأن العناية الإلهية تؤيد بنصرها القضية العادلة ؟ »^(٤١) . وكان كل ما حدث في هذا الأمر بعد أن اعتنق البرابرة الدين المسيحي أن تبدل اسم الإله الذي يحكمونه فيما بينهم . وليس في وسعنا أن نحكم على هذه العادات أو نفهمها إلا إذا وضعنا أنفسنا في مكان قوم يؤمنون إيماناً لا يقبل الجدل بأن الله هو الذي يسبب الحوادث جميعها ، وأنه لا يرضى عن أى حكم غير عادل . وأمام هذه التجربة المرعبة كان المدعون الذين لا يثقون

من عدالة قضايهم أو من قوة بيناتهم يترددون كثيراً قبل أن يشغلوا المحاكم بقضايهم وشكاياتهم ؛ كما أن المتهمين المجرمين كانوا يهربون من التحكيم الإلهي ويعرضون أن يؤدوا بدلاً منه تعويضاً للمدعين .

ذلك أنه كان لكل جريمة ثمنها ، وكان في وسع المتهم عادة أن يفتدى نفسه بأن يؤدي التعويض المقرر للجريمة المتهم بها على أن يكون ثلثه للحكومة ، وثلثاه لمن وقعت عليه الجريمة أو لأسرته . وكان المبلغ المفروض يختلف باختلاف منزلة من وقعت عليه الجريمة ، ولهذا كان المجرم الملم بالشئون الاقتصادية يدخل في حسابه عدداً كبيراً من الحقائق . فإذا لطم رجل يد امرأة في غير حياء فرضت عليه غرامة مقدارها خمسة عشر ديناراً (*) (نحو دولارين أمريكيين وربع دولار) ؛ وإذا لطم عضدها غرم خمسة وثلثين ديناراً (٥,٢٥ دولارات) ، فإذا مس صدرها بغير رضاها غرم خمسة وأربعين ديناراً (٦,٧٥ دولارات) (٤٢) . ولم يكن هذا التقدير باهظاً إذا قيس بغيره من الغرامات : فقد كان جزاء اعتداء روماني على فرنجي أو سرقة بأكراه غرامة قدرها ٢٥٠٠ دينار (٣٧٥ دولاراً) ؛ وتخفض هذه الغرامة إلى ١٤٠٠ دينار إذا اعتدى فرنجي على روماني أو سرقة ؛ وإذا قتل روماني فرنجياً غرم القاتل ٨٠٠٠ دينار تخفض إلى أربعة آلاف (٤٣) إذا كان المقتول رومانياً ؛ إلى هذه الدرجة انحطت منزلة الروماني العظيم في أعين الفاتحين . وإذا لم ينل المعتدى عليه أو أقاربه التعويض الكافي ، كان من حقهم أن ينتقموا لأنفسهم من المعتدى ؛ وبهذه الطريقة كانت سلسلة الانتقام وسفك الدماء تدوم بين الخصوم عدة أجيال ، وكانت الغرامات والمبارزات القضائية خير الوسائل التي

(*) يقدر القانون السالي (في المادة الرابعة عشرة) الدينار بجزء من أربعين جزءاً من السوليدوس Solidus الذي كان وقتئذ يحتوي على سدس أوقية من الذهب أو ٨٣,٥ من دولارات الولايات المتحدة في عام ١٩٤٦ . لكن قلة الذهب والنقد في العصور الوسطى كانت تجعل للمبالغ الواردة في النص قيمة في الشراء أو العقاب أعظم كثيراً من قيمتها في هذه الأيام .

استطاع الألمان البدائيون ابتكارها لكبح جراح غريزة الانتقام وإحلال القانون محلها .

ونصت أهم مادة في القانون السالى على أنه « لا يجوز أن ترث امرأة شيئاً من الأراضى السالية (المادة السادسة) . واعتمدت فرنسا على هذه المادة في القرن الرابع عشر فرفضت ادعاء الملك إدوارد الثالث ملك إنجلترا بحقه في عرش فرنسا الذى يرثه عن طريق أمه إزابيل Esabelle ؛ وأدى هذا الرفض إلى نشوب حرب السنين المائة . وكانت هذه المادة مقصورة على الأملاك الثابتة (العقار) ، التى يفترض أنها تحتاج فى حمايتها إلى قوة الرجال العسكرية ، ويمكن القول بوجه عام إن القانون السالى لم يكن يرفع من شأن النساء . نعم إن دية المرأة كانت ضعفى دية الرجل^(٤٤) ، لأنهم كانوا يدخلون فى تقديرها أنها قد تكون أما للكثيرين من الرجال ، ولكنه يفعل بهن ما يفعله القانون الرومانى فى أوائل عهده ، فيضعهن على الدوام تحت وصاية آبائهن أو أزواجهن أو أبنائهن . وقد جعل القتل عقاب الزوجة الزانية ، ولكنه لم يكن يعاقب الزانى^(٤٥) ، وكان يبيح الطلاق للرجل متى شاء . هوأه^(٤٦) . وكانت العادة تبيح للملوك الفرنجة أن يتزوجوا بأكثر من واحدة ، وإن لم يبيح ذلك القانون نفسه .

وكان أول ملوك الفرنجة المعروفين باسمهم هو كلوديو Chlodio الذى هاجم كولونى فى عام ٤٣١ ؛ ولقد هزمه إيتيوس Aetius ، ولكن كلوديو نجح فى احتلال غالة من شرقها إلى نهر السوم فى الغرب ، واتخذ تورناى عاصمة له ، وخلفه على العرش ملك آخر يدعى مروفلك Merovech (ابن البحر) — وقد يكون هذا مجرد خرافة — وهو الذى سميت الأسرة المرونجية Merovingian التى حكمت الفرنجة حتى عام ٧٥١ . وأغوى ابنه كلدريك Childeric بأسينا Basina زوجة أحد الملوك الثورنيجين Thuringian ؛ فجاءت إليه لتكون ملكته ، وقالت : إنها لا تعرف رجلاً أخضع منه عقلاً ، أو أغوى منه جسماً ؛

أو أجل منه خلقاً . وولدت له كلوفيس Clovis ، الذى أنشأ فرنسا والذى تسمى باسمه ثمانية عشر من الملوك الفرنسيين (*) .

وورث كلوفيس عرش المروفتنجيين فى عام ٤٨١ ، وكان وقتئذ فى الخامسة عشرة من عمره . ولم تكن مملكته تشغل وقتئذ إلا ركناً من أركان غالة ، فقد كانت قبائل أخرى من الفرنجة تحكم أرض البرين ، وكانت مملكتا القوط الغربيين والبرغنديين القائمتان جنوبى غالة قد استقلتا استقلالاً تاماً بعد سقوط رومة . وكان الطرف الشمالى الغربى من غالة ، الخاضع بالاسم لحكم رومة حتى ذلك الوقت ، ضعيفاً لا يجد من يدافع عنه ، فغزاه كلوفيس ، وأستولى على كثير من مدنه وعلى عدد من أكابر رجاله ، ثم قبل القدية منهم ، وباع الغنائم ، وابتاع الجند والموتن ، والأسلحة ، وزحف على سواسون Soissons وهزم جيشاً « رومانياً » (٤٨٦) . ثم وسع فتوحه فى السنين التالية حتى لامست حدود شبه جزيرة بريطانيا ، ونهر اللوار . وضم إلى جانبه السكان الغاليين بأن ترك لهم أراضيهم ، كما ضم إليه رجال الدين المسيحيين بأن احترم دينهم وأبقى لهم ثروتهم . وفى عام ٤٩٣ تزوج مسيحية تدعى كلوثيلد Clothilde ، وما لبث أن اعتنق بتأثيرها الدين المسيحى على أساس العقائد النيقية ، وعمده ريمى الأسقف والقسيس فى ريمز أمام حشد من رجال الدين والأعيان ، دعوا لهذا الغرض ولحكمة لا تخفى ، من جميع أنحاء غالة ، ثم تقدم كلوفيس إلى ميدان القتال يتبعه ثلاثة آلاف جندى . وربما كان سبب اعتناق كلوفيس الدين الجديد أنه كان يتوق إلى الوصول إلى شواطئ البحر المتوسط ، وأنه كان يرى أن ملك فرنسا خلى بأن يعتنق من أجله هذا الدين . وأخذ أتباع الدين القويم فى غالة القوط الغربيين ، وغالة البرغنديين ، ينظرون إلى حكامهم شراً ، وأصبحوا من ذلك الحين حلفاء الملك الفرنجى المشافه السه أوفى العلى .

(*) كلدفيج ، ولدفيج ، وكلوفيس ، ولويس Chlodwig, Ludwig, Clovis, Louis

كلها اسم واحد .

ورأى أليك الثاني بداية هذا التيار الجارف ، وحاول أن يصدّه بالكلام المعسول ، فدعا كلوفيس إلى الاجتماع به ، واجتمعوا بالفعل في أمبواز Amboise ، وعقدوا ميثاق الصداقة الدائمة . ولكن أليك قبض على جماعة من الأساقفة أتباع الدين الأصيل بعد عودته إلى طولوز ، لتآمرهم مع الفرنجة ، فدعا كلوفيس جمعيته الحربية وخطبها قائلاً : « يعز على نفسي أرى هؤلاء الأريوسيين يمتلكون جزءاً من غالة ، فانخرج لطردهم منها بمعونة الله » (٤٧) . ودافع أليك عن نفسه بكل ما وسعه الدفاع ومعه شعب منقسم على نفسه ؛ ولكنه هزم في فوييه Vouille القريبة من پواتيه (٥٠٧) ، وقتله كلوفيس بيده . « وبعد أن قضى كلوفيس فصل الشتاء في بر دو » ، كما يقول جريجورى التورى Gregory of Tours واستولى على جميع كنوز أليك التى كانت في طولوز ، زحف لحصار أنجوليم Angoulême . ومن الله عليه بفضله فتساقطت أسوار المدينة من تلقاء نفسها . « وها نحن أولاء نرى منذ ذلك الزمن (٤٨) نعمة المؤرخ الإخبارى التى تمتاز بها العصور الوسطى ، وكان سچيرت الشيخ ملك الفرنجة الربوارين حليفا لكلوفيس من زمن بعيد : « والآن أوحى كلوفيس إلى ابن سچيرت بالميزات التى ينالها بعد موت أبيه . فقتل الابن والده وأرسل كلوفيس إلى القاتل شعائر الود والصداقة ومعها عماله ليقتلوه . فلما تم ذلك لكلوفيس زحف على كولونى وأقنع زعماء الربوارين بأن يرتضوه ملكاً عليهم . ويقول جريجورى فى ذلك « وجعل الله أعداءه يخرون فى كل يوم صرعى تحت قدميه . . . لأنه كان يسير أمام الله بقلب سليم ، ولأنه كان يفعل ما نقر به عين الله » (٤٩) .

وسرعان ما اعتنق الأريوسيون المغلوبون المذهب الصحيح ، وسمح لقساوستهم أن يحتفظوا بمناصبهم الدينية بعد أن تخلوا عن الفارق بين المذهبين وهو فارق ليس ذا شأن كبير : ونقل كلوفيس عاصمته إلى باريس وسار إليها مثقلاً بالأسرى والعبيد ، والدعوات الصالحات ، ومات فيها بعد أربع سنين فى سن الخامسة

والأربعين . وجاءت الملكة كلوثيلد ، التي كان لمعاونتها بعض الفضل في إنشاء فرنسا الغالية ، « إلى توز بعد موت زوجها ، وأدت الصلاة في كنيسة القديس مارتن ، وعاشت في ذلك المكان عفيفة رحيمة طول أيام حياتها » (٥٠) .

٣ - المروثنجيون

٥١١ - ٦١٤

كان كلوفيس يتوق إلى أن يكون له أبناء ذكور ، وقد كان له قبل وفاته أكثر مما كان يحب ، ولهذا قسم مملكته بينهم لكي يتجنب نشوب حرب للوراثة بعد وفاته . فأعطى كلدبرت Childebert الإقليم المحيط بباريس ، وولى كلودمر Chlodemer إقليم أورلين Orleans ، وأعطى كلوتار Chlotar إقليم سواسون Soissons وثيودريك إقليم متز وريمز وواصل الأبناء بهمتهم البربرية السياسة المؤدية إلى توحيد فرنسا عن طريق الفتح ، فاستولوا على ثوررنجيا في عام ٥٣٠ ، وعلى برغندي في ٥٣٤ ، وعلى پروثانس في ٥٣٦ ، وعلى بافاريا وسوابيا في ٥٥٥ . وعاش كلوتار بعد أن مات إخوته جميعا فورث ممالكهم ، وكانت غالة تحت حكمه أوسع رقعة من فرنسا في العهود المستقبلية . وقبل موته في عام ٥٦١ قسم غالة مرة أخرى . ثلاثة أقسام : إقليم ريمز و Metz المعروف بأستراسيا Austrasia (أي الشرق) وخص به ابنه سجيبرت Sigebert ، وبرغندي وأعطاهما إلى جنترام Gunthram ، وأعطى إقليم سواسون المعروف بنوستريا Neustria (أي القسم الثاني الغربي) إلى كلريك Chilperic .

ولقد كان تاريخ فرنسا منذ زواج كلوفيس إلى وقتنا هذا مزيجاً من الرجولة والأنوثة جامعاً بين الحب والحرب . من ذلك أن سجيبرت أرسل هدايا غالية إلى أثانا جلد Athanagild ملك أسبانيا من القوط الغربيين ، وطلب إليه أن يزوجه ابنته برنهilda Brunhilda ، ووافق أثانا جلد على هذا الزواج خوفاً من الفرنجة

مولان أرسلوا الهدايا ، وأقبلت برنهلدا لتزدان بها أبهاء متزوريمز (٥٦٦) .
 يودب الحسد في قلب كليريك ، لأنه لم يكن له إلا زوجة ساذجة تدعى
 أودوفيرا Audovera وعشيقة فظة تدعى فردجندا Fredegunda ؛ فطلب
 إلى أثنانجلد أن يزوجه أخت برنهلدا ؛ وجاءت جلزونثا Galswintha إلى
 سواسون وأحبها كليريك لأنها جاءت معها بكنوز عظيمة ، ولكنها كانت
 أكبر سنّاً من أختها ؛ فعاد كليريك إلى أحضان فردجندا . وطلبت جلزونثا
 أن تعود إلى أسبانيا ؛ فأمر كليريك بقتلها خنقا (٥٦٧) ، وأعلن سجيبرت
 الحرب على كليريك وهزمه ، ولكن فردجندا بعثت إليه بعبدین قتلا
 سجيبرت ، وقبض على برنهلدا ولكنها استطاعت الفرار وتوجت ابناً
 الشاب كلديبرت الثاني ، وحكمت البلاد باسمه حكماً أظهرت فيه كثيراً من
 الحزم والكفاية .

ويعصف المؤرخون كليريك كأنه نيرون ذلك الوقت وهيروده ،
 يصفونه بأنه غليظ القلب ، سفاك للدماء ، شهواني نهم شره ، في جمع
 الذهب . ويفسر جريجوري الثوري ، وهو عمدتنا الوحيد في هذه المعلومات ،
 تلك الصفات إلى حد ما بأن يصوره كأنه فردريك الثاني في عصره ،
 فيقول إن كليريك كان يسخر من فكرة وجود ثلاثة أشخاص في إله واحد ،
 وبتصوير الله كأنه إنسان ، وكان يعقد مع اليهود مناقشات مزرية ، ويحتج
 على ثروة الكنيسة الطائلة ، وعلى نشاط الأساقفة السياسي ، وألغى الوصايا
 التي يترك بها الناس ما لهم للكنائس ، وكان يبيع كراسي الأساقفة لمن
 يؤدي أكثر الأثمان ، وحاول أن يخلع جريجوري نفسه من كرسي تور^(٥١) .
 ويعصف الشاعر فرتناتوس هذا الملك نفسه بأنه جماع الفضائل ، فهو حاكم
 عادل لطيف ، شيشزون زمانه في الفصاحة ؛ ولكن يجب ألا ننسى أن
 كليريك قد أجاز فرتناتوس على شعره .

ومات كليريك بطعنة خنجر في عام ٥٨٤ ، وربما كان طاعنه مسلطاً عليه
 من برنهلدا ، وترك وراءه ولداً رضيعاً هو كلوتار الثاني فحكمت فردجندا نستريا

بالنيابة عنه ، بمهارة ، وغدر ، وقسوة لا تقلّ عن مثيلاتها في أى رجل من رجال ذلك الوقت . من ذلك أنها جاءت بشاب من رجال الدين ليقتل برنهلدا ، ولما عاد دون أن يؤدي مهمته أمرت بقطع يديه وقدميه . لكن مرجعنا في هذه الأخبار هو أيضاً جريجورى (٥٣) . وكان أعيان أستراسيا في هذا الوقت لا ينقطعون عن الثورة على برنهلدا المتغترسة ، يشجعهم على هذا كلوتار الثانى ؛ وكانت تخمد هذه الثورات بقدر ما تستطيع وتستعين على ذلك بالاحتل والاغتيال ؛ ولكنهم أفلحوا آخر الأمر في خلعها وهى في الثمانين من عمرها ، وظلوا يعذبونها ثلاثة أيام كاملة ، ثم ربطوها من شعرها وإحدى يديها وقدميها في ذيل حصان وضربوه بالسياط (٦١٤) . وورث كلوتار الثانى الممالك الثلاث وتوحدت مرة أخرى دولة الفرنجة .

وقد يحملنا هذا السجل الملطخ بالدماء على أن نبالغ في الهمجية التى كانت تنجم على غالة ولما يكاد يمضى على موت سيدونيوس المتحضر المثقف . قرن من الزمان ، ولكن الناس لا بد لهم أن يجدوا وسيلة يستخدمونها إذا أعوزتهم الانتخابات . ولقد أفسد خلفاء كلوفيس ما بذله من جهود لتوحيد البلاد كما فعل خلفاء شارلمان بمملكته بعده . على أن أقل ما يقال في هذا الشأن على هذا العهد أن الحكومة قد ظلت تؤدى واجباتها ، وأن غالة لم تكن كلها تطبق وحشية ملوكها وتعدد زوجاتهم ، وأن ما يبدو من استبداد الملوك كان محددًا بقوة النبلاء الذين يحسدونهم على سلطتهم ، وكان الملك يكافئهم على ما يؤدون له من خدمات في الإدارة والحرب بأن يهبهم ضياعاً يكادون يكونون فيها سادة مستقلين ؛ وفي هذه الأملاك الواسعة بدأ نظام الإقطاع الذى حارب الملكية الفرنسية ألف عام . وكثر أرقاء الأرض ، وبدأ الاسترقاق يحيا مرة أخرى بسبب الحروب الجديدة ، وانتقلت الصناعات من المدن إلى بيوت الريف ، فضاقت رقعة المدن ، وخضعت لسيطرة السادة الإقطاعيين ؛ وكانت التجارة لا تزال

نشيطة ، ولكنها كان يقف في سبيلها عدم ثبات النقد ، وكثرة اللصوص وقطاع الطرق ، وارتفاع الضرائب الإقطاعية . وكان القحط والوباء يحاربان بنجاح غريزة التكاثر الآدمية .

وتزوج زعماء الفرنجة بمن بقي من نساء طبقة أعضاء الشيوخ الغاليين — الرومان ، ونشأ من هذا التزاوج أشراف فرنسا . وكانوا في ذلك الوقت أشرافاً يتصفون بالقوة ، يحبون الحرب ، ويحتقرون الآداب ، ويتباهون بلحاهم الطويلة ، وأثوابهم الحريرية ، وكثرة من يتزوجون من النساء . ولسنا نجد في التاريخ طبقة عليا لا تعباً بالمبادئ الأخلاقية كما لم تعبأ بها هذه الطبقة ؛ ولم يكن لاعتناقها المسيحية أثر فيها على الإطلاق ، فقد بدت المسيحية لهم كأنها مجرد وسيلة كثيرة النفقة للحكم وتهدة الشعب ؛ ولما « انتصرت البربرية وانتصر الدين » كانت البربرية صاحبة الكلمة العليا مدى خمسة قرون . وكان الاغتيال ، وقتل الآباء ، والإخوة ، والتعذيب ، وبتز الأعضاء ، والغدر ، والزنى ، ومضاجعة المحارم ؛ كان هذا كله هو الوسيلة التي يخففون بها ملل الحكم . فقد قيل إن كليريك أمر بأن يكوى كل مفصل من مفصلات سجيلا Sigila القوطى بالحديد الحمى ، وأن ينزع كل عضو من أعضائه من موضعه^(٥٤) ، وكان لكاريبرت Charibert عشيقتان أختان وإحداهما راهبة ، وجمع دجوبرت Dagobert (٦٢٨ — ٦٣٩) بين ثلاث زوجات في وقت واحد . وربما كان الإفراط الجنسي هو السبب فيما أصاب المروفتين من عقم منقطع النظر : ومن أمثلة هذا العقم أن واحداً لا أكثر من أبناء كلوفيس الأربعة وهو كلوتار . كان له أبناء ، وأن واحداً من أبناء كلوتار الأربعة كان له طفل . وكان الملوك يتزوجون في الخامسة عشرة من عمرهم ويفقدون قوتهم متى بلغوا سن الثلاثين ، ومات كثيرون منهم قبل الثامنة والعشرين^(٥٥) . ولم يحل عام ٦١٤ حتى كان بيت المروفتين قد استنفد جميع حيويته وتأهب لأن يخلى مكانه لغيره .

وفى نغمار هذه الفوضى لم يكد يكون للتعليم وجود ، فلم يحل عام ٦٠٠ حتى كانت معرفة القراءة والكتابة ترفاً لا يتمتع به إلا رجال الدين ، أما العلوم الطبيعية فقد انمحت أو كادت . وبقي الطب ، لأننا نسمع عن وجود أطباء فى حاشية الملوك ، أما بين الشعب فقد كان السحر والصلاة فى نظرهم خيراً من الدواء . وقد ندد جريجورى أسقف تور (٥٣٨ ؟ - ٥٩٤) بمن يستخدمون الأدوية بدل الصلوات فى علاج المرضى ، وقال : إن هذا إثم يعذبهم عليه الله . ولما مرض هو أرسل يدعو إليه طبيباً ، ولكنه سرعان ما صرفه لأنه لم ينفعه بشيء ، ثم شرب قدحا من الماء ممزوجاً بتراب جىء به من قبر القديس مارتن شفى على أثره شفاء تاماً (٥٦) . وكان جريجورى هذا أشهر كتاب النثر فى أيامه ، وكان يعرف كثيرين من الملوك المروفتين معرفة شخصية ، وكثيرا ما كانوا يستخدمونه فى بعثات لهم . وقد روى فى كتابه تاريخ الفرنجة قصة العصر المروفتى المتأخر بطريقة فجأة ، مضطربة قائمة على الهوى والخرافة ، ولكنه روى هذه القصة بأسلوب واضح ، وكانت حوادثها مما شاهدته بنفسه ، ولغته اللاتينية فاسدة ، قوية ، خالية من الالتواء . وهو يعتذر عن أغلاطه النحوية ، ويرجو ألا يعاقبه الله فى يوم الحساب على ما ارتكبه من إثم بسبب هذه الأخطاء (٥٧) . وهو يؤمن بالمعجزات وخوارق العادات ، ويتصورها تصور الطفل الذى لا يخالجه فيها أدنى ريب أو يؤمن بها إيمان الأسقف الحصيف الماكر اللطيف ويقول : وسنمزج فى قصتنا معجزات القديسين بمذابح الأمم (٥٨) . ثم يمضى فيؤكد أن الأفاعى سقطت من السماء فى عام ٥٨٧ ، وأن قرية قد اختفت فجأة بجميع مبانيها وسكانها (٥٩) . وهو يشهر بكل شيء فى أى إنسان لا يؤمن بالله أو يعمل ما يضر بالكنيسة ، ولكنه يقبل ما يرتكبه أبناء الكنيسة المؤمنون من أعمال وحشية ، وغدر ، وخيانة ، وفساد خلقى ، ولا يجد فى هذا ما تشمئز منه

نفسه . وهو صريح في تحيزه وعدم نزاهته ، ومن اليسير علينا أن نتغاضى عن بعض عيوبه ، والصورة الأخيرة التي لا تنطبع في ذهننا عنه هي أنه رجل ساذج محبوب .

وأصبحت آداب غالة بعده تغلب عليها الصبغة الدينية في موضوعاتها ، والصبغة البربرية في لغتها وأسلوبها إلا في حالة واحدة دون غيرها ، تلك هي كتابات فنانتيوس فرتناتوس *Vanantius Fortunatus* (حوالى ٥٣٠ - ٦١٠) البليغة . وقد ولد هذا الكاتب في إيطاليا ، وتعلم في رافنا ، ثم انتقل إلى غالة في الثلاثين من عمره ، وكتب بمدح أساقفتها وملكاتها ، وأحب رددجندا زوجة كلوتار الأول حياً عذرياً أفلاطونياً . ولما أنشأت هي ديراً صار فرتناتوس قسيساً ، ودخل في خدمتها ، وما زال يرقى في الدرجات الكهنوتية حتى أصبح أسقف پواتيه ، وكتب قصائد جميلة بمدح بها الأحرار ، والقديسين ، منها تسع وعشرون قصيدة في مدح جريجورى التورى ونحده ، ثم كتب ترجمة شعرية للقديس مارتن . وكان أحسن ما كتبه بعض ترانيم حلوة النغم منها واحدة تدعى *Pange lingua* أوحى إلى تومس أكوناس بقصيدة تشبهها في موضوعها وتعلو عليها في أسلوبها ، ومنها قصيدة أخرى تدعى *Vexilla regis* أصبحت هي الجزء الأخير من القداس الكاثوليكي . وقد برع في مزج الإحساس القوى بالشعر البليغ ، وإذا ما قرأنا أبياته الدائمة الجدة ، اللطيفة الأسلوب ، تبينا ما كان ينطوى عليه قلبه من رحمة ، وإخلاص ، وعواطف رقيقة وسط ما كان يتصف به عصر المروفتنجيين من وحشية وجرائم يرتكبها الملوك .

الفصل الثالث

أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين

٤٥٦ — ٧١١

سبق القول إن القوط الغربيين حكام غالة استردوا أسبانيا من الوندال في عام ٤٢٠ ، وعادوا بعدئذ إلى رومة ، ولكن رومة كانت عاجزة عن حماية أسبانيا ، ولهذا فإن السويبي Suevi خرجوا من معاقلمهم في التلال الواقعة في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة واجتاحوها كلها ، فانقض عليها القوط الغربيون مرة أخرى بقيادة ثيودريك الثاني (٤٥٦) وأوريك (٤٦٦) بعد أن عبروا جبال البرانس ، وفتحوا معظم أسبانيا واحتفظوا بالبلاد في هذه المرة وضموها إلى أملاكهم ، وحكمت أسبانيا من ذلك الوقت أسرة من القوط الغربيين وظلت على عرشها حتى جاءها المسلمون .

وأنشأت الملكية الجديدة ، في بلدة طيطة عاصمة فخمة ، وجمعت فيها حاشية موفورة الثراء . وكان أثاناجلد Athanagild (٥٦٣ — ٥٦٧) وليوفيجلد Leovigild (٥٦٨ — ٥٨٦) ملكين قويين ، هزما الغزاة الفرنجة في الشمال وجيوش بيزنطية في الجنوب ، وكانت ثروة أثاناجلد هي التي أكسبت ابنتيه ميزة فذة هي أنهما قتلتا وهما ملكتان للملكين من الفرنجة . وحدث في عام ٥٨٩ أن غير ريكارد Recared مذهبه ومذهب الكثرة الغالبة من القوط الغربيين في أسبانيا من الأريوسية إلى المسيحية الأصلية . ولعل سبب هذا التغير أنه قرأ من قبل تاريخ أوريك الثاني . ومن ذلك الحين أصبح الأساقفة أكبر المؤيدين للملكية وأقوى سلطة في الدولة ، فقد سيطروا بفضل تفوقهم في العلم ودقة النظام على

الأشراف الذين كانوا يجتمعون معهم في مجالس الحكم في طليطلة ؛ ومع أن سلطة الملك كانت سلطة مطلقة من الوجهة النظرية ، ومع أنه كان هو الذى يختار الأساقفة ، فإن هذه المجالس كانت هى التى تختاره ، وتأخذ عليه قبل أن يباشر الحكم الموائيق بشأن السياسة التى تريد منه أن يتبعها ، ووضع بـإرشاد رجال الدين طائفة من القوانين (٦٣٤ م) . كانت أوفى جميع شرائع البرابرة وأقلها تسامحاً . وقد أصلحت من شأن الإجراءات القضائية بأن مهدت إلى تقدير شهادة الشهود في تقدير أخلاق المتهمين بتل شهادات الأصدقاء ، وطبقت قوانين واحدة على الرومان والقوط الغربيين ، فوضعت بذلك مبدأ المساواة أمام القانون (٦٠) . ولكنها لم تأخذ بمبدأ حرية العبادة ، وحتمت على جميع السكان أن يعتنقوا المسيحية الصحيحة ، وأقرت اضطهاد يهود أسبانيا الذى دام طويلاً ، وارتكبت فيه أشد ضروب القسوة .

ونسى القوط الغربيون قبل أن ينتقضى قرن على فتحهم أسبانيا لغتهم الألمانية بتأثير نفوذ الكنيسة التى ظلت تستخدم اللغة اللاتينية فى مواعظها وطقوسها الدينية ، وأفسدوا اللاتينية المستعملة فى شبه الجزيرة بأن أدخلوا عليها قوة الرجولة والجمال النسوى اللذين تمتاز بهما اللغة الأسبانية الحاضرة ، وكانت المدارس الملحقة بالأديرة والأسقفيات هى التى تقوم بالتعليم ، وكان معظمه تعليماً كنسياً ، ولكنه كان يشمل شيئاً من دراسة الكتب القديمة ، وأنشئت مجامع علمية فى بقلارا Vaclara و طليطلة ، وسرقسطة ، وأشبيلية . وكان الشعر يلقي تشجيعاً كبيراً ، أما التمثيل فكان يقاوم لما فيه من فحش وبذاءة .

ولم يحفظ التاريخ من أسماء الأدباء فى أسبانيا القوطية إلا اسم إزدرور Isidore الأشبيلي (حوالى ٥٦٠ - ٦٤٦) . وتروى إحدى الأقاصيص للطريقة كيف هرب غلام أسباني من بيته غضباً من تأنيبه من أجل كسائه ، وأخذ يطوف بالبلاد حتى أنهكه التعب ، فجلس إلى جانب بئر . فاستلقت نظره شق عميق فى

حجر مجاور لحافة البئر . ومرت به في ذلك الوقت فتاة فقالت له إن هذا الشق من أثر احتكاك الحبل الذي ينزل الدلو في البئر ويرفعها . فلما سمعها إزدور قال في نفسه : « إذ كان في استطاعة هذا الحبل اللين بدأ به على العمل في كل يوم أن يشق الحجر ، فما من شك في أن المثابرة يمكن أن تغلب على بلاهة عقلى » . ثم عاد من أفوره إلى بيت أبيه وواصل الدرس حتى أصبح أسقف أشبيلية المتبحر في العلم^(٦١) . ولسنا نعلم إلا القليل عن حياته ، وكل ما نستطيع أن نقوله إنه وجد بين مشاغله الدينية الكثيرة ، التي كان يقوم بها بما يرضى ضميره ، متسعا من الوقت يكتب فيه ستة كتب . ولعله أراد أن يعين ذاكرته فجمع في خلال عدد كبير من السنين فترات مختلفة في جميع الموضوعات نقلها من كتب المؤلفين الوثنيين والمسيحيين واستحثه صديقه بروليو Broulio أسقف سرقسطة على أن ينشر هذه المختارات ، فأجابه إلى طلبه ، وحورها حتى أضحت من أقوى كتب العصور الوسطى أثراً وسماتها « عشرون كتاباً في الاشتقاقات والأصول » ويضمها الآن مجلد ضخيم يحتوى على ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير . وهو موسوعة علمية ولكنها غير مرتبة على الحروف الهجائية ؛ وتبحث على التوالي في المجموعة الثلاثية من العلوم القديمة وهي النحو ، والبلاغة ، والمنطق ؛ ثم في الحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك وهي المجموعة الرباعية عند الأقدمين ؛ ثم تبحث في الطب ، والقانون ، والتواريخ ، والدين ، والتشريع ، ووظائف الأعضاء ، وعلم الحيوان ، وعلم الكون ، والجغرافية الطبيعية ، والهندسة المعمارية ، والمساحة ، والتعدين ، والزراعة والحرب ، والألعاب الرياضية ، والسفن ، والملابس ، والأثاث ، والأدوات المنزلية ، ... وكلما انتقل المؤلف إلى موضوع من هذه الموضوعات عرف مصطلحاته الأساسية ، وبحث عن منشأها . مثال ذلك أنه يقول إن الإنسان يسمى باللاتينية (هو مو Homo) لأن الله قد خلقه من التراب (هومس Humus) ، والركبتان تسميان genus ، لأنهما يكونان مقابل الجدین (genae) في اللاتين^(٦٢) . وكان إزدور

عالمًا مجداً وإن لم يكن بالفرقة بين موضوعات درسه ؛ وكان واسع الاطلاع على اللغة اليونانية ، يعرف الكثير من كتابات لكريتيوس Lukretius (وهو الذى لا يذكر إلا فى العصور الوسطى) ، وقد حفظ لنا قطعاً مختارة من فقرات كثيرة من الآداب الوثنية لولاه لصاعت عن آخرها . وبحوثه خليط من الاشتقاق الغريب ، والمعجزات التى لا يقبلها عقل ، ومن تفسيرات مجازية خيالية للكتاب المقدس ؛ ومن العلوم الطبيعية والتاريخ حورت لكى تثبت مبادئ أخلاقية ، وأخطاء فى الحقائق يكفى القليل من الملاحظة لتصحيحها . وكتابه هذا أثر خالد يدل على ما كان فاشياً فى هذا العهد من جهالة .

ولا يكاد يبقى شيء من الفنون التى كانت فى أسبانيا فى عهد القوط الغربيين . ويلوح أن طليطلة ، وإيطالكا ، وقرطبة ، وغرناطة ، ومديرا وغيرها من المدن كانت تحتوى على كنائس ، وقصور ، ومبان عامة جميلة المنظر ، أقيمت على الطرز القديمة ، ولكنها ميزت عنها بالرموز المسيحية ، والنقوش البيزنطية^(٦٣) . ويقول المؤرخون المسلمون إن العرب الفاتحين وجدوا فى قصور طليطلة وكنيستها الكبيرة خمسة وعشرين تاجاً من الذهب المرصع بالجواهر ، وكتاباً مزخرفاً للتراثيل الدينية مكتوباً على ورقة من الذهب بمداد مصنوع من الباقوت المصهور ، وأقشة منسوجة بخيوط من الذهب والفضة ، ودروعاً ، وسيوفاً ، وخناجر م صعة بالجواهر ، ومزهريات مملوءة بها ، ومنضدة من الزمرد مطعمة بالفضة والذهب— وكانت هذه المنضدة إحدى الهدايا الكثيرة الغالية التى أهداها أغنياء الغربيين إلى كنيستهم التى تحميمهم وترد الأذى عنهم .

وظل استغلال الأقوياء والمهرة للبائسين والسدح يجرى مجراه فى عهد القوط الغربيين كما كان يجرى فى عهد سائر الحكومات القديمة . فكان الأمراء والأحبار يجتمعون فى حفلات دينية أو دنيوية فخمة ، ويضعون قواعد للتحليل والتحریم ، ويدبرون وسائل للإرهاب والرعب ليتغلبوا بذلك كله على مشاعر

الجمهير ويهدثوا أفكارهم . وتركزت الثروة في أيدي عدد قليل من الأفراد ، وكانت الثغرة الواسعة التي تفصل الأغنياء عن الفقراء ، والمسيحيين عن اليهود تقسم الأمة ثلاث دول مختلفة ؛ فلما أن جاء العرب لم يبال الفقراء واليهود بسقوط دولة ملكية وكنيسة لم تظهر شيئاً من الاهتمام بفقرهم وسامتهم كثيراً من أنواع الاضطهاد الديني .

ولما مات وئيزا Witiza ملك أسبانيا الضعيف في عام ٧٠٨ لم يقبل الأشراف أن يخلفه على العرش أحد من أبنائه ، بل اجلسوا عليه ردرىك (لزريق) Roderick ، فقرأ أبناء وئيزا إلى أفريقية ، واستغاثوا بزعماء المسلمين . وقام المسلمون ببضغ غارات تمهيدية على السواحل الأسبانية ، عرفوا بها أن أسبانيا منقسمة على نفسها ، وأنها تكاد تكون مجردة من وسائل الدفاع ، فجاءوا إليها في عام ٧١١ بقوة أكبر من قوتهم السابقة . والتقت جيوش طارق ولزريق في معركة على سواحل بحيرة يندا Janda في ولاية قادس ، انضمت فيها قوة من القوط إلى العرب ، واختفى لزريق من المعركة . وتقدم المسلمون المنتصرون إلى أشبيلية ، وقرطبة ، وطليطلة ؛ وفتحت كثير من المدائن الأسبانية أبوابها للغزاة . وأقام قائد العرب موسى ابن نصير في العاصمة الأسبانية (٧١٣) ، وأعلن أن أسبانيا أصبحت من ذلك الوقت ملكاً للمسلمين وللخليفة الأموي في دمشق .

الفصل الخامس

إيطاليا تحت حكم القوط الشرقيين ٤٩٣ - ٥٣٦

١ - ثيودريك

لما تصدعت أركان مملكة أتلا بعد وفاته في عام ٤٥٣ استعاد القوط الشرقيون استقلالهم ، وكان قد أخضعهم من قبل لحكمه . وكان البيزنطيون يرشونهم ليصدوا غيرهم من البرابرة الألمان نحو الغرب ، وكافثوهم على عملهم هذا بأن أقطعوهم ولاية بنونيا ، وأخذوا ثيودريك ابن ملكهم ثيودمير - ولم يكن قد جاوز السابعة من عمره - رهينة في أيديهم إلى القسطنطينية ليضمنوا بذلك ولاء القوط الشرقيين لهم . وقضى ثيودريك في بلاط إمبراطور القسطنطينية أحد عشر عاماً اكتسب فيها فطنة وذكاء ، وإن لم يتلق فيها تعليماً ؛ وحذق فنون الحرب والحكم ، ولكن يبدو أنه لم يتعلم قط الكتابة^(٦٤) ، وأعجب به الإمبراطور ليو الأول ، فلما مات ثيودمير (٤٧٣) ، اعترف ليو بثيودريك ملكاً على القوط الشرقيين .

ونخشي زيثون الذي خلف ليو على عرش الإمبراطورية الشرقية أن يسبب ثيودريك المتاعب لبيزنطية ، فأشار عليه أن يفتح إيطاليا . وكان أدوكر قد اعترف اسماً بخضوعه للإمبراطور الشرقى ولكنه كان يتجاهله فعلاً ، وكان زينون يأمل أن يعيد ثيودريك إيطاليا إلى حكم بيزنطية ؛ وسواء تم هذا أو لم يتم فإن زعيمى القبائل الألمانية الخطرة سيسلى أحدهما الآخر ويتركان زينون يدرس الدين على مهل . وأعجب ثيودريك بهذه الفكرة - ويقول بعضهم إنه هو صاحبها . وقاد ثيودريك القوط الشرقيين بوصفه وزير زينون ، وكان تحت لوائه عشرون ألف محارب ،

وعبر بهم جبال الألب (٤٨٨) . وعاون أساقفة إيطاليا القائد الأريوسى وإن كانوا هم من أتباع الدين الصحيح لأنهم كانوا يكرهون أريوسية أدوكر ، ولأن ثيودريك فى رأيهم يمثل إمبراطوراً يكاد يكون من أتباع الدين القويم . وبفضل هذه المساعدة استطاع ثيودريك أن يحطم مقاومة أدوكر الشديدة بعد حرب طاحنة دامت خمس سنين ، وأقنعه على أن يعقد معه صلحاً ينزل فيها كلاهما عن مطالبه . ثم دعا أدوكر وابنه إلى الطعام معه فى رافنا ، وبعد أن أكرم وفادتهما قتلهما بيده (٤٩٣) . وبهذا الغدر بدأ عهد من أكثر العهود استنارة فى التاريخ .

وكانت بضع حملات عسكرية كافية لأن تخضع لحكم ثيودريك غربى البلقان ، وجنوبى إيطاليا ، وصقلية . وظل ثيودريك خاضعاً خضوعاً اسمياً إلى بيزنطية ، وضرب النقود باسم الإمبراطور ، وكان يكتب الرسائل إلى مجلس الشيوخ ، الذى ظل يعقد جلساته فى رومة ، بما يليق به من التوقير واتخذ لنفسه لقب ركس rex أى الملك . وكان هذا اللفظ فى الزمن القديم من أبغض الألفاظ إلى الرومان ، ولكنه كان وقتئذ لقباً عاماً لحكام الأقاليم التى تعترف بسيادة بيزنطية عليها . وقبل قوانين الإمبراطورية الغربية التى زالت من الوجود ونظمها ، وحرص أشد الحرص على الدفاع عن آثارها وأشكالها ، ووهب كل ما أوتى من جد ونشاط لإعادة الحكم المنظم إلى البلاد والرخاء الاقتصادى إلى الشعب الذى أخضعه لحكمه . وقصر عمل القوط الذين جاءوا معه على وظائف الشرطة والخدمة العسكرية ، وسكن تدمرهم بما كان يؤديه لهم من الأجور العالية . أما مناصب الإدارة والقضاء فقد ظلت فى أيدي الرومان ، وترك ثلثى أرض إيطاليا الزراعية للرومان أنفسهم ووزع الثلث الباقى على القوط ، ومع هذا فقد بقيت بعض الأراضى الصالحة للزراعة فى إيطاليا من غير أن تفلح . وافتدى ثيودريك الرومان الذين وقعوا فى أسر الأمم الأخرى ، وأسكنهم إيطاليا ، وأقطعهم فيها أرضاً يزرعونها ،

وجتفد المستنقعات اليندية ، وأعادها أرضاً صالحة للزراعة . غير مضررة بالصحة . وكان ثيودريك يؤمن بضرورة تنظيم الحالة الاقتصادية وإخضاعها للسيطرة الحكومة ، فأصدر « مرسوماً خاصاً بالأثمان التي يجب أن تكون في راقنا » . ولبسنا نعرف كيف كانت هذه الأثمان ، وكل ما يقال لنا هو أن نفقات الطعام في حكم ثيودريك كانت أقل مما كانت عليه قبل بمقدار ثائها . وأنقص عدد موظفي الحكومة ومرتباتهم ، ومنع الإعانات التي كانت تعطى للكنيسة ، وخفض الضرائب . ومع هذا فقد كانت إيرادات الدولة تكفي لإصلاح كثير من الضرر الذي ألحقه الغزاة برومة وإيطاليا ، ولإقامة قصر متواضع في راقنا وكنيسة سنتا أبليناري *Santi Appollinare* وسان فيتال *San Vitale* . وفي أيامه استعادت فيرونا ، وپافيا ، وناپلي ، واسپوليتو *Spoleto* وغيرها من مدن إيطاليا ما كان بها في أيام عزها من مبان فخمة . وبسط ثيودريك حمايته على الكنائس التابعة للمذهب الأصيل من حيث أملاكها وحرية العبادة فيها وإن كان هو من أتباع المذهب الأريوسي ؛ وصاغ وزيره كسيودوروس *Cassiodorus* الكاثوليكي المذهب سياسة الحرية الدينية في تلك العبارة الخالدة : « ليس في مقدورنا أن نسيطر على الدين ، لأننا لا نستطيع أن نرغم أحداً على أن يؤمن بما لا يريد أن يؤمن به » (*) (٦٦) . وكتب مؤرخ بيزنطي يدعى بروكپيوس *Procopius* من مؤرخي الجيل التالي يثنى على الملك « البربري » ثناء ليس فيه شيء من المحاباة فقال :

لقد كان ثيودور شديد الحرص على مراعاة العدالة . . . وبلغ أعلى درجات الحكمة والرجولة . . . ومع أنه كان من الناحية الاسمية مقتصباً للملك ، فقد كان في واقع الأمر إمبراطوراً بحق ، لا يقل في ذلك عن أي إمبراطور ممن ميزوا أنفسهم في هذا المنصب الخطير منذ بداية التاريخ . وكان القوط والرومان جميعاً

(*) يذكرنا هذا بقول الله عز وجل يخاطب نبيه الكريم : « فذكر إنما أنت مذكر »
الست عليهم بمسيطر . (المترجم)

يحبونه أعظم الحب . . . ولم يكن كل ما تركه قبل وفاته هو الرعب الذى قدّمه فى قلوب أعدائه ، بل إنه ترك فوق ذلك فى قلوب رعاياه شعوراً قوياً بالخسارة والحرمان^(٦٧) .

٢ - بوثيوس

وفى هذه البيئة التى عمها السلم والأمن بلغ الأدب اللاتينى آخر مرحلة من مراحل الرقى والازدهار . ومن أشهر أدباء ذلك العصر فلافيوس ماجنوس أورليوس كسيودورس *Flavius Magnus Aurelius Cassiodorus* (٤٨٠؟ — ٥٧٣) الذى كان أمين سر أدوكر وثيودريك . وقد ألّف ، بناء على إشارة ثيودريك ، تاريخ القوط^(٦٨) . وكان يهدف إلى أن يظهر للرومان المنشأ أن للقوط أيضاً أبناء نبلاء وأعمالاً مجيدة . ولعل أكثر من هذا موضوعية تاريخه الإخبارى الذى أرّخ فيه العالم كله من آدم إلى ثيودريك ، ونشر فى أواخر حياته السياسية مجموعة من رسائله وأوراقه المتعلقة بشئون الدولة ، بعضها سخيف بعض السخف ، وبعضها كثير المبالغة والتباهى ، وبعضها يكشف عن مستوى أخلاقى رفيع ومقدرة إدارية عظيمة كان يتصف بهما الوزير ومليكه . ولما شهد فى عام ٥٤٠ اضمحلال الحكومة التى خدمها ثم سقوطها اعتزل منصبه وآوى إلى ضيعته فى اسكويلاس *Squillace* بكالبريا *Calabria* ، وأنشأ هناك ديرين ، وعاش فيها عيشة وسطاً بين عيشة الرهبان والعظماء حتى وافته المنية فى سن الثالثة والتسعين . وقد علم زملاءه الرهبان أن ينسخوا المخطوطات ، الوثنية منها والمسيحية ، وأعد لهذا العمل حجرة خاصة . وحذت بعض المعاهد الدينية الأخرى حذوه ، ولهذا فإن كثيراً مما لدينا من الكتّوز الحليّة المنقولة عن الأدب القديم هو ثمرة من ثمار أعمال النسخ التى تمت فى الأديرة ، والتى بدأها كسيودورس وزملاؤه الرهبان . وألّف فى أواخر سنى حياته كتاباً مدرسياً سماه : *منهجى*

الدين والدراسات غير الدينية دافع فيه دفاعاً جريئاً عن قراءة الآداب الوثنية ،
واتبع فيه منهج الدراسة المدرسي الذي وضعه مريانوس كاپلا Marianus Capella
والذي قسم فيه العلوم إلى مجموعتين : المجموعة الثلاثية والمجموعة الرباعية ،
وهو التقسيم الذي ظل متبعاً في التعليم طوال العصور الوسطى .

وكانت حياة أنيسوس مانليوس سقريتوس بوثيوس Anicius Manlius Severinus Boethius (٤٧٥ ؟ — ٥٣٤) شبيهة بحياة كسيودورس في كل
شيء إلا في قصر مدينتها . فكلاهما من أبناء الأسر الرومانية الغنية ، وكلاهما
كان وزيراً لثيودريك ، وكلاهما بذل جهداً كبيراً لخدمة الشجرة التي تفصل
الوثنية عن المسيحية ، وكتب كتاباً مملأً ظلت ألف عام تقرأ وتعدّ من الذخائر
القيمة . وكان والد بوثيوس قنصلاً في عام ٤٨٣ ، وكان والد زوجته سيماخوس
الأصغر من نسل سيماخوس الذي دافع عن مذبحة الحرية . وتعلّم أحسن تعليم
تستطيع رومة أن تقدمه لأبنائها ، ثم قضى بعدئذ ثمانية عشر عاماً في
مدارس أثينة عاد بعدها إلى قصوره الريفية في إيطاليا ، وانهماك في
الدرس ، واعتزم أن ينقذ عناصر الثقافة اليونانية واللاتينية القديمة التي رآها
آخذة في الزوال ، فوهب وقته كله — وهو أكبر ما يعتر به العالم المجد —
في تلخيص كتب إقليدس في الهندسة النظرية ونقوماخوس في الحساب ،
وأرخميديز في علم الحيل (الميكانيكا) وبطليموس في الفلك . . . وكانت
ترجمته لرسالة أرسطو في المنطق (Organon) وكتاب برفيري Porhyry
المعروف باسم مقدمة لقوليات أرسطو هي التي استمد منها علم المنطق في السبعة
القرون التالية أهم نصوصه وأفكاره ، وهي التي مهدت السبيل للجدل الطويل
بين الواقعية والاعتبارية . وحاول بوثيوس أن يكتب أيضاً في اللاهوت :
فألّف رسالة في التثليث دافع فيها عن النظرية المسيحية السائدة ، ووضع
المبدأ القائل إنه إذا اختلف الدين والعقل وجب اتباع الدين . وليس في

هذه المؤلفات كلها ما هو خليق بالقراءة في هذه الأيام ، ولكننا مهما
أطعننا في وصف آثارها في التفكير في العصور الوسطى فلنا لا يمكن أن نهم
بالمبالغة في هذا الوصف .

وأوحى إليه تقاليد أسرته أن يتنحى عن هذه الأعمال المغلقة على الأفهام ،
وأن ينزل إلى خضم الحياة السياسية . وارتقى في هذه الحياة رقباً سريعاً ،
فكان قنصلاً ، ثم وزيراً ، ثم سيد المناصب — أى رئيس الوزراء (٥٢٢) .
وامتاز في هذه المناصب كلها بحبه للإنسانية وبفصاحته ، وكان الناس
يشبهونه بدمستين وشيشرون . لكن العظمة تخلق للعظيم أعداء ، فقد ساء
الموظفين القوط في بلاط الملك ما رأوه من عطفه على السكان الرومان
والكاثوليك ، وأثاروا شكوك الملوك فيه ، وكان ثيودريك وقتئذ في التاسعة
والستين من عمره ، ضعيف الجسم والعقل لا يدرى كيف ينقل إلى خليفته
حكماً مستقراً تتولاه أسرة قوطية أريوسية على أمة تسعة أعشارها من الرومان ،
وممانية أعشارها كاثوليك . وكان لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد
بأن الكنيسة والأشراف يناصبانه العداء ، وأنهما يترقبان موته بفارغ الصبر .
وكان مما قوى هذه الشكوك أن جستنيان نائب الإمبراطور في بيزنطية أصدر
مرسوماً يقضى بنى جميع المائنين من الإمبراطورية ، وتحريم جميع
المناصب المدنية والعسكرية على جميع الوثنيين والمبارقين — بما فيهم
جميع الأريوسيين ما عدا القوط . وظن ثيودريك أن هذا الاستثناء لا يقصد
به إلا إضعاف حجته ، وأن جستنيان سيرجع فيه عند أول فرصة ، ورأى
أن هذا المرسوم جزاء غير عادل للحريات التي منحها أتباع العقيدة الكنسية
الأصلية الغرب . ألم يرفع إلى أعلى مناصب الدولة بوثنيوس الذي كتب
رسالة عن التثليث يعارض فيها العقيدة الأريوسية ؟ وفي تلك السنة نفسها
سنة ٥٢٣ أهدى إلى كنيسة القديس بطرس مائتين فخمتمين من الفضة
المصمتة دليلاً على محاملته للبابا . لكنه مع هذا قد أغضب طائفة كبيرة من

السكان بحمايته لليهود ، ذلك أنه حين دمر الغوغاء معابدهم في ميلان ،
وجنوى ، ورومة أعاد بناءها من الأموال العامة ؛

وفي هذه الظروف ترمى إلى ثيودريك أن مجلس الشيوخ يأتمر به
ليخلعه . وقيل له إن زعيم المؤامرة هو ألبينوس Albinus رئيس مجلس
الشيوخ وصديق بوثيوس . فما كان من العالم الكريم إلا أن أسرع إلى ثيودريك
وأكد له براءة ألبينوس وقال له : « إذا كان ألبينوس مذنباً فلانى أنا ومجلس
الشيوخ كله لا تقل عنه جرماً » . وقام ثلاثة رجال ذوى سمعة سيئة يتهمون
بوثيوس بالاشتراك في المؤامرة ، وقدموا وثيقة عليها توقيع بوثيوس ،
موجهة إلى إمبراطور بيزنطية تدعوه إلى فتح إيطاليا . وأنكر بوثيوس هذه
التهمة كلها ، وقال إن الوثيقة مزورة ، لكنه اعترف فيما بعد بأنه :
« لو كان هناك أمل في أن يوصلنا ذلك إلى الحرية لما ترددت فيه ، ولو
أننى عرفت أن هناك مؤامرة على الملك . . . لما عرفتم نياها منى » (٧٠) .
فلما قال هذا قبض عليه (٥٢٣) .

وسعى ثيودريك لأن يتفاهم مع الإمبراطور ، وكتب إلى جستين رسالة
خليقة بالملك الفيلسوف قال فيها :

« إن من يدعى لنفسه حق السيطرة على الضمائر يغتصب حق الله وحده
على عباده ، أما سلطان الملوك فهو بطبيعة الأشياء مقصور على الحكومة
السياسية ، وليس من حقهم أن يعاقبوا إنساناً إلا إذا عكروا صفو السلم العام .
وليس ثمة أشد خطورة من مروق الملك الذى يفصل نفسه عن قسم من
رعاياه لأنهم لا يؤمنون بما يؤمن هو به » (٧١) .

ورد عليه جستين بقوله : إن من حقه أن يحرم من مناصب الدولة
من لا يثق بولائهم له ، وإن نظام المجتمع يتطلب وحدة العقيدة . وطلب
الأريوسيون في الشرق إلى ثيودريك أن يحميهم ، فطلب إلى البابا يوحنا
الأول أن يسافر إلى القسطنطينية ليتوسط لدى الإمبراطور في أمر الأريوسيين

المفصولين من وظائفهم . ورد عليه البابا بأن هذه رسالة لا تليق برجل أخذ على نفسه أن يقضى على الزيف والضلال ، ولكن ثيودريك أصر على طلبه . وقوبل يوحنا في القسطنطينية بحفاوة بالغة ، ثم عاد صفر اليدين ، فاتهمه ثيودريك بالخيانة ، وألقاه في السجن ، حيث مات بعد سنة واحدة (٧٢) .

وفي هذه الأثناء كان ألبينوس وبوثيوس قد حوكما أمام الملك وأدينوا وحكم عليهما بالإعدام . وروع هذا الحكم مجلس الشيوخ فأصدر مراسيم يقرأ فيها منهما ويصادر أملاكهما ، ويقر العقوبة التي حكم بها عليهما . وقام سيناخورس يدافع عن زوج ابنته فاعتقل . وألف بوثيوس وهو في السجن كتاباً من أشهر ما ألف من الكتب في العصور الوسطى وهو كتاب *Salvatio Philosophiae* ، وجمع فيه بين النثر العادي والشعر البديع الساحر ، لم يذرف فيه دمه ، بل كان كل ما يحتويه هو تسليم كتسليم الرواقين بتصرفات الأقدار التي نخبط خبط عشواء ، ومحاولة صادقة للتوفيق بين مصائب الأبرار وما يتصف به المولى سبحانه وتعالى من حب للخير ، وقدرة على كل شيء ، وعلم سابق بما يقع في الكون من أحداث . ويذكر بوثيوس نفسه بجميع النعم التي توالى عليه في حياته — من ثراء وحسن نبيل ، وزوجة طاهرة وأبناء بررة . ويتذكر المناصب العليا التي شغلها ، والساعة العظيمة التي هز فيها بفصاحة لسانه مشاعر أعضاء مجلس الشيوخ حين كان ولداه القنصلان هما رئيسيه . ويقول لنفسه إن هذه السعادة لا يمكن أن تدوم إلى أبد الدهر ، بل لابد أن توجه الأقدار بين الفينة والفينة لمن ينعم بها ضربة تطهره وتركبه . وتلك السعادة العظيمة خليقة بأن تذهب تلك الجائحة القاصمة (٧٣) . ومع هذا فإن ذكرى تلك السعادة الماضية من شأنها أن تزيد من حدة الألم . وفي ذلك يقول بوثيوس في بيت من الشعر يردد دانتى صدهاء على لسان فرنسكا Francesca : « إن أعظم ما يشقى به

الإنسان حين تصرعه الشدائد هو ذكرى ما كان ينعم . من سعادة» (٧٤)
وهو يسأل السيد الفلاسفة — بعد أن ينزلها منزلة العقلاء كما كان يفعل أهل
العصور الوسطى — عن موضع الفلسفة الحققة ، ويتبين أنها لا تكون في المال
أو المجد ، ولا في اللذة أو السلطان ؛ ومن ثم يرى أنه لا توجد سعادة حققة
أو دائمة إلا في الاتصال بالله ، ويقول إن « النعمة الحققة هي الاتصال
بالله » (٧٥) . ومن أغرب الأشياء أنه ليس في الكتاب كله سطر واحد يشير
إلى فساد الأخلاق الشخصية ، وليس فيه أية إشارة إلى المسيحية أو أية عقيدة
من عقائدها ، ولا سطر واحد غير مخلق بأن يكتبه زينون ، أو أبيقور ،
أو أورليوس . ومن ثم فإن آخر كتاب في الفلسفة الوثنية قد كتبه مسيحي
تذكر في ساعة موته أثينة لاجلجوتا Golgotha .

ودخل عليه الجلاد في اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر من عام
٥٢٤ ، ثم ربطوا عنقه بحبل وشدوه حتى جنحت مقاناه وخرجتا من
وقبهما ، ثم انهارا عليه ضرباً بالعصى الغليظة حتى قضى نحبه . وقتل
سيماخوس بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت . ويقول بروكبيوس (٧٦) إن
ثيودريك بكى لما ارتكبه من ظلم في حق بوثيوس وسيماخوس ، وفي
عام ٥٢٦ لحق ضحيته إلى القبر ..

ولم تبق مملكته طويلاً بعد موته ، وكان قبل وفاته قد اختار حفيده أثلريك
Athalric ليخلفه على العرش ؛ ولم يكن حفيده هذا قد تجاوز العاشرة من عمره
ولذلك حكمت أمه أمالاسنثا Amalasuntha ، وكانت امرأة نالت قسطاً كبيراً
من التعليم والثقيف ، وكانت صديقة لكسيدورس أو لعلها كانت تلميذة له ،
فلما شرعت تحكم البلاد باسم ولدها دخل في خدمتها كما كان من قبل في خدمة
أبيها ؛ ولكنها كانت تميل كل الميل إلى الأساليب الرومانية ، فأغضبت بذلك
رعاياها القوط ، ولم يكونوا راضين عن المراسم اليونانية واللاتينية القديمة التي

كانت تضعف بها ، كما يرون ، ملكهم الصغير . لهذا أسلمت ابنها إلى
مربين من القوط ، وأطلق الصبي العنان لشهواته الجنسية ، ومات في
الثامنة عشرة من عمره . وأجلست أمالاسنثا ابن عمها ثيوداهاد Theodahad
معها على العرش بعد أن أخذت عليه المواثيق بأن يترك لها شئون الحكم .
ولكنه لم يلبث أن خلعها وألقاها في السجن ، فطلبت إلى جستنيان ، الذي
أصبح وقتئذ إمبراطور الدولة البيزنطية ، أن يخف لمعاونتها ، فجاءها
بلساريوس Belisarius .

الباب الخامس

چستنيان

٥٢٧ - ٥٦٥

الفصل الأول

الإمبراطور

توفي أركاديوس في عام ٤٠٨ وخلفه ابنه ثيودوسيوس الثاني ، إمبراطوراً على الشرق ولما يتجاوز السابعة من العمر . وقامت بلشيريا Pulcheria ، وكانت تكبره بعامين ، بتربيته ، وكانت طوال المدة التي أشرفت فيها على تربيته تظهر من الجزع والإشفاق عليه ما جعله غير أهل للحكم ، ولهذا ترك شئون الدولة لرئيس الحرس والمجلس الشيوخ ، وانهمك هو في نسخ المخطوطات القديمة وتزيينها ، ويبدو أنه لم يقرأ قط كتاب القوانين الذي خلد اسمه . وفي عام ٤١٤ أصبحت بلشيريا وصية على العرش وهي في السادسة عشرة من عمرها ، وظلت تصرف شئون الإمبراطورية ثلاثاً وثلاثين سنة ، ونذرت هي وأختها أنفسهن بأن يظللن عذارى . ويبدو أنهن قد أوفين بالندر ، فقد كن يلبسن ملابس بسيطة تنم عن الزهد والتقشف ، ويؤلفن وينشدن الترانيم الدينية ، ويصلين ، وينشئن المستشفيات ، والكنائس ، والأديرة ، ويغدقن عليها العطايا . واستحال القصر ديراً ، وحرم دخوله إلا على النساء وعدد قليل من رجال الدين . وفي وسط هذه المظاهر الدينية حكمت بلشيريا ، وبودسيا زوجة أخيها ، ووزراؤهما ، البلاد حكماً صالحاً ، وهب الإمبراطورية الشرقية في خلال نيابتهما عن ثيودوسيوس التي

دامت اثنتين وأربعين سنة هدوءاً لم تعهده من زمن بعيد ، بينا كانت الفوضى ضاربة أطنابها في الغرب . وكان أهم حوادث ذلك العهد التي لم يمح ذكراها من صفحات التاريخ نشر شرائع ثيودوسيوس (٤٣٨) . فقد عهد في عام ٤٢٩ إلى طائفة من فقهاء القانون بأن يجمعوا كل ما سن في الإمبراطورية من قوانين منذ جلس قسطنطين على العرش ؛ ونفذت الشرائع الجديدة في الشرق والغرب على السواء ، وظلت هي الشرائع المعمول بها في الإمبراطورية حتى نشرت شرائع جستنيان التي كانت أعظم منها وأوسع .

وحكم الإمبراطورية الشرقية بين ثيودوسيوس الثاني وجستنيان الأول حكام كثيرون ، كان الناس يلهجون بذكرهم في أيامهم ، أما الآن فلا يكاد يعرف عنهم أكثر من أسمائهم . إن سير العطاء كلها لتذكرنا بأن الخلود قصير الأجل ! وحسبنا أن نذكر من هؤلاء الحكام ليو الأول (٤٥٧ - ٤٧٤) الذي أرسل لمحاربة جيسريك (٤٦٧) أكبر أسطول حشدته حكومة رومانية ؛ ولكن هذا الأسطول هزم ودمر . وأحدث زينون الإصوري Zenothe Isaurian زوج ابنته شقاً خطراً بين الكنيستين اليونانية واللاتينية بسبب رغبته في تهديته ثائرة اليعقوبيين ، وذلك حين قرر في رسالته « التوحيدية » المعروفة باسم الهنوتيكون Henoticon أن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة ، وكان أناستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨) رجلاً قديراً ، شجاعاً ، محباً للخير ؛ دعم مالية الدولة بإدارته الاقتصادية الحكيمة ، وخفض الضرائب ، وألغى صراع الآدميين مع الوحوش في الحفلات والألعاب ، وجعل القسطنطينية أمان من عقاب البحر بإنشاء « الأسوار الطويلة » ، التي كانت تمتد أربعين ميلاً من بحر مرمرية إلى البحر الأسود ، وأنفق الكثير من أموال الدولة في غير هذه من الأعمال العامة الكثيرة ، وترك في خزانها ٣٢٠,٠٠٠ رطل من الذهب (٩٠٠,٠٠٠ رطل أمريكي) هي التي مهدت السبيل لفتوح جستنيان . لكن الشعب لم يعجبه اقتصاده ومبولة

اليقوبية ، فحاصر الغوغاء قصره ، وقتلوا ثلاثة من أعوانه . ثم أشرف عليهم تعلوه مهابة الشيخوخة التي قاربت الثمانين ، وعرض عليهم أن ينزل عن العرش إذا اتفق الشعب على من يختاره خليفة له . وكان هذا شرطاً مستحيل التنفيذ ، انتهى الأمر بعده بأن طلبت إليه الجماهير الثائرة أن يحتفظ بالتاج . ولما توفي بعد قليل من ذلك الوقت اغتصب الملك جستين ، وهو شيخ أمى (٥١٨ — ٥٢٧) ، يحب الراحة التي يميل إليها ابن السبعين ، ولذلك ترك حكم الإمبراطورية إلى جستينان نائبه وابن أخيه .

ولم يكن هذا الاختيار ليروق فيما بعد ، ومن يوم أن ولد جستينان نفسه ، في عين بركيوس مؤرخه وعدوه . ذلك بأن الإمبراطور قد ولد في عام ٤٨٣ من أبوين مزارعين من أصل إليري — أو لعله صقلبي^(١) — يقمان بالقرب من سرديكا Sardica وهي مدينة صوفيا الحالية . وجاء به عمه جستين إلى القسطنطينية ورباه تربية صالحة . ولما أصبح جستينان ضابطاً في الجيش ولبت تسع سنين ياوراً ومساعداً لجستين ، أظهر في عمله براعة عظيمة . ولما مات عمه (٥٢٧) خلفه على عرش الإمبراطورية ، وكان وقتئذ في الخامسة والأربعين من عمره ، متوسط القامة والبنية ، حليق الذقن ، متورد الوجه ، متجعد الشعر ، رقيق الحاشية ، تعلو ثغره ابتسامة تكنى لأن تخفي وراءها ما لا يحصى من الأغراض ، وكان متقشفاً في طعامه وشرا به تقشف الزهاد ، لا يأكل إلا قليلاً ، ويعيش معظم أيامه على الخضر^(٢) . وكثيراً ما كان يصوم حتى تكاد تخور قواه . وكان في أثناء صيامه لا ينقطع عما اعتاده من الاستيقاظ مبكراً ، وتصريف شؤون الدولة من مطلع الفجر إلى الظهر ، وإلى غسق الليل ، وكثيراً ما كان يظن أعوانه أنه قد آوى إلى مضجعه ، بينما كان هو منهمكاً في الدرس ، يبذل جهده ليكون موسيقياً ومهندساً معمارياً ، وشاعراً ومشرعاً ، وفقهاً في الدين وفيلسوفاً ، وإمبراطوراً مجيد نصريف شؤون الإمبراطورية . ولكنه رغم هذا كله لم يتخل عن خرافات

عصره . وكان ذا عقل تشيط على الدوام ، عظيم الإلمام بالشئون الكبرى والتفاصيل الصغرى . ولم يكن قوى الجسم أو شجاعاً ، وقد حدثه نفسه بالتخلي عن الملك في أثناء المتاعب التي قامت في بداية حكمه ، ولم ينزل قط إلى الميدان في حروبه الكثيرة . ولعل من عيوبه الناشئة من دماثة خلقه ورقة طبعه ، أن كان من السهل على أصدقائه أن يؤثروا فيه ، ومن أجل هذا كان كثيراً ما يتقلب في سياسته ، وينحضع في أحكامه لزوجته . وقد خص بروكبيوس جستنيان بمجلد كامل من تاريخه ، يصفه بأنه « عديم الإخلاص ، مخادع ، منافق ، يخفى عن الناس غضبه ، يظهر غير ما يبطن ، جاذق ، قادر كل المقدرة على التظاهر بالرأى الذى يدعى أنه يعتنقه ، بل إنه يستطيع في كثير من الأحيان أن يذرف الدمع من عينيه . . . إذا اقتضت الظروف ذلك »^(٣) . وغير أن هذا كله يصح أن يكون وصفاً للدبلوماسى القدير . ويواصل بروكبيوس وصفه فيقول : « وكان صديقاً متقلباً في صداقته ، عدواً إذا عقد هدنة لا يحافظ على عهده ، حريصاً كل الحرص على الاغتيال والنهب » . ويلوح أنه كان يتصف بهذا كله في بعض الأوقات ، ولكنه كان يستطيع أن يكون كريماً رحماً . من ذلك أن قائداً يدعى پروبوس Probus قد اتهم بسبه ، فجىء به ليحاكم بتهمة الخيانة ، ولما عرض التقرير الذى وضع عن محاكمته على جستنيان قام من مقعده وأرسل رسالة إلى پروبوس يقول فيها : « إني أغفر لك ما ارتكبته من ذنب في حقى ، وأدعو الله أيضاً أن يسامحك »^(٤) . وكان يقبل النقد الصريح ولا يغضب منه « وكان هذا الرجل الظالم » ، الذى رزى بمؤرخه « أسهل منا لا من أى إنسان آخر في العالم ، وكان أحقر الناس في الدولة ، ومن لا شأن لهم فيها على الإطلاق ، يستطيعون كلما شاءوا أن يأتوا إليه ليتحدثوا معه »^(٥) .

ومع هذا فقد عمل على أن يجعل ما كان يقام في بلاط الإمبراطور من مراسم وحفلات غاية في الأبهة والفخامة ، حتى فاقت ما كان يحدث منها في أيام دقلديانوس .

وقسطنطين . وكان كناپليون يعوزه التأييد الذى يناله المليك الشرعى ؛ وذلك لأنه ورث الملك من مغتصب له . ولم يكن مهيباً فى مظهره أو منشئه ؛ ومن أجل هذا عمد إلى طقوس ومراسم تبعث الرعب فى القلوب كلما ظهر أمام الجماهير أو السفراء الأجانب . ولهذا السبب عينه شجاع فكرة الملكية المقدسة ، واستخدم لفظ مقرر فى وصف شخصه ومملكه ؛ وكان يطلب إلى من يمثلون أمامه أن يركعوا ويقبلوا أطراف ثوبه الأرجوانى ، أو أصابع قدميه من فوق حذاءيه(*) . وعمل على أن يعمده ويتوجه بطريق القسطنطينية ، ولبس قلادة من اللؤلؤ . وقصارى القول أنه بما من حكومة قد عملت ما عملته الحكومة البيزنطية لتتال إجلال الشعب لها عن طريق المراسم الفخمة . ولقد كان لهذه السياسة أثرها إلى حد كبير ؛ ولسنا نذكر أنه قد حدثت انقلابات كثيرة فى تاريخ بيزنطية ولكنها كانت فى معظم الأحوال انقلابات مفاجئة قام بها موظفو القصر ، لأن الحاشية نفسها لم تكن ترهبها ما وضعته لنفسها من مراسم وطقوس .

وكانت أكبر فتنة قامت فى عهد جستنيان هى التى حدثت فى بدايته (٥٣٢) وكادت أن تقضى على حياته . وكان سببها أن الخضر والزرقي - وهم الحزبان اللذان انقسم إليهما أهل القسطنطينية حسب الثياب التى كان يلبسها راكبو خيول السباق المحبون - قد بلغت الخصومة بينهم حد العنف ، حتى أصبحت شوارع العاصمة غير مأمونة ، وحتى اضطر الأغنياء إلى أن يرتدوا ملابس الفقراء المساكين لينجوا بذلك من طعنات الخناجر فى الليل . وانقضت الحكومة آخر الأمر على الطائفتين المتنازعتين ، وقبضت على عدد كبير من زعمائهما ، فما كان من هذين الحزبين إلا أن ضما صفوفهما وقاما بفتنة مسلحة ضد الحكومة ، وأكبر

(*) لقد كان الرداء الأرجوانى من زمن بعيد الثوب الخاص الذى يميز الإمبراطور من غيره من رجال الدولة . وكانت عبارة « ارتداء الثياب الأرجوانية » فى ذلك الوقت مرادفة للجلوس على العرش .

لظن أن بعض الشيوخ قد اشتركوا في هذه الفتنة ؛ وحاول رعايا المدن أن يقلبوا ثورة عارمة ، فهاجموا على السجناء ، وأطلقوا سراح المسجونين ، وقتلوا عدداً من رجال الشرطة والموظفين ؛ وأشعلت النار في بعض المباني ، وحرقت كنيسة أياصوفيا وأجزاء من قصر الإمبراطور . وهتفت الجماهير قائلة « Niha » أي النصر — وبذلك أطلق هذا الاسم على تلك الفتنة . وأفقد هذا النصر الشعب وعيه ، فطالب بإبعاد اثنين من أعضاء مجلس جستنيان ، لم يكن يحبهما ، ولعل سبب ذلك أنهما كانا من ظلمة الحكام ؛ ووافق الإمبراطور على هذا الطلب ، فازداد العصاة جرأة وأقنعوا هيباشيوس Hypatius ، أحد الشيوخ ، بأن يقبل التاج ؛ فقبله على الرغم من معارضة زوجته وتوسلها إليه ألا يقبله ، وخرج بين هتاف الجماهير ليجلس على مقعد الإمبراطور في الألعاب التي كانت قائمة على قدم وساق في الميدان الكبير . واختبأ جستنيان أثناء ذلك في القصر ، وأخذ يدبر أمر الهرب . ولكن الإمبراطورة ثيودورا أقنعتة بالعدول عن هذه الفكرة ، وأشارت عليه بالمقاومة . وتعهد بلساريوس قائد الجيش أن يقوم بهذا العمل ، واختار من بين جنوده عدداً من القوط ، وسار على رأسهم إلى ميدان الألعاب ، وقتل ثلاثين ألفاً من العامة ، وقبض على هيباشيوس ، وأمر بقتله في السجن . وأعاد جستنيان الموظفين المفصولين إلى عملهما ، وعفا عن المتآمرين من أعضاء مجلس الشيوخ ، ورد إلى أبناء هيباشيوس ما صودر من أملاكهم^(٦) . وظل جستنيان بعد هذه الفتنة آمناً على نفسه وملكه خلال الثلاثين عاماً التالية ، ولكن يبدو أن إنساناً واحداً لا أكثر هو الذي كان يحبه .

الفصل الثاني

ثيودورا

وصف پروكبيوس في كتاب له عن فن البناء تمثالاً لزوجته جستنيان فقال :
« إنه جميل ، ولكن جماله أقل من جمال الإمبراطورة ، ذلك بأن التعبير عن
جمالها بالقول ، أو إبرازه في تمثال عمل لا يستطيعه مخلوق من البشر » (٧) .
ولسنا نجد في كل ما كتب هذا المؤرخ - وهو أعظم المؤرخين البيزنطيين على
بكرة أبيهم - إلا الثناء على ثيودورا ، إذا استثنينا موضعاً واحداً لا أكثر من
هذا التعميم . ولكن پروكبيوس قد كشف في كتاب له لم ينشر في أثناء حياته
- ولهذا سمي الأنكدوتا Anecdota « أى الذى لم يخرج » - عن فضيحة
للملكة قبل زواجها . وقد بلغت هذه القصة من الشناعة حداً بعث على الشك
فيها وجعلها مثاراً للجدل مدى ثلاثة عشر قرناً . وهذا « التاريخ السرى »
موجز لما كان في صدر المؤرخ من حقد دفين صريح ، وقد كتبه من وجهة
نظر واحدة ، وخصه كله بتسوئه سمعة جستنيان وثيودورا ، وبليسايريوس
بعد وفاتهم . وإذا كان پروكبيوس هو أهم المراجع التى نعتمد عليها في تأريخ
ذلك العصر ، وإذا كان هو نفسه يبدو في مؤلفاته الأخرى دقيقاً نزيهاً ،
فلما لا نستطيع أن نرفض الأنكدوتا ونعدها كلها تزييفاً وافتراء ، وكل
ما نستطيع أن نقوله فيها هو أنها انتقام عمداً إليه رجل غاضب من رجال
الحاشية لم تتحقق مطامعه . وها هو ذا چون الإفسوسى ، الذى كان يعرف
الإمبراطورة حق المعرفة ، لا يطعن عليها بأكثر من قوله فيها : « ثيودورة
العاهر » (٨) . وفيما عدا هذا فلما نجد في أقوال المؤرخين المعاصرين
ما يؤيد التهم التى رماها بها پروكبيوس . نعم إن كثيرين من رجال الدين ينددون
بمروقها ، ولكن ما من أحد منهم يذكر شيئاً عن فجورها - وهو كرم منهم

لا يقبله العقل إذا كانت فاجرة بحق . وقد يكون في مقدورنا أن نستنتج من كل ما يقال عن ثيودورا أنها بدأت حياتها سيّدة غير مكّلة ، واختتمتها ملكة متصّفة بجميع صفات الملوك الطيبة .

ويقول پروكبيوس قول الواثق إنها ابنة مدرب ديبه ، وإنها نشأت في جو حلبة ألعاب الوحوش ، ثم صارت ممثلة ومومسا ، تثير مشاعر أهل القسطنطينية ، وتدخل البهجة على قلوبهم بتمثيل المسرحيات الصابئة الخليعة . ونجحت أكثر من مرة في إجهاض نفسها ، ولكنها ولدت ابناً غير شرعى ، وصارت عشيقة رجل سوري يدعى هسبولوس Hecebolus ، ثم هجرها هذا العشيق ، واختفت عن الأعين فترة من الزمان في الإسكندرية ، عادت بعدها إلى الظهور في القسطنطينية فقيرة ولكنها عفيفة شريفة ، تكسب قوتها بغزل الصوف . ثم أحبها جستنيان ، فاتخذها عشيقة له ، ثم تزوج بها وجعلها ملكة^(٩) . وليس في وسعنا الآن أن نعرف على وجه التحقيق ما في هذه الأقوال من صدق وكذب ؛ ولكن الذى نستطيع أن نقوله إذا كانت هذه المقدمات لم تفلح بال إمبراطور فهي خليقة بالأنا نقف عندها طويلاً . وتزوج جستنيان في كنيسة القديسة صوفيا بعد أن تزوجها بزمان قليل ، وتوجت ثيودورا إمبراطورة إلى جانبه ، ويقول پروكبيوس إنه « ما من قسيس أظهر غضبه لهذا الإجرام الشنيع »^(١٠)

وأيا كان منشأ ثيودورا فإنها أضحت بعد زواجها بالإمبراطور سيّدة لا يستطيع أحد أن يهتمها في عفافها . وكانت تحب المال والسلطان حباً جماً ، وتثور في بعض الأحيان ثورة جامحة ، وتدبر المؤامرات لتصل بها إلى أغراضها التي لا تتفق مع أغراض جستنيان . وكانت نووماً ، تكثر من الطعام والشراب ، وتحب الترف ، والحلى ، والمظاهر ، وتقضى عدداً كبيراً من أشهر السنة في قصورها القائمة على شاطئ البحر . لكن جستنيان ظل طول حياته يحبها رغم هذه الصفات ، ويصبر صبر الفلاسفة على تدخلها في خططه وأعماله . لقد خلع عليها وهو كلف بها حلة

من السيادة لا تقل من الوجهة النظرية عن سيادته هو ، ولم يكن في مقدوره أن يشكو إذا مارست هذه السيادة . وقد اشتركت اشتراكاً فعلياً في السياسة الخارجية والشئون الكنسية ، وكانت تنصب البابوات والبطارقة وتخلعهم ، وتعزل أعداءها من مناصبهم . وكانت في بعض الأحيان تصدر من الأوامر ما يتعارض وأوامر زوجها ، وكثيراً ما كانت أوامرها هي في صالح الدولة ، ذلك أن ذكاءها كان يتناسب مع سلطانها . وبتهمها پروكيوس بقسوتها على معارضيه ، وبأنها ألقت بعضهم في الحب و قتلت عدداً قليلاً منهم . وكان الذين يسيئون إليها إساءات شديدة يخفون دون أن يقف لهم أحد على أثر ، وكانت تسير في هذا على المبادئ الأخلاقية السائدة بيننا في هذا القرن الذي تعيش فيه . لكنها لم يخل قلبها من الرحمة ، من ذلك أنها بسطت حمايتها على البطريرق أنثيموس الذي أمر چستنيان بنفيه لمروقه من الدين ، وأخفته في جناحها عامين كاملين . ولعلها كانت لينة فوق ما ينبغي مع زوجة بليساريوس التي عرفت بالزنى . ولكنها كفرت عن هذا بإقامة « دير للتوبة » جميل تلجأ إليه العاهرات التائبات . على أن بعض التائبات قد تن من توبتهن ، وألقين بأنفسهن من النوافذ لأنهن ضعن ذراعاً بالدير وفضلن عليه الموت (١٢) . وكانت تغني عناية الجلدات بزواج صديقاتها ، وكان لها هي الفضل في ترتيب هذه الزيجات ، وكثيراً ما كانت تجعل الزواج شرطاً أساسياً للرقى في بلاطها . ولقد ضارت في شيخوختها حارسة قوية الشكيمة للأخلاق الكريمة وهو ما ينتظره الإنسان من أمثالها .

نم وجهت عنايتها في آخر حياتها للدراسة الدين ، وكانت تناقش زوجها في طبيعة المسيح . فقد كان چستنيان يبذل غاية جهده ليوحد الكنيستين الشرقية والغربية لاعتقاده أن الوحدة الدينية لا بد منها لوحدة الإمبراطورية . غير أن ثيودورا لم تكن تستطيع أن تفهم وجود طبيعتين في المسيح ، وإن لم تجد صعوبة ما في وجود ثلاثة أقانيم في الله . ومن أجل هذا اعتنقت مذهب اليعاقبة ،

وهي تعلم أن الشرق لا يمكن أن يخضع للغرب في هذه العقيدة . أكنها كانت ترى أن قوة الإمبراطورية ومستقبلها إنما يعتمدان على ولاياتها الغنية في آسية ، وسوريا ، ومصر ، لا على ولاياتها الغربية التي خربها البرابرة وأهلكتها الحروب . وكان لها الفضل في تخفيف حدة تعصب جستنيان للمذهب الديني الأصيل ، وبسطت حمايتها على الخارجين على هذا المذهب ، وتحدثت البابوية ، وشجعت خفية قيام كنيسة يعقوبية مستقلة في الشرق ؛ ولم تردد في سبيل تحقيق هذه الغايات في أن تعارض بكل ما تستطيع من قوة الإمبراطور والبابا على السواء .

الفصل الثالث

بليساريوس

في وسعنا أن نغتفر لجستينيان شغفه العظيم بالوحدة ، لأن هذا الشغف من أعظم ما يولع به الفلاسفة ورجال الحكم على السواء ، ولقد اقتضاهم في بعض الأحيان أكثر مما اقتضتهم الحرب . ولم تكن استعادة أفريقية من الوندال ، وإيطاليا من القوط الشرقيين ، وأسبانيا من القوط الغربيين ، وغالة من الفرنجة ، وبريطانيا من السكسون ، ولم يكن طرد البرابرة إلى مرابضهم ، وإعادة الحضارة الرومانية إلى جميع ميادينها القديمة ، ونشر الشريعة الرومانية مرة أخرى في جميع بقاع الرجل الأبيض من القرات إلى سور هديران ، لم تكن هذه المطاعم كلها مطاعم غير نبيلة ، وإن كانت قد أسهكت المنقذين ومن أريد إنقاذهم على السواء . وكان من الوسائل التي اتبعها جستينيان لبلوغ هذا الغرض أن أزال ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من نزاع حول مسألة البابوية ، وكان من أكبر أمانيه أن يرد الأريوسيين واليعاقبة وغيرها من الخارجين على الدين إلى حظيرته ، ولم يكن أحد قد فكر في هذا كله منذ أيام قسطنطين .

ولقد كان من حسن حظ جستينيان أن وهب قادة عظماء ، ومن سوء حظه أنه كانت موارده المالية قليلة — فلقد كان شعبه غير راغب في الحروب التي يريد أن يخوض غمارها ، وغير قادر على أداء ما تتطلبه من نفقات . وسرعان ما استنفد الثلثة والعشرين ألف رطل من الذهب التي تركها أسلاف جستين في خزانة الدولة ، واضطر بعد استنفادها أن يلجأ إلى الضرائب التي نفرت منه قلوب الشعب ، وإلى ضروب الاقتصاد التي عرقلت أعمال قواده . وكانت الخدمة العسكرية الإجبارية العامة قد امتنعت قبل عهده بنحو مائة عام ، وأصبح جيش

الإمبراطورية يتألف كله تقريباً من جنود مرتزقة من البرابرة يؤتى بهم من مائة قبيلة ودولة ، ويعيشون على النهب والسلب ، ويحلمون بالثراء والاغتصاب ؛ وكثيراً ما كانوا يشقون عصا الطاعة في أشد أزمت القتال ، وكثيراً ما فقدوا ثمار النصر لاشتغالهم بجمع الغنائم والأسلاب ، ولم يكن شيء يجمعهم ويؤلف بينهم ، أو يشحذ همهم إلا أداء أجورهم بانتظام أو خضوعهم لقواد عظام .

وكان بليساريوس ، كما كان جستنيان ، منعزلوا من أسرة من الفلاحين الإليريين ، ويذكرنا بالأباطرة البلقانيين — أورليوس ، وپروبوس ، ودقلديانوس — الذين أنجوا الإمبراطورية في القرن الثالث . ولسنا نعرف من أيام قيصر قائداً قبل بليساريوس انتصر في وقائع كالتى انتصر فيها هذا القائد بمثل موارده القليلة من الرجال والمال . وما أقل من نفوقوا عليه في رسم الخطط الحربية أو الحركات العسكرية ، وفي حب رجاله له وشفقته على أعدائه . ولعل مما يجدر ذكره في هذا المقام أن أعظم القواد — كالإسكندر ، وقيصر ، وبليساريوس ، وصلاح الدين ، و نابليون — قد وجدوا أن الرحمة من أقوى أسلحة الحروب ؛ ولقد كان بليساريوس ، كما كان أولئك القواد ، ذا إحساس مرهف وقلب رقيق يجعلان من الجندي محباً والهاً بمجرد فراغه من واجباته الدموية . ومصدق هذا أن بليساريوس كان يشغف بحب أنطونينا كما كان الإمبراطور يشغف بحب ثيودورا . وكان هذا القائد يتحمل خيانتها له ، ولا يلينث أن ينسى غضبه من هذه الخيانة ، وكان يصحبها معه في حروبه لكثير من الأسباب .

وكان أول ما نال من النصر في حربه مع الفرس . ذلك أن الحرب قد تجددت بين الإمبراطوريتين بسبب المنافسة القديمة بينهما للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى أواسط آسية وبلاد الهند ، وبعد أن جنحتا للسلم مدى مائة وخمسين عاماً . وبينما كان بليساريوس يتابع انتصاراته المحيطة إذ استدعى فجأة إلى القسطنطينية . وكان سبب استدعائه أن جستنيان عقد الصلح مع

ببلاد الفرس (٥٣٢) بأن أدى إلى كسرى أنوشروان ١١٠٠٠ رطل من الذهب ؛ ثم أرسل قائده ليسترد أفريقية من الوندال . وكان جستنيان قد استقر رأيه على أنه لا يستطيع الاحتفاظ بفتوح دائمة في بلاد الشرق لأسباب كثيرة : منها أن السكان سيظلون معادين له ، وأن الحدود يصعب عليه أن يدافع منها . أما الغرب ففيه أمم اعتادت الحكم الروماني من عدة قرون ، وهي تبغض سادتها البرابرة الخارجين على الدين ، وتمد يد المساعدة للدولة الرومانية بالتعاون معها عليهم في الحرب وبأداء الضرائب لها في السلم . ومن أفريقية يستطيع أخذ الحبوب التي تسد أفواه أهل العاصمة فيسكتون عن توجيه اللوم للإمبراطور .

وكان جيسريك قد توفي بعد حكم دام تسعة وثلاثين عاماً (٤٧٧) ، وعادت أفريقية الوندالية بعد موته إلى معظم أساليبها الرومانية . فكانت اللاتينية لغتها الرسمية ، وكان الشعراء يكتبون بها شعراً ميثاً ليكرموا به الملوك المنسيين . وأعيد بناء دار التمثيل في قرطاجنة ، وعاد الأهلون يمثلون المسرحيات اليونانية^(١٤) ، ويعظمون آثار الفن القديم ، وقيمون مباني جديدة فخمة . وبصف بروكبيوس الطبقات الحاكمة بأنها من رجال مهذبين متحضرين ، تظهر عليهم في بعض الأحيان مسحة من البربرية ولكنهم في الأغلب الأعم قد أهملوا فنون الحرب ، وأخذوا يضعفون ويضمحلون شيئاً فشيئاً تحت أشعة الشمس^(١٥) .

واجتمعت في البسفور في شهر يونية من عام ٥٢٣ خمسمائة سفينة ثقالة ، وتسع وتسعون بارجة حربية ، وتلقت أوامر الإمبراطور ، وبركات البطريق ، وأبحرت إلى قرطاجنة . وكان بروكبيوس من الذين صحبوا بليسايريوس ، وكتب وصفاً رائعاً « لحرب الوندال » . ونزل بليسايريوس في أفريقية بما لا يزيد على خمسمائة من الفرسان ، واكتسح وسائل الدفاع الواهية عن قرطاجنة ، ولم تبض أكثر من بضعة أشهر حتى قضى على قوة الوندال . وعجل جستنيان فدعاه إلى

احتفال بالنصر يقام بالقسطنطينية ، فانقض المغاربة من التلال على الحاميات الرومانية ، وأسرع بليسايريوس بالعودة في الوقت المناسب للقضاء على فتنة قامت بين جنوده ، وقادهم بعدها للنصر ، وبقيت أفريقية القرطاجنة من ذلك الحين خاضعة للحكم الروماني إلى أن جاءها العرب فاتحين .

وكان جستنيان قد هداه دهاؤه السياسي إلى عقد حلف مع القوط الشرقيين . حين كان بليسايريوس يهاجم أفريقية ، فلما تم هذا الفتح أغرى الفرنجة بأن يعقدوا معه حلفاً آخر ، في الوقت الذي أمر فيه بليسايريوس بفتح إيطاليا التي كانت في أيدي القوط الشرقيين . واتخذ بليسايريوس بلاد تونس قاعدة له ، هاجم منها صقلية ، ولم يجد صعوبة في الاستيلاء عليها ، ثم عبر البحر منها إلى إيطاليا في عام ٥٣٦ ، وأستولى على نابلي بأن أمر بعض جنوده أن يدخلوا المدينة زحفاً في قنوات المياه المغطاة . وكانت قوات القوط الشرقيين ضعيفة منقسمة على نفسها ، ورحب سكان رومة ببليسايريوس وحيوه تحية المحرر المنقذ ، كما رحب به رجال الدين لأنه من القائلين بالتثليث ، فدخل رومة دون أن يلقى مقاومة . وأمر ثيوداهاد Theadahad بقتل أمالاثنسا Amalathunsa ، فعلم القوط الشرقيون ثيوداهاد واختاروا وتيجيس Witigis ملكاً عليهم . وحشد وتيجيس جيشاً مؤلفاً من ١٠٥٠٠ رجل حاصر به بليسايريوس في رومة . ولما اضطر أهلها إلى الاقتصاد في الزاد والماء ، والامتناع عن الاستحمام في كل يوم ، بدءوا يتذمرون من بليسايريوس الذي لم يكن معه إلا خمسة آلاف رجل مسلح ، دافع بهم عن المدينة بمهارة وشجاعة ، اضطر مجهما وتيجيس أن يعود إلى رافنا بعد ما بذل من الجهد الكبير مدة عام كامل . وظل بليسايريوس ثلاث سنين يلح على جستنيان بأن يمدده بعدد آخر من الجند ، حتى أرسلهم آخر الأمر ولكنه عقد لواءهم لقواد معادين لبليسايريوس . وعرض القوط الشرقيون المحاصرون في رافنا ، والذين أوشكوا على الهلاك جوعاً ، أن يسلموا المدينة إذا رضى بليسايريوس أن يكون

ملكاً عليهم . وتظاهر بليساريوس بالقبول حتى استولى على المدينة ، ثم أسلمها إلى جستنيان (٥٤٠) .

وشكر له الإمبراطور حسن صنيعه وداخلته فيه الريبة . ذلك أن بليساريوس قد كافأ نفسه على عمله بالاستيلاء على قدر كبير من الغنائم ، هذا إلى أنه كسب ولاء جنوده إلى حد أزعج الإمبراطور وأنه قد عرضت عليه مملكة كاملة ؛ فهل يستبعد عليه مع هذا كله أن يتطلع إلى الاستيلاء على العرش من ابن أخى رجل اغتصبه من صاحبه الشرعى ؟ لهذا استدعاه جستنيان ، وشاهده وهو قلق مرتاب حاشية القائد العظيم ومظهرها الفخم . ويقول پروكبيوس « إن سكان بيزنطية كانوا يبتهجون حين يشهدون بليساريوس يخرج من بيته كل يوم . . . ذلك بأن خروجه منه وسيره في الطريق كان شبيهاً بموكب في عيد احتشد فيه كثير من الخلق ، لأنه كان يصحبه عدد كبير من الوندال ، والقوط ، والمغاربة . يضاف إلى هذا أنه كان بهى الطلعة ، طويل القامة ، جميل الوجه ؛ ولكنه كان وديعاً رقيق الحاشية ، دمث الأخلاق ، حتى لقد كان يبدو كأنه رجل فقير لا يعرفه أحد » (١٦) .

ولم يعن القواد الذين خلفوه في إيطاليا بنظام الجند ، وتنازعوا فيما بينهم ، فكسبوا لأنفسهم احتقار القوط ، فنادوا برجل قوطى ، جم النشاط ، موفور العقل ، رابط الجأش ، ملكاً على الشعب المغلوب . وجمع توتيلّا Totila الملك الجديد مجندين ذوى بأس شديد من البرابرة الجوالين الذين لا مأوى لهم في إيطاليا واستولى بهم على نابلى (٥٤٣) وتيبور وضرب الحصار على رومة . وقد أدهش الناس برحمته ووفائه بوعدده ، وعامل الأسرى معاملة طيبة انصووا بفضلها تحت لوائه ، واستمسك بما قطعه على نفسه من العهود التى استسلمت بها نابلى ، حتى بدأ الناس يتساءلون من هو البربرى ومن هو اليونانى المتحضر . ولما وقعت زوجات بعض أعضاء مجلس الشيوخ أسيرات فى يده عاملن بلطف وشهامة وأطلق سراحهن ، وأما البرابرة الذين فى خدمة الإمبراطور فلم يظهروا مثل هذه

الركة في المعاملة ؛ بل أخذوا يعيشون في البلاد فساداً لأن جستنيان لم يؤد إليهم أجورهم لنفاذ ما كان في خزائنه من المال ، حتى أخذ السكان يتذكرون في أسى وحنان حكم ثيودريك وما كان يسوده من عدل ونظام^(١٧) .

وأمر بليساريوس أن يعود لإنقاذ الموقف . فلما عاد إلى إيطاليا تسلل وحده إلى رومة المحاصرة مخترقاً صفوف توتيلا . لكنه وصلها بعد فوات الوقت ، فقد فقدت الحامية اليونانية روحها المعنوية ، لأن ضباطها كانوا جبناء عاجزين ؛ وفتح بعض الحونة أبواب المدينة ، ودخلها جنود توتيلا البالغ عددهم عشرة آلاف رجل (٥٤٦) . وبعث بليساريوس وهو خارج منها رسالة إلى توتيلا يطلب إليه ألا يدمر المدينة التاريخية . وسمح توتيلا لجنوده الجياع الذين لم ينالوا أجورهم أن ينهبوها ، ولكنه منعهم من إيذاء السكان وحى النساء من شهوات الجنود الجائعة ثم أخطأ إذ غادر رومة ليحاصر رافنا . فلما غاب عنها استردها بليساريوس ، ولما عاد توتيلا وحاصرها مرة أخرى عجز عن أن يخرج منها القائد اليوناني الموهوب . وظن جستنيان أن الغرب قد خضع له فأعلن الحرب على بلاد الفرس ، واستدعى بليساريوس ليذهب إلى الشرق . فلما ذهب استولى توتيلا على رومة من جديد (٥٤٩) ومن بعدها صقلية ، وكورسكا ، وسردينية ، وشبه الجزيرة كلها تقريباً وأخيراً أعطى جستنيان قائداً من الحصيان يدعى نارسيز Narses « مبلغاً كبيراً جداً من المال » وأمره أن يحشد جيشاً جديداً يطرد به القوط من إيطاليا . وأدى نارسيز هذه المهمة بمهارة وسرعة ، فهزم توتيلا ، وقتل في أثناء فراره ، وسمح لمن بقي من القوط أن يخرجوا من إيطاليا سالمين ، وانتهت بذلك « الحرب القوطية » بعد أن دامت ثمانية عشر عاماً (٥٥٣) .

وأتمت هذه السنون خراب إيطاليا . ذلك أن رومة قد وقعت في أيدي الجيوش المحاربة خمس مرات متوالية ، وحوصرت ثلاث مرات ، ونفذ منها الطعام ، وتعرضت للنهب والسلب . ونقص عدد سكانها من مليون إلى أربعين

ألفا^(١٨) ، نصفهم تقريباً من المعدمين الذين يعيشون على الصدقات البابوية ، ودمرت ميلان وقتل أهلها على بكرة أبيهم . وتدهورت مئآت من المدن والقرى إلى هوة الإفلاس بسبب اغتصاب المحكام ونهب الجنود ، وبارت كثير من الأراضي التي كانت من قبل خصبة وهجرها السكان ، ونقصت موارد الطعام . ويقول الرواة إن خمسين ألفاً ماتوا من الجوع في پيسينوم *Picenum* وحدها في خلال هذه الأعوام الثمانية عشر^(١٩) . وتحطم كيان الأشراف ، فقد قتل كثيرون منهم في المعارك الحربية وفي أعمال النهب ، وفر عدد كبير منهم إلى خارج البلاد حتى لم يبق منهم من يكفي لقيام مجلس شيوخ رومة ، فلم نعد نسمع عنه شيئاً ما بعد عام ٥٧٩^(٢٠) . وتهدمت قنوات مياه الشرب التي أصلحها ثيودريك من قبل وأهملت ، واستحالت الكهپانيا مرة أخرى مناطق واسعة تنفّش فيها الملاريا ، ولا تزال كذلك حتى يومنا هذا . وبطل استعمال الحمامات الفخمة التي كانت تمدّها هذه القنوات بالماء وتهدمت ، وحطمت مئآت من النماثيل التي نجت من عبث ألريك وجيسريك ، أو صهرت لتصنع من معادنها قذائف وعدد حربية في أثناء الحصار . وكانت آثار الحراب والدمار هي كل ما يشهد بما كان لرومة القديمة عاصمة نصف العالم من عظمة وجلال . ولبت الإمبرطور الشرقى زمناً قليلاً حاكماً على إيطاليا بعد هذا الحراب ، ولكن ما ناله من النصر كان نصراً عديم القيمة كلفه الكثير من المال والرجال والعناء ، ولم تنج رومة من آثار هذا النصر حتى عصر النهضة .

الفصل الرابع

قانون جستنيان

لقد نسي التاريخ حروب جستنيان ، وحق له أن ينساها ، ولا يذكر اسمه إلا مقترناً بقوانينه . وكان قد مضى قرن من الزمان منذ نشر قانون ثيودوسيوس ، وأضحت كثير من أصوله عتيقة لا تطبق لتغير الظروف التي شرعت فيها ، وسنت قوانين جديدة كثيرة اختطلت بعضها ببعض في كتب القوانين ، ووجد تناقض كثير بين بعض القوانين والبعض الآخر عاق أعمال المحاكم والسلطة التنفيذية . يضاف إلى هذا أن تأثير المسيحية قد بدّل كثيراً من الشرائع وغيّر تفسيرها . ثم إن قوانين رومة المدنية كثيراً ما كانت تتعارض مع قوانين الأمم التي تتألف منها الإمبراطورية ، وإن كثيراً من التشريعات لم تكن تتفق مع تقاليد الشرق المصطبغ بالصبغة اليونانية . وقصارى القول أن شريعة رومة كلها أضحت أكاداساً من المواد القانونية التجريبية لا قانوناً منطقياً واحداً .

ولم يكن جستنيان ، وهو صاحب النزعة القوية إلى الوحدة ، يرضى عن هذه الفوضى كما لم يكن يرضى عن تمزيق أوصال الإمبراطورية . ولهذا عين في عام ٥٢٨ عشرة من فقهاء القانون لينظموا قوانين الدولة ، ويوضحوها ، ويصلحوها . وكان أكثر أعضاء هذه اللجنة نشاطاً ونفوذاً هو الكوستنترينيون Tribonian الذي ظل إلى أن مات أشهر الموحين بخطط جستنيان التشريعية ، والناصحين له ، والمنقذين لآرائه ، وذلك رغم حرصه الشديد على المال ومظنة الكفر بالله . وأتمت اللجنة الجزء الأول من عملها بسرعة أكثر مما كان خليقاً بها ، وأصدرته في عام ٥٢٩ باسم القانون الدستوري ، وأعلن الإمبراطور أنه هو قانون

الإمبراطورية ، وأنه يلغى جميع ما سبقه من التشريعات إلا ما تضمنته منها ،
وصدّر بهذه العبارة الحميلة :

إلى الشبان الراغبين في دراسة القانون : يجب أن يسلح بجلالة الإمبراطور
بالقانون كما يجب أن يعلو مجده بقوة السلاح ، حتى يسود بذلك الحكم الصالح
في الحرب والسلام على السواء ، وحتى يقين للناس أن الحاكم . . لا يقل
عنايته بالعدالة عن عنايته بالنصر على أعدائه (٤١)

ثم انتقل أعضاء اللجنة إلى القسم الثاني من مهمتهم ، وهي أن يضموا
في مجموعة واحدة آراء فقهاء القانون الرومان ، التي رأوا أنها لا تزال خليقة
بأن تكون لها قوة القانون ، ونشرت هذه الآراء باسم مجموعة القوانين والفتاوى
المدنية (٥٣٣) ؛ وقالت اللجنة إن آراء الفقهاء والشروح التي وردت في
هذه المجموعة ستصبح من ذلك الحين واجبة للطاعة على جميع القضاة ، وإن
جميع ما عداها من الآراء قد فقدت ما كان لها من قوة شرعية ، وامتنع من ذلك
الحين نسخ ما عدا هذه من آراء فقهاء القانون واختفى معظمها ، ويستدل بما
بقى منها على أن المحررين قد حذفوا ما كان فيها من آراء متناصرة للحرية ،
وأنهم عمدوا إلى الغش والتزوير فبدلوا بعض أحكام فقهاء القانون الأقدمين
حتى تكون أكثر ملاءمة للحكم المطلق .

وبينا كانت اللجنة تقوم بهذا العمل الكبير أصدر تريبونيان Tribonian
واثنان من زملائه كتاباً موجزاً في القانون المدني سميّاه Institutiones
(٥٣٣) . وكان هذا الكتاب في جوهره عبارة عن شرح جايوس Gius ،
معدلة ، ومصححة حتى تلائم روح ذلك العصر . وكان جايوس هذا قد لخص في
القرن الثاني بعد الميلاد القوانين المدنية المعمول بها في أيامه . وأظهر في هذا العمل
من البراعة ما يثير الإعجاب . وكان جستنيان في هذه الأثناء يصدر قوانين

جديده . فلما كان عام ٥٣٤ ضم تريبوليان وأربعة من مساعديه هذه القوانين إلى النسخة الجديدة المعدلة من كتاب القوانين . وبعد صدورها أصبحت النسخة الأولى غير ذات موضوع ، ولم يعثر عليها بعدئذ . ولما مات جستنيان نشر ما سنّه من قوانين جديدة باسم التشريعات الجديدة . ولم تنشر هذه باللغة اللاتينية كما كانت تنشر الكتب السابقة بل نشرت باللغة اليونانية ، وكانت هي آخر ما صدر باللاتينية من كتب القانون في الإمبراطورية البيزنطية . وقد أطلق على هذه المؤلفات كلها فيما بعد اسم مجموعة القوانين المحررة . وكان يشار إليها في غير دقة باسم قانون جستنيان .

وجرى هذا القانون على ما جرى به قانون ثيودوسيان فجعل الشريعة المسيحية الأصلية قانون الدولة . وقد بدأ بتقرير التثليث وصب اللعنات على نسطوريوس ، وأوتيكيس ، وأبوليتارس . واعترف بالزعامة الدينية للكنيسة الرومانية وأمر كل الهيئات المسيحية بالخضوع إلى سلطانها . لكن الفصول التي جاءت بعد المقدمة أعلنت سلطة الإمبراطور على الكنيسة فقالت : إن جميع القوانين الكنسية كجميع القوانين المدنية تصدر عن العرش ، ثم مضى كتاب القانون يذكر القوانين الخاصة بالمطارنة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، والرهبان ، ويحدد العقوبات التي توقع على القساوسة الذين يقامرون ، أو يرتادون دور التمثيل أو يشهدون الألعاب (٢٢) . وجعل عقوبة المائنين والمارقين المرتدين هي الإعدام . أما الدوناتيون ، والمنتانيون ، واليعقوبيون وغيرهم من الطوائف المنشقة فكان عقابهم أن تصادر أملاكهم ، وأن يحكم عليهم بأنهم غير أهل لأن يبيعوا أو يشتروا ، أو يرثوا أو يؤرثوا . وحرمت عليهم الوظائف العامة ، والاجتماعات ، كما حرموهم من حق مقاضاة المسيحيين أتباع الدين القويم للحصول على ما لديهم قبلهم من الديون . وأباح القانون في بعض مواد الرحمة للأساقفة أن يزوروا لسجون ، ليحموا المسجونين من سوء استعمال القانون

وبدل القانون الميزات القديمة التي كانت تتمتع بها بعض الطبقات . من ذلك أن المعاتيق لم يعودوا يعاملون على أنهم طائفة خاصة قائمة بنفسها ؛ بل أصبحوا يتمتعون من ساعة تحريرهم بجميع مميزات الأحرار ، فيباح لهم أن يكونوا أعضاء في مجلس الشيوخ وأن يكونوا أباطرة . وقسم الأحرار جميعاً إلى طبقة ذوى الشرف أو المرتبة ، وإلى طبقة عامة . وأقر القانون نظام الطبقات الذى نشأ منذ أيام ذقديانوس فقسمها إلى أشراف *patricii* ، وممتازين *illustres* ومحترمين *specabites* (وهى التى أخذت منها لفظ *respecable* أى محترم الإنجليزية) ، وأصفياء *Clarissimi* ، وأمجاد *Gloriosi* ولقد كان فى هذا القانون الرومانى كثير من العناصر الشرقية .

وظهرت فيما ورد فى هذه الشرائع من قوانين خاصة بالرق بعض آثار المسيحية أو الرواقية . مثال ذلك أن اغتصاب أمة كان عقابه الإعدام كاغتصاب الحرة سواء بسواء ؛ كذلك كان يحق للعبد أن يتزوج من حرة إذا وافق سيده على هذا الزواج . وكان چستنيان يشجع العتق كما تشجعه الكنيسة ، لكن القانون كان يحيز بيع الطفل حين يولد فى سوق الرقيق إذا كان أبواه معدمين^(٢٣) ؛ وكان فى قانون چستنيان فقرات تشجع استرقاق رقيق الأرض ، وتمهد السبيل لنظام الإقطاع . مثال ذلك أن الرجل الحر إذا زرع قطعة من الأرض ثلاثين عاماً كان يطلب إليه أن يبقى هو وأبنائه إلى أبد الدهر مرتبطين بهذه الأرض^(٢٤) . وكان القانون يبرر هذا بأن يمنع الزراع من ترك الأرضى ؛ وإذا هرب رقيق الأرض أو صار من رجال الدين من غير رضا سيده ، جاز لهذا السيد أن يطالب به كما يطالب السيد بعبده .

ورفع هذا القانون من منزلة المرأة إلى حد ما . وكان إخضاعها للوصاية عليها طول حياتها قد انتهى فى القرن الرابع ، وبطل المبدأ القديم القاضى بأن الأبناء الذكور هم وحدهم الذين يحق لهم أن يرثوا آباءهم ، وبذلت الكنيسة جهوداً

كبيرة لتأييد المبدأ الجديد لأن كثيرات من النساء كن يوصين لها بأملا كهن .
وحاول جستنيان أن ينفذ آراء الكنيسة الخاصة بالطلاق ، وحرمه إلا إذا
أراد أحد الزوجين أن يدخل ديراً للنساء أو الرجال . غير أن هذا العمل
كان خروجاً متطرفاً على العادات والقوانين القائمة وقتئذ ، ولذلك عارضه
كثيرون من الشعب بحجة أنه سيزيد من حوادث التسميم ، وذكرت فيما سن
بعدئذ من القوانين في الإمبراطورية الرومانية حالات كثيرة مختلفة يباح فيها
الطلاق ، وظلت هذه معمولاً بها ، في الإمبراطورية البيزنطية حتى عام
١٤٥٣ فيما عدا فترات منقطعة (٢٥) . وبجى من القانون ما فرضه أغسطس
من عقوبات على العزوبة والعقم . وكان قسطنطين قد جعل الزنى من الجرائم
التي يعاقب مرتكبها بالإعدام ، وإن لم ينفذ هذا العقاب إلا في حالات
نادرة ، أما جستنيان فقد احتفظ بعقوبة الإعدام للزاني . من الرجال ،
أما الزانية فقد جعل عقابها الإقامة في دير للنساء . وأباح القانون للزوج أن
يقتل عشيق زوجته إذا وجدها في منزله أو شاهداها تتحدث معه في حانة
بعد إنذارها ثلاث مرات أمام شهود . كذلك فرض القانون عقوبات صارمة
على من يزني بامرأة غير متزوجة أو بأرملة إلا إذا كانت حظية أو عاهراً .
وكان هتك العرض غصباً يعاقب عليه بالإعدام ومصادرة الأملاك ، وكان
ثمن هذه الأملاك المصادرة يعطى للمرأة المغتصبة . ولم يكتف جستنيان بتقرير
عقوبة الإعدام للواط ، بل كان في كثير من الأحيان يضيف إليها التعذيب ،
وبتر الأعضاء ، وعرض المذنبين على الجماهير في الشوارع قبل إعدامهما ،
وإننا لنحس في هذا التشريع الصارم ضد الشذوذ الجنسي بأثر المسيحية التي
بروعتها آثام الحضارة الوثنية فدفعتها إلى هذا التزمت الوحشي .

وغير جستنيان قانون الملكية تغييراً أساسياً . من ذلك أنه ألغى ما كان ينص
عليه القانون القديم من حق الأقارب من العصب أن يرثوا من يموت دون أن
ترك وصية ؛ وجعل حق الميراث لأبناء الميت وأحفاده الخ من الظهور والبطون ،

وشجع القانون الهبات والوصايا بلهيات البر ؛ وأعلن أنه لا يجوز الزول عن شيء من أملاك الكنيسة ، سواء كانت ثابتة أو منقولة ، أو كانت أجور أملاك ، أو رقيق أرض ، أو عبيد ، فلم يكن يحق لأى رجل من رجال الدين أو غير رجال الدين ولا لأية جماعة دينية أو غير دينية النزول عن أى شيء تمتلكه الكنيسة أو يبعه أو الإيصاء به . وأضحت هذه القوانين التى وضعها ليو الأول وأثناسيوس وأيدها قانون جستنيان هى الأساس الشرعى لثروة الكنيسة المتزايدة . فقد كانت أملاك غير رجال الدين تنقسم وتتفرق ، أما أملاك الكنيسة فظلت تتراكم وتزداد جيلا بعد جيل . وحاولت الكنيسة أن تحرم الربا ، ولكنها عجزت عن تحريمه ؛ وأجاز القانون القبض على المدينين الذين يتخلفون عن جلسات المحاكمة ، ولكنه أجاز إطلاق سراحهم بالكفالة أو إذا أقسموا أن يعودوا حين يطلبون للمحاكمة .

وحرّم القانون سجن أى شخص إلا بأمر أحد كبار القضاة ، وحدد الزمن الذى يمكن أن ينقضى بين القبض عليه ومحاكمته تحديداً دقيقاً لا يتعداه . وبلغ عدد المحامين من الكثرة حداً جعل جستنيان يشيد لهم بأسلفا خاصة نستطيع أن نتصور مساحتها إذا عرفنا أن مكتبها كانت تضم ١٥٠.٠٠٠ رطل مجلد أو ملف . وكان المتهم يحاكم أمام قاض يعينه الإمبراطور . ، غير أنه كان من المستطاع تحويل القضية إلى محكمة الأسقف إذا رغب فى ذلك الطرفان المتقاضيان . وكانت نسخة من الكتاب المقدس توضع أمام القاضى فى كل جلسة . وكان وكلا الطرفين يقسمان على الكتاب أنهما سيبدلان كل ما فى وسعهما للدفاع عن موكلهما بدمه وأمانته ، لكنهما يتخليان عن القضية إذا وجداهما مما يخل بالشرف والأمانة . وكان المدعى والمدعى عليه يلزمان أيضاً بأن يقسم كل منهما على الكتاب المقدس أن قضيته عادلة . وكانت العقوبات التى ينص عليها القانون صارمة ولكنها قلما كانت ملزمة فقد كان فى وسع القاضى مثلاً أن يهفف العقاب عن النساء ، والقُصّر ،

والسكارى الذين يقدمون للقضاء . وكان السجن يستخدم للمحافظة على المتهمين حتى يحاكموا ، ولكنه قلما كان يستخدم لعقاب المذنبين .

وقد أجاز قانون جستنيان عقاب المجرم ببيت أعضائه ، فكان هذا أكثر رجعية من قانونى هديران وأنطونينوس بيوس . مثال ذلك أن جباة الضرائب الذين يزورون فى حساباتهم ، والذين ينسخون الآداب الدينية اليعقوبية كان يجوز عقابهم بقطع يدهم ، اتباعا للنظرية القائلة بأن العضو الذى اقترف ذنباً يجب أن يجازى بما اقترفه . وكثيراً ما يذكر القانون عقوبة جدد الأنف أو قطع الرقبة ، وأضافت القوانين البيزنطية إليهما سلم العينين ، وأكثر مما يكون ذلك لتشويه وجه الوارثين للعرش أو المتطلعين له . وكانت عقوبة الإعدام تنفذ فى الأحرار بقطع رؤوسهم ، وفى بعض الأرقاء بصلبهم ، وكان السحرة والفارون من الجيش يحرقون أحياء ، وكان فى وسع المواطن المحكوم عليه أن يستأنف الحكم أمام محكمة أعلى درجة من المحكمة التى أصدرته ، ثم إلى مجلس الشيوخ ثم إلى الإمبراطور نفسه آخر الأمر .

وإننا لنعجب بقانون جستنيان إذا نظرنا إليه فى مجموعه أكثر مما نعجب به لو نظرنا إلى كل جزء من أجزائه على انفراد . وأكثر ما يختلف فيه عن القوانين التى صدرت قبله هو تشدده فى اتباع المبادئ والسنن المقررة ، وسد الطريق على التعديل والإصلاح ، وما يسرى فيه من ميل إلى القسوة فى الانتقام ، حتى لقد كان فى وسع الرومانى المتعلم أن يجد الحياة فى حكم الأنطونيين أكثر حضارة منها فى حكم جستنيان . وكان سبب هذه العيوب أن الإمبراطور لم يكن يستطيع التخلص من البيئة التى يعيش فيها والزمن الذى وجد فيه ، وقد اضطرت رغبته الملحة فى أن يوجد كل شئ على أن يقن ما فى عصره من الخرافات والوحشية كما يقن ما فيه من عدالة ورحمة . وكان القانون شديد التمسك بالقديم والمحافظة عليه ، شأنه فى هذا شأن كل ما هو بيزنطى . وكان موافقاً كل الموافقة لحضارة

تخيل إلى أهلها أنها لن تموت أبداً . لكنه سرعان ما نقص الخاضعون له فلم يتعدوا أهل مملكة صغيرة آخذة في النقصان . ذلك أن الشرقيين الخارجين على الدين والذين أذاقهم هذا القانون أشد العذاب قد فتحوا صدورهم للمسلمين وكانوا أكثر رخاء في ظل القرآن منهم في ظل هذا القانون . وأغفلت إيطاليا تحت حكم اللمبارد ، وغالة تحت حكم الفرنجة ، وإنجلترا تحت حكم الأنجليسكسون ، وأسبانيا تحت حكم القوط الغربيين — أغفلت هذه البلاد كلها أوامر جستنيان . لكن هذا القانون بالرغم من مساوئه ، ظل بضعة أجيال يبسط النظام والأمن على خليط من الشعوب ، وبفضله استطاع الناس أن يجتازوا حدود كثير من الأمم وينتقلوا في شوارع مدنها وهم أكثر أمناً وأعظم حرية مما يستمتع به الذين ينتقلون في ذلك الأقليم نفسه في هذه الأيام . ولقد ظل هو قانون الإمبراطورية البيزنطية إلى آخر أيامها ، ولقد أحيأ سننه مشرعو بولونيا بعد خمسة قرون من اختفائه في الغرب ، وعمل به الأباطرة والبابوات ، وسرى في نظم كثير من الدول الحديثة ، فكان هو الهيكل الذي قام عليه نظامها .

الفصل الخامس

الفقيه الدينى الإمبراطورى

لم يبق بعدئذ أمام جستنيان إلا أن يوحد العقيدة الدينية ، وأن يجعل الكنيسة أداة متجانسة تتخذها وسيلة للحكم . وأكبر الظن أن جستنيان كان مخلصاً فى عقيدته الدينية ، وأن غرضه من توحيد الدين لم يكن سياسياً فحسب ، فقد كان هو نفسه يعيش فى قصره عيشة الراهب فى ديرهِ على قدر ما تسمح له بذلك ثيودورا ؛ يصوم ، ويصلى ، وينكب على دراسة المؤلفات الدينية ، ويناقش دقائق العقائد الدينية مع الفلاسفة ، والبطارقة ، والبابوات . ويقتل پروكبيوس فى هذا المعنى قول أحد المتأمرين على جستنيان دون أن يحنى موافقته التامة على ما ينقله : « إن من أوتى أقل قسط من عزة النفس لا يليق به أن يرفض العمل على قتل جستنيان ؛ وخلق به ألا يداخله أقل خوف من رجل يجلس على الدوام فى ردهة قصره من غير حرس ويقضى الجزء الأكبر من الليل يقلب صفحات الكتب المسيحية المقدسة هو وجماعة من القساوسة الطاعنين فى السن » (٣٦) . ويكاد يكون من أول الأعمال التى استعان فيها جستنيان بسلطته وهو نائب عن جستين أنه رتب الفتى الذى اتسع بين الكنيستين الشرقية والغربية على أثر نشر رسالة الإمبراطور زينون المعروفة باسم *هنوتوكون* Henoticon . وقد استطاع جستنيان أن يكسب تأييد القساوسة الإيطاليين أتباع الدين الأصيل ضد القوط ، وإخوانهم فى الشرق ضد اليعقوبيين ، بقبوله وجهة نظر البابوية فى المسائل التى كانت موضوع الخلاف .

وكانت هذه الشيعة الأخيرة التى تقول بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة قد كثر عددها فى مصر حتى كاد يعادل عدد الكاثوليك . وبإغ من كثرتهم فى

الإسكندرية أن انقسموا هم أيضاً إلى طائفتين يعقوبيتين إحداهما تؤمن بنصوص الكتاب المقدس وأخرى لا تؤمن به . وكان أفراد الطائفتين يقتتلون في شوارع المدينة بينما كانت نساؤهم يتبادلن القذائف من سطوح المنازل . ولما أن أجلس قوات الإمبراطور المسلحة أسقفاً كاثوليكياً في كرسى أثناسيوس كانت أول تحية حياه بها المصلون أن رجوه بوابل من الحجارة ، ثم قتله جنود الإمبراطور وهو جالس على كرسیه . وبينما كانت الكتلكة تسيطر على أسقفية الإسكندرية ، كان الخارجون عليها يزداد عددهم زيادة مطردة في ريف مصر ، فكان الفلاحون لا يأبهون بقرارات البطريق أو بأوامر الإمبراطور ، وكانت مصر قد خرجت عن طاعة الإمبراطورية أو أوشكت أن تخرج عن طاعتها قبل أن يفتتحها العرب بقرن كامل .

وتغلبت ثيودورا بشباتها على جستنيان المتردد في هذه المسألة كما تغلبت عليه في كثير من المسائل الأخرى ، فأخذت تأتمر مع شماس روماني يدعى فيجيليوس Vigilius وتعرض عليه أن تنصبه بابا إذا قبل بعض مطالب اليعقوبيين . وأثمرت هذه المؤامرة ثمرتها ، فأخرج بليساريوس البابا سلقريوس من رومة (٥٣٧) ونفى إلى جزيرة پلماريا Palmaria حيث مات مما لقيه من قسوة ، ونصب فيجيليوس بابا في مكانه . بأمر الإمبراطور . وقبل جستنيان في آخر الأمر رأى ثيودورا القائل بأن مذهب اليعاقبة لا يمكن القضاء عليه ، فحاول أن يسترضي أتباعه في وثيقة دينية إمبراطورية تعرف باسم **الفصول الثمسة** . ثم استدعى فيجيليوس إلى القسطنطينية وألح عليه بأن يوافق على هذه الوثيقة . وأجابه فيجيليوس إلى طلبه على كره منه ، فما كان من رجال الدين الكاثوليك في أفريقية إلا أن أعلنوا طرده من الكنيسة وتجريده من رتبة اليعاقبة (٥٥٠) . وحينئذ قام جستنيان بمحاولة سافرة للسيطرة على البابوية لم يقم بها إمبراطور غيره من قبله . ذلك أنه دعا مجلساً عاماً للاجتماع في القسطنطينية (٥٥٣) ، لم يكده يحضره أحد

من أساقفة الغرب ، ووافق المجلس على المبادئ التي وضعها جستنيان ، ولكن الكنيسة الغربية رفضتها ، وعاد النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية إلى ما كان عليه من قبل ، ولم يخدم لظاه مدة قرن من الزمان .

وتغلب الموت آخر الأمر على كل هذا الجدل ، فقد توفيت ثيودورا في عام ٥٤٨ ، وكانت وفاتها أشد الضربات التي حطمت شجاعة جستنيان ، وصفاء ذهنه ، وقوة بدنه . وكان وقتئذ في الخامسة والستين من عمره ، وكان قد أضعفه نسكه وما حل به من أزمات متعاقبة . فترك شئون الحكم لعماله ، وأهمل وسائل الدفاع التي بذل غاية جهده لإقامتها ، وانهمك في البحوث الدينية ، وحلت بالبلاد كوارث لا حصر لها نغصت عليه حياته في السبعة عشر عاماً التي عاشها على حافة القبر . فقد امتاز حكمه بكثرة ما حدث فيه من الزلازل التي دمرت اثنتي عشرة مدينة وكادت تمحو آثارها من الوجود ، ونضب معين خزانة الدولة من جراء النفقات التي تطلبها إعادة بنائها ؛ وفشا الطاعون في البلاد في عام ٥٤٢ ، وجاء بعده القحط في عام ٥٥٦ ، وعاد الطاعون مرة أخرى في عام ٥٥٨ . وفي عام ٥٥٩ اجتاز الهون الكتريجور Kutrigur Huns نهر الدانوب ، وهتكوا أعراض الأمهات والعذارى والراهبات ، وألقوا إلى الكلاب بالأطفال الذين ولدتهم السبايا اللاتي أخذوهن معهم في زحفهم ، وتقدموا حتى بلغوا أسوار القسطنطينية . واستغاث الإمبراطور في هله الشديد بالقائد العظيم الذي طالما أنجاه من الكوارث من قبل . وكان بليسايريوس وقتئذ ضعيفاً منهوك ، القوي ، ولكنه انتضى سيفه ولبس درعه ، وجمع ثلثمائة من جنوده المحنكين الذين حاربوا معه في إيطاليا ، وضم إليهم بضع مئين من الجنود غير المدربين ، وسار بهم ليلاقي الهون البالغ عددهم سبعة آلاف رجل . ووزع قواه بما تعود من حذق وبعده نظر ، فأخفى مائتين من خيرة جنوده في غابات قريبة من ميدان القتال ، فلما أن تقدم الهون لقتاله انقض هؤلاء على جناحهم ، بينما كان بليسايريوس يتلقى هجوم أعدائه على رأس جيشه الصغير .

وارتد البرابرة على أعقابهم وولوا الأدبار قبل أن يصاب روماني واحد بجرح خطير . وغضبت الجماهير في العاصمة لأن بليساريوس لم يقتف أثر العدو ويقبض على قائد الهون ويأت به أسيراً . ودبت الغيرة في قلب الإمبراطور فاستمع إلى وشاية الواشين بقائده الكبير ، واتهمه بالتآمر عليه ، وأمره بأن يسرح جنوده المسلحين . ولما مات بليساريوس في عام ٥٦٥ صادر جستنيان نصف ممتلكاته .

وعاش الإمبراطور بعد قائده ثمانية أشهر . وأثمرت دراسته للدين في سنيه الأخيرة ثمرة عجيبة ! وهل أعجب من أن يخرج على الدين حامى حمى الدين . فقد أعلن جستنيان أن جسد المسيح غير قابل للدنس ، وأن طبيعة المسيح البشرية لم تتعرض في يوم من الأيام لحاجة من حاجات الجسد الفاني ، ولا لشيء من مساوئه . وأنذر رجال الدين بأنه إذا مات قبل أن يرجع عن هذه الخطيئة « فسيلقى في نار جهنم ويبقى فيها إلى أبد الآبدين » (٢٧) . ولكنه مات قبل أن يتوب من ذنبه (٥٥٦) ، بعد حياة دامت ثلاثة وثمانين عاماً ، جلس منها على العرش ثمانية وثلاثين .

وكان موت جستنيان نقطة أخرى من النقاط التي يمكن أن تعد نخامة التاريخ القديم . لقد كان في حياته إمبراطوراً رومانيا بحق ، يفكر في جميع شئون الإمبراطورية شرقياً وغربياً على السواء ، ويبذل كل ما وسعه من جهد ليصد عنها البرابرة ، وليعيد إلى الإمبراطورية الواسعة حكماً منظماً وشرائع متجانسة . ولقد أفلح في تحقيق جانب كبير من هذا الغرض : فقد استرد أفريقية ، ودلماشيا ، وإيطاليا ، وقورسقة ، وسردينيا ، وصقلية ، وبعض أسبانيا ، وطرد الفرس من سوريا ، وتضاعفت رقعة الإمبراطورية في عهده ضعفين . وتمثل شريعته بما فيها من وحدة ، ووضوح ، واتساع في الأفق ، ذروة في تاريخ القانون . ولسنا ننكر أن إدارته لشئون الإمبراطورية قد لوّثها فساد الموظفين ، ورشوة الحكام ، وفدح الضرائب ، وتدخل الأهواء ، والتزوات في العفو والعقاب ؛ ولكنها مع ذلك

كانت تمتاز بالعمل المتواصل على تنظيم أداة حكم الإمبراطورية وشؤونها الاقتصادية ؛ ولقد أفلحت في إقامة صرح من النظام إن يكن معادياً للحرية فإنه قد حفظ كيان الحضارة في ركن من أركان أوربا في الوقت الذي غرقت فيه سائر القارة في ظلمات العصور المظلمة . هذا إلى أنه قد خلد اسمه في تاريخ الصناعة والفن كما يشهد بذلك جامع أياصوفيا الذي هو أثر من آثاره . وما من شك في أن أشياعه من معاصريه قد بدا لهم أن الإمبراطورية استطاعت مرة أخرى أن تصد تيار التدهور وأن تبعد عنها يد الردى إلى حين .

غير أن الذي يؤسف له أن ذلك لم يكن أكثر من مهلة جد قصيرة . فقد ترك جستنيان خزائن الدولة خاوية ، وكان قد وجدها عامرة ، وكانت شرائعه القاسية الحالية من التسامح الديني ، وكان جباته اللصوص ، سبباً في نفور الأمم التي استولت جيوشه على بلادها ، فلم يطل ولاؤها له ، وكانت هذه الجيوش قد ضعفت ميرتها ، وتبدد شملها ، ولم تنل أجورها ، فلم يكن في وسعها أن يطول دفاعها عن البلاد التي افتتحتها وأحلت بها الخراب والدمار . وسرعان ما تركت أفريقية للبربر ، وسوريا ، وفلسطين ، ومصر ، ثم أفريقية وأسبانيا للعرب ، وإيطاليا للمبارد . وقبل أن ينقضى قرن واحد على موت جستنيان خسرت الإمبراطورية أكثر مما كسبه هو لما . وإذا ما عدنا ببصرنا إلى الماضي أدركنا من خلال ثناياه ، وامتلات نفوسنا زهواً بهذا الإدراك ، ما كان في نظام حكم الإمبراطورية من أخطاء . وبدا لنا أنه كان من الخير كل الخير أن تجمع القوميات والمذاهب الدينية الناشئة في نظام اتحادي ، وأن تمديد الصداقة إلى القوط الشرقيين الذين حكموا إيطاليا حكماً صالحاً إلى حد كبير ، وأن تكون الدولة أداة لحفظ الثقافة القديمة من الضياع ومعيّنا غزيراً تستمد منه الدول الجديدة أسباب حضارتها ورفاهيتها .

وليس ثمة ما يضطرنا إلى قبول حكم بروكبيوس على جستنيان ، فقد كفانا

پروكپيوس نفسه مؤونة دحض هذا الحكم^(٢٨) : لقد كان الإمبراطور حاكما عظيما ، نشأت أخطاؤه من إخلاصه لعميدته وجريه فيها على سنن المنطق : فنشأ اضطهاده من ثقته ، ونشأت حروبه من نزعته الرومانية ، ومصادرته للأملاك من هذه الحروب . فنحن نأسف أشد الأسف لضيق أفقه وعنف أساليبه ، ونطرب لتحقيقه أغراضه . لقد كان هو وبليسايريوس ، لابنياس ولانيتيوس ، آخر الرومان .

الباب السادس

الحضارة البيزنطية

٣٣٦ - ٥٦٥

الفصل الأول

العمل والثروة

كان الاقتصاد البيزنطي مزيجاً من المشروعات الفردية ، والتنظيم الحكومي ، والصناعات الموثمة ، شبيهاً بما يجرى به العمل في هذه الأيام . وكان امتلاك الفلاحين للأراضي التي يزرعونها لا يزال في عهد جستنيان هو القاعدة المعمول بها في الزراعة ؛ ولكن الضياع كانت آخذة في الاتساع ، وكان كثير من الزراع يضطرون شيئاً فشيئاً إلى الخضوع الإقطاعي لكبار الملاك ؛ وكان الذي يرغمهم على هذا الخضوع هو الجفاف ، والفيضانات ، والتمنافس ، والعجز عن فلاح الأرض ، والضرائب ، والحروب . وكانت الموارد المعدنية التي في باطن الأرض ملكاً للدولة ولكن معظمها كانت تستغله الهيئات الخاصة التي تستأجره من الحكومة . وكانت مناجم بلاد اليونان قد نصب معينها ، ولكن مناجم قديمة وجديدة كانت تستغل في تراقية ، وبنطس ، وبلاد البلقان . وكان معظم عمال الصناعة « أحراراً » أي أنهم لم يكن يرغمهم على العمل إلا عدم رغبتهم في الموت جوعاً ؛ ولم يكن للاسترقاق المباشر في خارج الخدمة المنزلية وصناعة النسيج إلا شأن ضئيل ، ولكن الدولة كانت تلجأ إلى السخرة في سوريا ، وفي مصر وشمال أفريقيا على الأرجح المحافظة على قنوات الري الكبرى (١) . وكانت الحكومة تنتج في مصانعها معظم

ما يحتاجه الجيش والموظفون ، والحاشية من البضائع (٢) .
وآثار جماعة من الرهبان النساطرة من أواسط آسية حوالى عام ٥٥٢
اهتمام الإمبراطور جستنيان بصناعة الحرير ، إذ عرضوا عليه أن يمدوا
الإمبراطورية بموارد منه مستقلة عن غيرها من البلاد . وإذا ذكرنا كثرة
الحروب التى شبت بارها بين بلاد اليونان والرومان من جهة وبلاد الفرس
من جهة أخرى للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى الصين والهند ،
ولاحظنا اسم « طريق الحرير » الذى كان يطلق على الممرات الشمالية الموصلة
إلى بلاد الشرق الأقصى ، واسم « سريكا Serica » (أرض الحرير) الذى
كان الرومان يطلقونه على بلاد الصين واسم « سرنديا Serindia » الذى كانوا
يطلقونه على الإقليم الواقع بين الصين والهند ، إذا ذكرنا هذا كله أدركنا
سبب قبول جستنيان لهذا الاقتراح والتحمس له . وعاد الرهبان إلى أواسط
آسية ثم جاءوا إليه ومعهم بويضات دود القز ، وأكبر الظن أنهم جاءوا
معهم أيضاً ببذور شجر التوت (٣) . وكانت صناعة الحرير قائمة قبل ذلك فى
بلاد اليونان ، ولكنها كانت قائمة فى نطاق ضيق ، وكانت تعتمد على دود
القز البرى الذى يعيش على أوراق أشجار البلوط والدردار والسرو . وكانت
نتيجة هذا الاقتراح أن قامت صناعة الحرير فى نطاق واسع فى بلاد
الإمبراطورية وخاصة فى سوريا وبلاد اليونان ، وتقدمت فى بلاد البلووينيز
تقدماً أكسب شبه الجزيرة اسم موريا Morea - أى أرض شجر التوت
Morus Alba .

وكانت الدولة تحتكر صناعة بعض أنواع من المنسوجات الحريرية والصبغات
الأرجوانية فى مدينة القسطنطينية ، وكانت هاتان الصناعتان تقومان فى حوانيت
داخل القصر الإمبراطورى أوقريبة منه (٤) . ولم يكن يسمح بارتداء الثياب
الحريرية المصبوغة الغالية إلا لكبار موظفى الحكومة ، وكان أغلاها كلها
لايسمح به لغير أفراد الأسرة الإمبراطورية . ولما أخرجت المشروعات الفردية
خفية منسوجات حريرية تماثل منسوجات الحكومة وباعتها لغير الطبقات الممتازة

قضى جستنيان على هذه « السوق السوداء » بأن أزال معظم القيود المفروضة على لبس الحرير الغالي والملابس ذات الصبغة الغالية ، وأغرق الخوانيت بالمنسوجات الحكومية ، وباعها لها بأثمان لا تستطيع المصانع الخاصة مجاراتها ، ولما قضى بهذه الطريقة على المنافسة عادت الحكومة فرفعت الأثمان مرة أخرى (٥) . وحذا جستنيان حذو دقلديانوس فعمل على بسط السيطرة الحكومية على جميع الأثمان والأجور . وحدث بعد انتشار الطاعون في عام ٥٤٢ أن نقصت الأيدي العاملة ، وارتفعت أجور العمال ، وتضاعفت أثمان السلع . وعمل جستنيان ما عمله البرلمان الإنجليزي في عام ١٣٥١ بعد طاعون ١٣٤٨ ، فأراد أن يساعد أصحاب الأعمال والمستهلكين بمرسوم يحدد الأثمان والأجور جاء فيه :

لقد وصل إلى علمنا أن التجار ، والصناع ، والزراع ، والبحارة قد تغلبت عليهم ، بعد أن حل بنا غضب الله ، روح الجشع ، فأخذوا يطلبون أثماناً وأجوراً تعادل ضعف ما كانوا ينالونه قبل أو ثلاثة أضعافه لذلك نحرم على هؤلاء جميعاً وأمثالهم أن يطلبوا أثماناً أو أجوراً أكثر مما كانوا يطلبونه من قبل . كذلك نحرم على متعهدي البناء ، أو الأعمال الزراعية أو غيرها أن يؤدوا للعمال أعلى مما جرت العادة بأدائه في الأيام الماضية (٦) . وليس لدينا ما يدلنا على ما كان لهذا المرسوم من أثر .

وراجت التجارة الداخلية والخارجية في الإمبراطورية البيزنطية من عهد قسطنطين إلى أواخر حكم جستنيان . وكان ما فيها من الطرق والجسور الرومانية يتعهد ويصلح بانتظام ، ودفع الحرص الشديد على الكسب وما يبعثه من إبداع وإنشاء إلى بناء أساطيل بحرية ربطت العاصمة بمئات الثغور في الشرق والغرب . وظلت القسطنطينية من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر أعظم الأسواق التجارية ومراكز النقل البحري في العالم كله ، وانحطت الإسكندرية التي كانت لها السيادة في هذه الناحية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، فأصبحت منزلتها في

التجارة بعد أنطاكية^(٧) . وكانت سوريا كلها تعج بالتاجر والمصانع ، ويرجع هذا إلى موقعها بين بلاد الفرس والقسطنطينية ، وبين القسطنطينية ومصر ، وإلى ما اتصف به تجارها من حذق وحب للمغامرة بحيث لم يكن ينافسهم في انتشار تجارتهم ودهائهم إلا اليونان الذين لا يجارونهم في المثابرة والجلد ، كما يرجع إلى انتشارهم هم أنفسهم في جميع بلاد الإمبراطورية ، فكانوا بذلك عاملاً في إيجاد ذلك الطابع الأخلاقي والفني الذي طبعت به الحضارة البيزنطية .

وإذا كان الطريق التجاري القديم بين سوريا وأواسط آسية يخرق بلاد الفرس المعادية للدولة البيزنطية ، فقد أراد جستنيان أن ينشئ طريقاً جديداً بإقامة صلات ودية بينه وبين الحميريين المقيمين في الطرف الجنوبي الغربي من جزيرة العرب ، وملوك الحبشة ، وكان هؤلاء أولئك يسيطرون على أبواب البحر الأحمر الجنوبية . وكانت السفن التجارية البيزنطية تخرق هذه المضائق والمحيط الهندي في طريقها إلى الهند ؛ ولكن الفرس الذين كانوا يسيطرون على ثغور الهند كانوا يفرضون على هذه التجارة رسوماً عالية كأنها تمر ببلاد إيران نفسها . فلما خاب رجاء جستنيان في هذا الطريق شجع إنشاء المرافئ البحرية على البحر الأسود ، فكانت المتاجر ترد إلى هذه المرافئ ثم تنقل في السفن إلى خلقيس Colchis ومنها بطرق القوافل إلى سبجديانا Sogdiana ، حيث يلتقي تجار الصين وتجار الغرب ويتساومون دون أن يتدخل الفرس فيما بينهم . وبفضل هذه التجارة الناشطة التي كانت تسير في هذا الطريق الشمالي ارتفعت سيرنديا إلى أعلى درجات الثروة والفن في العصور الوسطى . وظلت التجارة اليونانية في هذه الأثناء محتفظة بـ منافذها القديمة في الغرب .

وكان من أكبر العوامل في هذا النشاط الاقتصادي الكبير النقد الإمبراطوري الذي كان عملة مقبولة في جميع أنحاء العالم تقريباً لثباته وسلامته . وكان قسطنطين قد سلك نقداً جديداً ليحل محل الأوريوس Aurues الذي سكه

قيصر . وكانت هذه القطعة النقدية الحديدية المعروفة باسم صوليدوس Solidus أو بيزنت Bezant تزن ٥٥ ر ٤ جرامات أو جزءاً من ستة أجزاء من الأوقية الإنجائزية من الذهب ، وتعادل قيمته ٨٣ ر ٥ من الدولارات في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٦ . وإن تدهور الصوليدوس في قيمته المعدنية والاقتصادية حتى صار هو الصلدى ليدل أوضح دلالة على ارتفاع الأثمان خلال عصور التاريخ المختلفة ، وعلى انحطاط قيمة النقد ، ويوحى بأن الادخار فضيلة تتطلب ممارستها كثيراً من الدقة والحصافة . وارتقت أعمال المصارف كثيراً في ذلك الوقت ، وفي وسعنا أن نعرف ما كان يسود الإمبراطورية البيزنطية من رخاء عند ما ارتقى جستنيان العرش إذا عرفنا أنه حدد سعر الفائدة بما لا يزيد على أربعة في المائة لقروض الفلاحين ، وستة في المائة للقروض التجارية ، واثني عشر في المائة للتقود المستثمرة في المشروعات البحرية^(٨) . ولم تكن فوائد القروض منخفضة هذا الانخفاض في ذلك الوقت في أى بلد آخر من بلاد العالم .

وكان أعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار يستمتعون بثراء عظيم وبمظاهر من الترف قلما استمتع بهما أمثالهم قبلهم في رومة وذلك بفضل ما كان يمتلكه الأولون من أراض واسعة ، وما يقدم عليه الآخرون من مغامرات تجارية في أقطار نائية تتناسب أرباحها مع ما كانت تتعرض له أموالهم من الخطر . وكان الأشراف في الشرق أرق ذوقاً من نظائريهم في رومة في أيام شيشرون وجوقثال . فلم يكن أفراد هذه الطبقة يتخمون بطونهم بالأطعمة الغريبة يحضرونها من البلاد النائية ، وكان الطلاق عندهم أقل منه في رومة ، وكانوا أكثر منهم إخلاصاً وجرأة في خدمة الدولة ، وكان أكثر ما يسرفون فيه هو الملابس المزركشة ، والأثواب ذات الأهداب ، الغطاء بالفراء والأصباغ البراقة ، والحلايب الحريرية المصبوغة بصبغات غالية والمطرزة بنحوظ الذهب والمنقوشة عليها مناظر مستمدة من الطبيعة أو من التاريخ .

وكان بعض الناس أشبه « بجدران مصورة متحركة » . من ذلك أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ قد صورت على ثوبه قصة المسيح من أولها إلى آخرها^(٩) ، وكان تحت هذه الطبقة ذات الغشاء الذهبي طبقة وسطى ترزح تحت أعباء الضرائب ، وطبقة أخرى كادحة من موظفي الدولة ، وخليط من الرهبان الذين لا ينقطعون عن التدخل في شئون الناس ، وأمشاج من صعايلك المدن كانوا ضحية نظام الأثمان ، لا يخفف عنهم أعباء الحياة إلا ما يتلقونه من الدولة من إعانات .

ولم تكن المبادئ الخلقية من الناحيتين التجارية والجنسية تختلف اختلافاً بيناً عن أمثالها في الثقافات الأخرى في نفس هذه المرحلة من التطور الاقتصادي . لقد كان كريستوم يندد بالرقص ويقول إنه يثير الشهوات ، ولكن القسطنطينية لم تنقطع عن الرقص رغم تنديد كريستوم ، وظلت الكنيسة ترفض تعميد الممثلين ، ولكن المسرح البيزنطي ظل يعرض تمثيلياته الصامتة الإيحائية ، لأن الناس يجب أن يجدوا ما يخفف عنهم متاعب وحدة الزواج وملل الحياة الرتيبة . ويقول بروكبيوس في كتابه التاريخ السرى ، وهو الذى لا يوثق به قط ، إن النساء في وقته « كن جميعهن تقريباً فاسدات »^(١٦) . وكانت وسائل منع الحمل من الموضوعات التى لا ينفك الناس عن دراستها والبحث فيها . وقد أفرد لها أريباسيوس Oribasius أشهر أطباء القرن الرابع فصلاً خاصاً في كتابه الموجز في الطب . وأوصى كاتب آخر في الطب يدعى إيتيوس Aetius من رجال القرن السادس باستخدام الخل وماء البحر ، أو الامتناع عن الجماع في بداية فترة الحيض ونهايتها^(١١) . وحاول جستنيان وحاولت ثيودورا أن يقللا من الدعارة بنى القودات وأصحاب المواخير من القسطنطينية . ولكن نتيجة العمل لم تدم طويلاً . وكانت منزلة المرأة بوجه عام عالية ، ولم تكن النساء في أى عصر من العصور السابقة أقل تقيداً بالقوانين والعادات أو أعظم نفوذاً في الحكومة منهن في ذلك العصر .

الفصل الثاني

العلم والفلسفة

٣٦٤ - ٥٦٥

ترى ماذا كان حظ التربية والتعليم ، والأدب ، والعلوم والفلسفة في هذا المجتمع الذي يبدو في ظاهره مجتمعاً دينياً ؟

لقد ظل التعليم الابتدائي في أيدي مدرسين خصوصيين يؤدي لهم الآباء أجورهم قدرأ معيناً عن كل تلميذ في فترة محددة من الزمن . أما التعليم العالي فقد ظل إلى أيام ثيودوسيوس الثاني يقوم به محاضرون ليس لغيرهم سلطان عليهم ، وأساتذة تؤدي لهم المدينة أو الدولة أجورهم . ويشكو ليبيانيوس من ضلالة أجور هؤلاء الأساتذة ويقول إنهم كانوا يتوقون من شدة الجوع إلى الذهاب إلى الخبز ، ولكنهم يمتنعون عن الذهاب إليه خشية أن يطالبهم بأداء ما عليهم من الديون^(١٢) . غير أننا مع ذلك نقرأ عن مدرسين أمثال يومانيوس يتقاضون ٦٠٠ ر ٥٠٠ سسترس (٣٠٠ ر ٣٠٠ ريال أمريكي ؟) في كل عام^(١٣) . وكان أحسن الأفراد في هذه المهنة وأسوأهم يتناولون أجوراً أكثر مما يستحقون ، أما من عداهم فإنهم يتقاضون أقل مما يجب أن يتقاضوه . وعمل يوليان على نشر الوثنية بأن جعل الامتحانات التي تقوم بها الدولة والتعيين من قبلها هو القاعدة المتبعة في تعيين أساتذة الجامعات كلهم^(١٤) . وجاء ثيودوسيوس الثاني ، لأسباب عكس هذا لسبب السابق ، فجعل الإقدام على التعليم بغير ترخيص من الدولة جناية ، وما لبث هذا الترخيص أن اقتصر على أتباع الدين الرسمي للدولة .

وكان مقر الجامعات الكبرى في الدولة في الإسكندرية ، وأثينة ،

والقسطنطينية ، وأنطاكية ؛ وكانت هذه الجامعات تتخصص على التوالى فى تعليم الطب ، والفلسفة ، والأدب ، والبلاغة . وجمع أريباسيوس Oribasius البرجموى (حوالى عام ٣٢٥ — ٤٠٣) طبيب يوليان موسوعة طبية مؤلفة من سبعين « كتاباً » ؛ وألف إيتيوس الأמידى Aëtius of Amida طبيب البلاط فى عهد جستنيان موسوعة أخرى شبيهة بهذه الموسوعة تمتاز بأحسن ما فى الطب القديم من تحليل لأمراض العين ، والأذن ، والأنف ، والفم ، والأسنان ؛ وبفصول شيقة فى تضخم الغدة الدرقية والصرع ، والعمليات الجراحية من استئصال اللوز إلى جراحة البواسير . وكان الإسكندر التريالىسى Alexander of Tralles (حوالى عام ٥٢٥ — ٦٠٥) أكثر مؤلفى الطب ابتكاراً فى ذلك العهد : فقد وضع أسماء لكثير من الطفيليات المعوية المختلفة ، ووصف اضطرابات القناة الهضمية وصفاً دقيقاً ؛ وبحث فى أمراض الرئتين وعلاجها بحثاً وافياً لا نظير له فيما سبقه من البحوث . وترجم كتابه المدرسى فى علم الأمراض الباطنية وطبائعها ، وفى الطب العلاجى ، إلى اللغات السريانية ، والعربية ، والعبرية ، واللاتينية ، وكان له فى العالم المسيحى أثر لا يعلو عليه إلا أثر كتب أبوقراط ، وجالينوس ، وسورانوس (١٥) . ويقول أوغسطين إن تشريح الأجسام الآدمية كان مأوفاً فى القرن الخامس (١٦) . ثم طغت الحرافات على الطب شيئاً فشيئاً ، فأمن معظم الأطباء بالتنجيم ، وأشار بعضهم باستخدام طرق فى العلاج تختلف باختلاف مواقع الكواكب (١٧) . وكان مما أشار به إيتيوس لمنع الحمل أن تضع المرأة بالقرب من شرجها سن طفل (١٨) ، وسبق مارسيلوس فى كتابه فى الطب De medicamentis (٣٩٥) المحدثين فأشار بلبس قدم أرنب (١٩) . وكان للبغال حظ أحسن من حظ الآدميين ؛ ذلك أن أحسن كتاب علمى فى ذلك العهد هو كتاب فلافيوس القنجتيوس Flavius Vegitius (٣٨٣ — ٤٥٠) المعروف باسم Digestorum artis mulomedicinae libri IV ، ويكاد هذا الكتاب أن يكون هو الأساس

الذى قام عليه الطب البيطرى ، وقد ظل هو المرجع الذى يعتمد عليه حتى عصر النهضة .

وسارت الكيمياء والكيمياء الكاذبة جنباً إلى جنب . وكانت الإسكندرية مركزها جميعاً . وكان الباحثون فى الكيمياء الكاذبة بوجه عام مخلصين فى بحثهم ، يستخدمون الطرق التجريبية بأمانة أكثر مما يستخدمها غيرهم من العلماء الأقدمين . وقد كان لهم الفضل فى تقدم كيمياء المعادن والسبائك تقدماً كبيراً ؛ ولسنا واثقين من أن المستقبل لن يحقق ما كانوا يسعون إليه من أغراض . كذلك كان للتنجيم أساس صحيح شريف ؛ فقد كان الناس جميعاً يؤمنون إيماناً لا يقبل الشك بأن النجوم ، والشمس ، والقمر ، تؤثر كلها فيما يقع على الأرض من أحداث ، ولكن الدجالين أقاموا على هذه الأسس صرحاً عجيباً من السحر ، والتنبؤ بالغيب والتمايم والرقى المستمدة من أسماء الكواكب . وكان استطلاع الأبراج السماوية لمعرفة مستقبل الناس أكثر انتشاراً فى مدائن العصور الوسطى منه فى نيويورك أو باريس فى هذه الأيام . وشاهد ذلك أن القديس أوغسطين يحدثنا عن صديقين كانا يرصدان بعناية مواقع النجوم وقت مولد حيواناتهما المستأنسة (٢٠) . ولقد كان كثير مما عند العرب من سخافات فى التنجيم والكيمياء الكاذبة مما ورثه المسلمون عن اليونان الأقدمين .

وكانت أظرف شخصية فى علوم ذلك العصر هى شخصية هيباشيا الفيلسوفة والعالمة الرياضية ، وكان والدها ثيون Theon . هو آخر من سجلت أسماؤهم فى سجل أساتذة متحف الإسكندرية . وقد كتب شرحاً لكتاب Syntax لبطليموس أقر فيه بما كان لابنته من نصيب فى تأليفه . ويقول سويداس إن هيباشيا كتبت شروحاً لكتاب القوانين الفلكية . لبطليموس ، وكتاب المحروقات لأپلونيوس البرنجى (٢١) ، لكن مؤلفاتها كلها لم يبق منها شيء .

ثم انتقلت من الرياضيات إلى الفلسفة ، وسلكت في بحوثها على هدى أفلاطون وأفلوطين ، و « بزت جميع فلاسفة زمانها » (على جد قول سقراط المؤرخ المسيحي) (٢٢) . ولما عينت أستاذة للفلسفة في متحف الإسكندرية هرع لسماع محاضراتها عدد كبير من الناس من شتى الأقطار النائية . وهام بعض الطلاب بحبها ، ولكن يبدو أنها لم تتزوج قط . ويحاول سويداس أن يقنعنا بأنها تزوجت ، وبأنها رغم زواجها بقيت عذراء طول حياتها (٢٣) . وينقل لنا هو نفسه قصة أخرى ، لعل أعداءها هم مخترعوها مضمونها أن شاباً ضايقها بإلحاحه حتى عيل صبرها فما كان منها إلا أن رفعت ثيابها وقالت له : « إن الذى تحبه هو هذا الذى يرمز إلى التناسل القذر وليس هو شيئاً جميلاً قط » (٢٤) . وقد بلغ من حبها للفلسفة أنها كانت تقف في الشوارع وتشرح لكل من يسألها النقط الصعبة في كتب أفلاطون أو أرسطو . ويقول سقراط المؤرخ إنه « قد بلغ من رباطة جأشها ودمائة أخلاقها الناشئتين من عقلها الملهذب المثقف أن كانت في كثير من الأحيان تقف أمام قضاة المدينة وحكامها دون أن تفقد وهى في حضرة الرجال مسلكتها المتواضع المهيب الذى امتازت به عن غيرها ، والذى أكسبها احترام الناس جميعاً وإعجابهم بها » .

لكن هذا الإعجاب لم يكن في واقع الأمر يشمل الناس جميعاً ، فما من شك في أن مسيحي الإسكندرية كانوا ينظرون إليها شذراً ، لأنها لم تكن كافرة فاتنة فحسب ، بل كانت إلى ذلك صديقة وفية لأرستيز Arestes حاكم المدينة الوثني . ولما أن حرض سيريل Cyril كبير الأساقفة أتباعه الرهبان على طرد اليهود من الإسكندرية أرسل أرستيز إلى ثيودوسيوس الثانى تقريراً عن الحادث بعيداً عن النزاهة بعداً استاء منه كبير الأساقفة ورجاله أشد الاستياء . وقذف بعض الرهبان الحاكم بالحجارة ، فأمر بالقبض على زعيم الفتنة وتعذيبه حتى مات (٤١٥) . واتهم أنصار سيريل هيپاشيا بأنها صاحبة السلطان الأكبر على أرستيز ، وقالوا إنها هى

وحدها التي تحول دون الاتفاق بين الحاكم والبطريق . وفي ذات يوم هجم عليها جماعة من المتعصبين يتزعمهم « قارى » أى كاتب صغير من موظفي سيريل ، وأنزلوها من عربتها ، وجروها إلى إحدى الكنائس ، وجردوها من ملابسها ، وأخذوا يربخونها بقطع القرמיד حتى قضوا على حياتها ، ثم قطعوا جسمها إرباً ، ودفنوا ما بقي منه في مرج وحشى شنيع (٤١٥) (٢٥) . ولم يعاقب أحد من المجرمين واكتفى الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى بأن قيد حرية الرهبان في الظهور أمام الجماهير ، (سبتمبر عام ٤١٦) ، وحرّم المناصب العامة على الوثنيين (ديسمبر عام ٤١٦) . وبذلك كان انتصار سيريل انتصاراً كاملاً .

ورحل أساتذة الفلسفة الوثنيون بعد موت هيباشيا إلى أثينة ليتقوا فيها الأذى ، وكان التعليم غير المسيحي لا يزال حراً نسبياً ولا يزال معلموه آمن على أنفسهم من غيرهم في المدن الأخرى . وكانت حياة الطلاب فيها لا تزال نشيطة يسودها معظم ما يسود الحياة العلمية الراقية من ضروب السلوى — من تآخ بين الطلاب ، وأثواب تميزهم من غيرهم ، وعقاب يفرض عليهم في صورة عمل إضافي ، ومرح عام وبهجة (٢٧) . وكانت المدرستان الرواقية والأبيقورية قد اختفتا من المدينة ، ولكن المجمع العلمى الأفلاطونى كان يتدهور ذلك التدهور الرائع الذى آل إليه أمره في عهد ثمستىوس وپرسكوس Priscus وبركلوس Proclus . وكان لثمستىوس (حوالى ٣٨٠) بما كتبه من شروح على كتب أرسطو أثر كبير في ابن رشد وغيره من زعماء الفكر في العصور الوسطى . وكان پرسكوس في فترة من الزمن صديق يوليان ومشيريه ، وقد قبض عليه قالنز وفلنتنيان الأول واتهماه باستخدام السحر لكى تصيبهما الحمى ، ثم عاد بعد ذلك إلى أثينة وظل يعلم فيها حتى توفي عام ٣٩٥ وهو في سن التسعين . واتخذ بركلوس (٤١٠ — ٤٨٥) الرياضيات طريقاً إلى الفلسفة كما يفعل الأفلاطونيون الحقيقيون . وكان هذا الفيلسوف رجل صبر وجاد ، فرتب آراء الفاسفة اليونانية كلها في نظام واحد ،

وخلع عليها صورة علمية سطحية . ولكنه إلى هذا كان يتصف أيضاً بشيء من المزاج الصوفي للفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وكان يظن أن في وسع الإنسان بفضل صومه وتطهير نفسه أن يكون على صلة بالكائنات غير البشرية (٢٨) . وكانت مدارس أثينة قد فقدت حيويتها بعد أن أغلقها جستنيان في عام ٥٢٩ ، واقتصر عملها على ترديد نظريات المعلمين الأقدمين وإعادة مراراً وتكراراً ؛ وكان التراث العظيم الذي آل إليها قد أثقلها حتى كاد يقضى عليها ، ولم تخرج عليه إلا إلى نزعة تصوفية تستعير مادتها من المذاهب المسيحية البعيدة عن الدين الأصل . ثم أغلق جستنيان مدارس علماء البلاغة كما أغلق مدارس الفلاسفة ؛ وصادر أملاكها وحرم الاشتغال بالتعليم على جميع الوثنيين ؛ وبذلك انقضى عهد الفلسفة اليونانية بعد حياة دامت أحد عشر قرناً من الزمان .

ويبدو الانتقال من الفلسفة إلى الدين ، ومن أفلاطون إلى المسيح ، واضحاً جلياً في بعض الكتابات اليونانية العجيبة التي يعزوها مفكرو العصور الوسطى عن ثقة ويقين إلى ديونيسيوس الأريوباجي *Dionysius the Areopagite* ، وهو رجل من أهل أثينة اعتنق تعاليم بولس . وأهم مؤلفات هذا الكاتب أربعة هي : في السلطة الكهنوتية السماوية ، وفي السلطة الكهروسية ، وفي الأسماء القدسية ، وفي اللاهوت الدو في .

ولسنا نعرف من هو ديونيسيوس صاحب هذه المؤلفات ، ولا متى ألفت أو أين ألفت . وتدل محتوياتها على أنها كتبت بين القرنين الرابع والسادس ، وكل الذي نعرف أنه قلما كان غيرها من الكتب ما لها من أثر عميق في علم اللاهوت المسيحي . وقد ترجم يوحنا اسكوتوس أرجينا *John Scotus Erigena* واحداً منها وبني عليه تعاليمه . وكان ألبرتوس مجنوس *Albertus Magnus* وتوماس أكويناس يجلانها ، وكان

مائة من المتصوفة اليهود ، والمسلمين ، والمسيحيين على السواء يستمدون آراءهم منها ، وكان فنانون العصور الوسطى ورجال الدين الشعبيون يتخذونها مرشداً هادياً معصوماً من الزلل يصل بهم إلى الكائنات العليا وطبقات الصديقين الأبرار . وكان غرضها العام أن تجمع بين الأفلاطونية الحديثة وعلوم الكون المسيحية . ومن تعاليمها : أن الله موجود في جميع الكائنات ، وأنه مصدر حياتها جميعاً ، وإن كان جلاله فوق مدارك العقل ، وأن بين الله والبشر ثلاث طبقات ثلاثية من الكائنات غير البشرية هي : السيرافيم ، والشيروبيم ، وحمة العرش ، والقوى المسيطرة ، والفضائل ، والسلطات ، ثم الملائكة العليا وكبار الملائكة ، والملائكة (وليذكر القارىء كيف رتب دانتى هذه الطوائف التسع حول عرش الله ، وكيف جمع ملتين بعض أسمائها في بيت له طنان رنان) . وتقول هذه الكتب إن الخلق ذو عملية انبعاث : أى أن الأشياء جميعها تنبعث من الله عن طريق تلك الطبقات من الملائكة ، ثم تنعكس الآية فنقود هذه الطبقات التسع من الهيئة السماوية العليا بنى الإنسان وجميع المخلوقات وتعود بهم إلى الله .

الفصل الثالث

الأدب

٣٦٤ - ٥٦٥

أعاد ثيودوسيوس الثاني ، والنائبون عنه في عام ٤٢٥ تنظيم التعليم العالي في القسطنطينية وقرروا رسمياً إنشاء جامعة مؤلفة من واحد وثلاثين مدرساً ، منهم واحد للفلسفة ، واثنان للقانون ، وثمانية وعشرون « لنحو » اللغة اليونانية واللاتينية وبلاغتها . وكان العلمان الأخيران يشملان دراسة آداب اللغتين ، وتوحي كثرة عدد المدرسين المخصصين لهذه الآداب بما كان يوجه إلى الأدب من عناية كبيرة . وقد وضع أحد أولئك الأساتذة واسمه پرسكيان Priscian حوالى عام ٥٢٦ كتاباً ضخماً في نحو اللغتين اللاتينية واليونانية أصبح من أهم الكتب الدراسية في العصور الوسطى . ويبدو أن الكنيسة الشرقية لم تكن تعترض وقتئذ على نسخ الآداب الوثنية (٢٩) . وقد ظلت مدرسة القسطنطينية ، حتى آخر عهد الإمبراطورية البيزنطية ، تنقل بأمانة روائع الأدب القديم رغم احتجاج عدد قليل من القديسين . وحوالى عام ٤٥٠ أنشأ موسايوس Musaeus ، وهو رجل لا يُعرف موطنه الأصلي ، قصيدته الذائعة الصيت ، هير و ليندر Hero & Leander ، ذكر فيها كيف حاول ليندر كما حاول بيرن Byron من بعده أن يعبر مضيق الهلسينت سباحة لكي يصل إلى حبيبته هير و ، وكيف غرق أثناء هذه المحاولة ، وكيف أبصرته هير و يقذف به الموج ميتاً أسفل برجها « فألقت بنفسها من فوق الصخرة الوعرة الشاخنة تطلب لنفسها مع حبيبها الميت جدثاً لها بين الأمواج » (٣٠) .

وكان المسيحيون المهذبون من رجال الحاشية البيزنطية هم الذين وضعوا آخر ما تحتويه السجلات اليونانية القديمة من قصائد غزلية جميلة ، كتبت بالأوزان

والروح القديمة وبعبارات تشير إلى الآلهة الوثنية . وما هي ذى أغنية منقولة
عن أجاثياس Agasthias (حوالى ٥٥٠) لعلها قد أعانت بن جنسن
Ben Jonson على كتابة إحدى روائع مسرحياته .

« لا أحب الخمر ، ولكن إن شئت أن تبدل بالفرح أحزان رجل حزين ،
فارتشف منها الرشفة الأولى ، ثم قدمى لى الكأس أتناولها من يدك . فإذا مستها
شفطاك فلن أبقى بعدئذ صابراً جاسياً أتجنب الكأس الحلو ، لأنها تحمل إلى
قبلتك وتحدثنى عما نالته من الابتهاج بك » .

وأهم ما كتب من أدب ذلك العصر هو ما كتبه المؤرخون . فقد كتب
أونابايوس السرديسى Eunapius of Sardis تاريخاً عاماً لذلك العصر من
عام ٢٧٠ إلى ٤٠٠ جعل بطله جستنيان ، وترجم لثلاثة وعشرين من
السوفسطائيين ورجال الأفلاطونية الحديثة ترجمة لا تخرج عما كان يدور على
الأسنة من سيرهم . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يبق له أثر . وكتب سقراط ،
وهو مسيحي من أهل القسطنطينية ومن أتباع الدين الرسمى فيها ، تاريخ الكنيسة
من عام ٣٠٩ إلى ٤٣٩ وهو كتاب دقيق نزيه إلى حد كبير كما يدلنا على ذلك
ما كتبه عن هيپاشيا . ولكن المؤلف يحشو قصته بالخرافات والأقاصيص
والمعجزات ويتحدث كثيراً عن نفسه كأنه يصعب عليه أن يفرق بين نفسه
وبين العالم الذى يكتب عنه . ويختم كتابه بحجة طريفة يدعو بها إلى قيام
السلام بين الشيع المختلفة ، فيقول إنه إذا ساد السلام فلن يجد المؤرخون
حسب ظنه شيئاً يكتبون عنه ، فتتقرض لهذا السبب تلك الطائفة من كتاب
الماسى (٣٢) . ومن الكتب الأخرى التى ألّفت فى ذلك العصر كتاب
التاريخ الكنسى Ecclesiastical History لسوزومن Sozomen ومعظمه
منقول من سقراط . وكان سوزمن هذا رجلاً فلسطينياً اعتنق الدين المسيحى ،
وكان كمن نقل عنه مجاعياً فى العاصمة . ويبدو أن دراسة القانون لم تحل

بيدنه وبين الإيمان بالخرافات . وألف سوزموس Sozimus القسطنطيني حوالى عام ٤٧٥ كتابا فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية . وكان سوزموس هذا رجلا وثنيا ، ولكنه لم يخضع لما خضع له منافسوه المسيحيون من الأوهام والسخافات . وأشار ديونيسيوس إجزجيوس Dionysius Exiguus — أودنس القصير — حوالى عام ٥٢٥ باتباع طريقة جديدة فى تأريخ الحوادث تبدأ من السنة التى قيل إن المسيح ولد فيها . غير أن الكنيسة اللاتينية لم تقبل هذه الطريقة إلا فى القرن العاشر ، وظل البيزنطيون إلى آخر أيام دولتهم يؤرخون سنيهم من بدء خلق الدنيا . ألا ما أكثر الأشياء التى كانت معروفة فى بواكير حضارتنا والتى خفيت عنا نحن فى هذه الأيام !

وكان پروكبيوس هو المؤرخ العظيم الوحيد فى ذلك العهد . وقد ولد هذا الكاتب فى قيصرية من أعمال فلسطين (٤٩٠) ، ودرس القانون ، ثم انتقل إلى القسطنطينية وعين أميناً ومستشاراً لبليسايريوس . وصحب ذلك القائد فى حروبه فى سوريا ، وأفريقية ، وإيطاليا ، ثم عاد معه إلى العاصمة . ونشر فى عام ٥٥٠ كتب الحروب . وإذا كان قد عرف من صلته بالقائد والإمبراطور عظمة أول الرجلين ، وبخل ثانيهما ، فقد خلع على بليسايريوس ثوب البطولة البراق وترك جستنيان منزوياً فى الظلام . وقابل الجمهور كتابه أحسن قبول ، وسكت عنه الإمبراطور . وكتب پروكبيوس بعدئذ كتابه المعروف باسم *الأنكروتا أو التاريخ السرى* ، ولكنه أفلح فى أن يبقيه دون أن ينشره أو يذيع ما فيه حتى طلب إليه جستنيان فى عام ٥٥٤ أن يكتب شيئا عن الأبنية التى أنشئت أثناء حكمه . فأصدر پروكبيوس فى عام ٥٦٠ كتابه المسمى « *De Aedificiis* » وأسرف فيه فى الثناء على الإمبراطور إسرافاً بحملنا على الظن بأن الإمبراطور قد شك فى إخلاصه أو حسبه يسخر منه ، ولم ينشر التاريخ السرى إلا بعد وفاة

جستنيان — وربما بعد وفاة پروكيبوس نفسه أيضا . وهو ككتاب شيق ممتع
يحتوى على فضائح شبيهة بما تكتب عن جيراننا ، وإن كان التشنيع الأدبي
على من لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمراً غير مستحب ، وإن كان كل
مؤرخ يجهد نفسه في إثبات بحث من البحوث لا يسعه إلا أن ينسخ الحقائق .

ولا تخلو كتب پروكيبوس من أخطاء في الأمور البعيدة عن مجاربه
فقد كان في الأحيان ينقل ما كتبه هيرودوت عن أخلاق معاصريه وفلسفتهم .
وفي البعض الآخر ينقل خطب توكيديدز وحصار المدن في أيامه ، وكان
يشارك أبناء عصره في خرافاتهم ، وسود صحف كتبه بأخبار النذر ،
والتنبؤات ، والمعجزات ، والأحلام . أما حين يكتب عما يشاهده فقد
أثبتت الأيام صدقه : وكان شجاعاً فيما أقدم عليه من عمل عظيم ، منطقياً
في ترتيب مادته ، يستحوذ على لب القارئ وانتباهه في قصصه ، ولغته
اليونانية واضحة خالية من الالتواء والتعقيد ، وهي فصيحة لا تكاد تقل
في فصاحتها عن لغة اليونان الأقدمين .

وبعد فهل كان پروكيبوس مسيحياً ؟ فأنا في الظاهر فنعم ، غير أننا
نراه يردد أصداء من ينسج على منوالهم ، كما نتبين في كتاباته جبرية
الرواقية ، وتشكك الأكاديمية . وهو يتحدث عن « طبيعة الحظ المعوجة
المتمردة وإرادته التي لا ضابط لها . واعتقادي أن هذه أشياء لم يدركها عقل
الإنسان في الماضي ولن يدركها قط في المستقبل . ومع هذا فالناس لا ينفكون
يتحدثون كثيراً عن هذه الموضوعات ولا ينقطعون عن تبادل الآراء فيها ...
لأن كل واحد منها يبحث عما يدارى به بجهله ... وأرى أن من الحماقة
والجنون أن نبحث في طبيعة الله ... ولهذا سأكون خفيف الرأي فالزم
الصمت في مثل هذه الموضوعات ، وكل ما أبغيه من هذا ألا أززع إيمان
الناس بما يجلون من العقائد القديمة » (٣٣) .

الفصل الرابع

الفن البيزنطى

٣٢٦ — ٥٦٥

١ — الانتقال من الوثنية

كانت أعظم مآثر الحضارة البيزنطية هي الإدارة الحكومية وفن الزخرفة : فقد أقاموا دولة دامت أحد عشر قرناً من الزمان ، وأنشئوا أياصوفيا القائمة في هذه الأيام .

وكان الفن الوثنى قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبيل عهد جستنيان ، وكان نصف ما خلفه من الآثار قد شُوِّه أو هدم . فقد بدأ تخريب البرابرة ، وانتهاج الأباطرة ، وتدمير الأتقياء ورجال الدين ، بدأ عمل هؤلاء هؤلاء عهداً من الإتلاف المتعمد والإهمال دام حتى قام پترارك في القرن الرابع عشر يدافع عما بقى منه في أيامه . وكان من العوامل التي زادت أعمال التخريب اعتقاد الجماهير أن الآلهة الوثنية شياطين ، وأن الهياكل مأواها . وأياً كانت عقيدة أهل ذلك الوقت فقد كانوا يشعرون أن مواد هذه الآثار الفنية يمكن أن ينتفع بها على خير وجه في تشييد الكنائس المسيحية أو أسوار المنازل . ، وكثيراً ما كان الوثنيون أنفسهم يشاركون المسيحيين في أعمال التدمير . وقد بذل بعض الأباطرة ، وخاصة هونوريوس وثيودوسيوس الثانى ، كل ما فى وسعهم لحماية المنشآت القديمة^(٣٤) ، وأبقى المستثمرون من رجال الدين على البارثنون ، وهيكل ثسيوس ، والپارثينون ، وغيرها من الصروح بأن أعادوا تدشينها بوصفها أضرحة مسيحية .

وكانت المسيحية فى بادىء الأمر ترتاب فى الفن وتراه عماداً لوثنية ، وعبادة

الاصنام ، وقساد الأخلاق ، وترى أن هذه التماثيل العارية لا تتفق مع ما يجب أن تحاط به البكورة والعزوبة من إجلال . ولما خيل إلى الناس أن الجسم أداة الشيطان ، وأصبح الراهب مثل الرجولة الأعلى بدل الرجل الرياضي ، اختفت من الفن دراسة التشريح ، ولم يبق في فني النحت والتصوير إلا وجوه كثيبة وثياب لا شكل لها . فلما انتصرت المسيحية على الوثنية واحتاجت إلى صروح ضخمة تأوي عبادها المتزايدين ، أخذت تقاليد الفن المحلية والقومية تثبت وجودها مرة أخرى ، وارتفع فن البناء فوق الانقراض . يضاف إلى هذا أن تلك الصروح الرحبة كانت تلح في طلب الزخرفة والزينة ، وكان العابدون في حاجة إلى تماثيل للمسيح ومريم يقوى بها خيالهم ، وإلى صور تحدث السذج الأميين عن قصة إلههم المصلوب . وهكذا ولدت قنون النحت والفسيفساء والتصوير من جديد .

ولم يكن الفن الجديد في رومة يختلف إلا اختلافاً قليلاً عن الفن القديم . فقد انتقلت من الوثنية إلى المسيحية متانة البناء ، وبساطة الشكل ، وطرز الباسلغا المعمدة . ومثال ذلك أن مهندسى قسطنطين خططوا كنيسة القديس بطرس الأولى بالقرب من ساحة الألعاب الحيوانية التى أنشأها نيرون على تل الفاتيكان ، وجعلوا طولها ٣٨٠ قدماً وعرضها ٢١٢ . وقد ظلت هذه الكنيسة مدى اثني عشر قرناً أعظم كنائس المسيحية اللاتينية حتى هدمها برامنتى ليقيم في مكانها كنيسة أكبر منها هى كنيسة القديس بطرس الحالية . وأعاد فلنتنيان الثانى وثيودوسيوس الأول بناء الكنيسة التى أقامها قسطنطين « للقديس بولس خارج الأسوار San Paolo fuori le mura » فى المكان الذى قيل إن الرسول استشهد فيه . وهذه الكنيسة أقل اتساعاً من كنيسة القديس بطرس ، فقد كان طولها أربعمئة قدم وعرضها مائتين (*) . ولا تزال كنيسة القديسة قنسطنزا Santa Constanza التى أقامها

(*) وقد دمرتها النيران فى عام ١٨٢٣ ولكنها أعيدت على الطراز القديم فى ١٨٥٤ — ١٨٧٠ . ونسبها المحكمة وأعدتها الفخمة . تجعلها من أعظم الصروح التى شاهدها بنو الإنسان .

أقامها قسطنطين لتكون ضريحاً لأخته قنسطنطيا في معظم أجزائها بالصورة التي كانت عليها وقت بنائها في ٣٢٦ — ٣٣٠ ، وأعيد بناء كنائس سان جيوفاني San Giovanni في ليرانا Lirana وسانتا ماريا في ترستيفري Trastevere وسان لورنزو خارج الأسور ، في خلال قرن بعد أن بدأها قسطنطين ، وأعيد بناؤها مراراً كثيرة من ذلك الحين . وأنشئت كنيسة سانتا ماريا مجيوري Santa Maria Maggiore في عام ٤٣٧ على غرار أحد الهياكل الوثنية . ولا يزال بعضها في جوهره كما كان منذ إنشائها إذا استثنينا ما حل به من النقوش في أيام النهضة .

ولا يزال طراز الباسليكا من ذلك الوقت حتى الآن الطراز المحبب في الكنائس المسيحية ؛ ذلك بأن اعتدال نفقاته وجلال بساطته ، وتناسق بنائه ، وعظيم متانته قد جعلته محبباً إلى الناس في جميع الأجيال . ولكنه لم يتقبل في يسر ما يراد إدخاله عليه من للتطور والتغيير ، ولهذا بدأ البناءون الأوروبيون يتلفتون حولهم ليجتثوا عن آراء هندسية جديدة حتى وجدوها في بلاد الشرق ، بل وجدوها أيضاً في اسپالاتو Spalato المركز الأدرياتي الأمامي لبلاد الشرق . ففي هذا المكان اللقائم على ساحل دلماشيا أطلق دقلديانوس كامل الحرية لفنانيه ، وعهد إليهم أن يجربوا كافة الوسائل التي تمكنهم من أن يقيموا له قصرأ يلجأ إليه إذا أراد الاسعجام من عناء الحكم ؛ وفيه أحدث أولئك الفنانون انقلاباً كبيراً في العمارة الأوروبية . ففيه كانت الأقواس ترفع مباشرة من تيجان الأعمدة ، وليس بينها وبين تلك التيجان عوارض ؛ وهكذا مهدت السبيل بخطوة واحدة إلى للطرز البيزنطية ، والرومانية ، والقوطية . وفي هذا القصر أيضاً استبدلت بالأفاريز ذات الصور والنماثيل زخرفة عجيبية من الخطوط المتعرجة ، التي تنفر منها عيون الأقدمين والتي ألفها الشرق من زمن بعيد . وبذلك كانت اسپلاتو هي النذير الأول بأن

أوروبا لن يغلبها على أمرها دين شرقى فحسب ، بل سيغلبها كذلك فن شرقى
إن لم يكن فى جميع أنحاءها ففى العالم البيزنطى على الأقل

٢ - الفنانون البيزنطيون

ترى من أين جاء إلى القسطنطينية ذلك الفن ذو اللون الفد ، الراق
المقبض الذى نسميه الفن البيزنطى ؟ ذلك سؤال ثار فيه الجدل بين علماء الآثار
بقوة لاتكاد تنقص عن قوة الجنود المسيحيين فى حروبهم ، وكان النصر النهائى
فى هذه المعركة الكبرى لبلاد الشرق . وتفصيل ذلك أنه حين قويت سوريا
وآسية الصغرى بفضل ما حدث فيهما من تقدم صناعى ، وحين ضعفت
رومة بسبب الغزو الأجنبى ، ارتد التيار الهلنستى الذى اندفع نحو الشرق
لاثر فتوح الإسكندر من آسية إلى أوروبا ، وتلاقت فى بيزنطية مؤثرات الفن
الشرقى المنصبة من فارس الساسانية ، وسوريا النسطورية ، ومصر القبطية ،
ووصلت هذه المؤثرات إلى إيطاليا ، بل تعدتها إلى غالة ، وتخلى الفن
اليونانى الممثل للطبيعة عن مكانه إلى الفن الشرقى ذى الزخارف الرمزية .
وكان الشرق يفضل الألوان عن الخطوط والأقواس والقباب عن السقف
الخشبي ، والزينة الكثيرة عن البساطة الصارمة ، والأثواب الحريرية الفعخة
عن الجبة التى لا شكل لها . وكما أن دقلديانوس وقسطنطين قد اتخذا فى نظم
الحكم أشكال الملكية الفارسية ، فكذلك شرع فن القسطنطينية بغض النظر
شيئاً فشيئاً عن الغرب الذى أتى الآن بنفسه فى أحضان البربرية ، وأخذ
يرنو ببصره إلى آسية الصغرى وأرمينية ، وفارس ، وسوريا ، ومصر

ولعل انتصار جيوش الفرس فى عهد شابور الثانى وكسرى أنوشروان قد
عجل خطوات البواعث والأساليب الشرقية . وكانت الرها ونصيبين فى ذلك
الوقت مركزين مزدهرين من مراكز ثقافة ما بين النهرين ، وهى الثقافة التى

مزجت العناصر الإيرانية ، والأرمينية ، والكبدوكية والسورية^(٣٥) ، ونقلها
التجار ، والرهبان ، والفنانون إلى أنطاكية ، والإسكندرية ، وإفسوس ،
والقسطنطينية ، ثم نقلوها أخيراً إلى رافنا ورومة ، فكادت النظم اليونانية
والرومانية القديمة تفقد قيمتها في هذا العالم المعمارى الجديد ، عالم العقود
والأقواس ، والقباب .

ولما اتخذ الفن البيزنطى هذه الصورة الجديدة عمل على نشر العقائد
المسيحية وإظهار مجد الدولة . فأخذ يقص على الثياب والقماش المزركش ،
وفى نقوش الفسيفساء ورسوم الجدران ، حياة المسيح وأحزان مريم ، وأعمال
الرسول أو الشهداء الذين تضم الكنائس عظامهم ؛ أودخل بلاط الأباطرة ،
وزين قصر الإمبراطور ، وغطى ملابس الموظفين بصورة رمزية أوسوم
تاريخية ، وخطف أبصار رعاياه بالمناظر الزاهية الكثيرة الألوان ، وانتهى
أمره بأن صور المسيح ومريم فى صورتى إمبراطور وملكة . ذلك أن الفن
البيزنطى لم يكن له كثير من المؤيدين يختار من بينهم من يناصره ، ولهذا
لم يكن له مجال واسع يختار منه موضوعه وطرأه ، فكان الإمبراطور
أو البطرق هو الذى يحدد له ما يعمل ويبين له طريق العمل ، وكان الفنانون
يعملون جماعات ، ولهذا قلما يذكر التاريخ أسماء فنانين أفراداً ، ولكنهم
أتوا بالمعجزات فى بهاء الألوان ؛ وكان الفنان يرفع من شأن الناس أو يحط
من قدرهم بمستحدثاته الرائعة ؛ ولكن هذه المنزلة اقتضه استمساكاً
بالأشكال والأنماط المتبعة ، وضيقاً فى المجال ، وجموداً فى خدمة ملك مطلق
التصرف ودين لا يقبل التغيير .

وكان تحت تصرفه مواد كثيرة يستخدمها فى عمله ؛ كانت لديه محاجر الرخام
فى پروكنسوس Proconnesus ، وأتكا ، وإيطاليا ؛ وكانت لديه عمد وتيجان
ينتهيها من كل هيكل وثنى قائم ، وكان لديه الآجر يكاد ينمو كالنبات فى الأرض
التي تجففها الشمس . وكان أكثر ما يعمل فيه الآجر المثبت بالملاط ؛ ذلك أنه

كان يسهل استخدامه في الأشكال المنحنية التي فرضتها عليه الأنماط الشرقية . وكثيراً ما كان يقنع بالشكل الصليبي — شكل الباسلقة ذات الجناحين التي تستطيل حتى تنتهي بقباء . وكان في بعض الأحيان يقطع الباسلقة فيجعلها مثمثة الجوانب كما فعل في كنيسة القديسين سرجيوس وباخوس في القسطنطينية ، أو في كنيسة القديس فيتالي في رافنا . ولكن الطراز الذي برع فيه وبز فيه جميع الفنانين الذين سبقوه أو جاءوا بعده هو القبة المستديرة المقامة على هيكل كثير الأضلاع . وكانت الطريقة التي اتبعها للوصول إلى هذه الغاية هي إنشاء قوس أو نصف دائرة من الآجر فوق كل ضلع من أضلاع السطح المتعدد الزوايا والأضلاع ، ثم إقامة مثلث دائري من الآجر متجه إلى أعلى وإلى الداخل بين كل نصف دائرة ، ثم بناء قبة فوق الحلقة المستديرة الناشئة من هذا كله . وكانت المثلثات الدائرية تبدو متدلّية من حافة القبة إلى قمة المضلع ، وبهذا ريعت الدائرة من الوجهة المعمارية ، وبعد هذا كاد طراز الباسلقة أن يختفي من الشرق :

وقد أفاء البنّاء البيزنطي على هذا البناء من الداخل ما أسعفته به عشرات الفنون المختلفة . وقلما كان يستخدم التماثيل لهذا الغرض ، ذلك أنه لم يكن يريد أن يصور رجالاً ونساء ، بل كان يعمل لخلق جمال مجرد من الصور الرمزية . ولكن المثاليين البيزنطيين كانوا رغم هذا القيد عمالاً يمتازون بالكفاية والصبر وسعة الخيلة . وقد نحتوا التاج « الثيودرسي » للعمد بأن جمعوا بين « آذان » النمط الأوني ، وأوراق النمط الكورنثي ؛ وكأنهم أرادوا أن يجعلوا هذه الوفرة من الطرز أشمل وأعم ، فحفروا على هذا التاج المركب أجمة من النبات والحيوان . وإذا كانت نتيجة هذا لا تتناسب مع الجدران أو الأقواس فقد وضعوا بينها وبين التاج عصابة مربعة وعريضة من أعلاها ، ومستطيلة وضيقة نوعاً ما عند قاعدتها ، ثم حفروا على توالي الأيام أزهاراً على هذه العصابات نفسها . وهنا أيضاً كانت الغلبة للفُرس على اليونان ، كما كانت للأولين الغلبة في مربع القبة . ثم طلب إلى

المصورين أن يزينوا الجدران بصور تثبت عقيدة الناس أو ترهبهم ، ووضع
عمال الفسيفساء مكعباتهم المتخذة من الحجر أو الزجاج الملون البراق فوق
أرضية زرقاء أو ذهبية ، وزينت الأرض والجدران ، أومذابيح الكنائس ،
أو ما بين العقود ، أو أى جزء من البناء لا تطبق عين الشرقى أن تراه خالياً
من الزخرف . وكان الصناع يزينون الملابس ، والمذابيح ، والعمد ،
والجدران بالجواهر والأحجار الكريمة ، وصناع المعادن يضعون فيها صفائح
الذهب والفضة ، وصناع الخشب ينقشون المناير وأسوار المحاريب ،
والنساجون يعلقون الأنسجة المزخرفة على الجدران ويفرشون الأرض
بالطنافس ، ويغطون المذابيح والمناير بالأقشعة المطرزة وبالحرير . ولم يذكر
التاريخ قبل ذلك العهد فناً أوتى ما أوتيته الفن البيزنطى من وفرة الألوان ،
ودقة الرموز ، وغزارة الزينة ، وقدرة على تهذيب الدهن وتنبيه الروح .

٣ - أياصوفيا

ولم تكن العناصر اليونانية والرومانية ، والشرقية ، والمسيحية قد أتمت
امتزاجها ليكون منها الفن البيزنطى قبل عهد جستنيان . فلقد أتاحت له فتنة نيقا
Nika ، كما أتاح حريق رومة لنيرون من قبل ، فرصة بناء عاصمته من جديد ،
ذلك أن الغوغاء في لحظة من لحظات نشوة الحرية أحرقوا دار مجلس الشيوخ ،
وحمامات زيوكسبوس Zeuxippus وأروقة الأوغسطيوم ، وجناحاً من أجنحة
القصر الإمبراطورى ، وأياصوفيا كنيسة البطريق الكبرى ، وكان في وسع
جستنيان أن يعيد بناء هذه كلها حسب تخطيطها القديم فلا يتطلب هذا منه أكثر
من عام أو عامين . لكنه لم يفعل هذا وصمم على أن ينفق في بنائها مزيداً من
الوقت والمال ، وأن يستخدم في هذا البناء عدداً كبيراً من الرجال ، وأن
يجعل عاصمة ملكه أجمل من رومة ، وأن يقيم فيها كنيسة لا يدانيها صرح آخر

في العالم كله . وكانت بداية عمله أن وضع في ذلك الوقت منهجاً للأبنية أوسع وأعظم من أي منهج آخر وضع لها في التاريخ : وكان هذا المنهج يشمل حصوناً ، وقصوراً وأديرة ، وكنائس ، وأروقة معقدة ، وأبواباً أقيمت في جميع أنحاء الإمبراطورية . ففي القسطنطينية أعاد بناء مجلس الشيوخ من الرخام الأبيض ، وشاد حمامات زيوكسبوس من الرخام المتعدد الألوان ، وبني رواقاً معمداً من الرخام ، ومنتزهاً في الأوغسطيوم ، ونقل الماء العذب إلى المدينة في قناة مبنية جديدة تضارع أحسن ما وجد من القنوات في إيطاليا . أما قصره فلم يكن يعلو عليه قصر آخر في البهاء والترف . فقد كانت أرضه وجدرانها من الرخام ، وسقفه تقص بالفسيفساء البراقة ما ناله من النصر في أيام حكمه ، وتصور الشيوخ في حفلاتهم يقدمون للإمبراطور مظاهر الإجلال والتعظيم التي « لا تكاد تقل عما يقدم منها لله » (٣٦) ؛ وبني على الجانب الآخر من البسفور ، بالقرب من خلقيدون مسكناً صيفياً لتيودورا وحاشيتها هو قصر هريون الذي كان له مرفؤه ، وسوقه ، وكنيسته وحماماته الخاصة به .

وبعد أربعين يوماً من خمود نار فتنة نيقا بدأ يبنى كنيسة أياصوفيا الجديدة . ولم يقيمها إلى قديسة تحمل ذلك الاسم ، بل أقامها إلى المقدسة صوفيا Hagia Sophia أو الحكمة القدسية ، أو العقل الخلاق ، أو إلى الله نفسه : واستدعى لهذا الغرض من تراليس في آسية الصغوى ، ومن ميليتس الأيونية ، أثمسيوس وأزدور أعظم المهندسين الأحياء ، ليضعا رسوم البناء ويشرفا على تشييده . ولم يتبع المهندسان شكل الباسليقا الذي جرت عليه التقاليد ، بل وضعا للبناء تصميماً تكون صرته قبة واسعة لا تتركز على جدران بل على أكتاف ضخمة ، وتسندها نصفاً قبتين من كلا الجانبين . واستخدم في العمل عشرة آلاف عامل ، وأنفق عليه ٣٢٠.٠٠٠ رطل من الذهب (١٣٤.٠٠٠ دولار أمريكي) وهو كل ما كان في خزانة الدولة ، وأمر حكام الولايات بأن يبعثوا إلى الكنيسة الجديدة بأفضل ما بقي من

المخلفات القديمة ، وجيء بعشرات الأنواع والألوان من الرخام من مختلف الأقطار وصبت في القووش والزينات مقادير هائلة من الذهب ، والفضة ، والعاج ، والحجارة الكريمة . واشترك جستنيان نفسه اشتراكاً عملياً في تخطيط البناء وإقامته ، وكان له نصيب غير قليل (كما يقول المؤرخ المداهن الساخر) في حل ما يعترض العمل من المشاكل الفنية . فكان يتردد عليه في كل يوم وعليه ثياب بيض ، وفي يده عصا طويلة ، وعلى رأسه منديل ، يشجع العمال ويحثهم على أن يتقنوا العمل ويتموه في موعده المقرر . وتم بناء الصرح العظيم في خمس سنين وعشرة أشهر ، وفي اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر من عام ٥٣٧ أقبل الإمبراطور والبطريق ميناس يتقدمان موكباً مهيباً لافتتاح الكنيسة المتألثة الفخمة . وسار جستنيان بمفرده إلى المنبر ورفع يديه إلى السماء ونادى قائلاً : « الحمد لله الذي رآني خليقاً بأن أتم هذا العمل الجليل ! أي سليمان ! لقد انتصرت عليك ! » .

وقد خطّ البناء على شكل صليب يوناني طوله ٢٥٠ قدماً وعرضه ٢٢٥ ، وغطى كل طرف من أطرافه بقبة صغرى ، وقامت القبة الوسطى على المربع (البالغ ١٠٠ قدم × ١٠٠) . والمكون من الضلعين المتقاطعين ، وكانت ذروة القبة تعلو عن الأرض مائة قدم وثمانين قدماً وقطرها مائة قدم — أى أقل من قطر قبة الپنثيون في رومة بأثنتين وثلاثين قدماً . وكانت هذه القبة الثانية قد صبت من الأسمنت المسلح قطعة واحدة مصمتة ، أما قبة أياصوفيا فقد بنيت من الآجر في ثلاثين سطحاً تلتقي كلها في نقطة واحدة — وهو طراز أضعف من الطراز الأول (*) . وليست ميزة هذه القبة في حجمها بل في دعائمها : فهي لا تقوم على بناء دائري كما تقوم قبة الپنثيون بل على أربعة من أعلاها ، وعلى عقده

(*) حدث في عام ٥٥٨ زلزال صدع القبة الوسطى فانهارت في صحن الكنيسة ، وأعاد بناءها إزدور بن إزدور المتوفى ، وقوى دعائمها ، ورفعها خميساً وعشرين قدماً فوق ما كانت عليه . وفي هذه القبة شروخ تذكر بأنها تحيا الآن حياة مزعزة .

بين حافتها المستديرة وقاعدتها المربعة . ولم تحلّ هذه المشكلة المعمارية قبل ذلك الوقت حلاً أكثر توفيقاً من هذا . وقد وصف بروكبيوس القبة بأنها « عمل مجيد يبعث الروعة في النفوس . . . وهي لا تبدو قائمة على ما نحتها من البناء بل تبدو كأنها معلقة بسلسلة من الذهب في أبراج السماء » (٣٧) .

وأما من الداخل فكانت الكنيسة صورة رائعة من الزخرف البراق . فقد كانت أرضها وجدرانها من المرمر المتعدد الألوان : أبيض ، وأخضر ، وأحمر ، وأصفر ، وأرجواني ، وذهبي . وأقيم منه كذلك طابقان من العمد ينخل إلى الناظر إليها أنها حديقة من الأزهار . وكانت تيجان العمد ، والعقود وما بينهما ، والأفاريز ، والطفف مغطاة بنقوش على الحجارة مكونة من أوراق الأكنثوس والكرم . وكان يطلّ من الجدران والقباب فسيفساء لا مثيل لها في روعتها وسعتها . وكانت تضيئها أربعون مائلة من الفضة معلقة من حافة القبة تضاف إلى ما فيها من النوافذ الكثيرة . وإن ما يحس به الناظر إلى هذه الكنيسة من سعة تبعثها في نفسه أجنتها الطويلة ، وبنائها الرئيسي ، والفضاء الخالي من العمد تحت القبة الوسطى ؛ وما في حظارها الفضي المواجه للقباء من زخارف معدنية ، والحظار المعدني الجميل الذي في الإيوان الأعلى ، والمنبر المرصع بالعاج والفضة والحجارة الكريمة ؛ وعرش البطريق المصنوع من الفضة المصمتة ، والسجف المنسوجة من خيوط الحرير والفضة ، والتي ترتفع فوق المذبح وعليها صورتا الإمبراطور والإمبراطورة تتلقيان بركات المسيح ومريم ؛ والمذبح الذهبي اللون المصنوع من الرخام النادر الوجود وعليه الأواني المقدسة من الفضة والذهب — وهو بعض ما في الكنيسة من زخرف وزينة — ليجل عن الوصف . ولو أن جستنيان قد تباهى بما تباهى به أبلطرة المغول من بعده ، وهو أنهم كانوا يبنون كما يبنى الجبابرة ، ويزيئون مبانيهم كما يزينها الصياغ ، لكان على حق في مباهاته .

وكانت أياصوفيا بداية الطراز المعماري البيزنطي وخاتمته في آن واحد .

وكان الناس في كل مكان يسمونها « الكنيسة الكبرى » وحتى پروكبيوس المتشكك نفسه تحدثت عنها حديث الرجل المرتاع فقال : « إذا دخل الإنسان هذه الكنيسة للصلاة ، أحس بأنها ليست من أعمال القوي البشرية . . . ذلك أن الروح حين ترقى إلى السماء تدرك أن الله هنا قريب منها ، وأنه يتهمج بهذا البيت ، بيته المختار » (*) .

٤ - من القسطنطينية إلى رافنا

كانت أياصوفيا أجلّ ما قام به جستنيان من الأعمال ، وكانت أبهى على الدهر من فتوحه أو قوانينه ، ولكن پروكبيوس يصف أربعاً وعشرين كنيسة أخرى بناها جستنيان أو أعاد بناءها في عاصمة ملكه . ويقول : « لو رأيت كنيسة منها بمفردها لحسبت أن الإمبراطور لم يبش كنيسة سواها بل قضى سنى حكمه جميعها في بنائها وحدها » (٣) . وظلت حتى البناء منتشرة في جميع أنحاء الإمبراطورية طوال حياة جستنيان ، حتى كان القرن السادس وهو بداية العصور المظلمة في الغرب من أكثر العصور ازدهاراً في تاريخ العمارة في الشرق . فكانت ألف كنيسة في إفسوس ، وأنطاكية ، وغزة ، وبيت المقدس ، والإسكندرية ، وسلاطيك ، ورافنا ، ورومة ، والبلاد الممتدة من كرش في بلاد القرم إلى صفاقس في شمالي أفريقية ، تحتفل بانتصار المسيحية على الوثنية ، وبالطراز الشرقي - البيزنطي على الطراز اليوناني - الروماني . وحلت العقود والقباب محل الأعمدة الخارجية ، والعوارض ، والقواصر ، والطنف . وازدهرت في سوريا

(*) لما استولى الأتراك على القسطنطينية في عام ١٤٥٣ غطوا فسيفساء أياصوفيا بالحص ، لكراهيتهم ما عليها من صور منحوتة ، يمدونها من عبادة الأصنام . ولكن الحكومة التركية قد أذنت منذ قليل إلى طائفة من المال من الممهد البيزنطي ببسطن بولاية مشوشتمس أن يكشفوا عن هذه النماذج الفنية من أعمال الفسيفساء التي لا تسمر عليها نماذج أخرى في العالم كله . وكاد الفاتحون الأتراك يكفرون عما فعلوه بهذه الكنيسة بإقامة أربع مآذن رشيقة تتناسب أتم التناسب مع أشكال القباب .

نهضة حقبة في القرن الرابع ، والخامس ، والسادس ؛ فكانت مدارسها القائمة في أنطاكية ، وببيروت ، والرها ، ونصيبين ، تخرج العدد الجهم من الخطباء ، والمحامين ، والمؤرخين ، والخارجين على الدين . وبرع صنّاعها في أعمال الفسيفساء ، والنسيج ، وجميع الفنون الزخرفية ، وشاد مهندسوها مائة كنيسة زينها مثالوها بما لا حصر له من النقوش البارزة .

وكانت الإسكندرية المدينة الوحيدة في الإمبراطورية التي كان ازدهارها متصلاً لم ينقطع أبداً . ذلك أن مؤسسها قد اختارها مكاناً يكاد يرغم عالم البحر المتوسط على استعمال مرافئها وزيادة تجارتها . ولم تبق الأيام على شيء مما أقيم فيها من عمائر في تاريخها القديم أو في أوائل العصور الوسطى ، ولكن ما بقي من أعمالها في المعادن ، والعاج ، والخشب ، والتصوير ، متفرقاً في أماكن مختلفة يوحي بأن أهلها قد بزوا غيرهم في الشهوانية ، والحمية الدينية . وكان الطراز الشرقي في عهد جستنيان هو الطراز الغالب في فن العمارة القبطية الذي بدأ بالباسلقة الرومانية .

وبدأ مجد رافنا المعماري بعد أن اتخذها هونوريوس عاصمة الإمبراطورية الغربية في عام ٤٠٤ بزم من قليل . وعم الرخاء المدينة في الفترة الطويلة التي كانت فيها جلا بلاسيديا Galla Placidia نائبة عن الإمبراطور ، وكانت صانها الوثيقة بالقسطنطينية سبباً في قدوم الصنائع الشرقيين ، واختلاطهم بالمهندسين الإيطاليين ، وفي دخول الأنماط الشرقية وامتزاجها بالأشكال الإيطالية . وظهر فيها الطراز الهندسي الشرقي المؤلف من قبة مقامة على قاعدة ذات شكل صليبي منذ عام ٤٥٠ في الضريح الذي لقيت فيه بلاسيديا رها ؛ ولا يزال في وسعنا أن نرى فيه النقش الفسيفسائي الدائع الصيغ الذي يمثل المسيح في صورة الراعي الصالح . وفي عام ٤٥٨ أضاف الأسقف نيون Neon إلى مكان التعميد المقبب في باسلقة أرسيانا Basilica Ursiana سلسلة من قطع الفسيفساء من بينها صورة مفردة.

للمرسل . وشاد ثيودريك حوالى عام ٥٠٠ كنيسة كبرى سماها باسم القديس ايلينارس الذى يقال إنه مؤسس العشيرة المسيحية فى راقنا . وهنا يظهر على الفسيفساء التى طبقت شهرته آفاق العالم القديسيون ذوو الثياب البيض فى وقارهم الشديد الذى يذئ ببداية الطراز البيزنطى .

وكان استيلاء بليساريوس على راقنا من الأسباب التى عجلت بانتصار الفن البيزنطى فى إيطاليا . وسرعان ما تمت كنيسة سان فيتالى San Vitale (٥٤٧) فى عهد جستينيان وثيرودورا ، اللذين وهباها المال اللازم لتزيينها ، كما وهباها أيضاً وجهيهما غير الجذابين لينقشا على جدرانها . وما من شك فى أن الإمبراطور والإمبراطورة قد أوتيا حظاً كبيراً من الشجاعة إذ أجازا أن تنقل صورتاهما إلى الخلف . ومواقف أولئك الحكام ، والقساوسة ، والحصيان تذبئ كلها عن صلابة وحدة فى الطباع ، وإن مظهرها الأمامى الجامد ليعد انقلاباً فى الصور التى كنا نشهدها قبل عصور اليونان والرومان الأقدمين . وأثواب النساء كثيرة الزركشة تعلن انتصار نقوش الفسيفساء ؛ ولكننا لانجد هنا رشاقة مواكب البارثون المرححة السعيدة ، أو نصب السلام لأغسطس أو ما نشاهده فى الصور المنقوشة على أبواب شارترز وريمز من نبل ورقة .

وبعد عامين من افتتاح كنيسة سان فيتال افتتح أسقف راقنا كنيسة سانت ايلينارى فى كلاس Classe وهى ثانى كنيسة أقيمت لهذا القديس راعى المدينة ؛ وكان موضعها فى ضاحيتها التى على شاطئ البحر ، والتى كانت فى وقت ما قاعدة الأسطول الرومانى على البحر الأدريوى . ونشاهد فيها التصميم الباسلى الرومانى القديم ، ولكن تيجان الأعمدة المختلطة الأشكال تظهر عليها مسحة بيزنطية تم عنها أوراق الأقنتا(*) الملفوفة الملتوية على خلاف ما كان يظهر فى الأنماط اليونانية والرومانية القديمة ، كأنما هبت عليها ربح شرقية . وإن ما فى هذه الكنيسة من

(*) Acanthus ويسمى أيضاً الكنكر ، وشوك الجمل ، وشوك اليهود .

صفوف الأعمدة الكاملة الطويلة ، وفي حلقات العقود والمثلثات المحصورة بينها ، من فسيفساء زاهية (من القرن السابع) ، وما في وضع المرئيين من اوحات جميلة من المصيص ، وما في الصليب القائم في القبا من الجواهر مرصعة بها أرضية من النجوم في الفسيفساء ، إن في هذا كله ما يجعل هذه الكنيسة من أشهر كنائس شبه الجزيرة التي تكاد تكون كلها معرضا عظما للفنون الجميلة .

٥ - الفنون البيزنطية

لقد كان فن العمارة أروع ما خلفه الفنان البيزنطي ، ولكنه كان في ثناياه أو من حوله فنون أخرى كثيرة نبغ فيها نبوغا خليقا بالتنويه . نعم إنه لم يكن يعنى بالنحت المجسم ، وأن مزاج العصر كان يفضل الألوان على الخطوط ، ولكن بروكبيوس يثنى على المثاليين في ذلك العصر ، وأكبر الظن أنه يعنى بهم أصحاب النقش البارز ، ويقول إنهم لا يقلون مهارة عن هدياس وبركستاز ، ولنا لنجد على بعض التوابيت الحجرية المصنوعة في القرن الرابع والخامس والسادس صوراً آدمية منحوتة برشاقة تكاد تضارع الرشاقة الهلينية ، مختلطة بها كثير من نقوش الزينة الآسيوية . وكان النقش على العاج من الفنون المحببة إلى البيزنطيين ، وكانوا يصنعون منه ألواحاً ذات طيتين أو ثلاث طيات ، ويجلدون به الكتب ، ويصنعون منه العلب ، وصناديق العطور ، والتماثيل الصغيرة ، ويطعمون به التحف ويزينون به ما لا يحصى من الأشياء . وقد بقيت الفنون الهلنستية في هذه الصناعة لم يمسخها سوء ، وكل ما حدث فيها أنها استبدلت المسيح والقديسين بالآلهة والأبطال . وإن الكرسي العاجي الذي كان يجلس عليه الأسقف مكسميان في الباسلغا أرسيا Basilica Ursiana (حوالي ٥٥٠) ليعد تحفة عظيمة في فن من الفنون الصغرى .

وبينا كان الشرق الأقصى يجرى التجارب على الرسم بألوان الزيت (٤٠) ،

كان التصوير البيزنطى لا يزال مستمسكا بالأساليب اليونانية التقليدية كشيئت ألوان الرسوم بالحرارة - بحرق الألوان فى سطوح الخشب ، والخيش ، ونسيج التل ؛ وكالمظلمات يصنعونها بخلط الألوان بالجير ووضعها على سطوح من الجبس المبلل ، ومزج اللون بمحلول الماء والصمغ أو الغراء وبزالال البيض ثم وضعها على المربعات الخشبية أو على الجبس بعد أن يجف . وقد عرف الرسام البيزنطى كيف يمثل البعد والعمق ، ولكنه كان يهرب عادة من صعاب المنظور بأن يملأ خلفية الصورة بالمباني والسجف . وقد أخرج عدداً كبيراً من اللوحات المصورة ، ولكنها لم يبق منها إلا القليل . وكانت جدران الكنائس تزدان بالرسوم . وتدل القطع الباقية منها على الواقعية غير المتقنة كالأيدى العديمة الشكل ، والأجسام الصغيرة ، والوجوه الشاحبة ، والشعر المصنف تصنيفاً غير معقول .

وقد برع الفنان البيزنطى فى الأشياء الدقيقة وأظهر فيها مرحة وظرفه . وليست روائع التصوير الباقية إلى هذا اليوم من أعماله هى رسوم الجدران أو اللوحات الكثيرة ، بل هى الرسوم الصغيرة ذات الألوان البراقة التى كان يزين بها ما ينشر من الكتب فى عصره . ذلك أن الكتب كانت كثيرة النفقات فى ذلك العصر ، ولهذا كانت تحلى كما يحلى غيرها من الأشياء النفيسة . وكان الفنان يبدأ عمله هذا برسم ما يريده من الحلقات على البردى أو الرق أو الجلد بفرشاة دقيقة أو قلم ، ثم يضع أرضية تكون عادة ذات لون ذهبى أو أزرق ، ثم يضع ما يريده من الألوان ، ثم يزين الأرضية والحواشى بأشكال رشيقة دقيقة . وكان فى بادئ الأمر يقتصر على تحسين الحرف الأول من كل فصل أو صفحة ، وكان يحاول فى بعض الأحيان أن يرسم صورة للمؤلف ، ثم انتقل بعدئذ إلى توضيح النصوص بالصور ؛ فلما تقدم فنه آخر الأمر كاد ينسى النص ويملاً الكتاب بالزخارف ويبنيها على أساس هندسى أو رمز دينى يكرره بأشكال مختلفة يخططها

الحصر ، حتى تصبح الصفحة كلها وكأنها صورة واحدة بدبعة من الألوان والخطوط كأن النص دخیل علیها من عالم أكثر منها خشونة .

وكانت زخرفة المخطوطات مألوفة فی مصر أيام الفراعنة والبطلمية ، ثم انتقلت منها إلى بلاد اليونان الهلنستية ورومة . وتحتفظ الفاتيكان بإنيادة ، والمكتبة الأمبروزية * ميلان بإليادة ، تعزى كلتاها إلى القرن الرابع ؛ وهما مزدانتان زينة يونانية ورومانية قديمة ، ويبدو الانتقال من الزخرفة الوثنية إلى المسيحية واضحاً في *الطبوغرافية المسيحية* لصاحبها كزماس انديكبلوستيز Cosmas Indicoplestes (حوالى ٥٤٧) . وقد نال لقبه هذا « إنديكبلوستير » لأنه سافر إلى الهند بجرأ ، كما نال شهرته لأنه حاول أن يثبت أن الأرض مستوية . وأقدم كتاب ديني مزخرف باق إلى هذا اليوم هو سفر التكوين المكتوب من القرن الخامس والم محفوظ الآن في مكتبة فيينا . والنص مكتوب بحروف من الفضة والذهب على أربع وعشرين « ورقة » من الجلد الأرجواني الرقيق . ويحتوى على أربعة وعشرين زخرفاً بيضاء وخضراء ، وبنفسجية ، وحمراء ، وسوداء ، تصور قصة الإنسان من سقوط آدم حتى موت يعقوب . ولا يقل عنه جمالا المائف الصغير لكتاب *يوسع* المحفوظ في الفاتيكان وكتاب *الأنجيل* الذي زخرفه الراهب رابولا Rabula في أرض الجزيرة في عام ٥٨٦ . ومن أرض الجزيرة وسوريا جاءت الصور والرموز التي كانت لها الغلبة في الكتابة التصويرية التي ذاعت في العالم البيزنطى . وقد تكررت هذه الكتابة في الفنون الصغرى واتخذت لها ألف شكل وشكل حتى ثبتت وأصبحت تقليداً وعرفاً متبعاً ، وكان لها نصيب موفور في جمود الفن البيزنطى .

ولإذا كان المصور البيزنطى مولعاً بالتصوير البراق الدائم فقد اتخذ الفسيفساء وسيلة إلى هذين الفرضين . ومن أجل هذا اختار لأرض حجراته مربعات، من

الرخام الملون كما كان يفعل المصريون واليونان والرومان من قبل . أما السطوح الأخرى فكان يستخدم فيها مكعبات من الزجاج أو الميناء من جميع الألوان ومختلف الحجم ، ولكن سطحها في العادة كان يبلغ $\frac{1}{8}$ بوصة مربعة . وكانت الحجارة الثمينة تختلط أحيانا بالمكعبات ، وكثيراً ما كانت الفسيفساء تستخدم في صنع الصور الصغيرة والنصمات (*) التي توضع في الكنائس أو البيوت . أو تحمل في الأسفار عوناً لأصحابها على الزمن ودليلاً على التقى والخشوع . غير أن صانع الفسيفساء كان يفضل على هذه الصور الصغرى مجالا أوسع هو جدران الكنائس والقصور . فكان في مرسمه يجرب وضع المكعبات على قطعة من الخيش عليها رسم ملون . وهنا كان يجهد عبقريته الفنية ليضع تحت يده الألوان المدرجة الذائبة بعضها في بعض كما يجب أن يراها الناظر من بعيد . وفي هذه الأثناء كانت طبقة من الأسمنت الغليظ ، ثم طبقة أخرى من الأسمنت الرقيق توضعان على السطح المراد تغطيته . ثم يأتي صانع الفسيفساء ويضغط مكعباته في هذا القالب على غرار النموذج الذي وضعه لنفسه فوق خيشه ، وقد جرت عادته على أن يضع حافاتها المقطوعة إلى الأمام لكي يقع عليها الضوء . وكان يفضل السطوح المنحنية كسطوح القباب ، وأنصاف القباب الشبيهة بالأصداف لأنها تمتص في أوقات مختلفة وبزواياها المختلفة أنواعاً عدة من الأضواء المظلمة . ومن هذا الفن الشاق الذي يتطلب المهارة والجلد ألهم الفن القوطي في مستقبل الأيام غير قليل من فن تلوين الزجاج .

وقد ورد ذكر هذا الزجاج الملون في النصوص الباقية من القرن الخامس ، ولكن شيئاً منه لم يبق حتى الآن ، ويبدو أن صبغته كانت من خارجه لم تترج فيه مزجاً^(٤١) . وكان صنع الزجاج بالنفخ وتقطيعه قدمضى عليهما الآن ألف عام ،

(*) النصمة الصورة تعبد وقد ترجمنا بها كلمة icon . (المترجم)

وكانت سوريا ، أقدم مواطن الصناعتين ، لا تزال مركزاً من مراكزهما .
وكان فن الحفر على المعادن الثمينة والحجارة الكريمة قد انحط بعد أيام
أورليوس ؛ ولهذا نرى الجواهر ، والنقود ، والأختام البيزنطية غير دقيقة
الشكل والصناعة . لكن الصناع مع هذا كانوا يبيعون منتجاتهم لكل طبقة
من الطبقات تقريباً ، لأن البيزنطيين كانوا مولعين أشد الولع بالحلى . وكانت
محال صنع التحف الذهبية والفضية كثيرة العدد في العاصمة ؛ كما كانت الحقائق ،
والأقداح ، وعلب المخلفات المصنوعة كلها من الذهب تزدان بها كثير من
مذابح الكنائس ؛ وكانت الصحف الفضية تغطي مواثد ذوى اليسار .

وكان في كل بيت ، بل يكاد يكون لدى كل شخص ، شئ من النسيج
الرقيق . وكانت لمصر الزعامة في هذا الميدان بما كان فيها من منسوجات
رقيقة ، متعددة الألوان ، مزدانة بالصور ، تصنع منها الثياب ، والستر ،
وأغطية الفراش ، وكان قبط مصرية هذه الميادين . وتكاد بعض الأقمشة
المصرية التي كانت تزدان بها الجدران في تلك الأيام تضارع من الناحية الفنية
أقمشة الجوبلين Gobblins^(١٧) . وكان النساجون البيزنطيون ينسجون الحرير
المطرز ، والثياب المطرزة ، بل والأكفان المطرزة أيضاً — فقد كانت
المنسوجات التيلية تصور عليها بالفعل ملامح الموتى . وكان الناس في القسطنطينية
يعرفون بما يلبسونه من الثياب ، ذلك أن كل طبقة من أهلها كانت تعز بنوع
خاص من الثياب يميزها من غيرها وتدافع عنه أقوى دفاع ، وما من شك
في أن أية جماعة بيزنطية كانت تبدو للناظر يرآفة كذيل الطاووس .

وكانت الموسيقى محبة لجميع الطبقات منتشرة بينها ، وكان لها شأن متزايد
في طقوس الكنيسة ، وقد أعانت على مزح الباطفة بالعقيدة . وقد كتب أليوس
Alypius في القرن الرابع مقبرة ~~موسس~~ بقيت منها حتى الآن أجزاء هي أهم
ما نسترشد به في قراءة للعلامات الموسيقية اليونانية . وقد استبدلت في ذلك القرن

بالحروف الهجائية التي كانت تمثل بها الأنغام علامات رمزية ؛ ويبدو أن أمبروز هو الذي جاء بهذه العلامات إلى ميلان ، وأن هيلارى Hilary هو الذي أدخلها في غالة ، وجيروم في رومة . وألف رومانوس Romanus ، الراهب اليوناني في أواخر القرن الخامس ألفاظ الترانيم التي لا تزال حتى الآن جزءاً من الطقوس الدينية اليونانية ولحنها ؛ وليس ثمة ما يضارع هذه الترانيم في عمق الشعور وقوة التعبير . وكتب بويتيوس مقالا في الموسيقى لخص فيه نظريات فيثاغورس وارمستكسنوس Aristoxenus وبطليموس ؛ وقد ظلت هذه الرسالة تدرس في جامعتي أكسفورد ، وكمبرج يوم كنا نحن طلاباً (٤٣) .

وبعد ، فإن من واجب الإنسان أن يكون شرقياً إذا شاء أن يفهم الفن الشرقي على حقيقته . وإن المعنى الجوهرى الذى يدركه العقل الغربى من النزعة البيزنطية هو أن الشرق قد سرى في قلوب اليونان وتغلغل في أفئدتهم : في الحكومة الأنوقراطية ، وفي الطبقات المتدرجة الثابتة ، وفي ركود العلم والفلسفة ، وفي الكنيسة الخاضعة لسلطان الدولة ، والشعب الخاضع لسلطان الدين ، وفي الثياب الفخمة والحفلات العظيمة ، والطقوس الدينية ذات الألفاظ الطنانة الرنانة والمناظر الرائعة ، والنغمات الموسيقية الساحرة المتكررة التي تستحوذ على النفوس ؛ وتغمر الحواس بفيض من الألوان البراقة ؛ وأخضع الطبيعة للخيال ، والنمى التمثيلى للفن الزخرفى . ولقد كان من شأن الروح اليونانى القديم أن يجد هذا كله غريباً عنه لا يطيقه ، ولكن بلاد اليونان نفسها قد أضحت وقتئذ جزءاً من الشرق . وغلبت على العالم اليونانى كلاله أسيوية فيه في الوقت الذى كانت فيه بلاد الفرس المتجددة الحيوية ، وكانت قوة الإسلام العظيمة التي لا يكاد العقل يدرك مداها ، نقول في الوقت الذى كانت فيه هذه وتلك تنازعاها حياتها نفسها .

الباب السابع

الفرس

٣٣٤ - ٦٤١

الفصل الأول

المجتمع الساساني

ومن وراء نهر الفرات أو دجلة كانت تقوم طوال تاريخ اليونان ورومها تلك الإمبراطورية التي تكاد تكون خافية على العالم الغربي ، والتي لبشت ألف عام تصد أوروبا المتوسعة وجحافل آسية الهمجية ، لا تنسى قط ما ورثته من مجد الأكيمينين ، وتنتعش على مهل مما أصابها في حروب البارثيين ، وتحفظ في زهو وخيلاء بثقافتها الأرستقراطية الفذة تحت حكم ملوكها الساسانيين الأشداء الشجعان ، احتفاظاً أمكنها به أن تحوّل فتح المسلمين لإيران إلى نهضة فارسية جليلة الشأن .

وكان لفظ إيران في القرن الثالث الميلادي أوسع معنى من لفظ إيران أوفارس في هذه الأيام . فقد كانت ، كما يدل اسمها أرض ، «الآرين» ، وكانت تشمل أفغانستان وبلوخستان ، وسنجديانا ، وبلخ والعراق . ولم تكن فارس ، وهي الاسم القديم لإحدى الولايات الحديثة ، إلا جزءاً صغيراً يقع في الجنوب الشرقي من هذه الإمبراطورية ، ولكن اليونان والرومان الذين لم يكونوا يعنون بشئون «البرابرة» أطلقوا اسم الجزء على الكل . وكان يخرق إيران في وسطها من الجنوب الشرقي بحبال هماليا إلى الشمال الغربي بحبال القفقاس حاجز جبلي

يقسم البلاد قسمين ، فى الشرق منه هضبة عالية جدباء ، وفى الغرب وديان خضراء يسقيها النهران التوأمان ، ويجرى ماء فيضانهما الموسمى فى شبكة من القنوات تكسب البلاد الحصب والنماء فتنبت أرضها القمح ، والبلح ، والعنب ، والفاكهة . وكان بين النهرين ، وعلى ضفافهما ، وفى ثنايا التلال ، وواحات الصحراء ، عدد لا يحصر له من القرى وعشرات المئات من البلدان وعشرات من المدائن الكبيرة : منها إكباتانا ، والرى ، وموصل ، واصطخر (برسپوليس القديمة) ، والسوس ، وسلوقية ، وطيسفون (المدائن) العظيمة عاصمة الملوك الساسانيين .

ويصف أميانوس الفرس فى ذلك الوقت بأنهم « يكادون كلهم يكونون نحاف الأجسام ، تتمر البشرة إلى حدما . . . لهم لحى على جانب من الظرافة ، وشعر طويل أشعث »^(١) . غير أن الطبقات العليا لم تكن ذات شعر أشعث ، ولم يكن أفرادها نحاف الأجسام على الدوام ، وكان يغلب عليهم الجمال ، وكانوا ذوى أنفة وكبرياء ، ودماثة فى الأخلاق ، يميلون إلى الرياضة الشاقة الخطرة ، والثياب الفخمة . وكان رجالهم يلبسون العمام على رؤوسهم ، والسراويل المنتفخة فى سيقانهم ، والصنادل أو الأحذية ذات الأربطة فى أقدامهم . وكان أغنيائهم يلبسون معاطف أو جلابيب من الصوف والحرير ويتمنطقون بمناطق يعلقون فيها السيوف . أما الفقراء فكانوا يقنعون بأثواب من نسيج القطن ، أو الشعر ، أو الجلد . وكان النساء يلبسن أحذية طويلة ، وسراويل قصيرة ، وقمصاناً واسعة ، وعباءات أو أثواباً مهفهفة ، ويعقصن شعرهن الأسود من الأمام فى غديرة يتركنها تنوس خلفهن ويزينها بالأزهار . وكانت جميع الطبقات مولعة بالزينة والألوان الجميلة . وكان الكهنة والزرادشتيون المتحمسون يلبسون ثياب القطن الأبيض يرمزون به إلى الطهارة ، أما قواد الجند فكانوا يفضلون اللون الأحمر ، وكان الملوك يميزون أنفسهم من سائر الطبقات بالأحذية القصيرة الحمراء ، والسراويل الزرقاء ، وأغطية للرءوس تعلوها كرات منتفخة أو رؤوس حيوانات

أو طيور . وكانت الملابس في بلاد الفرس ، كما كانت في جميع المجتمعات المتحضرة ، تكون نصف الرجل أو أكثر قليلا من نصف المرأة .

وكان الرجل الفارسي العادي المتعلم سريع الانفعال كالرجل الغالي ، شديد التحمس ، كثير التقلب ؛ يغلب عليه الحمول ، ولكنه سريع التيقظ ، يميل بطبعه إلى « الحديث الجنوني ، يسرف فيه إسرافاً ... أميل إلى الدهاء منه إلى الشجاعة ، لا يخافه إلا البعيدون عنه »^(٢) — أى حيث يكون أعداء الفرس . وكان فقراؤهم يشربون الجعة ، ولكن الطبقات كلها تقريبا ، بما فيها الآلهة ، كانوا يفضلون النبيذ ؛ فقد كان أتقياء الفرس والمقتصدون منهم يصبونهم حسب الطقوس الدينية ، وينتظرون حتى تأتي الآلهة لتشربه ، ثم يشربون هم بعدها الشراب المقدس^(٣) . ويصف المؤرخون الفرس في عصر الساسانيين بأنهم أغلظ أخلاقا مما كانوا في عهد الأكيميانيين ، وأرق منهم في عهد البارثيين^(٤) ، ولكن قصص پروكسيوس تحملنا على الاعتقاد بأن الفرس ظلوا طوال العهود أحسن أخلاقا من اليونان^(٥) . ولقد أخذ أباطرة الروم عن البلاط الفارسي نظم حفلاتهم وطرائقهم الدبلوماسية . وكان ملوكهم المتنافسون يخاطب بعضهم بعضاً بلفظ « الأخ » . ويضمنون للدبلوماسيين الأجانب سلامتهم من الاعتداء ومرورهم سالمين بأرضهم ، ويعفونهم من التفتيش الجمركي والعوائد^(٦) . وفي وسعنا أن نرجع التقاليد الدبلوماسية المتبعة في أوروبا وأمريكا إلى الأساليب التي كانت متبعة في بلاط ملوك الفرس .

ويقول أميانوس إن « معظم الفرس يسرفون في الجماع »^(٧) ، ولكنه يعترف مع ذلك بأن اللواط والدعارة كانا أقل انتشاراً بينهم مما كانا بين اليونان . وقد امتدح عماليل الفرس لثلاث صنمات فيهم فقال : « هم معتدلون في الطعام ، قنوعون في علاقاتهم الخاصة وفي العلاقات الزوجية »^(٨) . وكانوا يستخدمون كل الوسائل لتشجيع الزواج وزيادة المواليد ، حتى يكون لهم من الأبناء ما يسد مطالب الحرب

ولهذا كان إله الحب عندهم هو المريخ لا فينوس . وكان الدين يأمر بالزواج ، ويحتفل به احتفالاً مصحوباً بطقوس رهيبة ، ومن تعاليمه أن الإخصاب يقوى أهورا مزدا إله النور. في صراعه العالمى مع أهرمان وهو الشيطان في الديانة الزرادشتية^(٩) . وكان رب البيت يعبد أسلافه حول نار الأسرة ، ويطلب الأبناء لكى يضمن لنفسه العناية به وعبادته فيما بعد ، فإذا لم يولد له أبناء من صلبه تبنى ولداً من أبناء غيره . وكان الآباء هم الذين ينظمون عادة زواج أبنائهم يساعدهم في هذا غالباً موثق رسمى لعقود الزواج ، ولكن المرأة كان في وسعها أن تتزوج على خلاف رغبة والديها . وكانت البائئات والهبات تقوم بنفقات الزواج المبكر والأبوة المبكرة . وكان يسمح للرجال بتعدد الزوجات . وكان يُوصى به إذا كانت الزوجة الأولى عاقراً . وكان الزنى منتشرأ^(١٠) . وكان في وسع الزوج أن يطلق زوجته إذا خانت ، كمان كان في وسع الزوجة أن تطلق زوجها إذا هجرها أو قسا عليها . وكان التسرى مباحا . وكان لهؤلاء المحظيات كما كان لنظائرهن عند اليونان ، الهتايراي hetairai ، الحرية الكاملة في أن يسرن أمام الجماهير وأن يحضرن مآدب الرجال^(١١) . أما الزوجات الشرعيات فكان في العادة يبقين في أجنحة خاصة بهن في البيوت^(١٢) ، وقد ورث المسلمون عن الفرس هذه العادة القديمة . وكانت نساء الفرس ذوات جمال بارع ، ولعله كان من الصواب أن يمنع الرجال من الاختلاط بهن . والنساء في شاهنامه الفردوسى هن اللائى يبدأن بخطبة الرجال وإغوائهم ، وكانت مفاتن النساء تغلب على قوانين الرجال .

وكان يستعان على تربية الأبناء بالعقيدة الدينية ، ويبدو أن هذه كان لا بد منها لتمدعيم سلطان الأبوين . وكانوا يسلون أنفسهم بألعاب الكرة ، والرياضة البدنية ، والشطرنج^(١٣) ، ويشتركون منذ نعومة أظفارهم في وسائل التسلية التى يمارسها الكبار كالضرب بالنبال ، وسباق الخيل ، وحجف الكرة ، والصيد . وكان كل ساسانى يرى في الموسيقى عوناً لا بد منه في شئون الدين ، والحب ،

والحرب . وفي هذا يقول الفردوسى إن الموسيقى وأغاني النساء الجميلات كانت تلازم المآدب وحفلات الاستقبال الملكية^(١٤) . وكانت القيثارة ، والناي ، والمزمار ، والقرن ، والطبلة ، وغيرها من الآلات الموسيقية كثيرة عندهم . وتؤكد الرواية الماثورة أن برباد مغنى كسرى أبرويز ألف ٣٦٠ أغنية ، ظل يغنى فى كل ليلة واحدة منها لسيدة عاما كاملا^(١٥) . وكان للموسيقى كذلك شأن كبير فى التعليم ؛ فقد كان مقر المدارس الابتدائية هو أبنية الهياكل ، وكان الكهنة هم الذين يقومون بالتعليم فيها . أما التعليم العالى فى الآداب ، والطب ، والعلوم ، والفلسفة فكان يتلقى فى دار المجمع العلمى الشهير فى غنديسابور فى سوريانا . وكان أبناء أمراء الإقطاع وحكام الولايات يعيشون فى الغالب بالقرب من الملوك ، وكانوا يتلقون العلم مع أمراء الأسرة المالكة فى مدارس كبرى متصلة بالبلاط^(١٦) .

وظلت اللغة الفهلوية الهندى — أوروبية لغة فارس الهارثية هى المستعملة فى البلاد . ولم يبق مما كتب بها فى ذلك العهد إلا نحو ٦٠٠ ر ١٠٠ كلمة كلها تقريبا تبحث فى شئون الدين . لكننا نعلم أنها كانت لغة واسعة^(١٧) ؛ غير أن الكهنة كانوا هم حفظها وناقلها ، ولذلك تركوا الكثير مما كتب بها فى غير الدين يفنى على مر الزمان (ولعلنا قد نحدِّدنا بخطأ شبيهة بهذه الخدعة فظننا أن الكثرة الغالبة مما كتب من أدب العصور الوسطى فى العالم المسيحى كان أدبا دينيا) . وكان الملوك الساسانيون ملوكا مستنيرين يناصرون الأدب والفلسفة ، وكان أكثرهم مناصرة لها كسرى أنوشروان ، فقد أمر بترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلى اللغة الفهلوية ، وبتدريس هذه الكتب فى غنديسابور ، بل قرأها هو نفسه . وقد كتب فى عهده كثير من المؤلفات التاريخية لم يبق منها كلها إلا الكرناكى — أرتخستر أو أعمال أروشير وهو مزيج من التاريخ والقصص كان هو الأساس الذى استمد منه الفردوسى كتاب الشاهنامه . ولما أغلق جستنيان مدارس أثينة فرسبعة من أساتذتها إلى فارس ووجدوا لهم فى بلاط كسرى ملجأ آمينا .

ولكنهم حينئذ فيها بعد إلى أوطانهم ، فاشترط الملك « البربري » في المعاهدة التي عقدها مع چستنيان عام ٥٣٣ أن يسمح للحكام اليونان بالعودة إلى أوطانهم وألا يمسهم أى أذى .

وفي عهد هذا الملك المستنير أصبحت كلية غنديسابور التي أنشئت في القرن الرابع أو الخامس « أعظم المراكز الثقافية في ذلك العهد »^(١٨) ، ويهرع إليها الطلاب والمدرسون من كافة أنحاء العالم . وكان يؤمها النساطرة المسيحيون ، الذين جاءوا معهم بتراجم سريانية لكتب الطب والفلسفة اليونانية . وجاء إليها أتباع الأفلاطونية الجديدة وبنبروا فيها بذور العقائد الصوفية ، وامتزجت فيها علوم الطب الهندية ، والفارسية ، والسورية ، واليونانية ، ونتج عنها مدرسة للعلاج مزدهرة ناجحة^(١٩) . وكان المرض حسب النظرية الفارسية ينتج إذا دنس أو تلوث زكن أو أكثر من الأركان أو العناصر الأربعة — النار ، والماء ، والتراب ، والهواء . ويقول أطباء الفرس وكهنتهم إن الصحة العامة تتطلب إحراق كل المواد المتعفنة ، وإن صحة الأفراد تتطلب الطاعة التامة لقانون الطهارة الزرداشتي^(٢٠) .

ولسنا نعرف عن علم الفلك عند الفرس في ذلك الوقت أكثر من أنه قد احتفظ لهم بتقويم منظم ، وأن سنتهم كانت تنقسم إلى اثني عشر شهراً في كل منها ثلاثون يوماً ، وأن الشهر كان ينقسم إلى أربعة أسابيع ، اثنان منها يحتوي كل منهما على سبعة أيام واثنان في كل منهما ثمانية ، وأنهم كانوا يضيفون خمسة أيام في آخر العام^(٢١) . وكان التنجيم والسحر منتشرين في البلاد ، فلم يكونوا يقدمون على عمل هام دون الرجوع إلى أبراج النجوم ، وكانو يعتقدون أن جميع مصائر الناس على هذه الأرض تحددها النجوم الطيبة والخبيثة التي تحترق في السماء — كما تحترق الملائكة والشياطين في النفس البشرية — حرب أهورا مزدا وأهرمان القديمة .

وأعاد الملوك الساسانيون إلى الدين الزرادشتي ما كان له من سلطان ورونق . فوهبت الأراضي والعشور إلى الكهنة ، وأسس نظام الحكم على أساس الدين كما كانت الحال في أوربا ، وعين كاهن أكبر ذو سلطان لا يفوقه سلطان الملك نفسه رئيساً لطائفة الكهنة المجوس الوراثية ، التي كانت تشرف على جميع نواحي الحياة الذهنية في فارس ، إلا القليل منها ، وكانت تنذر كل من تحدثه نفسه بالإثم أو بالخروج على سلطان الدولة بالعذاب الدائم في الجحيم ؛ وظلت تسيطر على عقول الفرس وعلى جماهير الشعب مدى أربعة قرون (٢٢) . وكانوا من حين إلى حين يحمون الأهلين من عسف الجباة والفقراء من استبداد الحكام (٢٣) . وقد بلغ من ثراء هذه الجماعة أن كان الملوك أنفسهم يستدينون أموالاً طائلة من خزائن الهياكل . وكان في كل بلدة كبيرة معبد للنار تشتعل فيه نار مقدسة يقولون إنها لا تنطفئ أبداً وترمز إلى إله النور . وكانوا يعلمون الناس أن حياة الفضيلة الطاهرة وحدها هي التي تنجي الروح من أهرمان ؛ وكان لابد للروح في حربها القائمة على الشيطان من أن تستعين بكهنة المجوس وبما يعرفونه عن الغيب ، وبرقاهم وسحرهم ، ودعواتهم . فإذا ما نالت الروح هذه المعونة سمت إلى درجة القداسة والطهارة ، وخرجت سالمة من محكمة يوم الحساب الرهيبة ، واستمتعت بالنعيم المقيم في الجنة .

وكانت أديان أخرى أقل منزلة من هذا الدين الرسمي تجدها مكاناً حوله . فكان مئراس إله الشمس المحبب للپارثيين يعبد بين عدد قليل من أفراد الشعب بوصفه مساعداً لأهورا مزدا . ولكن الكهنة الزرداشتيين كانوا يعدون الخروج على الدين القومي ، كما يعده المسيحيون ، والمسلمون ، واليهود جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام . وشاهد ذلك ما حدث حين قام ماني Mani (حوالى ٢١٦ — ٢٧٦) يدعى أنه رسول رابع مكمل لبوذا ، وزرادشت ، ويسوع ، ويدعو إلى دين قوامه العزوبة ، والسلام ، والهدوء ، إذ صلب بناء على طلب

المجوس ذوى النزعة الحربية القومية ، واضطر أنبأه إلى العمل على نشر دينهم فى خارج البلاد . أما اليهودية والمسيحية فكانتا بوجه عام تلقيان من الملوك والكهنة الساسانيين كثيراً من التسامح ، كما كان البابوات أكثر تسامحاً مع اليهود منهم مع المارقين من الدين المسيحى . وقد وجد كثير من اليهود ملجأ لهم فى الولايات الغربية من الإمبراطورية الفارسية . وكانت المسيحية قد ثبتت دعائمها فى تلك الولايات حين جلس الساسانيون على العرش ، وظلت لا تلقى معارضة منهم حتى أصبحت الدين الرسمى لعدوى الفرس القديمين وهما بلاد اليونان ورومة ؛ فلما أن اشتبك قساوستها اشتراكاً فعلياً فى الدفاع عن الأقاليم البيزنطية ضد شابور الثانى ، كما حدث عند نصيبين عام ٣٣٨ ، شرع ملوك الفرس يضطهدونها^(٢٤) ، وبدأ المسيحيون فى فارس يجهرون بآمالهم الطبيعية فى انتصار الدولة البيزنطية . وأمر شابور فى عام ٣٤١ بذبح جميع المسيحيين الساكنين فى الإمبراطورية ، ولما أن رأى أن قرى بأكملها من القرى المسيحية قد أفقرت من أهلها أمر بأن يقتصر على قتل القسيسين ، والرهبان ، والراهبات ؛ ولكن ١٦٠٠٠ مسيحى قد هلكوا نتيجة لهذا الاضطهاد الذى دام حتى موت شابور (٣٧٩) . ولما جلس يزدجرد الأول على العرش (٣٩٩ — ٤٢٠) رد للمسيحيين حريتهم الدينية ، وساعدهم على بناء كنائسهم ، حتى إذا كان عام ٤٢٢ قرر مجلس من أساقفة الفرس استقلال الكنيسة المسيحية الفارسية عن الكنيستين المسيحيتين اليونانية والرومانية .

وفى داخل هذا الإطار المكون من العبادات والمنازعات الدينية ، والمراسم والأزمات الحكومية والحروب الداخلية والخارجية ، فى داخل هذا الإطار كان الناس يمدون الدولة والكنيسة بمقومات حياتهما — يفلحون الأرض ، ويرعون الماشية والضأن ، ويمارسون الصناعات اليدوية ، ويتبادلون التجارة . وكانت الزراعة عندهم من الواجبات الدينية ؛ فكان الشعب يُعلم أن تنظيف

الفلوات من الأشجار والأعشاب ، وزرع الأرض ، والقضاء على الآفات ، واستئصال الأعشاب الضارة بالنبات ، وإصلاح الأراضي البور ، وتسخير مجارى الماء لرى الأرض — كان الشعب يعلم أن هذه الأعمال المجيدة كلها تضمن انتصار أهورا مزدا في آخر الأمر على أهرمان . وكان الفلاح الفارسي في مسيس الحاجة إلى كثير من أسباب السلوى الروحية ، لأنه كان يعمل عادة بوصفه مستأجراً لأرض الأمير الإقطاعي ، ويؤدى ضرائب ورسوماً أخرى قدرأ من المحصول يتراوح بين سدسه وثلثه . ونقل الفرس عن الهند حوالى عام ٥٤٠ هـ استخراج السكر من القصب حتى لقد وجد الإمبراطور الشرقى هرقل مخازن مملأى بالسكر في القصر الملكى بطيسفون (المدائن) (٦٢٧) ؛ ولما فتح العرب بلاد الفرس بعد أربعة عشر عاماً من ذلك الوقت ، عرفوا من فورهم كيف يزرعون القصب ، وأدخلوا زراعته في مصر وصقلية ، ومراكش ، وأسبانيا ومنها انتشرت في أوربا (٢٦) . وكانت تربية الحيوانات من أهم الأعمال في بلاد الفرس ، فلم تكن تفوق الخيل الفارسية إلا الجياد العربية الأصيلة في تسلسل أنسابها ، وجراتها ، وجمالها ، وسرعتها . وكان لكل فارسي جواد يعزه كما يعز رستم راكوش ، وقد قدس الفرس الكلاب لعظيم نفعه في حراسة قطعان الماشية والبيوت ، وكان للقطه الفارسية شأن عظيم في كافة أنحاء البلاد

وتطورت الصناعة في عهد الساسانيين فانتقلت من المنازل إلى الجوانيت في المدن . وكثرت نقابات الحرف ، ووجدت في بعض البلدان جماعات ثورية من الصعاليك (٢٧) ، وأدخل نسيج الحرير من الصين ، وسرعان ما انتشرت هذه الصناعة وتقدمت حتى كان الحرير الساساني يطلب في كل مكان ، وكان نموذجاً يحتذىه فن النسيج في بيزنطية ، والصين ، واليابان ؛ وكان تجار الصين يقدون إلى إيران ليبيعوها حريرهم الخام ويشتروا منها البطنافس . والجواهر ، والأصباغ الحمراء ؛ وعمل الأرمن ، والسوريون ، واليهود على ربط بلاد الفرس ، وبيزنطية ، ورومة

في سلسلة من التبادل التجاري البطيء . وأعانت الطرق والجسور الصالحة ، التي كانت تتعهد بها الدولة بعنايتها ، على إنشاء طائفة من المراكز ، وطرق القوافل التجارية التي ربطت طيسفون بسائر ولايات الدولة ؛ « أنشئت المرافئ » في الخليج الفارسي ، لتيسير التجارة مع الهند . وكانت الأنظمة الحكومية تحدد أثمان الحبوب ، والأدوية وغيرهما من ضروريات الحياة ، وتمنع تخزينها لرفع أثمانها ، واحتكارها (٢٨) . وفي وسعنا أن نقدر ثراء الطبقات العليا من قصة الشريف الذي دعا ألف ضيف إلى وليمة ، فلما جاءوا وجد أنه لا يملك من الصحف ما يكفي لأكثر من خمسمائة ، فاستطاع أن يستعير الخمسمائة الباقية من جيرانه (٢٩) .

ونظم أمراء الإقطاع ، الذين كانوا يعيشون في الغالب في ضياعهم ، طريقة استغلال الأرض ومن عليها ، وألفوا الفيالق من مستأجري أرضهم ليحاربوا حروب الأمة . وكانوا يتدربون على الحرب بمطاردة الصيد بحماسة وشجاعة ، فكانوا لذلك ضباطاً في سلاح الفرسان ذوي شهامة ؛ وكانوا هم وجيادهم مسلحين كما كانت جيوش الإقطاع مسلحة في أوروبا فيما بعد ؛ ولكنهم لم يبلغوا ما بلغه الرومان في فرض النظام على جنودهم ، أو في استخدام ما عرف فيما بعد من فنون هندسة الحصار والدفاع . وكان يعلو عليهم في المنزلة الاجتماعية عظماء الأشراف الذين كانوا يتولون حكم الولايات ويرأسون المصالح الحكومية . وما من شك في أن الإدارة الحكومية كانت حازمة قديرة إلى حد بعيد ؛ وشاهد ذلك أن الخزانة الفارسية كانت في أغلب الأوقات أكثر عمراً بالمال من خزائن أباطرة الرومان ، وإن كانت الضرائب في الدولة الفارسية أقل إرهاباً مما كانت عليه في الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الغربية . ولقد كان في خزائن كسرى أبرويز في عام ٦٢٦ ما قيمته ٤٦٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار أمريكي (٣٠) ، وكان دخله السنوي يقدر بنحو ١٧٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار — وهما مبلغان ضخمان إذا ذكرنا ما كان للفضة والذهب من قوة الشراء في العصور الوسطى .

وكان سن القوانين من عمل الملوك ، ومستشاريهم ، والمحجوس ، وكانوا يعتمدون . سنها على قوانين الأبتاق القديمة ، وكان يترك للكهنة تفسير هذه القوانين وتنفيذها . ووصف أميانوس ، الذي كان يحارب الفرس ، قضاتهم بأنهم كانوا « رجالا عدولا ، ذوى تجربة ، وعلم بالقوانين^(٣١) » . وكان المعروف عن الفرس بوجه عام أنهم يحافظون على الوعد ، وكانت الأيمان التي يقسمونها في المحاكم تحاط بهالة من التقديس ، وكان الخنث في اليمن يلقى أشد العقاب في هذا العالم بحكم القانون ، ويعاقب صاحبه في الدار الآخرة بوابل من السهام ، والبلط والحجارة . وكان التحكيم الإلهي من الوسائل التي يلجأ إليها لكشف الجرائم ، فكان يطلب إلى المتهمين أن يمشوا على مواد تحمى في النار حتى تحمر ، أو يخوضوا اللهب ، أو يطعموا الطعام المسموم . وكان وأد الأطفال وإسقاط الأجنة محرمان يعاقب من يرتكبهما بالإعدام ، وكان الزاني إذا عرف ينفي من البلاد والزانية يجذع أنفها وتصلم أذناها ، وكان في وسع المتقاضين أن يستأنفوا الأحكام أمام محاكم عليا ، ولم يكن الحكم بالإعدام ينفذ إلا إذا نظر فيه الملك وأقره .

وكان الملك يقول إنه يستمد سلطانه من الآلهة ، وإنه ولهم في الأرض ، وإنه يضارعه في قوة أحكامهم ، وكان يلقب نفسه حين تسمح الظروف « ملك الملوك ، وملك الآريين وغير الآريين ، وسيد الكون ، وابن الآلهة^(٣٢) » . وأضاف شابور الثاني إلى هذه الألقاب : « أنا الشمس والقمر ، ورفيق النجوم » وكان الملك الساساني مطلق السلطان من الوجهة النظرية ، ولكنه كان يعمل في العادة بمشورة وزرائه الذين كانوا يؤلفون مجلساً للدولة . وقد أثنى المسعودي المؤرخ المسلم على ما كان للملوك الساسانيين من إدارة ممتازة ، وعلى سياستهم الحسنة النظام ، وعنايتهم برعاياهم ورخاء بلادهم^(٣٣) . ويقول كسرى أنوشروان ، كما جاء في كتاب ابن خلدون « لولا الجيش لما كان الملك ، ولولا موارد الدولة ما كان الجيش ، ولولا الضرائب ما كانت الموارد ، ولولا الزراعة ما كانت الضرائب » .

ولولا الحكومة العادلة ما كانت الزراعة (٣٤) . وكانت الملكية في الأوقات العادية وراثية ، ولكن كان في وسع الملك أن يختار غير ابنه الأكبر ليخلفه على العرش . وجلست ملكتان على العرش في زمنين مختلفين ؛ وإذا لم يترك الملك من بعده ولياً للعهد من نسله اختار الأشراف ورجال الدين حاكماً على البلاد ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يختاروا أحداً من غير الأسرة المالكة .

وكانت حياة الملك مثقلة بالواجبات والتبعات التي لا آخر لها . فقد كان ينتظر منه أن يخرج للصيد والقنص بلا خوف ، وكان يخرج إليه في هودج مزركش تجره عشرة من الجمال ، وعليه ثيابه الملكية . وكانت سبعة جمال تحمل عرشه ، ومائة جمل تحمل الشعراء المنشدين . وقد يكون في ركابه عشرة آلاف من الفرسان ؛ ولكننا إذا صدقنا ما كتب من النقوش الساسانية على الصخور قلنا إنه كان ينبغي له آخر الأمر أن يمتطي صهوة جواد ، ويواجه بنفسه وعلا ، أو غزالا ، أو رثماً ، أو جاموساً برياً ، أو نمرأ ، أو أسداً ، أو غيرها من الوحوش التي جمعت في حديقة الملك أو « جنته » . فإذا عاد من الصيد إلى قصره واجه مهام الحكم الشاقة ، وسط ألف من الحشم وفي حفلات لا آخر لها . وكان عليه أن يرتدى ثياباً مثقلة بالجوهر ، وأن يجلس على عرش من الذهب ، ويضع على رأسه تاجاً يبلغ من الثقل حداً لا بد معه أن يعلق على مسافة جد صغيرة ، لا يمكن رؤيتها ، من رأسه الذي لا يستطيع تحريكه . وعلى هذا النحو كان يستقبل الشعراء ، والأضياف ، ويتبع ما لا يحصى من المراسم الشاقة الدقيقة ، ويصدر الأحكام ، ويستقبل الوافدين الذين حددت لهم المواعيد ويتلقى التقارير . وكان على الذين يدخلون عليه أن ينحروا سجداً أمامه ، ويقبلوا الأرض بين يديه ، وألا يقفوا إلا إذا أمرهم بالوقوف ، ولا يتحدثوا إليه إلا وفي فهم منديل خشية أن تعدى أنفاسهم الملك أو تدنسه . فإذا جاء الليل دخل على إحدى زوجاته أو محظياته يبذر فيها بذوره العليا .

الفصل الثاني

الملكىة الساسانية

تقول الرواية الفارسية إن ساسان كان كاهناً في پرسپوليس (اصطخر) ، وإن ابنه پاپاك Papak كان أميراً صغيراً في خور ، وإن پاپاك قتل جوزهر ، حاكم الولاية الفارسية ، وأعلن نفسه ملكاً على تلك الولاية ، وأورث سلطانه ابنه شابور ، وإن شابور مات نتيجة لحادثة وقعت في الوقت المناسب ، فخلفه ابنه أردشير . وأبي أرتبانوس الخامس آخر ملوك الفرس الأرساسيين أو البارثيين أن يعترف بهذه الأسرة المحلية الجديدة ؛ فحاربه أردشير وهزمه (٢٢٤) ، وصار ملك الملوك (٢٢٦) . فلما تم له هذا استبدل بحكم الأرساسيين الإقطاعى المفكك حكماً ملكياً قوياً أداته بيروقراطية مركزة كثيرة الفروع ؛ وكسب تأييد رجال الدين بأن أعاد العقيدة الزرادشتية وأعاد إلى كهنتها سابق سلطانهم ، وأثار كبرياء الشعب بأن أعلن أنه سيقضى على النفوذ الهلنستى في فارس ، ويثأر لدارا الثانى من ورثة الإسكندر ، ويستعيد كل الأقاليم التى كانت فيما مضى تحت حكم الملوك الأكمنيين . والحق أنه قد بر بوعده هذا أو كاد . فقد قام بحملات خاطفة مدت حدود بلاد الفرس في الشمال إلى نهر جيحون ، وفي الغرب إلى نهر الفرات ، ووضع التاج قبل أن تدركه المنية في عام ٢٤١ على رأس ابنه شابور ، وأمره أن يلتقى باليونان والرومان في البحر .

وورث شابور الأول عن أبيه قوته ودهاءه ؛ وتمثله النقوش التى على الصخور بهى الطلعة ، نبيل الملامح ، ولكن هذه النقوش كانت بلا ريب تحيات من صانعيها جرى العرف بأن تكون على هذه الصورة . وقد تلقى شابور تعليماً طيباً ،

ونشأ على حب العلم ، ويقال إنه أعجب بحديث أوسطاثيوس Eustathius السوفسطائي سفير اليونان إعجاباً جعله يفكر في اعتزال الملك ليتفرغ للفلسفة (٣٥) وخالف سميّه السابق بأن أطلق الحرية الكاملة لجميع الأديان ، وسمح لماني بأن يلقى مواعظه الدينية في بلاطه ؛ وأعلن أن « المجوس ، والمانيين ، واليهود ، والنصارى ، والبنايس جميعاً أياً كان دينهم يجب أن يتركوا وشأنهم في جميع أنحاء إمبراطوريته (٣٦) . وواصل ما بدأه أردشير من تنقيح الأبستاق ، فأقنع الكهنة بأن يضحوا إلى كتابهم المقدس أبواباً في غير شئون الدين تشمل علوم ما بعد الطبيعة والفلك ، والطب ، معظمها مأخوذ من بلاد الهند واليونان . وكان سخياً في مناصرة الفنون ، ولم يبلغ ما بلغه شاپور الثاني ، أو كسرى الأول والثاني ، من براعة في قيادة الجند ، ولكنه كان أقدر الملوك الساسانيين جميعاً في الشئون الإدارية . وأنشأ له عاصمة جديدة في شاه بور لا تزال آثارها تحمل اسمه حتى الآن ، وأقام عند ششتار على نهر قارون سداً يعد من أكبر الأعمال الهندسية في التاريخ القديم ؛ وقد بنى هذا السد من كتل ضخمة من الحجر الأصيل (الجرانيت) ، تكون منها جسر طوله ١٧١٠ قدم ، وعرضه عشرون قدماً . وحول مجرى النهر مؤقتاً لكي يستطيع إقامة البناء ؛ ورصف قاع المجرى عنده رصفاً متيناً ، وأنشئت فيه بوابات لتنظم تصريف المياه . وتقول الرواية المتواترة إن شاپور استخدم في تخطيط السد وبنائه مهندسين وأسرى من الرومان . وقد ظل هذا السد يؤدي الغرض منه حتى هذا القرن (٣٧) . ثم حول شاپور اهتمامه على كره منه إلى الحرب والقتال ، فغزا سوريا ، ووصل في حملته إلى أنطاكية ، ولكنه هزم في معركة مع جيش روماني فعقد مع رومة صلحاً (٢٤٤) ، استردت بمقتضاه جميع ما كان قد استولى عليه في حروبه . غير أنه حقق على أرمينية أن تعاونت عليه مع رومة ، فزحف على تلك البلاد ، وأقام فيها أسيرة صديقة لفارس (٢٥٢) ؛ ولاحق بذلك جناحه الأيمن ، جاد إلى قتال رومة ، فهزم الإمبراطور قليريان وأسر (٢٦٠) ،

ونهب أنطاكية ، واستولى على آلاف من الأسرى سخرهم للعمل في إيران (٢٦٠) . ثم انضم أدناثوس حاكم تدمر إلى رومة ، فاضطر شابور مرة أخرى إلى الاكتفاء بأن يكون نهر الفرات الحد الفاصل بين أملاك الفرس والرومان .

وخلفه على العرش فيما بين ٢٧٢ و ٣٠٢ ملوك لم يرق أحد منهم إلى ما فوق الدرجة الوسطى من الكفاية . ويأتى بعد هذا هرمزد الثانى (٣٠٢ - ٣٠٩) الذى يشيد التاريخ بحكمه القصير الأجل ، والذى بدأ فيه طائفة من الأعمال النافعة وبسط على البلاد لواء السلم والرخاء . وبذل الملك عناية كبيرة فى ترميم الأبنية العامة ، والمساكن الخاصة ، موجهاً أكبر اهتمامه إلى مساكن الفقراء ، وكان ينفق على هذه الأعمال كلها من أموال الدولة . وأنشأ محكمة جديدة خصصها بسماع شكاوى الفقراء ضد الأغنياء ، وكثيراً ما كان يتولى رياستها بنفسه . ولسنا نعرف هل كانت هذه العادات الغريبة هى التى حرمت ابنه من وراثة العرش ؛ وسواء كان ذلك أو لم يكن فقد حدث على أثر وفاة هورمزد أن زج النبلاء بابنه فى السجن ، وأعطوا الملك لابنه الذى لم يولد بعد ، ولقبوه فى ثقة واطمئنان بشابور الثانى ، وأرادوا ألا يتركوا فى الأمر مجالاً للشك فتوجوا الجنيين بأن علقوا التاج الملكى على رجم أمه (٣٨) .

وبهذه البداية الطيبة حكم شابور الثانى أطول حكم فى تاريخ آسية (٣٠٩ - ٣٧٩) . وقد درب منذ طفولته على الفنون الحربية ، فقوى جسمه وإرادته ، حتى إذا بلغ السادسة عشرة من عمره تولى شؤون الملك ونزل إلى ميدان القتال ، فعزاً شرق جزيرة العرب وخرب حوالى عشرين قرية ، وقتل آلافاً من الأسرى ، وقاد آلافاً غيرهم إلى الأسرى فى جبال رباطها بجروحهم . وفى عام ٣٣٧ شن الحرب على رومة للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد الشرق الأقصى ، وواصلها حتى وفاته تقريباً إذا استثنينا فترات من السلم قصيرة . وكان اعتناق رومة وأرمينية للدين المسيحى سبباً فى ازدياد نيران الحرب شدة على شدتها

كان الآلهة هي الأخرى قد نزلت إلى الميدان ، وجاءت معها بكل ما يحسنه هومر من وحشية في القتال : وظل شابور أربعين عاماً يقاتل طائفة كبيرة من أباطرة الروم واحداً بعد واحد ، فصده يوليان إلى طيسفون ، ولكنه ارتد بعدئذ ارتداداً غير شريف ، واضطر جوفيان أمام تفوق عدوه عليه في الفنون العسكرية أن يعقد مع شابور صلحاً نزل له بمقتضاه عن الولايات الرومانية الممتدة على نهر دجلة وعن أرمينية كلها . ولما مات شابور الثاني كانت بلاد الفرس قد بلغت ذروة سلطانها وهيبتها ، وكانت مائة ألف فدان من أرضها قد أصلحت واستخدم في إصلاحها الأسرى من الأعداء .

وانتقل ميدان الحرب في القرن التالي إلى حدود الفرس الشرقية : فقد حدث حوالي عام ٤٢٥ أن استولت على الإقليم المحصور بين نهري سيحون وجيحون جماعات طورانية يطلق عليها اليونان اسم الإفتاليين Ephthalites ، ويلقبون خطأ باسم « الهون البيض » ، استولوا على الإقليم المحصور بين نهري سيحون وجيحون وحاربهم الملك بهرام الخامس الساساني (٤٢٠ - ٤٣٨) ، المعروف باسم الغور - أي « الحمار الوحشي » - لجرأته في أعمال الصيد ، وانتصر عليهم ، ولكنهم بعد وفاته أخذوا ينتشرون في الإقليم لكثرة تناسلهم وتفوقهم في القتال ، وأنشأوا لهم إمبراطورية امتدت من بحر الخزر إلى نهر السند ، وجعلوا عاصمتها جرجان ، وكانت أشهر مدنها بلخ ، وهزموا فيروز شاه وقتلوه (٤٥٩ - ٤٨٤) ، وأرغموا الشاه الذي خلفه على أداء الجزية .

وبينما كان الخطر يهدد فارس من جهة الشرق ، إذ ضربت الفوضى أطنابها البلاد ، نتيجة لاضطرار الملكية إلى الكفاح للمحافظة على سلطانها ضد الأشراف ورجال الدين . وفكر كفاذه الأول (٤٨٨ - ٥٣١) في أن يضعف أولئك الأعداء بمناصرة إحدى الحركات الشيعية ، التي كانت تتخذهم الهدف الأول لهجماتها . وتفصيل ذلك أن أحد رجال الدين الزرادشتيين المدعو مزدق قبل

أعلن في عام ٤٩٠ أنه مرسل من عند الله للدعوة إلى عقيدة قديمة مضمونها أن الناس جميعاً يولدون أكفاء ، وأن ليس لأحد من الناس حق طبيعي في أن يمتلك أكثر مما يمتلكه غيره ، وأن الملكية والزواج من البدع التي ابتدعتها البشر ، وأنها أخطاء عاقبتها البؤس والشقاء ، وأن السلع جميعها والنساء كلهن يجب أن تكون ملكاً مشاعاً لجميع الرجال . ويقول عنه أعداؤه إنه كان يحيز السرقة ، والزنى ومضاجعة المحارم ، ويتخذ هذه الأعمال وسيلة الطوعية لمقاومة الملكية والزواج ، ويقول إنها الطرق المشروعة للوصول إلى المدينة الفاضلة . واستمع إليه الفقراء وبعض الطوائف الأخرى مغتبطين ، ولكن أكبر الظن أن مزدق نفسه قد أدهشه أن يجد ملكاً يوافق على آرائه . وبدأ أتباعه ينهبون بيوت الأغنياء ، ثم لا يكتفون بهذا بل يسبون نساءهم أيضاً ، ويأخذون أثمن ما في هذه البيوت ومن فيها من جوار ومحظيات حسان . وثارت ثائرة الأشراف فزجوا كفاده في السجن وأجاسوا أخاه جامسب على العرش . وقضى كفاده في « قلعة النسيان » ثلاث سنين فر بعدها من السجن ، وهرب إلى الإفتاليين . ورأى هؤلاء الفرصة سانحة لأن يكون حاكم بلاد الفرس خاضعاً لسلطانهم ، فأمدوه بجيش وساعدوه على أخذ طيسفون عنوة . ونزل جامسب عن العرش ، وفر الأشراف إلى ضياعهم . الريف ، وأصبح كفاده مرة أخرى ملك الملوك (٤٩٩) . ولما استتب له الأمر غدر بالشبوعيين ، وقتل مزدق وآلافاً من أتباعه (٣٩) . ولعل هذه الحركة قد رفعت من شأن العمل اليدوي ، لأن قرارات مجلس الدولة بعدئذ لم يكن يوقعها الأمراء ورجال الدين وحدهم ، بل كان يوقعها معهم رؤساء نقابات الحرف (٤٠) . وحكم كفاده بعد ذلك جيلاً آخر ، وحارب أصدقاءه الإفتاليين وانتصر عليهم ، وحارب رومة حرباً غير حاسمة ، ثم مات وترك العرش لابنه الثاني كسرى أعظم . ملوك الساسانيين جميعاً .

سكان خسرو الأول (« أي صاحب المجد الثاني » ٥٣١ - ٥٧٩) يعرف عند اليونان باسم كسروس Chosroes وعند العرب باسم كسرى ؛ ولقبه الفرس

أنوشروان (« الروح الخالدة ») : ولما أن ائتمر به إخوته الأكبر منه سناً
 بخلعوه قتل إخوته جميعاً ، وقتل جميع أبنائهم عدا واحداً منهم . ولقبه رعاياه
 بالعدل ، ولعله يستحق هذا اللقب إذا فرقنا بين العدالة والرحمة . ويصفه
 روكيوس بأنه كان « بارعاً إلى أقصى حد في تصنع النقي » وفي نكث العهد (١) .
 لكن پروكيوس من ألد أعدائه . ويثنى الطبرى المؤرخ الفارسي الأصل على
 نفاذ بصيرته ، وعلمه ، وذكائه ، وشجاعته ، وحصافة رأيه . وينطقه
 خطبة ألقاها أول ما جلس على العرش . وهى خطبة قد أحسن المؤرخ
 اختراعها إن لم يكن صادقاً في نسبتها إليه (٢) . ونظم كسرى الحكومة كلها
 على أساس جديد واختار أعوانه لكفائتهم بصرف النظر عن طبقتهم ، ورفع
 منزلة بزرجمهر مربى ولده فجعله من كبار وزرائه ، وقد طبقت شهرة هذا
 الوزير الآفاق . واستبدل بجنود الإقطاع غير المدربين جيشاً نظامياً دائماً حسن
 النظام كامل العدة ، وأنشأ نظاماً عادلاً للضرائب ، وجمع القوانين الفارسية
 ونظمها ، وأنشأ الترع والجسور لإصلاح نظام الري ومدد المدن بالماء ، وأصلح
 الأراضي البور بأن أمد أصحابها بالماشية ، والآلات والبذور . وشجع التجارة
 ووسع نطاقها ، بإنشاء الحديد من الطرق والجسور ، وإصلاح ما كان قائماً
 منها وتعهد ، وقصارى القول أنه بذل جهوداً عظيمة كلها في خدمة
 الشعب والدولة . وشجع الزواج — أو أرغم الناس عليه إرغاماً — لاعتقاده
 أن بلاد الفرس فى حاجة إلى المزيد من الناس لحرث أرضها وحماية تخومها .
 وحمل العزاب على الزواج بأن وهب البائئات للزوجات ، وأمر بتعليم أبنائهم
 على نفقة الدولة (٣) . وكان يرى الأطفال اليتامى والفقراء ويعلمهم وينفق
 عليهم من الأموال العامة ، ويعاقب المرتدين عن الدين بالإعدام ، ولكنه كان
 يسمح بانتشار المسيحية حتى بين حريمه . وقد قرب إليه الفلاسفة ، والأطباء ،
 والعلماء ، من بلاد الهند واليونان ، وكان يسره أن يبحث معهم مشاكل الحياة ،
 والحكم ، والموت . وكان من لونهوعات التى دار حولها البحث ذلك السؤال :

« ما هو أشد أنواع البؤس ؟ » . وأجاب أحد الفلاسفة اليونان عن هذا السؤال بقوله : « هو الشيخوخة المصحوبة بالفقر والبلاهة » ، وأجاب فيلسوف هندي بل هو « العقل القلق في الجسم السقيم » . وكسب وزير كسرى ثناء جميع المجلس بحق حين قال « أما أنا فاعتقد أن أشقى الشقاء أن يرى الإنسان آخرته تقترب منه من غير أن يكون قد مارس الفضيلة »^(٤٤) . وكان كسرى يناصر الآداب ، والعلوم ، ويعين العلماء على متابعة الدرس بالهبات القيمة ، ويمد بالمال المترجمين والمؤرخين . وبلغت جامعة غنديسابور في أيامه ذروة مجدها . وكان يحرص كل الحرص على حماية الأجانب في بلاده فكان بلاطه لهذا السبب غاصاً على الدوام بكبار الزائرين من البلاد الأجنبية .

ولما جلس على العرش جهر برغبته في أن يعقد الصلح مع رومة . ووافق جستنيان على هذه الرغبة لأنه كان يعد العدة لغزو أفريقية وإيطاليا ، ووقع « الأخوان » في عام ٥٣٢ « صلحاً دائماً » . ولما أن سقطت أفريقية وإيطاليا في يد جستنيان طالب كسرى متفكهاً بقسط من الغنيمة ، وحينئذ أن بيزنطية لم تكن لتصل إلى هذا النصر لو أن فارس لم تعقد معها الصلح ، فبعث إليه جستنيان ببعض الهدايا القيمة^(٤٥) . وفي عام ٥٣٩ أعلن كسرى الحرب على « رومة » بحجة أن جستنيان قد أدخل بشروط الصلح ، ويؤيد پروكبيوس هذه التهمة . لكن أكبر الظن أن كسرى قد رأى أن من الحكمة أن يبادر بالهجوم على جستنيان وجيوشه لا تزال مشغولة في الغرب ، فذلك في رأيه خير له من أن ينتظر حتى تنتصر بيزنطية ثم توجه قوتها كلها ضد فارس . يضاف إلى هذا أن كسرى قد بدا له ألا بد لبلاد الفرس من امتلاك مناجم الذهب في طربزون ، وأن يكون لها منفذ على البحر الأسود . ولهذا زحف على سوريا ، وحاصر هيرابوليس ، وأپاميا ، وحلب ، وتركها وشأنها بعد أن افتدت نفسها بكثير من المال ، وسرعان ما وقف أمام أنطاكية . ولم يبال أهلها به وبقوته فحيوه من فوق

الأسوار بوابل من السهام وقذائف المنجنيقات ، وبوابل آخر من ألفاظ السخرية الوقحة التي اشتهرت بها هذه المدينة في كافة أنحاء العالم (٢٦) . واستشاط المليك غضباً فهجم على المدينة واستولى عليها عنوة ، ونهب كنوزها ، وأحرق جميع مبانيها عدا كنيسها الكبرى ، وذبح عدداً كبيراً من أهلها ، وساق من بقي منهم ليعمروا « أنطاكية » أخرى في بلاد الفرس ، ثم نزل مبتهجاً ليستحم في البحر المتوسط الذي كان في وقت من الأوقات حد دولة الفرس الغربي . وأرسل جستنيان قائده بليساريوس لينقذ بلاده ، ولكن كسرى عبر الفرات على مهل مثقلاً بالغنائم ، وفضل القائد الحصيف ألا يتبعه (٥٤١) . وما من شك في أن انتهاء الحروب التي قامت بين الفرس والرومان إلى نهاية غير حاسمة إنما يرجع بعضه إلى تعذر إقامة حامية قوية على ناحية العدو من الصحراء السورية أو جبال طوروس ، وإن كان ما أدخل حديثاً من تحسين على وسائل النقل والاتصال قد جعل الحروب الكبيرة في أمثال تلك الأصقاع مستطاعة في هذه الأيام . وقام كسرى بعدئذ بثلاث غزوات على آسية الرومانية زحف فيها على تلك البلاد زحفاً سريعاً ، وحاصر عدداً من مدنها ، وأخذ منها الفداء والأسرى ، ونهب ريفها ، ثم ارتد عنها في أمان (٥٤٢ - ٥٤٣) وأدى له جستنيان عام ٥٤٢ التي رطل من الذهب (نحو ٨٤٠,٠٠٠ دولار أمريكي) ثمناً لمدينة تدوم خمسة أعوام على أن يؤدي إليه بعد انتهائها ٢٦٠٠ رطل أخرى نظير امتدادها خمسة أعوام جديدة وبعد أن دامت الحرب بين العاهلين الطاعنين في السن جيلاً من الزمان تعهد آخر الأمر (٥٦٢) بأن يحتفظا بالسلم خمسين عاماً ، وتعهد جستنيان بأن يؤدي للفرس ثلاثين ألف قطعة من الذهب في كل عام (٧٥٠,٠٠٠ دولار أمريكي) ، ونزل كسرى عن حقه في جميع الأقاليم المتنازع عليها في بلاد القوقاز والبحر الأسود .

ولكن كسرى لم يفرغ بهذا من حروبه كلها . فقد أرسل حوالى عام ٥٧٠ بناء على طلب الحميريين المقيمين في الجنوب الغربي من جزيرة العرب جيشاً من

عنده ليخلصهم من الأحباش الذين فتحوا بلادهم . فلما أنجى الفرس الحميريين من الغزاة ، وجد هؤلاء أن بلادهم قد أصبحت ولاية فارسية . وكان چستنيان قد عقد حلفاً مع بلاد الحبشة ، ورأى خلفه چستين الثاني أن طرد الفرس للأحباش من جزيرة العرب عمل عدائي موجه له . هذا إلى أن الترك الضاربين على الحدود الشرقية لبلاد الفرس قد اتفقوا سرّاً أن ينضموا إل من يهاجمون كسرى . وأعلن چستين الحرب في عام ٥٧٢ . ونزل كسرى إلى الميدان بنفسه على الرغم من كبر سنه ، واستولى على مدينة دارا الواقعة على الحدود الرومانية ؛ ولكن صحته خائفة فهزم لأول مرة . حياته (٥٧٨) ، وارتد إلى طيسفون حيث وافته منيته في عام ٥٧٩ ، ولنا نعرف سنه بالضبط حين وفاته . وقد امتد حكمه ثمانية وأربعين عاماً كسب فيها كل ما خاضه من الوقائع عدا واقعة واحدة ؛ ووسع حدود إمبراطوريته في جميع جهاتها ، وجعل بلاد الفرس أقوى منها في أي عهد آخر بعد عهد دارا الأول ؛ ووهبها نظاماً من الحكم بلغ من شأنه أن العرب حين فتحوا تلك البلاد فيما بعد اتخذوه نظاماً لحكمها دون أن يدخلوا عليه تغييراً يستحق الذكر . ويكاد كسرى أن يكون معاصراً لچستنيان ؛ ولكن معاصريهما مجتمعون على أنه أعظم الملوك ، ويعده من جاء بعده من الفرس أقوى من حكم بلادهم في تاريخها كله وأعظمهم شأنًا .

وحكم بعده ابنه هرمز الرابع (٥٧٩ - ٥٨٩) ولكن قائده بهرام قوبين خلعه وأعلن نفسه وصياً على كسرى الثاني ابن هرمز (٥٨٩) ، ثم أعلن نفسه ملكاً بعد عام واحد من ذلك الوقت . ولما بلغ كسرى سن الرشد طالب بعرش أبيه ؛ فرفض بهرام طلبه ، ففر كسرى إلى هيراپوليس في سوريا الرومانية ؛ وعرض عليه الإمبراطور اليوناني موريس أن يعيده إلى ملكه إذا انسحب الفرس من أرمينية . ووافق كسرى على هذا الطاب ؛ وشهدت طيسفون ذلك المنظر العجيب الفذ منظر جيش روماني يجلس على العرش ملكاً فارسياً (٥٩٦) .

وبلغ كسرى أبرويز (الظافر) درجة من السلطان لم يبلغها ملك آخر من ملوك الفرس منذ أيام خشيارشاي ، ومهد السبيل لسقوط دولته ؛ ذلك أنه لما قتل فوفاس مورييس وجلس مكانه على العرش أعلن أبرويز الحرب على المغتصب (٦٠٣) انتقاماً لصديقه ؛ ولكن الواقع أن الحرب لم تكن إلا تجديدًا للنزاع القديم . وكانت الدولة البيزنطية قد مزقتها الشقاق والتحزب ، فلم تجد جيوش الفرس صعوبة في الاستيلاء على دارا ، وآميديا ، والرها ، وهيراپوليس ، وحلب ، وأياميا ، ودمشق (٦٠٥ — ٦١٣) . وزاد هذا النصر من حماسة أبرويز فأعلن الحرب الدينية على المسيحيين ، وانضم ٢٦٠,٠٠٠ من اليهود إلى جيشه ، ونهبت جيوشه المتحدة في عام ٦١٤ أورشليم ، وقتلت ٩٠,٠٠٠ من المسيحيين^(٤٧) ، وأحرقت كثيراً من كنائسها ومن بينها كنيسة الضريح المقدس ، وأخذ الصليب الحق ، وهو أعز أثر على المسيحيين ، إلى بلاد الفرس . وأرسل أبرويز إلى هرقل Heraclius الإمبراطور الحديد رسالة دينية قال فيها : « من كسرى أعظم الآلهة وبسيد الأرض كلها إلى هرقل عبده الغبي الذليل : إنك تقول أنك تعتمد على إلهك ، فلم إذن لم ينقذ أورشليم من يدي ؟ »^(٤٨) . واستولى جيش فارس على الإسكندرية في عام ٦١٦ ، ولم يحل عام ٦١٩ حتى دخلت مصر كلها في حوزة ملك الملوك ، وهو ما لم يحدث لها منذ أيام دارا الثاني . وفي هذه الأثناء كان جيش فارسي آخر يحتاج آسية الصغرى ويستولى على خلقيدون (٦١٧) ؛ ولبت تلك المدينة في أبدي الفرس عشر سنين وهي التي لم يكن يفصلها عن القسطنطينية إلا مضيق البسفور . وكان أبرويز في هذه السنين العشر يدمر الكنائس ، وينقل ما فيها من الآثار الفنية والكنوز إلى بلاد الفرس ويفرض على آسية الغربية من الضرائب الفادحة ما نصب منه معينها وما أعجزها عن مقاومة غزو العرب الذي لم يكن بينها وبينه وقتئذ إلا نحو جيل من الزمان . ثم ترك كسرى تصريف الحرب لقواده ، وعاد ليتقلب في اللهو والترف

في قصره بدستجرد (على بعد نحو ستين ميلا من طيسفون) ، وقضى وقته بين الفن والحب : وجمع المهندسين ، والمثاليين ، والمصورين ، ليجعل عاصمته الجديدة أعظم شأنًا من عاصمته القديمة ، ولينحت صوراً مشابهة لشيرين أجمل زوجاته الثلاثة آلاف وأحبهن إلى قلبه . وشكا الفرس قائلين إنها امرأة مسيحية ، وادعى بعضهم أنها قد أدخلت الملك في دينها ، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد تمتع لها والحرب الدينية دائرة رحاها أن تنشئ كثيراً من الكنائس والأديرة . ولكن بلاد الفرس التي عمها الرخاء لكثرة ما أفاء عليها من الأسلاب والأرقاء ، كان في وسعها أن تغفر لمليكتها لهُوه وترفه ، وفنه ، وتسامحه الديني ، وترحب بفتوحه وتري فيها النصر النهائي على بلاد اليونان والرومان ، ولأهورامزدا على المسيح . لقد جوزى الإسكندر أخيراً على فعلته ، وانتقم الفرس من اليونان لهزائمهم في مرثون ، وسلاميس ، وبلانية ، وأربيل .

ولم يكن باقياً للإمبراطورية البيزنطية إلا عدد قليل من الثغور الآسيوية وقليل من أرض إيطاليا ، وأفريقية ، وبلاد اليونان ، وأسطول لم يهزم بعد ، وعاصمة محاصرة جن جنونها من الرعب واليأس . ولبت هرقل عشر سنين ينشئ جيشاً جديداً ودولة جديدة من أنقاض الجيش القديم والدولة القديمة . فلما تم له ذلك لم يحاول عبور البسفور إلى خلقيدون بل تجنب ذلك العمل الكثير التفقة والمشقة ، وأبحر بأسطوله إلى البحر الأسود ثم اخترق أرمينية وهاجم بلاد الفرس من خلفها ، ودمر كلورومية Clorumia مسقط رأس زرادشت كما ضرب كسرى من قبل مدينة أورشليم ، وأطفأ نارها المقدسة الخالدة (٦٢٤) . وسير إليه كسرى الجيوش يتلو بعضها بعضها ، ولكن هرقل هزمها جميعاً ، ولما تقدم اليونان فر كسرى إلى طيسفون . وآلم قواده ما كان يوجهه إليهم من إهانات فانضموا إلى النبلاء وخلعوه ، ثم سجنوه ولم يطعموه إلا الخبز القفار والماء ، وذبحوا ثمانية عشر من أبنائه أمام عينيهِ ، وانتهى أمره بأن قتله ابن آخر من أبنائه يدعى شيروى (٦٢٨) .

الفصل الثالث

الفن الساساني

لم يبق من الآثار ما يدل على ثراء ملوك ساسان ومجدهم إلا بقايا الفن الساساني ، ولكن هذه البقايا تكفي وحدها لأن تزيد إعجابنا بقدرة الفن الفارسي على البقاء من عهد دارا الأكبر واصطخر إلى عهد الشاه عباس وإصفهان ، وبقدرته على التكيف لمواءمة ما يحيط به من الظروف .

فأما ما بقي من العمارة الساسانية فكله غير ديني ، فقد اختفت من الوجود هياكل النار المقدسة ، ولم يبق قائماً إلا القصور الملكية ، وحتى هذه ليست إلا « هياكل ضخمة »^(٤٩) قد تجردت من زمن طويل مما كانت تزدان به واجهاتها من حلي مصنوعة من الجص . وأقدم هذه الحريات كلها ما يسمونه قصر أردشير الأول في فيروزباد القائمة إلى الجنوب الشرقي من شيراز . ولا يعرف أحد تاريخ بنائه ، ويختلف ظن المؤرخين بين ٣٤٠ ق . م ، ٤٦٠ م . ولا تزال قبة هذا البناء الضخمة بعد أن مضى عليها خمسة عشر قرناً تقلب عليها في خلالها الحر والبرد ، والسراقات والحروب ، لا تزال هذه القبة باقية إلى الآن تغطي بهواً فسيحاً ، تعلو في الجوامع قدم ، ويبلغ عرضها خمسا وخمسين قدماً . وثمة مدخل ذو قوس يبلغ ارتفاعه تسعا وثمانين قدماً ، وعرضه اثنتين وأربعين ، يقسم المواجهة التي طولها ١٧٠ قدماً قسمين ، وقد تهدمت هذه الواجهة في هذه الأيام ، وكانت أقواس صغيرة تؤدي من قطري البهو المستطيل الأوسط إلى قبة دائرية . وقد ابتدعت طريقة فذة ظريفة لحمل ضغط القبة ، فأقيم جدار مزدوج أجوف ربط إطاره الداخلي والخارجي بعقد دائري وبذلك زاد الجدار الخارجي من قوة الجدار الداخلي ، ثم زيدت قوة الجدار المزدوج مرة أخرى بدعامات من الخارج مكونة

من أنصاف عمود مربعة مسندة من الحجارة الثقيلة وملتصقة بالبناء . ذلك طراز معمارى يختلف كل الاختلاف عن الطراز القديم ذى العمود الذى كان فى پرسپوليس — وهو طراز فج سمج غير ظريف ولكنه قد استخدمت منه أشكال بلغت كمالها فى كنيسة أياصوفيا التى أقامها چستنيان .

وهناك غير بعيد من هذا الأثر عند سروستان أثر آخر شبيه به وهو مثله لا يعرف تاريخه ويتكون من واجهة ذات ثلاثة أقواس ، وهو أوسط كبير ، وحجرات واسعة تعلوها قباب بيضوية الشكل ، وأقواس دائرية ، وأنصاف قباب لتقوية البناء . وليس بعيد أن تكون الدعامات الهيكلية التى يسميها المهندسون بالدعامات « الطائفة » المعروفة فى الهندسة القوطية قد تطورت من هذه الأنصاف القباب بأن أزيل منها الهيكل الخارجى الذى تستند إليه (٥١) .

وإلى الشمال الغربى من مدينة السوس توجد بقايا قصر خرب آخر يعرف بالإيوانى خارقه ، وهو أقدم مثل معروف للعقود المستعرضة ذات أضلاع تخترقه من جانب إلى آخر (٥٢) . لكن أروع الآثار الساسانية كلها وأعظمها تأثيراً فى النفس ، أثر بعث لضخامته الرهبة فى قلوب العرب الفاتحين وهو القصر الملكى فى طيسفون وهو الذى يسميه العرب طاق كسرى (الأول) . وربما كان هو البناء الذى وصفه فى عام ٦٣٨ مؤرخ يونانى قال عنه إن چستنيان « بعث إلى كسرى برخام يونانى وصناع مهرة شادوا له قصرأ على الطراز الرومانى غير بعيد من طيسفون » (٥٣) . وقد تهدم جناحه الشمالى فى عام ١٨٨٨ ، وزالت منه القبة ؛ لكن جدرانها الثلاثة الضخمة ترتفع إلى مائة قدم وخمس أقدام ، وتنقسم واجهة البناء أفقياً إلى خمس بوائك مسدودة . وفى البناء عتد عال أوسط — وهو أعلى العقود الأهليجية المعروفة وأوسعها ، إذ يبلغ ارتفاعه ٨٥ قدماً وعرضه ٧٢ — يؤدى إلى وهو طوله ١١٥ قدماً وعرضه ٧٥ ، لقد كان الملوك الساسانيون مولعين بالحجرات الواسعة . وهذه الواجهات المخترقة تحاكي الواجهات الرومانية التى لا تبلغ درجة كبرى من

الرشاقة أمثال ملهى مرسلس Marcellus ؛ وتؤثر في الناظر إليها بروعتها أكثر مما تبهره بجمالها . لكننا لا نستطيع أن نحكم على الجمال الماضى بالحربات القائمة في هذه الأيام .

وليس أعظم ما يستهوى الإنسان من الآثار الساسانية هو قصور اللبن المخطمة بل هو النقوش المحفورة على جوانب الجبال الفارسية . وقد تطورت هذه الأشكال الضخمة من النقوش الأكيدنية ، وتراها في بعض الأحيان مجاورة لها في مكان واحد ، كأن أصحابها قد أرادوا أن يؤكدوا استمرار قوة الفرس وتكافؤ الملوك الساسانيين والأكيمينيين . وأقدم هذه النقوش الساسانية تمثل أردشير يثأر بقدمه عدوا له مطروحا على الأرض وربما كان هذا العدو آخر الأرساسيين . وأجل من هذا نقشى رسم القريب من اصطخر الذى يخلد ذكرى أردشير ، وشابور الأول ، وبهرام الثانى . وقد صور في الملوك كبار الأجسام ولكن أجسامهم كأجسام معظم الملوك والسوقة ، يصعب عليها أن تنافس أجسام الحيوانات . رشاقتهما وتناسب أعضائها وشبيه بهذا نقشى — رجب ، ونقش آخر عند شابور ، فيهما صور حجرية قوية لشابور الأول ، وبهرام الأول والثانى . وفي طاق البستان القريب من كرمنشاه نرى قوسين قائمين على عمودين محفورين حفرأ قليل البروز في الصخور ، ونقوشاً على وجهى الأقواس من الداخل والخارج تمثل شابور الثانى وكسرى أبرويز يصيدان الوحوش . ونرى الفيلة السمينة ، والخنازير البرية تبعث الحياة في هذا الحجر الأصم ، وقد بذلت في تصوير أوراق الأشجار عناية كبيرة ، وحفرت تيجان الأعمدة حفرأ جميلا . ولسنا ننكر أننا لا نرى في هذه النقوش ما نراه في الحركات اليونانية من رشاقة أو في الخطوط اليونانية من يسر ونعومة ، وأنا لانبجد فيها حرصاً شديداً على الفردية ، ولا عناية بفن المنظور ، كما أنها ليس فيها إلا القليل من مجازاة النماذج المألوفة ؛ ولكنها مع هذا لا تقل عن معظم النقوش الكبرى في رومة الإمبراطورية عظمة وفخامة ، وقوة وحيوية ورجولة .

ويبدو أن هذه النقوش المنحوتة في الصخر كانت ملونة ، شأنها في ذلك شأن كثير من زينات القصور ، ولكن هذه الألوان لم يبق منها إلا آثار قليلة . بيد أن أدب الفرس لا يترك مجالا للشك في أن فن التصوير قد ازدهر في عصر الساسانيين ؛ ويقول الكتاب إن النبي مائى أنشأ مدرسة للتصوير ؛ ويحدثنا الفردوسى عن كبار رجال الفرس الذين يزينون قصورهم بصور الأبطال الإيرانيين (٥٤) ؛ ويصف الشاعر البحترى ما كان على جدران قصر المدائن من صور ملونة (٥٥) . وكان من عادتهم أنه إذا مات ملك من ملوك الساسانيين استُدعى أعظم مصور في زمانه لرسم صورة له تضم إلى مجموعة الصور المحفوظة في الخزانة الملكية (٥٦) .

واشتركت في فنون التصوير ، والنحت ، والخزف وغيرها من فنون الزينة مع فن المنسوجات الساسانية في نقوشها ؛ فقد كانت الأقمشة الحريرية ، والمطرزات ، والمنسوجات الموشاة ، والدمقس المشجر ، والأنسجة المزركشة المعلقة على الجدران ، وأغطية الكراسي ، والسرادقات ، والحيام ، والطنافس ، كانت هذه كلها تنسج بمنتهى الصبر والمهارة ، وتصبغ بصبغات ساخنة صفراء ، وزرقاء ، وخضراء . وكان كل فارسى ، عدا الفلاح والكاهن ، يأمل أن يلبس أحسن مما تمكنه طبقة من لبسه ، وكثيراً ما كانت الهدايا تتخذ شكل أثواب فخمة ، وكانت الطنافس الزاهية الألوان من مستلزمات الثراء في الشرق من أيام الأشوريين الأقدمين . وقطع النسيج الساسانية التي تزيد على العشرين قطعة ، والتي هى كل ما نجا من عوادم الدهر ، هى أغلى قطع النسيج الباقية في العالم في هذه الأيام . ولقد كان العالم القديم كله من مصر إلى اليابان حتى في عصر المنسوجات الساسانية يعجب بها ويسعى لمحاكاتها ؛ وكانت هذه المنسوجات الوثنية في أيام الحروب الصليبية تفضل على غيرها من المنسوجات لتلف بها مخلفات القديسين المسيحيين . ولما أن استولى هرقل على قصر كسرى أبرويز في دستجرد كان من أثمن غنائمه أقمشة مطرزة

برقيقة ، وطفنسة كبيرة^(٥٨) . ومن التحف الذائعة الصيت « طفنسة الشتاء » لكسرى أنوشروان . وقد نقشت هذه الطفنسة لتنسيه نقوشها التي تمثل مناظر الربيع والصيف برد الشتاء . كان فيها أزهار وفاكهة منسوجة من الياقوت ، وكانت فيها ماسات تنمو بجوار جدران من الفضة ، وجداول من اللؤلؤ فوق أرضية من الذهب^(٥٩) ، وكان مما يفخر به هارون الرشيد طفنسة ساسانية كبيرة مرصعة بالجواهر^(٦٠) . وقد بلغ من مهارة الفرس أن كانوا يكتبون قصائد الحب على طنافسهم^(٦١) .

ولم يبق من الفخار الساساني إلا قطع قليلة من ذات الفائدة المادية ، لكن فن الخزف كان فناً راقياً في أيام الملوك الإكيمينيين ، وما من شك في أنه لم يمح كله من الوجود في أيام الساسانيين ، لأنه بلغ ذروة الكمال في إيران الإسلامية . ويظن إيرنست فنلوز Ernest Fenellosa أن بلاد الفرس قد تكون هي المركز الذي انتشر منه فن الميناء حتى في بلاد الشرق الأقصى^(٦٢) ، ولا يزال مورخو الفن يتجادلون هل فارس الساسانية ، أو سوريا ، أو بيزنطية هي التي أنشأت فن الخزف البراق ذي الطلاء الذهبي أو الفضي أو النحاسي ، وفن الميناء ذي الحواجز من خيوط معدنية . وكان صناع المعادن الساسانيون يصنعون جراراً ، وأباريق ، وأقداحاً كأنهم يصنعونها إلى جيل من الجبابرة ؛ وكانوا يدبرونها على مخارط ، وينقشونها بالإزميل ، أو يحدثون عليها رسوماً بارزة بطرقها من الداخل ، ويتخذون لها أيادي وأفواهاً على شكل حيوانات تختلف من الديكة إلى الأسود . وفي دار الكتب الأهلية ببافيس قدح فارسي ذائع الصيت هو « قدح كسرى » ، له رصيدة من البلور المطعم في شبكة من الذهب المطروق . وتقول الرواية المتواترة إن هذا القدح كان من الهدايا التي بعث بها هارون الرشيد إلى شارلمان . وليس بعيد أن يكون القوط قد أخذوا هذا الفن عن الفرس ونقلوه إلى بلاد الغرب^(٦٣) .

وكان صانعو الفضة يصنعون صحافاً قيمة ، ويساعدون الصيلغ على صنع الحلى للخاصة والسوقة على السواء رجالا كانوا أو نساء . وقد بقيت حتى الآن عدة صحاف من عهد الساسانيين فى المتحف البريطانى وفى لينغراد ، والمكتبة الأهلية ببافيس ، والمتحف الفنى بنيويورك ، وتحمل كلها صور ملوك أو نبلاء فى الصيد ، وحيوانات أكثر إتقاناً من الآدميين . وكانت النقود الساسانية تنافس فى بعض الأحيان النقود الرومانية فى جمال منظرها ، كما تشهد بذلك عملة شابور الأول (٦٥) . والكتب الساسانية نفسها يمكن أن تعد من التحف الفنية . وتصف الروايات المتواترة كيف كان الذهب والفضة يجريان من جلود كتب مانى حين أحرقت فى الميادين العامة (٦٦) . وكانت المواد الثمينة تستخدم أيضاً فى أثاث الساسانيين ، يدل على ذلك أن كسرى الأول كانت له منضدة من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة ، وأن كسرى الثانى أرسل إلى منقذه ، الإمبراطور موريس (أو موريق) ، منضدة من الكهرمان ، قطرها خمس أقدام ، ذات قوائم من الذهب ، ومغلقة بالجواهر (٦٧) .

وملاك القول أن الفن الساسانى يكشف عن جهود كبرى بذلت لإنعاشه بعد أن ظل أربعة قرون آخذاً فى الاضمحلال فى عهد البارثين . وإذا جاز لنا أن نحكم عليه من بقاياه ، قلنا فى شىء من التردد إنه لا يضارع الفن الإكيميى فى نبلة وفخامته ، أو الفن الفارسى الإسلامى فى قوة ابتكاره ورقته وحسن ذوقه ، ولكنه احتفظ فى النقوش البارزة بكثير مما كان له فى الزمن القديم من قوة تبشر بما بلغت موضوعات التحلية من خصوبة فى مستقبل الأيام . وكان هذا الفن يرحب بالأفكار والأنماط الجديدة ، وقد أوتى كسرى الأول من الحكمة ما جعله يستقدم فنانيين ومهندسين من اليونان فى الوقت الذى كان يهزم فيه قواد اليونان العسكريين . وقد وفى الفن الساسانى بما عليه من الدين ، فكان يصدر أشكاله وتحفه شرقاً إلى بلاد الهند ، وإلى التركستان والصين ، وغرباً إلى سوريا وآسية

الصغرى ، والقسطنطينية ، والبلقان ، ومصر ، وأسبانيا . ولعل تأثير هذا الفن كان من العوامل التى حولت اهتمام الفن اليونانى من الصور القديمة إلى الحلى البيزنطية ، واهتمام الفن اللاتينى المسيحى من السقف الخشبية إلى العقود والقباب والجدران المسندة المقامة من الآجر أو الحجر . وانتقلت البواكى وأنصاف القباب العظيمة من العمارة الساسانية إلى المساجد الإسلامية وإلى القصور والأضرحة المغولية . ذلك أن التاريخ لا يضع فيه شئ : فكل فكرة مبدعة تتاح لها إن عاجلا أو آجلا فرصة تخرج فيها إلى الوجود وتتطور ، وتضيف لونها الحديد إلى شعلة الحياة المتقدة .

الفصل الرابع

فتح العرب

قتل شروى أباه وتوج من بعده ملكاً باسم كفاده الثاني ، ثم عقد الصلح مع هرقل ونزل له عن مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وغربي الجزيرة ، وأعاد الأسرى الذين أخذهم الفرس إلى بلادهم ، وردَّ إلى أورشليم بقايا الصليب المقدس . وابتهج هرقل - وحق له أن يبتهج - بهذا النصر المؤزر ، ولكنه ، لم يكن يعرف أنه في اليوم الذي أعاد فيه الصليب المقدس إلى موضعه في الضريح عام ٦٢٩ قد هاجمت سرية من العرب حامية يونانية بالقرب من نهر الأردن . وفي ذلك العام نفسه فشا وباء فاتك في بلاد الفرس ، أودى بحياة آلاف من أهلها ومنهم الملك نفسه . وعلى أثر موته نودي بابنه أردشير الثالث - ولم يكن قد تجاوز السابعة من العمر - ملكاً على الفرس . لكن قائداً يدعى شهربراز قتل الغلام واغتصب العرش ، ثم قُتل شهربراز نفسه بأيدي جنوده ، وجرت أولئك الجنود جثته في شوارع المدائن وهم يصيحون : « هذا مصير كل من جلس على عرش بلاد الفرس ولم يكن يجرى في عروقه الدم الملكي » ، ذلك أن الجماهير أكثر ملكية من الملوك . وسادت وقتئذ الفوضى في تلك البلاد التي أنهكتها الحروب مدى ستة وعشرين عاماً ، وفشا في الدولة التفكك الاجتماعي بعد أن عمها الفساد الأخلاقي بتأثير الثروة التي جاءت في أعقاب النصر الحربي^(٦٨) ، وقام تسعة من الحكام يتنازعون عرش البلاد في خلال أربع سنوات ، ثم اختفوا كلهم مقتولين أو هاربين أو ميتين ميتة طبيعية شاذة : وأعلنت بعض الولايات ، بل بعض المدن نفسها ، استقلالها عن الحكومة المركزية بعد أن عجزت هذه الحكومة عن بسط سلطانها على البلاد . ووضع

التاج في عام ٦٣٤ على رأس يزدجرد الثالث سليل بيت ساسان وابن جارية زنجية (٦٩) :

وفي عام ٦٣٢ توفي محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أنشأ دولة عربية جديدة ، وتلقى عمر خليفته الثاني ، رسالة من المثنى قائده في سوريا ، يبلغه فيها أن الفوضى ضاربة أطنابها في بلاد الفرس وأنه قد آن الأوان للاستيلاء عليها (٧٠) . وعهد عمر هذا العمل إلى خالد بن الوليد أعظم قواده جميعاً . وزحف خالد بإزاء الساحل الجنوبي للخليج الفارسي على رأس قوة من العرب البدو الذين خرسهم الحروب والراغبين أشد الرغبة في الغنائم (*) ، ثم أرسل رسالة إلى هورمزد حاكم الولاية القائمة على الحدود الفارسية يقول له فيها : « أسلم تسلم » .

ودعاه هورمزد إلى المبارزة وقبل خالد دعوته وقتله . وتغلب المسلمون (٧١) على كل ما واجهوه من مقاومة حتى وصلوا إلى نهر الفرات ، ثم استدعى خالد لينقذ جيشاً عربياً في جهة أخرى ، وتولى المثنى قيادة العرب ، وعبر النهر على جسر من القوارب ، وعهد يزدجرد ، وكان لا يزال شاباً في الثانية والعشرين من العمر ، بالقيادة العليا إلى رستم وإلى خراسان ، وأمره أن يجند قوة ضخمة ينقذ بها الإمبراطورية . والتقى الفرس بالعرب في موقعة الجسر وهزمهم وأخذوا يطاردونهم مطاردة فيها كثير من التهور . وأعاد المثنى تنظيم صفوفه وهزم في واقعة البويب الجيش الفارسي المختل النظام وأفناه عن آخره تقريباً (٦٢٤) . وكانت خسائر المسلمين في هذه المعركة فادحة ، فقد مات المثنى متأثراً بجراحه ، ولكن الخليفة أرسل قائداً آخر أقدر منه يدعى سعد بن أبي وقاص على رأس جيش جديد قوامه ثلاثون ألف رجل . ورد يزدجرد على هذا بأن أنزل إلى الميدان جيشاً مؤلفاً من ١٢٠٠٠٠ من الفرس . وعبر بهم رستم نهر الفرات وعسكر عند القادسية

(*) وكان حقاً على المؤلف أن يضيف إلى ذلك قوله : والعامرة قلوبهم بالثنين والراغبين في الاستشهاد في سبيله . (المترجم)

حيث دارت معركة من أعظم المعارك الحاسمة في تاريخ آسية وأشدّها هولاً ، دامت أربعة أيام . وهبت في اليوم الرابع عاصفة رملية في وجوه الفرس ، واغتنم العرب هذه الفرصة وحملوا على أعدائهم الذين أعمتهم الرمال حملة صادقة ، قتل فيها رستم ومزق جيشه شر ممزق (٦٣٦) . وزحف سعد بجنوده دون أن يلتقى مقاومة تذكر حتى وصل إلى نهر دجلة ، واجتازوه ودخل المدائن .

وذهل العرب السذج الأشداء حين وقعت أعينهم على القصر الملكي وأدهشتهم عقوده الفخمة ، وبهوه الرخامى العظيم ، وطنافسه الكبيرة ، وعرشه المطعم بالجواهر ، وقضوا أربعة أيام يحاولون فيها جمع غنائمهم . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله نهى عمر سعداً عن متابعة الزحف نحو الشرق وقال له إن في العراق ما يكفي (٧٢) . ووافق سعد على أمر الخليفة وقضى الثلاث السنين التالية يوطد دعائم حكم العرب في أرض الجزيرة . وكان يزدد جرد في هذه الأثناء ينشئ في ولاياته الشمالية جيشاً جديداً قوامه ١٥٠.٠٠٠ مقاتل . وبعث عمر لملاقاته ٣٠.٠٠٠ من رجاله ، والتقى الجيشان عند نهاوند ، وهزم العرب الفرس بفضل مهارتهم في الفنون العسكرية في معركة « فتح الفتوح » وقتل من الفرس في هذه المعركة ١٠٠.٠٠٠ ضيق عليهم العرب في مضيق بين جبلين (٦٤١) ؛ وسرعان ما سقطت بلاد الفرس كلها في أيدي العرب ، وفر يزدد جرد إلى بلخ وطلب إلى الصين أن تمد له يد المعونة ؛ ولكن الصين لم تجبه إلى طلبه ، ثم عاد فطلبها إلى الترك ، فأمدوه بقوة صغيرة ، لكن الجنود الترك قتلوه طمعاً في جواهره حين هم بالزحف لبدء الحرب من جديد (٦٥٢) ؛ وبذلك انتهى عهد الساسانيين في فارس .

المراجع مجملّة

- Abbott, G. F., *Israel in Egypt*, London, 1907.
- Abbott, Nabia, *Two Queens of Baghdad*, Univ. of Chicago Press, 1946.
- *Abélaed, P., *Historia Calamitatum*, St Paul, Minn, 1922.
Ouvrages inédits, ed. V. Cousin, Paris, 1836.
- Abrahams, J., *Chapters on Jewish Literature*, Phila., 1899.
Jewish Life in the Middle Ages, Phila., 1896.
- Abu Bekr ibn Tufail, *The History of Hay ibn Yaqkzan* tr. Ockley. N.Y., n.d
- Ackerman, Phyllis, *Tapestry, the Mirror of Civilization*, Oxford Univ. Pres, 1938
- Adams, B., *Law of Civilisation and Decay*, N. Y., 1921
- *Adams, H., *Mont St. Michel and Chartres*, Boston, 1926.
- Addison, J. D., *Arts and Crafts in the Middle Ages*, Boston, 1908.
- Ali, Maulana Muhammad, *The Religion of Islam*, Lahore 1936.
- Al Tabari, *The Book of Religion and Empire*, N. Y., 1922.
- Ameer Ali, Syed, *The Spirit of Islam*, Calcutta, 1900.
- Ammianus Marcellinus, *Works*, Loeb Lib., 1935. 2v.
- Andrae, Tor, *Mohammed*, tr. Menzel N. Y., 1936.
- Anglo-Saxon Chronicle. tr. Ingram, Everyman Lib.
- Anglo-Saxon Poetry, ed. R. K. Gordon Everyman Lib.
- Archer, T. A., and Kingsford, C.L., *The Crusade*, N. Y., 1895.
- *Aristotle, *Politics* tr. Ellis, Everyman Lib.
- Armstrong, Sir Walter, *Art in Great Britain and Ireland*, London, 1919.
- Arnold, M., *Essays in Criticism, First Series*, N. Y., n. d. Home Lib.
- Arnold, Sir T. W., *Painting in Islam*, Oxford 1928.
The Preaching of Islam, N. Y., 1913.
and Guillaume, A. . *The Legacy of Islam*, Oxford, 1981.
- Ashley, W. J., *Introduction to English Economic History and Theory*, N.Y., 1894f, 2v.
- Asiny Palacios, M., *Islam and the Divine Comedy*, London, 1926
- Asser of St. David's, *Annals of the Reign of Alfred the Great*, In Giles, J.A.
- *Aucassin And Nicolette, tr. Mason, Everyman Lib.
- Augustine. St., *The City of God*, tr. Healey, London, 1934.
* *Confessions*, Loeb Lib. 2v.
Letters, Loeb Lib.
- Ausonius, *Poems*, Loeb Lib. 2v.
- Averroës, *A Decisive Discourse on . . . the Relation Between Religion and Philosophy, and An Exposition of the Methods of Argument Concerning the Doctrines of Faith*, Baroda, n. d.
- Avicenna, *Canon Medicinæ*, Venice, 1908.

- Bacon, Roger, *Opus majus*, tr. Burke, Univ. of Penn. Press, 1928, 2v.
 Bader, O., *Jewish Spiritual Heroes*, N. Y., 1940. 3v.
 Boedeker, K., *Northern Italy*, London, 1913.
 A - Baladhuri, Abu -l Abbas Ahmad, *Origins of the Islamic State*; tr. Hitti, Columbia Univ. Press, 1916.
 Barnes, H. E., *Economic History of the Western World* N. Y., 1942.
 History of Western Civilization, N. Y. 1935. 2v.
 Baron, S. W., *Social and Religious History of the Jews*, Columbia Univ. Press, 1937. 8v.
 ed., *Essays on Maimonides*, Columbia Univ. Press, 1941.
 Beard, Miriam, *History of the Business Man*, N. Y., 1938.
 Bebel, A., *Woman under Socialism*, N. Y., 1938.
 Becker, C. H., *Christianity and Islam*, London, 1909.
 Bede, Ven., *Ecclesiastical History of England*, ed. King, Loeb Lib.
 Beer M., *Social Struggles in the Middle Ages*, London, 1924.
 Belloc, H., *Paris*, N. Y., 1907.
 Benjamin of Tudela, *Travels*; cf. Komroff, M., *Contemporaries of Marco Polo*.
 Bevan, E.R., and Slinger. C., *The Legacy of Israel*, Oxford, 1927.
 Bieber, M., *History of the Greek and Roman Theater*, Princeton Univ. Press, 1939.
 Al - Biruni, *Chronology of ancient Nations*, tr. Sachau, London, 1879.
 India, London, 1910. 2v.
 Blok, P. J., *History of the People of the Netherlands*, N. Y., 1898. 3v.
 Boer, T. J. de, *History of Philosophy in Islam*, London, 1903.
 *Boethius, *Consolation of Philosophy*, Loeb Lib.
 Boissier, G. *La fin du paganisme*, Paris, 1918. 2v.
 Boissonnade, P., *Life and Work in Medieval Europe*, N. Y., 1927.
 Bonaventure, St., *Life of St. Francis*, in *Little Flowers of St. Francis*, Everyman Lib.
 Bond, Fr., *Gothic Architecture in England*. London 1906.
 Wood Carving in English Churches, London, 1190 2v.
 Bouchier, E. S., *Life and Letters in Roman Africa*, Oxford 1918.
 Brehaut, E., *An Encyclopedist of the Dark Ages*. N. Y., 1912.
 Bridges, J. H., *Life and Work of Roger Bacon*, London, 1914.
 Briffault, R., *The Mother*, N. Y., 1927. 3v.
 Bright, W., *Age of the Fathers*, N. Y., 1908. 2v.
 Brittain, A., *Women of Early Christianity*, Phila., 1907.
 Broglie, Duc, de, *St. Ambrose*, London, 1899.
 Brown, P. Hume, *History of Scotland*, Cambridge Univ. Press, 1929, 3v.
 Browne, Lewis, ed., *The Wisdom of Israel* N. Y., 1946.
 Bryce, Jas., *The Holy Roman Empire*, N. Y., 1921.

- Bukhsh, S. K., *The Orient under the Caliphs*, translated from A. Von Kremer's *Kulturgeschichte des Orients*, Calcutta, 1920.
Studies : Indian and Islamic, London, 1227.
- Bulletin of The Iranian Institute, N.Y.
- Burton, Sir R. F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, Chicago, 1898.
Personal Narrative of a Pilgrimage to al - Madinah and Meccah, London, 1893, 2v.
- Bury, J. B., *History of the Eastern Roman Empire*, London, 1912.
History of the Later Roman Empire, London, 1923. 2v.
Life of St. Patrick, London, 1905.
- Butler, P., *Women of Medieval France*, Phila., 1908.
- Calvert, A. F., *Cordova*, London, 1907.
Moorish Remains in Spain, N.Y., 1906.
Seville, London, 1907.
- Cambridge Ancient History, N. Y., 1924. 12v.
- Cambridge Medieval History, N.Y., 1924f. 8v.
- Campbell, D., *Arabian Medicine*, London 1926. 2v.
- Capes, W.W., *University Life in Ancient Athens*, N. Y., 1922.
- Carlyle, R. W., *History of Medieval Political Theory in the West*, Edinburgh, 1928. 5v.
- Carlyle Th., *Past and Present*, in *Works*, Collier ed., N. Y. 1901. 20v.
- Carter, T.F., *The Invention of Printing in China*, N.Y., 1925.
- Cassiodorus, *Letters*, ed. Hodgkin, London, 1886.
- Castiglione, A., *History of Medicine*, N. Y., 1941.
- Catholic Encyclopedia, N.Y., 1912. 16v.
- Chambers, E. K., *The Medieval Stage*, Oxford, 1903. 2v.
- Chapman, C. E., *History of Spain, founded on the Historia de Espana* Rofael Altamira, N.Y., 1930.
- Chardin, Sir J., *Travels in Persia*, London, 1927.
- Chateaubriand, Vicomte de, *The Genius of Christianity*, Baltimore, n.d.
- Clapham, J. H., and Power, Eileen, *Cambridge Economic History of Europe*, Vol. I, Camb. Univ Press, 1944.
- Chrétien de Troyes, *Arthurian Romances*, London, Everyman Lib.
- Claudian, *Poems*, Loeb Lib. 2v.
- Clayvijo, Gonzalez de, *Embassy to Tamberlane, 1403-6*. N.Y., 1928.
- Clayton, J., *Pope Innocent III and His Times*, Milwaukee, 1941.
- Collingwood, R. G., and Myres, J. L., *Roman Britain*, Oxford 1937.
- Connick, C. J., *Adventures in Light and Color* N. Y. 1937.
- Coulton, G. G., *Chaucer and His England*, London, 1921.
Five Centuries of Religion, Camb. Univ. Press, 1923. 3v.
From St. Francis to Dante : a tr. of the Chronicle of Salimbene, London, 1908
The Inquisition. N.Y., 1929.

- Inquisition and Liberty, London 1988.
Life in the Middle ages. Camb. Univ. Press, 1980. 4v.
Medieval Panorama. N. Y., 1944.
The Medieval Science, Camb. Univ. Press, 1980.
The Medieval Village. Camb. Univ. Press, 1925.
Social Life in Britain from the Conquest to the Reformation,
Camb Univ. Press. 1988.
- Cram, R.A., The Substance of Gothic, Boston, 1938.
Creswell., K.A , Early Muslim Architecture, Oxford, 1982. 2v.
Cronyn, G., The Fool of Veuus : the Story of Peire Vidal, N.Y., 1934.
Crump, C.O., and Jacob, E.F., The Legacy of the Middle Ages, Oxford, 1926.
Cunningham, W., The Growth of English Industry and Commerce, Camb.
Univ. Press. 1806.
Cuts. E. L , St. Jerome, London, S.P.C.K , n.d.
- Dalton, O.M., Byzantine Art and Archeology, Oxford, 1911.
Dante, Eleven Letters, tr. Latham, Boston, 1891.
De Monarchia, tr. Henry, Boston, 1904.
Il Eourvito, tr. Sayer, London, 1887.
La Commedia, ed. Toynbee, London: 1900.
La Vita Nuova, tr. D. G. Rossetti, Portland, Mc., 1898.
The Vision of (The Divine Comedy). tr. Cary, Everyman Lib.
- 'D'Arcy, M.C , Thomas Aquinas, London, 1930.
Dasent, G., tr., Story of Burnt Njal, Evryman Lib.
Davis, H. W. C., ed., Medieval England, Oxford, 1928.
Davis Wm. S , Life on a Medieval Baroy, N. Y., 1928.
and West, W. M., Readings in Ancient History, Boston,
1912 2v
- Dawson, Christopher, The Making of Europe, N.Y., 1932.
Day, Clive, A History of Commerce, London, 1926.
Dennis, G., Cities and Cemeteries of Etruria, Everyman Lib, 2v.
De Vaux, Baron Caron Carra. Les penseurs de l'Islam, Paris 1921. 5v.
De Wulf, M., History of Medieval Philosophy, London, 1925. 2v.
Philosophy and Civilization in the Middle Ages, Princeton
Univ Press. 1922.
- Dhalla, M. N., Zoroastrian Civilization, Oxford, 1922.
Diehl, C., Byzantine Portrait, N.Y., 1926.
Manuel d'art Byzantin, Paris, 1910.
- Diesendruck, Levi Maimonides and Thomas aquinas, in N.Y. Public Library
Pamphlets, v. 372.
- Dieulafoy, M. Art in Spain and Portugal, N.Y. 1913.
Dill, Sir S., Roman Society in Gaul in the Merovingian Ages, London 1926.
Romou Society in the Last Century of the Western Empire,
London, 1906.

- Dillon, E., *Glass*, N. Y., 1907.
- Dimand, M. S., *Handbook of Muhammedan Art*, N. Y., 1944.
- Dopsch, A., *Economic and Social Foundations of European Civilization*, N. Y., 1937.
- *Doughty, Chas. M., *Travels in Arabia Deserta*, N. Y., 1923, 2v.
- Dozy, R., *Spanish Islam*, N. Y., 1913.
- Draper, J. W., *History of the Intellectual Development of Europe*, N. Y., 2v.
- Druck, D., *Yehuda Halevy*, N. Y., 1941.
- Dubnow, S.M., *History of the Jews in Russia and Poland*, Phila., 1916. 3v.
- DuChailu, P., *The Viking Age*, N. Y., 1889. 2v.
- Duchesne, L., *Early History of the Christian Church*, London. 1938. 3v.
- Dudden. F. H , *Oregory the Great*, London, 1905. 2v.
- Duhem, P., *Le systeme du monde*, Paris, 1913. 5v.
- Eginhard, *Life of Charlemagne*, N. Y, 1880.
- Encyclopaedia Britannica*, 14th ed.
- Erigena, John Scotus, *On the Division of Nature*, Book I, Annapolis, Md., 1940.
- Eunapius, *Lives of the Sophists*, in *Philostratus*, Everyman Lib.
- Farmer, H. G , *History of Arabian Music*, London, 1929.
- Faure, E, *History of Art*, N. Y., 1921. 4v. Vol. III : *Medieval Art*.
- Fenollosa, E. F., *Epochs of Chinese and Japanese Art*, N. Y., 1921. 2v.
- Fergusson, J., *History of Architecture in All Countries*, London, 1874. 2v.
- Fiedler, H. G., ed., *Das Oxford Buch Deutscher Dichtung*, Oxford, 1936.
- Figgis, J.N., *Political Aspects of St. Augustine's City of God*, London, 1921.
- Finlay, G., *Greece under the Romans*, Everyman Lib.
History of Greece, Oxford, 1877. 7v.
- Firdousi, *Epic of the Kings*, retold by Helen Zimmern, N. Y., 1883.
Shah Nameh, in Gottheil, R., *Literature of Persia*, N.Y., Vol.I.
- Fisher, H. L., *The Medieval Empire*, London, 1898. 2v.
- Foakes-Jackson, F. and Lake, K., *Beginning of Christianity*, London, 1920. 3v.
- Erasmke, K , *History of German Literature*, N. Y. 1901.
- Frank, T., ed., *Economic Survey of Ancient Rome*, Baltimore, 1933f. 5v.
- Frazer, Sir J., *Adonis, Attis, Osiris*, London, 1907.
The Magic Art, N. Y., 1935. 2v.
- Freeman, E. A., *Historical Essays, First Series*, London. 1896.
History of the Norman Conquest of England, London 1870. 4v.
- French Classics*, ed. Perier, Paris, Librairie Hatier, n. d.
- Friedländer, L. *Roman Life and Manners under the Early Empire*, London.. n. d. 4v.

- Funk, F. X., *Manual of Church History*, London, 1919. 2v.
- Gabriel, Solomon Ibn, *The Improvement of the Moral Qualities*, tr. and introd. by Stephen S. Wise, N. Y., 1902.
Selected Religious Poems, tr. Israel Zangwill, Phila. 1923.
- Gardiner, E. N., *Athletics of the Ancient World*, Oxford, 1930.
- Gardner, Alice, *Julian, Philosopher and Emperor*, N. Y., 1895.
- Garrison, F., *History of Medicine*, Phila., 1929.
- Gasquet, A., *Cardinal, Monastic Life in the Middle Ages*, London, 1922.
- Geoffrey of Monmouth, *British History*, in Giles, *Six Chronicles*.
- Gest, A. P., *Roman Engineering*, N. Y., 1930.
- Gesta Francorum*, ed. Brehier, Paris, 1924.
- Al-Ghazali, Abu Hamid, *The Alchemy of Happiness*, tr. Field, London, 1910.
Some Religious and Moral Teachings, tr. Nawab Ali, Baroda, 1920.
- Gibbon, Ed., *Decline and Fall of the Roman Empire*, Everyman Library, 6v.
ed. J. B. Bury, London, 1900. 7v.
- Gildas, *Works*, in Giles, *Six Chronicles*.
- Giles, J. A., *Six Old English Chronicles*, London, 1848.
- Gilson, E., *La philosophie au moyen âge*, Paris, 1922. 2v.
La philosophie au moyen âge, Paris, 1947.
Philosophy of St. Bonaventure, N. Y., 1938.
Reason and Revelation in the Middle Ages, N. Y., 1938.
- Giraldus Cambrensis, *Itinerary through Wales, (and Description of Wales)*, Everyman Lib.
- Glover, T. P., *Life and Letters in the Fourth Century*, N. Y., 1924.
- Gordon, R. K., ed., see *Anglo-Saxon Poetry*.
- Gottheil, R. J., ed., *Literature of Persia*, N. Y., 1900. 2v.
- Grabmann, M., *Thomas Aquinas*, N. Y., 1928.
- Graetz, H., *History of the Jews*, tr. Bella Löwy, Phila., 1891f. 6v.
- Green, J. R., *Conquest of England*, London, 1884.
The Making of England, London, 1882.
Short History of the English People, London, 1898. 8v.
- Gregory of Tours, *History of the Franks*, tr. Brehaut, N. Y., 1916.
- Grousset, R., *Civilizations of the East*, London, 1931; Vol. I: *The Near and Middle East*.
- Grove's *Dictionary of Music and Musicians*, N. Y., 1928. 5v.
- Gruenbaum, G. von, *Medieval Islam Univ. of Chicago Press*, 1946.
- Gruner, O.C., *Treatise on the Canon of Medicine of Avicenna*, London, 1930.
- Guibert of Nogent, *Autobiography*, London, 1925.
- Guignebert, C., *Christianity Past and Present*, N. Y., 1927.
- Guylllaume, A., *The Traditions of Islam*, Oxford, 1924.
- Guizot, F., *History of Civilization*, London, 1898. 8v.
History of France, London, 1872. 8v.

- Halevi, J.**, Kitab alKhazari, tr. Hirschfeld, London 1931.
 Selected Poems, tr. Nina Salaman, Phila., 1928.
- Hammerton, J. A.**, ed., Universal History of the World, London, n.d. 8v.
- Haskins, C. H.**, The Normans in European History, Boston, 1915.
 The Renaissance of the Twelfth Century, Harvard Univ. Press, 1928.
 Studies in Medieval Culture, Oxford, 1929.
- Hastings, J.**, ed., Encyclopedia of Religion and Ethics, N. Y., 1928. 12v.
- Haverfield, F.**, Roman Occupation of Britain, Oxford, 1924.
- Hazlitt, W. C.**, The Venetian Republic, London, 1900. 2v.
- Headlam, C.**, Story of Chartres, London, 1908.
 Story of Nuremberg, London, 1911.
- Hearnshaw, F.**, Social and Political Ideas of Some Great Medieval Thinkers. N. Y., 1923.
 Medieval Contributions to Modern Civilization, N. Y., 1922.
- Heath, Sir Thos.**, History of Greek Mathematics, Oxford, 1921. 2x.
- Hebraic Literature**, translations from the Talmud, Midrashim, and Cabala, London 1901.
- Hebrew Literature**, ed. Epiphanius Wilson. N. Y., 1901.
- Hefele, C. J.**, History of the Christian Councils, Edinburgh, 1894. 5v.
- Heitland, W.**, Agricola, Camb. Univ. Press, 1921.
- Hell, Jos.**, The Arab Civilization, Camb. Univ. Press, 1926.
- Higham, T.**, and Bowra, C., Oxford Book of Greek Verse, Oxford, 1930.
- Himes, N.**, Medical History of Contraception, Baltimore, 1936.
- Hitler, A.**, Mein Kampf, N. Y., 1939.
- Hitti, P. K.**, History of the Arabs, London 1937.
- Hodgkin, T.**, Italy and Her Invaders, Oxford, 1892. 7v.
 Charlemagne, N. Y., 1902.
- Holinshed, Chronicle**, Everyman Lib.
- Home, G.** Roman London, 1926.
- Hoover, H.**, and Gibbons, H.A., Conditions of a Lasting Peace, N.Y., 1939.
- Hopkins, C. Edward**, The Share of Thomas Aquinas in the Growth of the Witchcraft Delusion, Univ. of Penn., 1940.
- Horn, F. W.**, History of the Literature of the Scandinavian North, Chicago, 1895.
- Houtsma, M.**, ed., Encyclopedia of Islam, London, 1908 - 24.
- Howard, C.**, Sex Worship, Chicago, 1909.
- Hulme, E. M.**, The Middle Ages, N. Y., 1938.
- Hume, David**, History of England, N. Y., 1891. 6v.
- Hume, Martin**, The Spanish People, N. Y., 1911.
- Hurgronje, C.**, Mohammedanism, N. Y., 1916.
- Husik, I.**, History of Medieval Jewish Philosophy, N. Y., 1930.
- Hyde, Douglas**, Literary History of Ireland, London, 1899.
- Iacopo de Voragine**, The Golden Legend, tr. Wm. Caxton, Cambridge Univ. Press, 1914.

- Ibn Khaldoun, Les prolégomènes, tr. en français par M. de Siane, Paris, 1934. 8v.
- Ibn Khallikan, M., Biographical Dictionary, tr. M. de Siane, Paris 1843, 2v
- Inge, W. R., Philosophy of Plotinus, London, 1929 2v.
- Irving, W., Alhambra, N. Y., 1925,
 . Life of Mahomet, Everyman Lib.
- Jackson, Sir T., Byzantine and Romanesque Architecture, Camb. Univ. Press, 1920. 2v,
 Gothic Architecture in France, England, and Italy, Camb. Univ. Press, 1915, 2v.
- Jalal ud - Din Rumi, Selected Poems, ed. & tr, R. A. Nicholson, Camb. Univ. Press, 1898.
- James, B., Women of England, Phila, 1908.
- Jeus, Edw., Law and Politics in the Middle Ages, N. Y., 1898.
- Jerome, St., Select Letters, tr. Wright. Loeb Lib.
- *Joinville' Jean de, Chronicle of the Crusade of St. Louis, Everyman Lib.
- Jordanes, Gothic History Princeton Univ. Press, 1915.
- Jørgensen, J., St. Francis of Assisi, N. Y., 1940.
- Joseph Ben Joshua Ben Meir, Chronicles, London, 1858, 2v.
- Joyce, P., Short History of Ireland, London, 1924.
- Julian, Works, Loeb Lib. 3v.
- Jusserand, J. J, English Wayfaring Life in the Middle Ages, London, 1891.
- Justinian Institutionum Libri Quattuor, ed. Moyle, Oxford Univ. Press, 1888, 2v.
- Kantorowicz, E., Frederick the Second, London, 1931.
- Kellogg, J. H., Rational Hydrotherapy, Battle Creek, Mich., 1928.
- Ker, W. P., Epic and Romance, London, 1897.
- Kirstein, L., Dance : a Short History, N. Y., 1953.
- Klausner, J. From Jesus to Paul, N. Y., 1948.
- Kluchevsky, V , History of Russia, London, 1912, 3v.
- Komoff, M , Contemporaries of Marco Polo, N. Y., 1937.
- Kroeger, A., The Minnesinger of Germany. N. Y., 1873.
- Lacroix, Paul, Arts of the Middle Ages, London, n. d.
 History of Prostitution, N. Y., 1981. 2v.
 Manners, Customs, and Dress during the Middle Ages,
 N. Y., 1876.
 Military and Religious Life in the Middle Ages, London, n.d.
 Science and Literature in the Middle Ages, London, n.d.
- Lanciani. R., Ancient Rome, Boston, 1889.
- Lane, Edw., Arabian Society in the Middle Ages, London, 1883.
- Lane - Poole, S., Art of the Saracens in Egypt, London, 1886.
 Calro, London, 1895.

- Saladin, London, 1920
 Speeches and Table Talk of the Prophet Mohammed
 London, 1852.
 Story of the Moors in Spain, N.Y., 1889.
 Studies in a Mosque, London, 1883.
- Lange, P. H., Music in Western Civilization, N.Y., 1941. A model of scholarship and style.
- Lavisse, E., Histoire de France, Paris, 1900f. 18v.
- Les, H.C., Historical Sketch of Sacerdotal Celibacy, Boston, 1884.
 History of the Auricular Confession, Phila. 1886. 3v.
 History of the Inquisition in the Middle Ages, N.Y., 1888. 8v..
 History of the Inquisition in Spain. N.Y., 1906. 4v.
 Superstition and Force, Phila., 1892.
- Lecky, W.E., History of European Morals, N.Y., 1926. 2v.
- Le Stange, G., Baghdad during the Abbasid Caliphate, Oxford, 1924.
 Palestine under the Moslems, Boston, 1890.
- Lethaby, W. Medieval Art, London, 1904.
- Lonrot, E., Kalevala, Everyman Lib. 2v.
- Little, A. G., ed., Roger Bacon Essays, Oxford 914.
- Little Flowers of St Francis, Everman Lib.
- Lorris, W., and Jean Clopinel de Meung, The Romance of the Rose,
 London, 1933. 8v.
- Lot, F., The End of the Ancient World. N.Y. 1931.
- Louis, Paul, Ancient Roman Work, N.Y., 1927.
- Lowie, R., Are We Civilized? N.Y., 1929.
- Lützw, Count von, Bohemia, an Historical Sketch, Everyman Lib.
- Lyra Graeca, ed. and tr. by J.M. Edmonds, Loeb Lib. 3v.
- Mabinogion, tr. Lady Charlotte Guest, Everyman Lib.
- Macdonald, D. B., Aspects of Islam, N.Y., 1913.
 Development of Muslim Theology, Jurisprudence, and
 Constitutional Theory, N.Y., 1903.
 Religious Attitude and Life in Islam, Chicago, 1909.
- MacLaurin, C., Mere Mortals, N.Y., 1925, 2v.
- Macrobius, Opera accedunt integra, London, 1694.
- Mahaffy, J.P., Old Greek Education, N.Y., n.d.
- Maimonides, Guide to the Perplexed, tr. Friedländer, London, 1885. 3v..
 Mishneh Torah; Book I, tr. Hyamson, N.Y., 1937.
- Malne, Sir H., Ancient Law, Everyman Lib.
- Maitland, S.R., Dark Ages, London, 1890.
- Al-Makkeri, Ahmed, History of the Mohammedan Dynasties in Spain, tr.
 de Gayangos London 1840. 2v..
- Mâte, É., L'art religieux du XIII^e siècle en France Paris, 1902.
- Malter, H., Saadia Gaon, Phila., 1921.
- Mantzins, K., History of Theatrical Art, London, 1908f. 6v.

- Marcus Aurelius, *Meditations*, tr. Long. Boston, 1876.
- Marcus, J., *The Jew in the Medieval World*, Cincinnati, 1938.
- Margoliouth, D. S., *Cairo, Jerusalem, and Damascus*, N.Y., 1907.
- Mohammed and the Rise of Islam*, N.Y., 1905.
- Maritain, I., *The Angelic Doctor*, N.Y., 1940.
- Al-Masudi, Abu-i-Hasan, *Meadows of Gold and Mines of Gems*, tr. Sprenger, London, 1841.
- Matthews, B., *Development of the Drama*, N. Y., 1921.
- Mavor, J., *Economic History of Russia*, London, 1925. 2v.
- May, Sir T., *Democracy in Europe*, London, 1877. 2v.
- McCabe, J., *Crises in the History of the Papacy*, N.Y., 1961.
- Empresses of Constantinople*, Boston, n.d.
- St. Augustine and His Ages*, N.Y., 1903.
- Story of Religious Controversy*, Boston, 1929.
- McKinney, H., and Anderson, W., *Music in History*, Cincinnati, 1940.
- Michelet, J., de, *History of France*, N.Y., 1880. 2v.
- Migeon, O., *Les arts musulmans*, Paris, 1922. 2v.
- Migeon, O., *Les arts musulmans*, Paris, 1922. 2v.
- Milman, H., *History of Latin Christianity*, N. Y., 1860. 8v.
- Mirror of Perfection*, in *Little Flowers of St. Francis*.
- Molmenti, P., *Venice*, London, 1906. 6v.
- Mommsen, Th., *Provinces of the Roman Empire*, N.Y., 1887. 2v.
- Monroe, P., *Source Book of the History of Education for the Greek and Roman Period*, N. Y., 1932.
- Montalembert, Count de, *The Monks of the West*, Boston, n.d. 2v.
- *Montesquieu, Chas, Baron de, *Spirit of Laws*, N.Y., 1899. 2v.
- Moore, C. H., *Development and Character of Gothic Architecture*, London, 1889.
- Moore, O. F., *Judaism in the First Centuries of the Christian Era*, Cambridge, Mass., 1932. 2v.
- Morey, Chas, *Medieval Art*, N. Y., 1294.
- Muir, Sir W., *The Caliphate*, London, 1891.
- Life of Mohammed*, Edinburgh, 1912.
- Müller-Lyer, F., *Evolution of Modern Marriage*, N.Y., 1930.
- Mumford, Lewis, *Technics and Civilization*, N.Y., 1934.
- Munk, S., *Mélanges de philosophie juive et arabe*, Paris, 1859.
- Müntz, D. C. and Sellery, O.C., *Medieval Civilization*, N.Y., 1926.
- Murray, A. S., *History of Greek Sculpture*, London, 1890. 2v.
- Nennius, *History of the Britons*, in Giles, *Six Chronicles*.
- Neuman, A. A., *The Jews in Spain*, Phila., 1942. 2v.
- *Newman, Louis, and Spitz, S., *The Talmudic Anthology*, N.Y., 1945.
- Nicholson, R. A., *Literary History of the Arabs*, Camb. Univ. Press, 1930.
- The Mystics of Islam*, Camb. Univ. Press, 1922.
- Studies in Islamic Mysticism*, Camb. Univ. Press, 1921.
- Studies in Islamic Poetry* Camb. Univ. Press, 1921.

Translations of Eastern Poetry and Prose, Camb. Univ. Press, 1922.

Nickerson, H., *The Inquisition*, Boston, 1923.

Nietzsche, F., *Beyond Good and Evil*, N.Y., 1923.

Nöldeke, Th., *Sketches from Eastern History*, London, 1802.

Nun's Rule, being the *Ancren Riwe* modernized, by Jas. Morton, London, 1296.

Oesterley, W., and Box, G., *Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism*, London, 1920.

Ogg, F., *Source Book of Medieval History*, N.Y., 1907.

O'Leary DeLacy, *Arabic Thought and Its Place in History*, London, 1922.

OMAN, C.W., *The Byzantine Empire*, London, 1802.

Oxford History of Music Oxford 1929f. 7v.

Paetow, L., J., *Guide to the Study of Medieval History*, N.Y., 1931.

Palmer, E.H., *The Caliph Haroun Alraschid*, N.Y., n.d.

Panofsky, Erwin, *Abbot Suger*, Princeton, 1948.

Paris, Matthew, *English History from the Year 1235 to 1273*, tr. Giles, London, 1852. 3v.

Paul The Deacon, *History of the Longobards*. tr. Foulke, Univ. of Penn., 1907.

Pauphilet, A., ed., *Jenx et sapience du moyen âge*, Paris, 1940.

Persian Art. Souvenir of the Exhibition at Burlington House, London, 1931.

Philby, H. St. John, *A Pilgrim in Arabia* Golden Cockerel Press, n.d.

Pickthall, Marmaduke, *The Meaning of the Glorious Koran* N.Y., 1930.

Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, N.Y., n.d.
History of Europe from the Invasions to the Sixteenth Century, N.Y. 1939.

Medieval Cities, Princeton. 1939.

Mohammed and Charlemagne. N.Y., 1930.

Plennne, J., *Les grands courants de l'histoire universelle*, Neuchâtel 1964. 3v.

Pliny The Elder, *Natural History*, London, 1855. 6v.

Plummer, C., *Life and Times of Alfred the Great*, Oxford, 1902.

Pokrovsky, M., *History of Russia*, N.Y., 1931.

Pollock, F., and Maitland, F., *History of English Law before Edward I*, Camb. Univ., 1895. 2v.

*Polo, Marco, *Travels*, ed Komoroff. N.Y. 1928.

Poole, R. L., *Illustrations of the History of Medieval Thought and Learning*, N.Y. 1920.

Pope, A.U., *Introduction to Persian Art*, London, 1930.

Iranian and Armenian Contribution to the Beginnings of Gothic Architecture, Bulletin of the Asia institute, N.Y. 1946.

Masterpieces of Persian Art, N.Y. 1945.

Survey of Persian Art. Oxford Univ. Press. 1298. 6v.

Porter, A. K., *Medieval Architecture*, N.Y., 1909. 2v.

Power, Elleen, *Medieval People*, Boston, 1924.

- and Power, Rhada, Cities and Their Stories, Boston, 1927.
- *Prestage, E., Chivalry, N.Y. 1928.
- Procopius, Anecdota, or Secret History' Loeb Lib.
Buildings, Loeb Lib.
History of the Wars, Loeb Lib. 5v.
- Psellus, M., Chronographia, French tr. by Emile Ranauld, Paris. n.d.
- Quennell, M., Everyday Life in Roman Britain, N.Y. 1925.
- Raby, F. J., History of Christian Latin Poetry in the Middle Ages.
Oxford, 1927.
History of Secular Latin Poetry in the Middle ages, Oxford,
1934. 2v.
- Ramhaud, A., History of Russia, Boston, 1889. 3v.
- Rapaport. S., Tales and Maxims from the Talmud, London, 1910.
- *Rashdall, H., The Universities of Europe in the Middle Ages, Oxford, 1936,
revised by F. M. Powicke and A. B. Emden. 3v.
- Rawlinson, G., The Seventh Great Oriental Monarchy, London, 1876.
- Reese, G., Music in the Middle Ages, N.Y., 1940.
- Rémusat, C. De, Abélard, Paris, 1845. 2v.
- *Renan, E., Averroès et l'averroïsme, Paris, n.d.
The Christian Church, London, n.d.
Marc Aurèle, Paris, n.d.
Poetry of the Celtic Races, in Harvard Classics, Vol. 38, N. Y.,
1938.
- Renard, G., Guilds of the Middle Ages, London. 1918.
- Richard, E. History of German Civilization, N.Y., 1911.
- Rickard, T., Man and Metals, N.Y., 1932. 2v.
- Riefstahl, R., The Parish - Wastson Collection of Mohammedan Potteries,
N.Y., 1922. 2
- Rihani, The Quatrains of Abu-l-Ala, London, 1904.
- Rivoira, G., Lombardic Architecture, London, 1910. 2v.
Moslem Architecture, Oxford, 1918.
- Robertson, J. M., Short History of Free Thought, London, 1914. 2v.
- Robillard, M., Chartres, Grenoble, n.d.
- *Rogers, J. E. T. Six Centuries of Work and Wages, N.Y., 1890.
- Rostovizeff, M., History of the Ancient World, Oxford, 1928. Vol. II : Rome
Social and Economic History of the Roman Empire, Oxfor,
1926.
- *Roth, Leou, Spinoza, Descartes, and Mainides, 1924.
- Rowbotham, J., The Troubadours and Courts of Love, London, 1895.
- Ruskin, J., Stones of Venice, Everyman Lib. 3v.

Russell, B., *History of Western Philosophy*, N. Y., 1945.

Russell, C. E., *Charlemagne*, 1930:

Sabatier, P., *Life of St. Francis of Assisi*, N. Y., 1909.

Sa'di, *The Gulistan*, in Gottheil, R., *Literature of Persia*, Vol. II.

The Rose Garden (Gulistan), tr. by L. Cranmer-Byng, London, 1919.

Saladin, H., et Migeon G., *Manuel d'art musulman*, Paris, 1907. 2v.

Saliba, D., *Étude sur la métaphysique d'Avicenne*, Paris, 1926.

Salzman, L., *English Industries of the Middle Ages*, Oxford, 1923.

Sandys, Sir J., *Companion to Latin Studies*, Cambridge, 1925.

Sanger, W., *History of Prostitution*, N. Y., 1910.

Sarre, F., *Die Kunts des alten Persien*, Berlin, 1925.

Sarton, G., *Introduction to the History of Science*, Baltimore, 1930 3v.in 5.

A masterpiece of painstaking scholarship.

Srunders, O. E., *History of English Art in the Middle Ages*, Oxford, 1932.

Saxo Grammaticus, *Danish History*, London, n d. 2v.

Schechter, S., *Studies in Judaism*, N. Y., 1920. 8v.

Schevill, F., *Siena*, N. Y., 1909.

Schneider, H., *The History of World Civilization*, N. Y., 1931. 2v.

Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*. Phila., 1908.

Schoenhof, J., *History of Money and Prices*, N. Y., 1896.

***Scott-Moncrieff, C. K.**, *The Letters of Abélard and Héloïse*, N. Y., 1926.

Sedgwick, H. D., *Italy in the Thirteenth Century*, Boston, 1912. 2v.

Seebohm, F., *The English Village Community*, London, 1896.

Seignobos, C., *The Feudal Regime*, N. Y., 1920.

Short, E. H., *The Painter in History*, London, 1929.

Shotwell, J. T., and **Loomis, L. R.**, *The See of Peter*, Columbia Univ. Press, 1927.

Sidonius Apollinaris, *Poems and Letters*, Loeb Lib. 2v.

Sigfusson, Saemund, *The Elder Edda*, London, 1907.

Sihle, E. G., *From Augustus to Augustine*, Camb. Univ. Press, 1923.

Singer, C., ed., *Studies in the History and Method of Science*, Oxford, 1917f. 2v.

Smith, Margaret, ed., *The Persian Mystics : Attar*, London, 1932.

Smith, Touimin, *English Oilde : the Original Ordinance*, London, 1870.

Socrates, *Ecclesiastical History*, London, 1892.

Sozomen, *Ecclesiastical History*, London, 1855.

Speculum, *A Jourual of Medieval Studies*, Cambridge, Mass.

Spencer, H., *Principles of Sociology*, N. Y., 1910. 8v.

***Spengler, O.**, *Decline of the West*, N. Y., 1928. 2v.

Stephence, W. R., *Hidebrand and His Times*, London, 1914.

- Sterling, M. B. *The Story of Parzival*. N. 1911
- Stevens, C. E., *Sidonius Apollinaris*, Oxford, 1938.
- Street, G. E., *Gothic Architecture in Spain*. London 1869.
- Strykowski, *Origin of Christian Church Art*, Oxford, 1923.
- Stubbs, Wm., *Constitutional History of England*, Oxford, 1903. 3v.
- Sturluson, Snorri, *Heimskringla. The Norse Sagas*, Everyman Lib.
 Heimskringla : The Olaf Sagas, Everyman Lib.
 The Younger Edda, in Sigfusson, S.
- Sumner, W. G., *Folkways*, Boston, 1906.
- Sykes, Sir P., *History of Persia*, London, 1921. 2v.
- Symonds, J. A., *Studies of the Greek Poets*, London, 1920.
 Introduction to the Study of Dante, London, 1899.
- AL - Tabari, *Chronique*, Fr. tr. by Zotenberg, Paris, 1867.
- Tagore, Sir R., *Gitanjali*, N. Y., 1928.
- Taine, H., *Ancient Regime*, N. Y., 1891.
 Italy : Florence and Venice. N. Y., 1869.
- Talmud, *Babylonian*, Eng. tr., London, 1935f. 24v.
- Tarn, W., *Hellenistic Civilization*. London, 1927.
- Taylor H. O. *The Classical Heritage of the Middle Ages*, N. Y., 1911.
 The Medieval Mind, London, 1927. 2v.
- Thatcher, O., and McNeal, E., *Source Book for Medieval History*, N. Y., 1905.
- Thierry, A., *History of the Conquest of England by Normans*, London, 1847. 2v.
- Thomas Aquinas, St., *Summa contra Gentiles* London, 1024. 4v.
 Summa theologiae. tr. by Dominican Fathers, London, 1920. 22v.
- Thompson, Sir E., *Introduction to Greek and Latin Palaeography*. Oxford, 1921.
- Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Middle Ages, 300 - 1300*, N. Y., 1928.
 Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages, N. Y., 1931.
 Feudal Germany, Chicago, 1928.
 The Middle Ages, N. Y., 1931. 2v.
- *Thorndike, Lynn, *History of Magic and Experimental Science*, N. Y., 1929f.
 A work of magnificent scholarship, which illuminates every subject that it touches.
 Short History of Civilization. N. Y., 1926.
- Tisdall, W., *Original Sources of the Qur'an*.
- Tornay, S. G., *Averroës' Doctrine of the Mind*, *Philadelphia Review*, May, 1943.
- *Toynbee, A. J., *A Study of History*, Oxford, 1935f. 6v.
- Traill, H. D., *Social England*, N. Y., 1902. 6v.

- Ueberweg, F., *History of Philosophy*, N. Y., 1871: 2v.
- Usher, A. P., *History of Mechanical Inventions*, N. Y., 1929.
- Al-Utbi, Abul-Nasr, *Memoirs of the Emir Sabaktagin and Mahmud of Ghazna*, tr. Reynolds, London, 1858.
- Vacandard, E., *The Inquisition*, N. Y., 1908.
- *Van Doren, Mark, *An Anthology of World Poetry* N. Y., 1928. The best work of its kind.
- Vasari, G., *Lives of the Painters*, Everman Lib. 3v.
- Vasiliev, A., *History of the Byzantine Empire*, Madison, Wis., 1929. 2v.
- Vernadsky, G., *Kievan Russia*, Yale Univ. Press, 1948.
- Villari, P., *The Two First Centuries of Florentine History*, London, 1908.
- Villehardouin, G. de, *Chronicle of the Fourth Crusade*, Everyman Lib.
- Vinogradoff, P., *English Society in the Eleventh Century*, Oxford, 1908.
- Voltaire, *Essay in the Manners and Morals of Europe*, in *Works*, Vol. XIII, N. Y., 1901.
- Vossler, K., *Medieval Culture : an Introduction to Dante and His Times*, N. Y., 1929. 2v.
- *Waddell, Helin, *Medieval Latin Lyrics*, N. Y., 1942.
- * *The Wandering Scholars*, London, 1927.
- * *Peter Abélard*, N. Y., 1933.
- Waren, C., *Medieval Sicily*, London, 1910.
- Walker Trust Report, *The Great Palace of the Byzantine Emperors*, Oxford, 1947.
- Walsh, J. J., *The Popes and Science*, N. Y., 1913.
- The Thirteenth the Greatest of Centuries*. Catholic Summer School Press, 1920.
- Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, tr. Colvin, London, 1938.
- Songs and Sayings*, tr. Betts, London, n.d.
- Waxman, M., *History of Jewish Literature*, N. Y., 1930.
- Weigall, A., *The Paganism in Our Christianity*, N. Y., 1930.
- Weir, T.H., *Omar Khayam the Poet*, N. Y., 1928.
- Welch, Alice, *of Six Medieval Women*, London, 1913.
- West, A. F., *Alcuin*, N.Y., 1916.
- Westermarck, E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, London, 1917f. 5v.
- Short History of Marriage*, N. Y., 1926.
- Wherry, E. M., *Commentary of the Qur'an, with Saic's tr. and notes*, London, 1896. 4v.
- White, E. M., *Woman in World History*, London, n.d.
- Wicksteed, P. H., *Dante and Aquina*, 1913.

- William of Malmesbury, Chronicle of the Kings of England, London, 1883.**
- William of Tyre, Godeffroy of Bologna, or the Siege and Conquest of Jerusalem, tr. Caxton, London, 1893.**
- Willoughby, W. W., Social Justice, N. Y., 1900.**
- Winckelmann, J., History of Ancient Art, Boston, 1880, 2v.**
- Wolfram von Eschenbach, Parzival, tr. Weston, London, 1894, 2v.**
- Wright, Th., ed., The Book of the Knight of La Tour-Landry, London, 1868.**
A History of Domestic Manners and Sentiments in England during the Middle Ages, London, 1907.
- Yellin, D., and Ahrahams, I., Maimonides, 1903.**
- Zeitlin, S., Maimonides, N.Y., 1935.**
- Zimmern, H., The Hansa Towns, N. Y., 1889.**

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجلدة ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد وتتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم «الكتاب» أى الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية في القرآن أو الكتاب المقدس

CHAPTER I

1. Ammianus Marcellinus, xxi, 16.
2. Philostorgius, ii, 9, in Cibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, II, 78.
3. Sozomen, *Ecclesiastical History*, ii, 3.
4. Lot, Ferdinand, *End of the Ancient World* 71 ; Bury, J. B., *History of the Later Roman Empire*, I, 87.
5. *Cambridge Medieval History*, IV, 748.
6. Ibid., I, 598.
7. Munro and Seilery *Medieval Civilization*, 87, says 30,000 : Bury, op. cit, says 70,000.
8. Dudden, F. H., *Gregory the Great*, I, 129.
9. Duchesne, L., *Early History of the Christian Church*, II, 127.
10. Socrates, *Ecclesiastical History*, I 37-8.
11. Ibid., ii, 7 - 11.
12. Boissier, G., *La Fin du paganisme*, I, 68; Duchesne, II, 250
13. Boissier, op. cit., I, 82.
14. Eunapius *Lives of the Sophists*,
15. Capds, W. W., *University Life in Ancient Athens*, 66.
16. Boissie, I, 178.
17. Wright, W. C., *Introd to Eunapius*, I, 11.
18. Cf. Inge, W. R., *Philosophy of Plotinus*, I, 11.
19. In Murray, A. S., *History of Greek Sculpture*, I, 96.
20. In Boissier, I, 96.
21. Ammianus, xxii, 5 ; Duchesne. II, 262.
22. Boissier, I, 102.
23. Socrates, iii, 1.
24. Julian, *Letter to the Athenians*, 278D- 280_C : Ammianus, xvi, 11 - 12.
25. Ammianus, xvi, xvi, 53 ; Duchesne, II, 199.
26. Ammianus xviii, 1,
27. Ibid., xvi, 10.
28. Boissier, I, 107.
29. Ammianus, xxv 4.
30. Julian, *Misopogon*, 338B.
31. Socrates, iii, I; Ammianus, xxii, 4.
32. *Misopogon*, 304B.
33. Ammianus, xvi, 1.
34. Gardner, Alice, *Julian, Philosopher and Emperor* 260.
35. Ammianus, xvii, 7.
36. Eunapius, 477.
37. Julian, Letter 441, in *Works* III.
38. Julian, *To Edictus*, 23, in *Works*, III.
39. Julian, *Against the Galileans*, 89 A-94A, 106DE, 168B, 351D, 238A, 399D.
40. Julian, *To the Cynic Herakleios*, 205 C.
41. ibid., 217B.
42. ibid., 237B.
43. Ammianus xxii, 12.
44. Lucalin, *Panegyric* in Boissier, I, 140.
45. Julian, *Letter to a Priest* 305B; *To Arsacius*.
46. Julian *To the High Pries Theodorus*, 16.
47. *Letter to o Priest* 260. D.
48. Ammianus, xxii, 10.

49. Sozomen, v, 5, 18 ; *Julian Works*, III, 41n.
50. In Boissier, I, 922.
51. Julian, Letter 10 ; Boissier, I, 127.
52. Julin, *Misopogon*, 368C.
53. Ammianus, xxii, 13.
54. Sozomen, vi 2.
55. Ammianus, xxv. 3.
56. Milman, H. H., *History of Latin Christianity* I, 112 : Sihler, E O., *From Augustus to Augustine*, 217.
- 57 Theoderet iii, 28, in Lecky, W. E H., *History of European Morals*, II, 261.
58. Duchesne, II, 267.

CHAPTER II

1. Dopsch, A. *Economics and Social Foundation of European Civilization*, 89.
2. William of Malmesbury, *Chronicle of the Kings of England*, i, 4.
3. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 451.
4. Boissier, II, 180.
5. Rotovizoff, M., *Social and Economic History of the Roman*
6. Dill, S., *Roman Empire*, 297.
7. Jordanes, *Gothic History*, // 247.
8. In Thompon. J. W., *Economic and Social History of the Middle Ages*, 106.
9. Jordanes, // 26; Gibbon; III, 38.
10. Ammianus, iv, 31.
11. Socrates, iv, 31.
12. Broglie, Duc de St. Ambrose, 120-4.
13. Gibbon, III, 168.
14. Bury, J. B., *History of the Later Roman Empire* I, 129 ; Gibbon, III, 175.
15. Pirenne, H., *Medieval Cities* 36.
16. Louis, Paul. *Ancient Rome at Work*, 231.
17. Boissier, I, 417 ; Dill, op. cit, 228, 272.
18. Salvianus, *De Gubernatione Dei*,

- v, 28, in T., Frank, *Economic Survey of Ancient Rome*, III, 260.
19. Boissier, II, 416.
20. Ibid.
21. Louis, Paul, 235.
22. In Hodgkin, T.; *Italy and Her Invaders*, I, 423.
23. Augustine, Ep. 232.
24. Salvian, iv 15; vii, *passim*, and excerpts in Heitland, W. E., *Agricola* 423 Boissier II 410, 420, and Bury *Later Roman Empire*; 307.
25. In Dill; 56
26. Symmachus. Ep. vi 42 ; ii 46 ; in Dill, 150.
Friedländer, L., *Roman Life and Manners under the Empire*, II, 12 II, 29.
28. Lot, 178 ; Dill 58 ; Friedländer,
29. Ammianus, xiv, 6.
30. Symmachus Ep. iii 43.
31. Ammianus xxii 10.
32. Ibid., xxi, 1 ; Thorndike, L., *History Of Magic and Experiment Science*, I, 285.
33. Ammianus, xvi 1.
34. Macrobius, *Opera accedunt integrae Saturnalia ad fin.*
35. Ibid., I, 11.
36. Claudian; *Poems*, On the consulate of Stilicho" iii 130.
37. Ibid., 107, 158.
38. Boissier, II, 55.
39. erome, Ep. exxv, 11.
40. Lecky, II, 115.
41. Ibid., 109.
42. Sozomen, vi, 33.
43. Lecky, II, 110 ; Noldke, Th., *Sketches from Eastern History*, 212f.
44. Lecky, II. 112.
45. Taylor, H. O., *Classical Heritage of Middle Ages*, 78.
46. Ibid ; Grove. T. R., *Life and Letters in the Fourth Century*, 349.
47. In Gibbon, III 75.
48. Socrates, vi, 3.
49. Bury, *Later Roman Empire*, I, 183-9.

50. Socrates, vi, 4-5.
51. In Clapham and Power, 116.
52. McCabe, J., *St. Augustine and His Age*, 228.
53. Ibid., 35.
54. Augustine, *City of God*, ii, 14.
57. *Confession*, v, 8.
58. Encyclopaedia Britannica, II, 682.
59. McCabe *Augustine*, 254.
60. Catholic Encyclopedia, II, 88; Augustine, *Letters*, introd., xvi xvlii.
61. Augustine, Ep, 86.
62. Ep. 93.
63. Ep. 173.
64. Ep. 204.
65. Eps, 103, 183.
66. *City of God*. v, 9; vi. 22, 27.
67. Sermon 269.
68. Sermon 165.
69. Duchesne, III, 143.
70. Sermon 131.
71. Ep. 181 A.
72. Comment. in Joah. Evang. xxix, 6; Sermon 43.
73. In *Cambridge Medieval History*. I, 581.
74. *De Trinitate*, i, 1.
75. *De vera religione*, xviv, 45.
76. Solil. I. 7.
77. *Confessions*, xlii, 16.
78. *City of God*, iv. 27.
80. *De libero arbitrio*, ii, 16.
81. *De Gen. ad litt*, vii 28; De Wulf. *History of Medieval philosophy*, I, 118; Catholic Encyclopedia, I, 90.
82. In De Wulf, I, 117. *Confessions*, Book xi.
84. *De Trin* . . x, 10.
85. bid, viii, 6; *Confessions*, x, 6.
86. *De bono conjugali*, x; Figgis J. N., *political Aspects of St Augustines City of God*, 76 Lea, H. C., *Sacerdotal Celibacy*, 47.
87. *Confessions*, x, 30.
88. Ibid. vii. 14 ; x. 6, 22 ; xiii, 9.
89. *City of God*, vi, 9.
90. Phippians, iii, 20 ; Ephesians, ii, 19.
91. Figgis, 46.
92. Marcus Aurelius, *Meditations*. iv, 19.
93. *City of God*, xv, I.
94. Ibid., i, 34.
95. Ibid., xix, 7; xx, 9.
96. Boissier, II, 331.
97. Augustine, *Letters*, p. 38.
98. Comm. on Psalm cxxii.
99. Funk, F.X., *Manual of Church*
100. Frazer, Sir J. G., *Adonis, Attis, Osiris*, 315
101. Ibid., 306.
102. In Boissier, II, 118.
103. Renan, E., *Marc Aurèle*, 629.
104. Duchesne, III, 11.
105. Ibid., 16.
106. Ledky, *Morris*, II, 61.
107. Ibid., 72.
108. Ibid., 83.
109. Ibid.
110. Fisher, H.L., *The Medieval Empire*, I, 14.
111. Guignebert, C., *Christianity Past and Present*, 151.
112. Ambrose, Ep. 2, in Boissier, II,

CHAPTER IV

1. *Cambridge Ancient History*, XII
2. Haverfield, F., *The Roman Occupation of Britain*, 104.
3. Quennell, M., *Everyday Life in Roman Britain*, 103.
4. Mommsen, Th., *Provinces of the Roman Empire*, I, 211.
5. Bede, *Ecclesiastical History*, v, 24.
6. Gildas, *Chronicle*, xxxiii; *Anglo-Saxon Chronicle*, p. 25.
7. Bede, i, 15; *Anglo-Saxon Chronicle*, 26
8. Coilingwood, R. G., and Myres, J., *Roman Britain*, 820.
9. Geoffrey of Monmouth, *British History*, vii-xi.

10. William of Malmesbury, *Chronicle*, 11.
11. Collingwood, 824.
12. Joyce, p. W., *Short History of Ireland*, 77.
13. Hyde, 19.
14. Lecky, *Morals*, II. 253.
15. Joyce, 123.
16. Briffault, R., *The Mothers*, III, 230, quoting De Jubainville, *Le Droit du roi dans l'époque irlandaise*, in *révue archéologique*, XLIII, 332f.
17. Hyde, 71.
18. *Ibid.*, 88.
19. From the seventh-century "Voyage of Brand," in Hyde, 69f.
20. Bede, i, 13 ; Bury, J. B., *Life of St. Patrick*, 54.
21. Duchesne, III, 425.
22. Bury, *Patrick*.
23. Nennius, *History of the Britons*, 11, in Giles, *Six Old English Chronicles*, p. 410.
24. Bury, *Patrick*, 172.
25. Ausonius, *Poems, Commemoratio Professorum Burdigalensium*
26. Waddell, H., *Medieval Latin* 32.
27. Ausonius, *Poems, Parentalia*, x.
28. *Ibid.*, Ep. xxii, 23f.
29. Stevens, *Sidonius Apollinaris*, 68-9.
30. Guizot, *History of Civilization*, I, 343.
31. Dill, *Last Century*, 206.
32. Stevens, 134-8.
33. *Ibid.*, 160f.
34. Sidonius Apollinaris, *Poems and Letters*, Ep. i, 2.
35. In Francke, K. *History of German Literature*, 10
36. Sidonius in Lacroix, P., *Manners, Customs, and Dress*, 514.
37. Gibbon, IV, 65.
38. Gregory of Tours, viii, 9.
39. Lea, *Superstition and Force*, 318.
40. Sophocles, *Antigone*, 11, 276-7.
41. Gibbon, IV, 70.
42. Schoenfeld, Hermann, *Women of the Teutonic Nations*, 41 ; Dill, *Roman Society in the Merovingian Age*, 47.
43. Salic law xiv and xli, in Ogg, F., *Source Book of Medieval History*, 63-5.
44. Schoenfeld, 40.
45. Brittain, A., *Women of Early Christianity* 203.
46. Lot 397.
47. Gregory of Tours ii, 37.
48. *Ibid.*
49. *Id.*, II, 40.
50. II, 43.
51. V, 132-6 ; 165.
52. Dill, *Merovingian Age*, 279.
53. Gregory of Tours, vii, 178 ; x, 246.
54. *Id.*, iv, 100.
55. Michelet, J., *History of France*, I, 107.
56. Gregory, introd., p. xxii.
57. Gregory, I 5.
58. II prologue.
59. Gregory, introd., p. xxiv.
60. Guizot, *History of Civilization*, I, 58.
61. Lecky, *Morals*, II. 204.
62. Isidore of seville, *Etymologies*. in Brehaut E., *An Encyclopedist of the Dark Ages*, 215.
63. Dieulafoy, M., *Art in Spain and Portugal*, 45.
64. Mahaffy, J. P., *Old Greek Education*, 52.
65. Thompson, J.W., *Economic History of the Middle Ages*, 120.
66. Cassiodorus, *Letters, of Varias*, ii, 27.
67. Procopius, v. 1.26.
68. This survives only as a crude abbreviation by Jordanes.
69. Milman, I, 433.

70. Ibid., 439.
71. In Cassiodorus, *Variae*, ii, 28.
72. Milman, I, 442.
73. Boethius, *Consolation of Philosophy*, ii, 3.
74. Ibid., 4.
75. Ibid., iii, 10.
76. Procopius, v.1.

CHAPTER V

1. *Justiniani Institutionum Libri quattuor*, Introd., I, 63.
Procopius, *Buildings*, I, 7.
2. Procopius, *Anecdota*, viii, 24.
4. John Malalas in Bury, *Later Roman Empire*, II, 24.
5. Procopius, *Anecdota*, xv, 11.
6. Id., *History of the Wars*, i, 24.
7. Id., *Buildings*, i, 11.
8. Diehl, C., *Byzantine Portraits*, 58.
9. Procopius, *Anecdota*, xi.
10. Ibid., ix, 50.
11. Bury, *Later Roman Empire*, II, 29.
12. Procopius, *Anecdota*, xvii, 5.
13. Diehl, *Portraits*, 70.
14. Bouchier, E., *Life and Letters in Roman Africa*, 107.
15. Procopius, *History of the Wars*, iv, 6.
16. Ibid., vii, 1.
17. Ibid., 5-8.
18. Lot, 267.
19. Gibbon, IV, 359.
20. Lot, 267.
21. *Justinian's Inst.*, Proemium.
22. Cod. I, xiv, 34.
23. Cod. IV, xlii, 21.
24. Cod. XI, xiviii, 21 ; lxix, 4.
25. Bury, *Later Roman Empire*, II, 406 ; Milman, I, 501.
26. Procopius, *History of the Wars*, vii, 32.
27. In Gibbon, V, 43.
28. Procopius, *Buildings*, i, 1.

CHAPTER IV

1. Frank, *Economic Survey of Ancient Rome*, IV, 152.
2. Rostovtzeff, M., *History of the*

- Ancient World*, II, 353-4.
3. Procopius, *History* viii, 17.
4. Lopez, R. S., in *Speculum*, XX, i, 3, 7, 19.
5. Ibid., 10-12.
6. Novella 122 in Bury *Later Roman Empire*, II, 356.
7. Dalton O.M., *Byzantine Art*, 50.
8. Bury, 357.
9. Diehl, C., *Manuel d'art Byzantin*, 92-6.
10. Procopius, *Anecdota*, xvii, 24.
11. Himes, N., *Medical History of Contraception*, 92-6.
12. Boissier, *La fin du paganisme*, I, 168.
13. Gibbon, I 382.
14. Schueicer, H., *History of World Civilization*, II, 640.
15. Castiglione, A., *History of Medicine*, 252 ; Garriou, F.H., *History of Medicine*, 132.
16. Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*. I. 147.
17. O'Leary, E., *Arabic Thought*, 53.
18. Himes, 95.
19. Thorndike, I, 584.
20. Huguetine, *Confessions*, vii, 6.
21. Heath, Sir T., *History of Greek Mathematics*, II, 528.
22. Socrates, vii, 15.
23. Lecky, *Morals*, II, 315.
24. Bury, *Later Roman Empire*, I, 217.
25. Duchesne, III. 210.
26. Socrates, vii, 15.
27. Gregory Nazianzen, *Panegyric on St. Basil*, in Monroe, P., *Source Book of the History of Education for the Greek and Roman Period* 305.
28. Bury, *Later Roman Empire*, I, 377.
29. Diehl, *Manuel*, 218.
30. Higham and Bowra, *Oxford Book of Greek Verse*, 654.
31. Ibid., 665.
32. Socrates, vii, 48.

33. Procopius, *History*, viii, 32; v, 3.
34. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, I, 350-1; Finlay, G., *Greece under the Romans*, 196.
35. Strzygowski, J., *Origin of Christian Church Art*, 4-6.
36. Procopius, *Buildings*, I, 10.
37. *Ibid.*, i, 1.
38. *Ibid.*
39. *Ibid.*, i, 3.
40. Dalton, 258.
41. Lot, 143.
42. Diehl, *Manuel*, 249; Dalton, 579; Lot, 146.
43. Boethius, ix.

CHAPTER VII

1. Ammianus, xxii, 6.
2. *Ibid.*
3. Dhalla, M. N., *Zoroastrian Civilization*, 371.
4. Rawlinson, G., *Seventh Great Oriental Monarchy*, 29.
5. Procopius, *Persian War*, ix, 19.
6. Bury, *Later Roman Empire*, I, 92.
7. Ammianus, xxiii, 6.
8. Talmud, Berachoth, 8b.
9. Dhalla, 301f.
10. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 188.
11. Macrobius, *Saturnalia*, vii, 1.
12. Gotheil, R. J., *Literature of Persia*, I, 159.
13. Firdousi, *Epic of the Kings*, retold by Helen Zimmern, 191; Sykes, Sir P., *History of Persia*, 14.
14. Gotheil, 166.
15. Dhalla, 377.
16. *Ibid.*, 305.
17. Browne, E. O., *Literary History of Persia*, I, 107.
18. Sarton, G., *Introduct to the History of Science*, I, 435.
19. Browne, E. O., *Arabian Medicine*, 23.
20. Dhalla, 354.
21. *Ibid.*, 362.
22. *Ibid.*, 274; Bury, *Later Roman Empire*, I, 91.

23. Rawlinson, G., *Seventh Great Oriental Monarchy*, 686.
24. Bright, W., *Age of the Fathers*, I, 202.
25. Skes, I, 414.
26. Lowie, R. H., *Are We Civilized?*, 37.
27. Pope, A. U., *Survey of Persian Art* I, 755.
28. Dhalla, 356.
29. Pope, 761.
30. Baron, S. W., *Social and Religious History of the Jews*, I, 256.
31. Ammianus, xxiii, 6.
32. Pope, 716.
33. Browne, *Literary History*, I, 127.
34. Ibn Khaldun, *Prolegomenes*, I, 80. Rawlinson, 61, attributes this saying to Ardashir I.
35. Eunapius, // 466.
36. *Cambridge Ancient History*, XII, 112.
37. Sykes, I, 408.
38. Rawlinson, 141.
39. Browne, *Literary History*, I, 171. Sykes, I, 449, places this massacre in the early years of Khosru I.
40. Pope, 755.
41. Procopius, *History of the Wars* ii, 9.
42. Nöldeke, Th., *Geschichte der Perser . . . aus Tabari*, 160, in De Vaux, *Les Penseurs de l'Islam*, I, 92.
43. Rawlinson, 446.
44. Sykes, I, 460.
45. Procopius, *History*, i, 26.
46. Mommsen, *Provinces*, II, 47.
47. Graetz, H., *History of the Jews* III, 18.
48. Sykes, I, 480f.
49. Pope, 524.
50. Creswell, K. A., *Early Muslim Architecture*, I, 101.
51. Dieulafoy, *Art in Spain*, 13. *Ibid.*, Pope, A. U., *Iranian and Armenian Contributions to the*

- Beginnings of Gothic Architecture*, 180.
53. Theophylactus Simocatta in Riv-
oira, O.T., *Moslem Architecture*
114. Herzfeld thought the Ctesi-
phon palace the work of Sha-
pur. 1.
54. Gottheil I, 167.
55. Arnold, Sir T., *Painting in
Islam*, 62.
56. Pope, *Survey*, I, 717, Dieulafoy,
21.
57. Ackerman, P., in *Bulletin of the
Iranian Institute*, Dec., 1946,
p. 42.
58. Pope, A. U., *Introd. to Persian
Art*, 144, 168.
59. Sykes, I, 465.
60. Pope, A. U., *Masterpieces of
Persian Art*, 182.
61. Pope, *Introd.*, 64.
62. Fenollosa, E., *Epochs of Chinese
and Japanese Art*, I, 21.
63. Riefstahl, R. M., *The Parish-
Waston Collection of Moham-
medan Potteries*, p. viii, Pope,
Survey, I, 779, Lot, 141.
64. Sir Percy Sykes in Hammerton,
J. A., *Universal History of the
World*, IV, 2318.
65. Examples in Sarrac, F., *Die Kunst
des alten Persien*, 134.
66. Pope, *Introd.*, 100.
67. Pope, *Survey*, I, 775.
68. Dhalla, 278.
69. Sykes, I, 490.
70. Browne, *Literary History*, I, 194.
71. Sykes, I, 490.
72. *Ibid.*, 498.

فهرس الأعلام

(أ)

- أباميا : ٢٩٢ ، ٢٩٥
 الأبستاق : ١٨١ ، ٢٨٧
 أبقراط : ٢٤٥
 أبولونيوس البرحى : ٢٤٦
 ابن خلدون المؤرخ المسلم : ٢٨٤
 ابن رشد الفيلسوف المسلم : ٢٤٨
 أبوليتارس : ٢٢٦ ، ٢٦٨
 أبولنيا سيدنيوس : ١٧٥
 إبيروس : ٥٧ ، ٥٨
 أبيقور : ٢٢ ، ٢٠٥
 أبيلار : ١٣٥
 إنزلبرج (مدينة أتلا) : ٨١
 أتكا : ٢٥٩
 أتلا ، ملك الهون : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،
 ٨٣ ، ٨٨ ، ١٩٧
 أتلغ (أدلف ؛ صهر أليك وخليفته) :
 ٧٦
 أثيس : ١٥٢
 أثاناجلد : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٢
 أثر بندراجون : ١٦٤
 أثريك : ٢٠٥
 أثناسيوس : ١٩ ، ٢٠ ، ٣١ ، ٤٠ ،
 ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ٢٣٣
 أثريك : ٩٧
 أثينة : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ١٢٨ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٧٨
 إثنوبيا (الحبشة) : ١٠٣
 جاثياس : ٢٥٢
 إجل : ١٧٩
 أحلام سبيو (كتاب لشيشرون) : ٦٧
 آخن : ١٧٨
 اللدانبوب : ٢
 إدكون ، وزير أتلا ووالد أدوكر : ٨٨
 آدم : ١٤٠ ، ٢٠٠ ، ٢٧٠
 إدورد الثالث ملك إنجلترا : ١٨٣
 أدوكر : ٨٨ ، ٨٩ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
 ١٩٩ ، ٢٠٠
 أديسيوس : ٢٥
 أديوداتوس : ١٣٣ ، ١٣٦
 أراس : ٧٧
 أرببلا : ٢٩٦
 أرثر : ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥
 أرجن : ٩٤ ، ١١٢
 أرخميدس (أو أرشميدس) : ٢٠١
 أردشير : ٢٧٨ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧
 أردشير الثالث : ٣٠٤
 الأردن (نهر) : ٣٠٤
 الأرساسيون : ٢٨٦ ، ٢٩٩
 (انظر أيضاً البارثيون)
 أرسكسنوس : ٢٧٣
 أرسير : ٢٤٧
 أرسيز : ٢٤٧
 أرسيز الينونياي : ٨٨
 أرسطو الفيلسوف اليوناني : ٢٢ ، ١٠١ ،
 ٢٠١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٧٨
 أرسينوس : ٦٦
 أرطيانوس الخامس : ٢٨٦
 أركاديوس : ٥٦ ، ٥٧ ، ١٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٠٧
 أربليز : ٧٢

أسكويلاس : ٢٠٠
 آسية : ١٢ ، ١٠١ ، ١٢٦ ، ٢١٦ ،
 ٢١٨ ، ٢٣٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ،
 ٣٠٦
 آسية الصغرى : ١١ ، ٩٧ ، ٢٦٢ ،
 ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤
 الإسينيون : ١١٩
 أشبيلية : ٧٧ ، ١٩٣ ، ١٩٤
 أشوكا : ١١٩
 اصطخر : ٢٧٥ ، ٢٩٧ (انظر أيضاً
 يرسبوليس)
 أصفهان : ٢٩٧
 اغتصاب برسيرين (قصيدة لكلوديوس) : ٧٠
 أغسطس : ٤٩ ، ٧٢ ، ٢٦٧
 الآثار : ١٢
 أفنوس ، القائد القوطى فى غالة : ٨٨ ،
 ١٧٥ ، ١٧٦
 الإفتاليون : ٢٨٩ ، ٢٩٠
 أفريقية : ١١ ، ١٢ ، ٥٧ ، ٨٩ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٣٢ ،
 ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ،
 ١٧٤ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٨ ، ٢٩٥ ، ٢٦٥ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٦
 إفسوس : ٢٦ ، ٣٨ ، ١٠١ ، ١٤٢ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٥
 أنماستان : ٢٧٤
 أفلاطون : ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ١٣٣ ،
 ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٩ ، ٢٧٨
 الأفلاطونية الحديثة : ٣٧
 أفلوطين : ٢٣ ، ١٣٤ ، ٢٤٧ ،
 إقليدس : ٢٠١
 إكباتانا : ٢٧٥ (انظر أيضاً همدان)
 أكرانيا : ٥٠

الارماغ : ١٧١
 لارمنربك : ٥٠
 أرمينية : ١١ ، ٣٠ ، ١٠٣ ، ١٣١ ،
 ٢٥٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٤ ، ٢٩٦
 أريباسيوس : ٢٤٣ ، ٢٤٥
 أريوجاست : ٥٥ ، ٥٦
 أريوس : ١٩ ، ٢٠ ، ٨٩ ، ١٢٠
 الأريوسية : ٩٦ ، ٩٧ ، ١٩٢
 الأريوسيون : ١٢٨ ، ١٨٥ ، ٢٠٢ ،
 ٢٤٧
 إزابيل : ١٨٣
 إزدور : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٦٢
 أزميز : ٢١
 أسبانيا : ١١ ، ١٢ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٧٧ ،
 ٧٨ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
 ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٨٢ ، ٣٠٣
 أسبوليتو : ١٩٩
 اسبيندا : ١٦
 أستراسيا : ١٨٦ ، ١٨٨
 استرسبورج : ٢٨
 استلسمو : ٤٩ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
 ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ،
 ٧٨ ، ٨٥ ، ١٦٢
 أستيا : ٨٥ ، ١٣٦
 إسحق السورى : ١٢٧
 الإسكندر : ٤٢ ، ٢١٨ ، ٢٥٨ ، ٢٨٦ ،
 ٢٩٦
 الإسكندر ، بطريق القسطنطينية : ١٩
 الإسكندر الترابسى : ٢٤٥
 الإسكندرية : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤٠ ،
 ٧٠ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٢٠ ،
 ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ٢٣٣ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٥

أمبروز : ٥٤ ، ٥٥ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٦ ،
٩٤ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١١٢ ،
١١٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٤٠ ، ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٧٧ ،
٢٧٣ ، ١٨٥

أمريكا : ٢٧٦

أمينوس : ٤٢

أميانس مرسلينس : ٢٢

أميانوس : ٢٩ ، ٣٢ ، ٤٤ ، ٥١ ،
٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ١٠٥ ، ١٥٩

٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤

أميدا (ديار بكر) : ٣٠ ، ٢٧٥

أمين (بفرنسا) : ٧٧

أناتول فرانس : ١٧٦

أناستازيا (كنيسة البعث) : ١٢٨

أناستاسيوس : ١١٢ ، ٢٠٧

أتيتجون : ١٨١

أنثميوس : ٨٨ ، ٢١٥ ، ٢٢٩ ، ٢٦٢

إنجلترا : ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٨٣ ،

٢٣١ ، ٢٤٧

الإنجليز : ١٨١

أنجوليم : ١٨٥

إنجيل يوحنا : ٣٥

الأندلس : ٧٨

أنطاكية : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،

٢٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٦٥ ،

٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ،

١٢٢ ، ١٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ،

٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٨٧ ،

٢٨٨ ، ٢٩٢

أنطونينا : ٢١٨

أنطونيوس بيوس : ١٠٦ ، ٢٣٠

أنطونيوس : ١١٩ ، ١٢٠

الأنكدوتا : ٢١٣ ، ٢٥٣

أنكسيمانس : ١٤٥

إنوسنت : ١٤٢

أكسفورد (جامعة) : ٢٧٣

أكسيريوس : ٧٧

أكبس ، تومس : ١٥٠

أكوتانيا : ٧٧

أكوتيليا : ٧٤ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،

أكويناس ، تومس : ١٥٠ ، ١٥١ ،

١٩١ ، ٢٤٩

الأكيمينيون : ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٣٠١ ،

الألاني : ٥٠ ، ٥٥ ، ٧٧

الألب ، جبال : ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٩ ، ٥٨ ،

٧٤ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٩٨

الإلب ، نهر : ١٦٢

ألبرتوس مجنوس : ٢٤٩

ألبوس : ٢٧٢

ألتينوس : ٢٠٣

أليديكو ، من نساء أتلا : ٨٣

أليريك : ٢٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ،

٨٢ ، ٨٥ ، ١٤١ ، ١٨٥ ،

١٩٢ ، ٢٢٣

أليريك الثاني : ١٧٨

الألساس : ٢٨

أليستر : ١٦٧

ألفلاس : ٩٧

الألمان : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٩ ، ٥٣ ،

٥٨ ، ٥٩ ، ٨٩ ، ١٨٣ ، ١٩٧ ،

الألماني : ٤٧

إلوسيس : ٢٢

إلياذة هوميروس : ٢٧٠

إليبيوس : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،

إليركم : ١١ ، ١٧٤

إليري : ٢٠٩

إليسيوس : ٢٧

إليمينيوم : ١٣٦

إلبوسير : ٣٨ ، ٥٧

أمالاستنا : ٢٠٥ ، ٢٠٦

إيتيوس : ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥
 ١٨٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥
 إيران : ٢٤١ ، ٢٧٤ ، ٣٠١
 أيرلندة : ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
 ١٧١ ، ١٨١
 إيرنست فنلوزا : ٣٠١
 إيزيس : ١٥٢
 إيسكولاييوس : ١٥٣
 إيطاليا : ١٩٥
 إيطاليا : ١١ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ،
 ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ،
 ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
 ٩٠ ، ٩٧ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ،
 ١٧٤ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ،
 ٢٩٦ ، ٢٩٢
 إيميلقوس : ٢٣
 إيواني خارقة : ٢٩٨
 أيوب ، سقر : ١٠٠

(ب)

باباك : ٢٨٦
 باترك : ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
 ١٧١ ، ١٨١
 باث : ١٦٤
 باخوس : ٢٦٠
 باخوم : ١٠٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢١
 بادون : ١٦٤
 البارثيون : ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦

الإنياذة : ٢٧
 أهرمان : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢
 أهورا - مزدا : ٢٧٩ ، ٢٧٢
 أوتيكيوس : ١٠٢ ، ٢٢٦
 أوجنيوس : ٥٥ ، ٥٦
 أودوفيرا : ١٨٧
 أوربا : ٤٧ ، ٦٠ ، ٨١ ، ١٦١ ،
 ٢٥٨ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣
 أورسيوس : ٦٣ ، ١٤١
 أورشليم : انظر أيضاً بيت المقدس ،
 ٣٠٤
 أورليان : ١٧٨ ، ١٨٦
 أورليوس ، ماركس الإمبراطور : ١٤٨ ،
 ١٥٦ ، ٢٠٥ ، ٢١٨
 أورياك : ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٢
 الأوريوس (نقد) : ٢٤١
 أوستكيوم : ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤
 أوسطانيوس السوفسطائي : ٢٨٧
 أوسليوس : ١١٥ ، ١١٦ ، ١٥١ ،
 ١٥٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤
 أوغسطين : ٦٣ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ١٠٠ ،
 ١١١ - ١٥٩ ، ٢٤٥
 الأوغسطين : ١٤ ، ١٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٢
 الأوثرني : ١٧٧
 أوكسير : ١٧٠
 أولمبيا : ٢٢
 أولمبيوس : ٥٩ ، ٧٤ ، ٨٥
 أولوس جليوس : ٦٨
 أوليريوس ، الإمبراطور : ٨٨
 أوليوس : ٢١٢
 أوناببيوس السرديسي : ٢٥٢
 الأوناك : ١٦٧
 أيا صوفيا ، كنيسة : ١٤ ، ١٥ ، ١٢٨ ،
 ١٣١ ، ٢١٢ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥
 أيبيريا : ٥٥

پروثانس : ۱۱۸ : ۱۸۶
 پروکپیوس : ۷۸ ، ۸۵ ، ۱۹۹ ، ۲۰۵ ،
 ۲۰۹ ، ۲۱۰ ، ۲۱۳ ، ۲۱۴ ،
 ۲۱۵ ، ۲۱۸ ، ۲۱۹ ، ۲۲۱ ، ۲۳۲ ،
 ۲۳۶ ، ۲۳۷ ، ۲۴۳ ، ۲۵۳ ،
 ۲۵۴ ، ۲۵۹ ، ۲۶۴ ، ۲۶۵ ،
 ۲۶۸ ، ۲۷۶ ، ۲۹۱ ، ۲۹۲
 برولبو : ۱۹۴
 پریابوس إله التناسل عند الأقدمین : ۸۷ ،
 ۱۴۷
 بریتکستاتوس حاکم رومة : ۶۸ ، ۱۰۴
 بریطانی ، شبه الجزيرة : ۱۶۳ ، ۱۸۴
 بریطانبا : ۱۱ ، ۴۷ ، ۵۴ ، ۱۶۱ ،
 ۱۶۲ ، ۱۶۳ ، ۱۶۴ ، ۱۶۶ ، ۲۱۷
 بریما : ۱۴۷
 بزرجهر ، الوزير : ۲۹۱
 بساریون : ۱۲۱
 البسفور : ۱۲ ، ۱۳ ، ۱۳۱ ، ۲۱۹ ،
 ۲۶۲ ، ۲۹۵
 بسینس : ۴۱
 البطالمة : ۱۲۵
 بطرس ، القديس : ۱۷۰ ، ۲۰۲ ، ۲۵۶
 بطليموس : ۲۰۱ ، ۲۴۶ ، ۲۷۳
 بطوليمائس : ۱۲۵
 بفلاوا : ۱۹۳
 بفنوس : ۱۲۴
 الپکث : ۱۶۲
 بلاتبة : ۱۶ ، ۲۹۶
 بلاجيوش : ۱۰۰ ، ۱۱۱ ، ۱۴۱ ، ۱۴۲
 بلاديوس : ۸۵ ، ۱۶۹ ، ۱۷۰
 بلاسيديا : ۸۵
 بلاسيديا الصغرى ابنه بودكسيا : ۸۶
 بلچيكا : ۷۷
 بلخ : ۱۰۱ ، ۲۷۴ ، ۳۰۶
 بلشيرا : ۲۰۷
 البلغار : ۱۲

باريس : ۲۸ ، ۲۴۶ ، ۳۰۱ ، ۳۰۲
 باسلقا أرسيانا : ۲۶۶ ، ۲۶۸
 باسيلي : ۲۳ ، ۱۱۳ ، ۱۲۶ ، ۱۲۷ ،
 ۱۲۸ ، ۱۵۷
 باسينا : ۱۸۳
 باقاريا : ۸۱ ، ۱۸۶
 بافيا : ۸۳ ، ۱۹۹
 پيپيانلا : ۱۷۵
 بترارك : ۲۵۵
 بترونيوس مكسيموس : ۸۵
 بتريكويوس : ۱۶۹
 پتيوس ، صحراء : ۱۳۱
 بثريلك : ۵۴
 البحر الأحمر : ۱۲۰ ، ۲۴۱
 البحر الأسود : ۵۲ ، ۵۸ ، ۲۴۱ ؛
 ۲۹۲ ، ۲۹۶
 البحر المتوسط : ۱۸ ، ۱۹ ، ۷۹ ، ۳۹۳
 بحر مرمره : ۱۵
 برامنتي : ۲۵۶
 البرانس : ۷۷ ، ۱۹۲
 البربر : ۴۶
 برجسن : ۱۴۴
 برجوم : ۲۶
 بردچد : ۱۷۱
 بردو : ۷۶ ، ۱۱۵ ، ۱۷۲ ، ۱۷۴
 برسپوليس : ۲۸۶ ، ۲۹۸ (انظر أيضاً)
 اصطخر
 برسكوس : ۴۴ ، ۲۴۸
 پرسكيان : ۲۵۱
 پرسليان : ۹۸
 برغندية : ۱۷۸ ، ۱۸۱ ، ۱۸۶
 البرغنديون : ۴۷ ، ۱۸۱ ، ۱۸۴
 برکستليز : ۲۶۸
 بركلوس : ۲۴۸
 برنهلدا : ۱۸۶ ، ۱۸۷ ، ۱۸۸
 پرودنتيوس ، أورليوس پرودنتيوس كلمنز
 الشاعر الأسباني : ۱۱۵ ، ۱۵۹

بؤيشيوس ، أتيسيوس مانليوس سفرونيوس
 بؤيشيوس ۲۰۰ ، ۲۰۱ ، ۲۰۲ ،
 ۲۰۳ ، ۲۰۴ ، ۲۰۵ ، ۲۷۳
 بياسنزا : ۸۶
 بيت المقدس ۹۳ ، ۱۰۵ ، ۱۲۲ ، ۲۶۵ ،
 (انظر أيضاً أورشليم)
 بيلدى : ۱۶۲ ، ۱۶۹
 بېرن : ۲۵۱
 بيروت : ۲۶۶
 بېروهيوس : ۲۲
 بيزنت : ۲۸۲
 بيزنطية : ۱۲ ، ۱۳ ، ۳۳ ، ۱۹۲ ،
 ۱۹۷ ، ۱۹۸ ، ۲۰۲ ، ۲۰۳ ،
 ۲۱۱ ، ۲۲۱ ، ۲۵۸ ، ۲۸۲ ، ۳۰۱
 بيسنيوم : ۲۲۳

(ت)

تاجستى : ۱۳۲ ، ۱۳۳ ، ۱۳۶
 تارا : ۱۶۷ ، ۱۷۰ ، ۱۷۱
 تاستوس : ۶۶ ، ۶۷ ، ۷۶ ، ۱۵۵
 تحتمس الثالث : ۱۶
 تراچان : ۴۲ ، ۷۰
 تواقية : ۱۱ ، ۵۱ ، ۵۴ ، ۸۱ ، ۹۷ ،
 ۲۳۸
 تراليس : ۲۶۲
 ترتليان : ۹۴ ، ۱۴۰ ، ۱۵۸
 ترستشيرى : ۲۵۷
 تركيا : ۲۹۲
 ترموبيل : ۵۷
 تروس : ۱۶۵
 ترويس : ۸۲ ، ۸۵
 تريبونيان : ۲۲۴ ، ۲۲۵ ، ۲۲۶
 تريبر ، مدينة : ۶۵ ، ۹۹ ، ۱۱۳
 ۱۷۳
 تسالونيكي (سالونيك) : ۵۴

البلقان : ۴۹ ، ۸۹ ، ۹۷ ، ۱۹۸ ،
 ۲۳۸ ، ۳۰۳
 پلماريا : ۲۳۳
 پلى : ۶۶ ، ۱۶۷
 البلوبونيز : ۵۷ ، ۲۳۹
 بلوخسان : ۲۷۴
 بليدا ، ملك الهون : ۸۰
 بليساريوس : ۹۸ ، ۲۰۶ ، ۲۱۲ ، ۲۱۳ ،
 ۲۱۵ ، ۲۱۷ ، ۲۱۸ ، ۲۱۹ ،
 ۲۲۰ ، ۲۲۱ ، ۲۲۲ ، ۲۳۳ ،
 ۲۳۴ ، ۲۳۵ ، ۲۳۷ ، ۲۵۳
 بليسلا : ۱۱۱
 بناقستا : ۱۶۹
 بندكت : ۱۱۸
 بنطس : ۱۳۱ ، ۲۳۸
 پنونيا : ۷۷ ، ۱۹۷
 بنياس : ۲۳۷
 بنياس ، حاكم أفريقية الروماني ۷۸
 بنيياس ، البابا : ۱۴۹
 بهرام الأول : ۲۹۹
 بهرام الثاني : ۲۹۹
 بهرام الخامس : ۲۸۹
 بهرام الفائد : ۲۹۴
 البو . نهو : ۸۳
 پواتيية ، ۱۱۷ : ۱۷۲ ، ۱۸۵ ، ۱۹۳
 بودسيا : ۲۰۷
 بوذا : ۸۱ ، ۲۸۰
 البوذية : ۱۱۹
 بوسمتو : ۷۶
 بولا : ۱۱۱ ، ۱۱۳ : ۱۵۷
 بولس ، القديس : ۹۳ ، ۱۳۲ ، ۱۴۰ ،
 ۱۴۸ ، ۱۷۰ ، ۲۴۹
 پولتنيا : ۵۸ ، ۶۵ ، ۸۵
 بولونيا : ۸۶ ، ۱۷۸ ، ۲۳۱
 بولينس ، ۱۱۵ ، ۱۷۳ ، ۱۷۴
 البويت ، واقعة : ۳۰۵

٢١٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
٢٤٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ،
نيودوسيان : ٢٢٦
ثيودوسيوس الأول : ٢٢ ، ٢٣ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٦ : ٥٧ ، ٧٣ : ٨١ ،
١٠٢ ، ١١٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
٢٠٧ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،
٢٤٨ ، ٢٥١ : ٢٥٦ ،
ثيودوسيوس الثاني : ١٠١ ، ٢٤٤ ،
٢٥٥

(ج)

جالوس : ١٢ ، ٢٥
جالينوس : ١٠١ ، ٢٤٥
جانبوس : ٢٢٥
جبل طارق : ٧٧
الجبيديون : ٤٧
جثرام : ١٨٦
جراثيان : ٥٣ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٥٦ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤
جردانيس المؤرخ القوطي : ٥٠ ، ٧٨ ،
٨٠
جريجوري : أسقف الإسكندرية الأريوسي
٥١
جريجوري : البابا : ١١٣
جريجورس التوري : ١٨٥ ، ١٨٧ ،
١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١
جريجوري نؤيازين : ١٢٨ ، ١٥٩
الجزيرة (أرض النهرين) : ١٦٣ ، ٢٧٠
جزيرة العرب : ٢٤١ ، ٢٩٣ : ٢٩٨
چستنيا : ٥٣
چستنيان : ١٨٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ،
٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،

تسالبا : ٨١
تلزت : ١٢
تلمكس : ٦٥
تنيص : ١٦٥
توائال : ١٦٨
توتيللا : ٢٢١ ، ٢٢٢
تور : ١١٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧
تورنای : ٧٧ ، ١٨٣
توفيلس : ١٢٥ ، ١٢٦
توكيد يدس ، المؤرخ : ٢٥٤
تونس : ٢٢٠
تيكنيوس : ١٤٨
النيوتون : ٤٧ ، ٤٩
تيير : ٧٧
تييس ، مسرحية أناتول فرانس : ١٢٤

(ث)

ثامطيوس : ٢٦
ثرازيا زوجة بوليتوس : ١١٥
ثسيوس : ٢٥٥
ثمستيوس : ٢٤٨
ثورنجيا : ١٨٦
الثورنجيون : ٤٧ ، ١٨٣
تول : ٧٠
ثيوداهاد : ٢٠٦ ، ٢٢٠
ثودربك : ١٨٦
ثيودريك الأول : ٨٢ ، ٨٧ ، ١٩٦ ،
١٩٧ : ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،
٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٣٦٧
ثيودريك الثاني : ١٩٢
ثيودمير : ١٩٧
ثيودور :
ثيودور المبوستياني : ١٠٠
ثيودورا : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،

٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٨٢ ، ٧٩

٢١٩ ، ٢٠٧ ، ١٤٩ ، ٨٩

٢٢٣

چيناس القوطى : ٥٥

(ح)

الحبشة : ٢٤١ (انظر أيضاً إثيوبيا)

حلب : ٢٩٢ ، ٢٩٥

الخميريون : ٢٩٣ ، ٢٩٤

حورس : ١٥٢

(خ)

خالد بن الوليد : ٣٠٥

الخزر (بحر) : ٢٨٩

خسرو : ٢٩٠ (انظر كسرى)

خشيارشاي : ٢٩٥

خلقيدون : ١٠٢ ، ١٢٥ ، ١٣٠

١٣١ ، ٢٦٢ ، ٢٩٦

خلقيس : ٢٣ ، ١٠٧ ، ٢٤١

(د)

دارا الثاني : ٢٨٦ ، ٢٩٥

دارا (مدينة) : ٢٩٥

داقي : ٤٣ ، ٢٥٠

الدانوب : ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٨

٨١ ، ٩٧ : ٢٣٤

دجلة : ٤٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٦

دجويرت : ١٨٩

دستجرد : ٢٩٦ ، ٣٠٤

دقلديانوس ، الإمبراطور : ١٧ ، ١٨

٢١٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٤٠

٢٥٧ ، ٢٥٨

دلفديوس : ٢٩

دلى : ١٦

٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥

٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩

٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤

٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩

٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣

٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ١٣٦ ، ٢٤١

٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥

٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥

٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨

جستين : ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٣٢

٢٩٤

جستينا والدة أمبروز : ١١٤

الجسر واقعة : ٣٠٥

جفرى المنموفى : ١٦٤

جلابلا سبديا أخت هونوريوس غير الشقيقة :

٧٥ ، ٧٦ ، ٢٦٦

جلاسيوس (البابا) : ٨٦

جلجوثا : ١٨٧ ، ٢٠٥

جلداس : ١٦٣

جليسريوس ، الإمبراطور : ٨٨

جنجرا ، مجلس جنجرا الدينى : ٩٣

جندوباد : ١٨١

جنوى : ٢٠٢

الجوت ، قبائل : ٤٧

جوزهر : ٢٨٦

چوثنال : ١٥٥ ، ٣٤٢

چوثيريان ، الإمبراطور : ٤٥ ، ٦٦ ، ٧٠

٢٨٩

چون الإفوسى : ٢١٣

جيحون : ٢٨٩

چيروم : ٩٤ ، ١٠٦ - ١١٣ ، ١١٧

١٤٢ ، ١٥٩

چيسريك الزعيم الوندالى : ٦٤ ، ٧٨

رستم ، القائد ووالى خراسان : ٣٠٥ ،
٣٠٦
رسم : ٤٩ ، ٨٨
ركس : ١٩٨
رميولوس ، أغسطس آخر أباطرة
زومة : ٨٨
الرها : ٢٥٨ ، ٢٦٦ ، ٢٩٥
روا ، ملك الهون : ٨٠
روادهان : ١٨١
الروس : ١٢
روسو ، الفيلسوف الفرنسى : ١٥٨
الروسيا : ١٢ ، ٧٦ ، ٨٩
روفنيوس : ٥٦ ، ١٠٦
الروم : ٢٨٩
الرومان : ١٥ ، ١٧ ، ٣٨ ، ٤٨ ،
٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٦٤ ،
٦٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٨ ،
٨٢ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،
١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٣٧ ،
٢٣٩ ، ٢٧٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ،
٢٩٣ ، ٢٩٦
رومانوس : ٢٧٣
رومانيا : ١٨٤
رؤمة : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢١ ،
٣٦ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ،
٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ،
٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
٧٦ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ،
٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٣١ ،
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
١٠٦ ، ١١٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ،
١٨٤ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠١

دماشيا : ٢٣٥
دماسوس ، البابا : ١٠٤ ، ١١١
دمتر : (هيكل) : ٥٧
دمبستين : ٢٠٢
دمشق : ٢٩٥
دميان : ١٥٣
الذن ، نهر : ٤٧ ، ٨٠
دنس القصير : ٢٥٣
الذمرقة : ١٨١
الذبيستر : ٤٧
دوشين : ١٢٠
دوناتوس : ٩٩
الدوناتيون ، شيعة مسيحية : ٧٨ ، ٩٦ ،
٩٩ ، ١٠٠
ديرهام : ١٦٣٠
ديزارىوس : ٦٨
ديسموس ، مجنوس أوسنيوس : ١٧٢
ديكارت : ١٤٤
الدينار : ١٨٢
ديوسكوراس : ١٠٢
ديونيسيوس أجزجيوس : ٢٥٣
ديونيسيوس الأريوسى : ٢٤٩

(ر)

رابولا : : ٢٧٠
رافنا : ٥٨ ، ٧٩ ، ١٩١ ، ١٩٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ،
٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧
راكوش ، جواد رسم : ٢٨٢
الربواريون : ١٧٨ ، ١٨٥
ودجندا : ١٩١
ودجيوس ، قائد البرابرة : ٥٨
ودريك (لزريق) : ١٩٦
رستيونس : ١٣٨

الساسانيون : ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ : ٢٧٦ ،
 ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ :
 ٢٨٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠
 ساكسو جراماتييكوس : ١٨١
 سالا : ١٧٩
 سالست : ٢٩ ، ١٤٧
 السالى : ١٨٣
 السالية : ١٨٠
 الساليون : ١٧٨ ، ١٧٩
 الساميون : ١٨١
 ساقتا ماريا مجيورى : ١٥٧
 سانش ايلينارس : ١٩٩ ، ٢٦٧
 سانت بيف : ١٧٦
 سان جيوفنى : ٢٥٧
 سان فيتال : ١٩٩ ، ٢٦٧
 سان لورقزو : ٢٥٧
 سيريان : ١٤٠
 سيبو (اسكيبو) : ١٤٧
 سجديانا : ٢٤١ ، ٢٧٤
 سجيبرت : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧
 سجيلا : ١٨٩
 سدوم : ١١٠
 سرايبس : ١١٩ ، ١٢٥
 سرايبون : ١٢١
 سرجيوس : ٢٦٠
 سرديكا : ٨١ ، ٢٠٩ ، ٢٢٢
 سردينية : ٥٨ ، ٢٣٥
 سرفيوش : ٦٨
 سرقسطة : ١٩٣ ، ١٩٤
 سرميوم : ٣٠ ، ٨١
 سرنديا : ٢٣٩
 سروستاه : ٢٩٨
 سريسيوس ، اليايا : ٩٤
 سريكا (ارض الحرير) : ٢٣٩ (انظر
 أيضاً الصين) : ٢٣٩

٢٠٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ :
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤٢ :
 ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ : ٢٦١ ،
 ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ :
 ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ :
 ٢٩٠ ، ٢٩٢
 رومة الجديدة : ١٢ انظر القسطنطينية
 الرون : ٢٨
 ريكارو : ١٩٢
 ريمس أوريمز : ٢٨ ، ٧٧ ، ١٨٤ :
 ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٦٧
 ريمى الريمى : ١١٦ ، ١٨٤
 الرين ، ٣٣ : ٢٨ ، ٢٧ ، ٤٧ ، ٥٣ :
 ٥٨ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ١٧٨ :
 ١٧٩ ، ١٨٤
 رينان : ١٧٦

(ز)

زرادشت : ٢٨٠ ، ٢٩٦
 الرزادشتية : ٢٧٧
 زسموس : ١٤٢
 زينون ، إمبراطو الشرق : ٨٨ ، ٨٩ :
 ١٠١ ، ١٩٧ ، ٢٠٥
 زينون الإصورى : ٢٠٧
 زينون الفيلسوف : ٢٢
 زيوكسپوس : ٢٦١ ، ٢٦٢
 زيوكسپوس ، حمامات : ١٤
 زيير : ٨٢

(س)

الساترناليا ، أوعيد زحل ، كتاب
 لسكروبيوس : ٦٧
 ساروس القائد القوطى : ٧٥
 ساسان : ٢٨٦ ، ٢٩٧

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١٢٣ ،
 ٢١٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥
 سوريا الصغرى : ٢٥٨
 سوريا النسطورية : ٢٥٨
 سورياانا : ٢٧٨
 سوزموس : ٢٥٢
 سوزمين : ٤٤ ، ٢٥٢
 السوس : ٢٧٥ ، ٢٩٨
 سوسيوس : ١٣٧
 سوق قسطنطين : ٢٠
 السويد : ٤٧
 سويداس : ٢٤٦ ، ٢٤٧
 السويقي- (قبائل) : ٤٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
 ١٩٢
 سيبيل : ٣٦ ، ٤١
 سيدون : ٢٨٦ ، ٢٨٧
 سيدونيوس : ٦٣ ، ١٥٩ ، ١٧٢ ،
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٨
 سيرنديا : ٢٤١
 سيريل ، كبير أساقفة الإسكندرية : ١٠١ ،
 ١٠٢ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
 سياخوس : ٤٩ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
 ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١١٦ ، ١٤٧ ،
 ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
 ١٧٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥

(ش)

شابور الأول : ٣٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩٩ ، ٣٠٢
 شابور الثاني : ٣٠ ، ٤٣ ، ٢٥٨ ،
 ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩
 شارتر : ٢٦٧

سعد بن أبي وقاص ، القائد : ٣٠٥ ، ٣٠٦
 سفر ، التكوين : ٣٥
 شمزلولا : ١٥٤
 شيروس ، الإمبراطور : ٨٨
 سقراط ، الفيلسوف : ٤٤ ، ٥٣ ، ٢٤٧ ،
 ٢٥٢
 سقراط المؤرخ ، الحنسي : ١٩
 سكريس : ١٤٨
 سكستوس الثالث : ١٠٦
 السكسون : ٤٧ ، ٦٥ ، ١٨١ ، ٢١٧
 سكوذيا : ٨١
 سلانيك ٢٦٥ (انظر أيضاً تسالانيكي)
 سلسيتين ، البابا : ١٠١
 سلسيتيني : ١٦٩
 سلاميس : ٢٦٩
 سلقان : ١٣٢
 سلفريوس : ٢٣٣
 سلقسر : ١٠٤
 سلقيان : ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤
 سلوقية : ٢٧٥
 سلوى الفلاسفة (كتاب) : ٢٠٤
 سمرقند : ١٠١
 سمرعان العمودي : ١٢٣
 سنجديوم (بلغراد الحالية) : ٨١
 السند : ٢٨٩
 سنس : ٢٨
 السنسكريتية (لغة) : ٤٨
 سنسناطوس : ٧١
 سنكا الفيلسوف : ٤٤ ، ١١٣ ، ١٧٦
 سوابيا : ١٨٦
 سواسون : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧
 سورانوس : ٢٤٥
 سور قسطنطين : ١٥
 سوريا : ١١ ، ٤٣ ، ٩٦ ، ١٠١ ،

طولوز : ٧٦ ، ٧٧ ، ١٧٢ ، ٢٨٥
طيسفون (المداين) : ٢٧٥ ، ٢٨٢ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
٢٩٨ ، ٣٠٠

(ع)

عباس ، الشاه عباس : ٢٩٧
العراق : ٢٧٤ (انظر أيضاً الجزيرة وبلاد
النهرين)
العرب : ١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٣٦ ، ٢٨٢ ،
٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦
عمر بن الخطاب : ٣٠٥
عيسى : ١٥٢ (انظر أيضاً المسيح ويسوع)

(غ)

غالة : ١٢ ، ١٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ،
٤٧ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٧٦ ،
٧٧ ، ٩٧ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ١٦٢ ،
١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ،
١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ،
١٩١ ، ١٩٢ ، ٢١٧ ، ٢٣١ ،
٢٥٨ ، ٢٧٣

الغاليون : ١٨٤

الغرب : ٢٢٢

غرناطة : ١٩٥

غزة : ٢٦٥

غنديسابور : ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٢

(ف)

الفايكان : ٢٧٠

قارس : ١٠١ ، ٢٥٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ،

٢٨٠ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،

٢٩٢ ، ٣٠٦

شارلمان : ٢٨٨

الشاهنامه : ٢٧٨

الشرق : ٢٠٧ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ،

٢٢٤ ، ٢٢٢

الشرق الأقصى : ٢٣٩

شلزوج : ١٦٢

شنودة : ١٠٦

شهربراز : ٣٠٤

شوبهور : ١٤٤

شيراز : ٢٩٧

شيشرون : ٣٥ ، ٦٧ ، ١٠٧ ، ١٤٧ ،

١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ،

٢٤٢

(ص)

صفاقس : ٢٦٥

صقلية : ٥٨ ، ٧٥ ، ١٩٨ ، ٢٢٠ ،

٢٢٢ ، ٢٣٥ ، ٢٨٢

صلاح الدين الأيوبي : ٢١٨

صوفيا : ٢٠٩ ، ٢١٤

الصين : ٢٣٩

(ط)

طابق : ١٩٦

طاق البستان : ٢٩٩

طاق كسرى : ٢٩٨

الطبرى المورخ : ٢٩١

طربزون : ٢٩٢

طرسوس : ٣١

طركونة : ٧٧

طلوشة : (انظر طولوز)

طليطلة : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،

طنفسه الشتاء : ٢٠١

طوروس ، جبال : ٢٩٣

فلافيان ، بطريق القسطنطينية : ١٠٢
فلافيرس ماجنوس أوليوس كسيودورس :

٧٥٥

فلافيرس القجيتوى : ٢٤٥

فلامنيوس : ٧٤

فلتير : ١٥٢ ، ١٧٦

القلجاء ، نهر : ٥٠

فلسطين : ١١٣ ، ١٤١ ، ٢٣٦ ،

٢٥٣ ، ٣٠٤

فلنتيان : ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٠ ، ٧١ ،

١٥٦ ، ١٧٤ ، ٢٤٨

فلنتيان الثاني : ٥٥

فلنتيان الثالث : ٧٦ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ،

٨٥ ، ١٠٥ ، ١١٤

فلوزفيا : ٥٨

فليريان ، الإمبراطور : ٢٨٧

فليريوس : ١٣٦ ، ١٣٧

فنائيتوس : ١٩١

الفهلوية ، لغة : ٢٧٨

فوقاس : ٢٩٥

قوييه : ١٨٥

قيتالى : ٢٦٠

فيشاغورس : ٢٧٣

فيچليوس : ٢٣٣

فيرنى : ١٥٢

فيروزباد : ٢٧٩

فيروزشاه : ٢٨٩

فيرونا : ٨٣ ، ١٩٩

الفيس : ١٦٧

فيسترا : ٨٣

فين : ٢٨ ، ٥٥

فين : ٢٧٠

فيتسوس ، پريتكتانوس ٧٠ (انظر

پريتكتانوس)

فينوس ، الزهرة : ٢٨٨

قالنز : ٥١ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٢٤٨

قالنز الصغير أخو فلنتيان : ٥٣

فيولا : ١٥٧

فتح الفتوح ، واقعة : ٣٠٦

فدياس المثال : ٢٤ ، ٦٨ ، ٢١٧

الفرات : ٤٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ،

٣٠٣

الفراصة : ١٢٥

فرتچيرن : ٥١ ، ١٦٢ ، ١٦٤

فرتناتوس : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٨ ،

١٨٧ ، ١٩١

فرچيل : ٧٠ ، ١٠٧ ، ١٥٩ ، ١٧٣

فرچينوس : ١٤٧

فردجندا : ١٨٧

الفردوسى : ٢٧٨ ، ٣٠٠

الفرس : ١٢ ، ٣٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٠ ،

٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٣٥ ،

٢٤١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ،

٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،

٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ،

٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ،

٣٠٦

الفرنجة : ٤٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،

١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ،

١٩٠ ، ٢١٧

فرنسا : ١١٧ ، ١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٨٦ ،

١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٩

فرنسكا : ٢٠٤

فرنسيس ، الراهب : ٣٨

فرنكونيا : ١٧٨

فريچيا : ٣٦

الفريزون : ٧

فسپازيان : ٥٣

الفتيولا ، نهر : ٤٧

فلافيان : ٦٨

(ق)

٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
٣٢ ، ٦٦ ، ٩٧ ،
فلسطينيوس ، قائد هونوريوس : ٧٦
قورسقة : ٢٣٥
قوريقي : ١٢٦
القوط : ١٢ : ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ،
٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
٨٨ ، ٩٧ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ،
القوط الشرقيون : ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ،
٥٢ ، ٥٨ ، ٢٣٦ ،
القوط الغربيون : ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٧٦ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ١٩٢ ،
١٩٣
قيصر : ٢١٨ ، ٢٤٢

(ك)

كاتلوس : ١٥٥
كاتو : ١٤٧
كاثرما : ١٦
الكاثولييك : ٢٠٢
كاركسن : ١٧٧
كاريبرت : ١٨٩
كاسيان : ١١٨
كان ، مدينة : ١١٨
كانت : ١٤٤
كاتي : ٥١
كيدوكيا : ٢٥ ، ٩٧ ، ١١٨ ، ١٢٧ ،
١٢٨ ، ١٥٧
كتسلين : ١٦٦
كتينوس : ١٥٨
الكرادي : ٤٧
كرتين : ١٦٥

قادس : ١٩٦
القادسية : ٣٠٥
قرطاجنة أو قرطاجة : ٦٥ ، ٩٩ ، ١٢٢ ،
١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤١ ،
٢١٩ ، ٢٢٥
قوطاجنة الأسبانية : ٧٧
قرطبة : ٧٧ ، ١٩٥ ، ١٩٦
القرغيز : ١٦٤
القرم : ٢٦٥
قسطنطين الأول : ١٠ ، ١٢ ، ١٧ ،
١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،
٢٥ ، ٧٦ ، ١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٥٦ ،
١٦٢ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٧ ،
٢٢٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٦ ،
٢٥٧ ، ٢٥٨
قسطنطين الثاني : ١١ ، ١٢
القسطنطينية : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ،
١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
٣٠ ، ٣١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ،
٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٦ ،
١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٢٧ ،
١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ،
٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٤ ،
٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ،
٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،
٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢ ،
٣٠٣
قطلونيا : ٨٢
القفقاس أو القوقاز : ٥٥ ، ٢٧٤
قنسطانيس : ١١ ، ٢١
قنسطانثيا : ٢٥٦ ، ٢٥٧
قنسطنطيوس : ١١ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٣١

كلوديوس كلوديانوس الشاعر : ٦٩ ، ٧٠
كلوروميه : ٢٩٦
كاوفيس : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ،
١٨٩

كليرمنت : ١٧٧
كليكية أو قليقية : ٣٠
كپانيا : ٨٧ ، ٢٢٣
كبردج : ٢٧٣
كنكورديا : ١٦٧ -
الكوادى : ٥٨
كورسكا : ٥٨ ، ٢٢٢
كوسنزا : ٧٥
كولوفى : ٢٨ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٥
كوماتا : ١٣١
كوميتس : ١٣١
كونال : ١٦٦ ، ١٦٩

(ل)

لاتيوم : ٧١
لترافا : ٢٩٧
لريثيوبل : ١٩٥
لزنريق : ١٩٦ (انظر أيضاً رديك)
لسيديوس : ١٩٩
لكننتيوس : ٩٤
لكسيموس : ٥٣
المبارد : ٤٧ ، ١٣٦ ، ١٨١
لنيغراد : ٣٠٢
الوار : ٧٧ ، ١٦٨ ، ١٨٤
الوبركاليا ، عيد : ٧٠
لوثر ، مارتن : ١٨٠
لوشيان : ٣٥
ليبانيوس : ٢١٠ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
١٢٧ ، ١٢٩ ، ٢٤٤
ليبانيوس السوفسطاى : ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥
ليبريوس : ٢١ ، ١٠٤

كرسن : ٢٦٥
كرمالك مالك ليرت : ١٦٧
كرم كرواك : ١٦٨
كرمونا : ٧٤
كريستوم ، يوحنا : ٢٣ ، ١١١ ،
١١٣ ، ١١٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،
١٥٩ ، ٢٤٣
كريستيوس : ٢٥
كزماس انديكييلوستيز : ٢٧٠
كزمس ، ١٥٣
كسرى الاول أنوشروان : ٢١٩ ،
٢٥٨ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ،
٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٢
كسرى الثانى أبرويز : ٢٧٨ ، ٢٨٣ ،
٢٨٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
٢٩٦ ، ٢٩٩
كسنوفا : ١١٠
كسيلورس : ٢٠٠ ، ٢٠٥
كفاده الاول : ٢٨٩ ، ٢٩٠
كفاده الثانى : ٣٠٤
كلاس : ٢٦٧
كليريا : ٢٠٠
كليريك : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩
الكليث : ١٦٢
كل دارا : ١٧١
كلدبرت : ١٨٦ ، ١٨٧
كلدريك : ١٨٣
كلدير : ١٧١
كلفن : ١٥٠
كلوثار : ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١
كلوثان الثانى : ١٨٧
كلوثيله : ١٨٤
كلودير : ١٨٦
كلوديان : ٦٣ ، ١١٥ ، ١٥١ ، ١٥٩
كلوديو : ١٨٣

محمد ، صلى الله عليه وسلم : ٣٠٥
 المحيط الهندى : ٢٤١
 المدائن : ٣٠٦ (انظر أيضاً طيسفون)
 مدريد : ١٦٤
 مدورا : ١٣٢
 مليرا : ١٩٥
 مراکش : ٢٨٢
 مرثون : ١٢٠ ، ٢٩٦
 مردونيوس : ٢٥
 مرسالا : ١١٣
 مرسلا : ١٠٦
 مرسلس : ٢٩٩
 مرسيان ، إمبراطور الشرق : ٨٢ ، ٨٣
 مرسيليا : ٦٣ ، ١١٨ ، ١٧٢
 مرسيليوس : ١٣٨
 مرموتيه : ١١٧
 مروثك : ١٨٣
 المروثنجيون : ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ،
 ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١
 مرياقوس كابلا : ٢٠٠
 المريخ : ٢٧٧
 مريدة : ٧٧
 مريم العذراء : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٥٢ ،
 ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤
 مزدق : ٢٨٩ ، ٢٩٠
 المسالى : ٧٩
 المسعودى : ٢٨٤
 المسيح عليه السلام : ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
 ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥١ ،
 ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ،
 ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٨
 مصر : ١١ ، ١٦ ، ٤٢ ، ٩٦ ،
 ١٠٣ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ،
 ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ،

أليبيون أو اللوبيون : ٤٦
 ليچير : ١٧ ، ١٦٨
 ليرن : ١١٨
 ليرنز : ١٧٠
 ليرى : ١٦٨
 ليفى : ٦٦
 لينستر : ١٦٧ ، ١٦٨
 لينندر : ٢٥١
 ليو الأول الإمبراطور : ١٩٧ ، ٢٠٧ ،
 ٢٢٩
 ليو البابا : ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥
 ليوفيجلد : ١٩٢
 ليون : ١٧٥

(م)

ماجوريان : ٨٨
 مارتن ، القديس : ٩٩ ، ١١٦ ، ١١٧ ،
 ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١
 مارتياك : ١٥٥
 مارسلوس : ٢٤٥
 مارى الجبلية : ١٧١
 ماريّا ابنة استلبكو وزوجة هونوريوس :
 ٥٦
 ماسلوس (حصن) : ٢٥
 المانش ، بحر : ٧٧
 مانو : ١٨١
 مافى : ٢٨٠ ، ٢٨٧
 ألمانية : ٩٨
 المانيون : ٢٨٧
 المتحف البريطانى : ٣٠٢
 المتحف الفنى بنيويورك : ٣٠٢
 متز : ٨٢ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٨٧
 المشى القائد العربى : ٣٠٥
 المهر : ٨٩
 الميوس : ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٧

مينز : ٧٧ ، ١٧٨
(ن)
نابلي : ٧١ ، ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
نابليون بوناپرت : ١٢ ، ٢١١
نارسي : ٢٢٢
نبل أنجليد ، قصة كرينهلد : ٨٣
نربونة : ٧٦ ، ١٧٢
النروييج : ٤٧
نزيانزودس (بلدة في كپدوكيا) : ١٢٨
نزيانزين : ١١٣
النساطرة : ٢٣٩
نستريا : ١٨٦ ، ١٨٧
نسطوريوس : ١٠٠ ، ١٠١ ، ٢٢٦
نشيد الإنشاد : ١٠٠
النصاري : ٢٨٧
نصيبيين : ١٠١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٦ ، ٢٨١
نقشي رستم : ٢٩٩
نقوماخوس ، فلافيوس زوج ابنة سيماخوس :
٧٣
نقوماخوس : ٢٠١
نقوميديا : ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٩٧
نهاوند : ٣٠٦
النهرين : ٣٠ (انظر أيضاً الجزيرة والعراق)
٣٠
نولا : ١١٥
نومريوس حاكم غالة التربونية : ٢٩
نوميديا : ١٣٢
النوميديون : ٤٦
قيال : ١٦٨
فيرون : ١٨٧ ، ٢٥٦
قيسيوس (بلدة نيس) : ٨١
قيفا : ٦٦ ، ٢٦
فيقية ، مجمع فيقية الكنسي : ١٩ ، ٢٥ ،
١١٦

٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢ ،
٢٨٢ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣
المغاربة : ٤٦ ، ٢٢١
المغول : ٥٠
مقدونية : ١١
مقدونيوس الأريوسي : ٢١
مكاريريوس : ١٢٠
مكروبيوس : ٦٧ ، ١٧٦
مكسموس : ٢٦ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٤٤ ،
٩٩ ، ١٦٢
مكسموس الصوري : ٢٣ ، ٢٤
مكسميان : ٢٦٨
ملانيا : ١٥٧
ملميزي : ١٦٤
ملوري : ١٦٥
متاني : ١٧٦
منتسكيو : ١٧٦
منزبادنكس : ١٦٤
منكا : ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦
موريا : ٢٣٩
موريس : ٢٩٥
الموز ، نهر : ٢٨ ، ١٧٩
الموزل : ١٧٣
موزلا : ١٧٣
موسى بن نصير : ١٩٦
موسايوس : ٢٥١
مونستر : ١٦٧
مويد ، دير : ١٧١
مؤيزيا : ٥١
ميث : ١٦٧ ، ١٦٨
ميلان : ٢٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ،
٨٣ ، ١١٤ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،
٢٠٣ ، ٢٢٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣
ميليتس الأيونية : ٢٦٢
الميليون : ١٤
ميناس : ٢٦٣

النهيل : ١٢٠
 نينوس : ١٦٤ ، ١٧٠
 نيمون : ٢٦٦
 نيويورك : ٢٤٦
 الهون الكتريجور : ٢٤٣
 هونريك بن چيسريك : ٨٦
 هونوراتوس : ١١٨
 هونوريا : ٨٣
 هونويوس : ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ،
 ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٦٢ ،
 ٢٥٥ ، ٢٦٦
 هيباشيا : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٨ ، ٢٥٢
 هيباشيوس : ٢١٢
 هيراپوايس : ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦
 هيرود : ٢٥١
 هيروده : ١٨٧
 هيرودوت : ٢٥٤
 هيكل سليمان : ٨٦
 هيلاري : ١١٧ ، ٢٧٣
 هيلاري أسقف پواتييه : ١١٦ ، ١١٧

(و)

واليا ، ملك القوط الغربيين : ٧٨
 وتجيس : ٢٢٠
 وتيزا : ١٩٦
 الولايات المتحدة الأمريكية : ٢٤٢
 ولفليك ، الراهب : ١١٧
 الوندال : ١٢ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٨٦ ،
 ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١٩٢ ،
 ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢١
 ونشستر : ١٦٤
 ويكلف : ١٥٠
 ويلز : ١٦٣ ، ١٦٨

(ي)

اليابان : ٣٠٠
 يزدجرد الأول : ٢٨١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦

(ه)

هيو : ٧٨ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣ ،
 ١٥٠
 هديران الإمبراطور : ٢٣٠
 هديران ، سورهدريان : ٢١٧
 هديرانويل : ٥١
 هرقل الإمبراطور : ٢٨٢ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٦ ، ٣٠٤
 هرمزد الثاني : ٢٨٨ ، ٢٩٤
 هريون : ٢٦٢
 هزيود : ٢٥
 الهلسيندت : ٥٢١ (انظر أيضاً الدردنيل)
 هالينا أم قسطنطين : ١٤
 هالينا زوجة يولييان : ٢٧ ، ٢٩
 هليوس ، الملك : ٣٧
 هماليا ، جبال : ٢٧٤
 هملكو : ١٦٦
 هنجست : ١٦٢
 الهند : ١٠١ ، ٢١٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ،
 ٢٧٠ ، ٢٨٣ ، ٢٩١
 الهنوتوكون : ٣٠٧ ، ٢٣٢
 هنيبال : ٨٤
 هوتمان : ١٧٤
 هورسا : ١٦٢
 هوس : ١٥٠
 الهولساتية : ١٦٦
 هومر : ٢٥ ، ٧٠

الهون : ١٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٧٩ ،
 ٨١

يوسيبينوس هيرونيوموس سقرونيوس
 استيريرو : ٢٠ ، ٢٥ ، ٩٧ ،
 ١٠٦
 يوشع : ٢٧٠
 يولييان : ١٢ ، ٢٣ — ٤٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ،
 ١٥٧ ، ١٥٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،
 ٢٨٩ ، ٢٤٨
 يولينوس البلائي : ٦٢
 يوليوس الأول : ٢١ ، ١٠٤
 يوليوس نيسوس : ٨٨
 يوماثيوس : ٢٤٤
 يوهانيوس : ٣٥
 اليوزان : ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ٤٨ ، ٥٧ ،
 ٧٩ ، ٩٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٣٤١ ،
 ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٦
 يونيوس : ٢٢

يزدجرد الثاني : ٣٠٥
 يزدجرد الثالث : ٣٠٥
 يسوع : ١٠٠ ، ٢٨٠ (انظر أيضاً عيسى
 والمسيح)
 اليعاقبة أو اليعقوبيون : ٢٣٣
 يعقوب : ٢٧٠
 يفرونيوس الأوفوني : ١١٦
 اليهود : ٣٦ ، ١٨٧ ، ٢٥٠ ، ٢٨٠ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥
 يوجنيوس : ٧٣
 يوحنا القديس : ١٣٠
 يوحنا البابا : ٢٠٣
 يوحنا اسكوتوس أرچنيا : ٢٤٩
 يوحنا كسيان : ١١٨
 يودكسيا الإمبراطورة : ٨٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،
 يودكسيا زوجة فلنتنيان ثم زوجة پترونيوس ،
 ٨٥
 يودوشيا ابنه فلنتنيان الثالث : ٨٥
 يودينا : ٨٦
 يورنسوس : ١٠٤
 يوزيبيا الإمبراطورة : ٢٧ ، ٢٩

المفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الترجمة	ز
مقدمة المؤلف	١

الكتاب الأول - الدولة البيزنطية في أوج مجدها

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية

الباب الأول : يوليان المرتد

الفصل الأول :	تراث قسطنطين	١٠
الفصل الثاني :	المسيحيون واليهود	١٩
الفصل الثالث :	قيصر الحديد	٢٥
الفصل الرابع :	الإمبراطور الوثني	٣٢
الفصل الخامس :	خاتمة المطاف	٤٢

الباب الثاني : انتصار البرابرة

الفصل الأول :	التخوم المهددة	٤٦
الفصل الثاني :	الأباطرة المنقلدون	٥٣
الفصل الثالث :	ما كان يحدث في إيطاليا	٦٠
الفصل الرابع :	تيار البرابرة الجازف	٧٤
الفصل الخامس :	سقوط رومة	٨٥

الباب الثالث : تقدم المسيحية

الفصل الأول :	تنظيم الكنيسة	٩٢
الفصل الثاني :	المارقون	٩٦
الفصل الثالث :	الغرب المسيحي	١٠٤
١ - رومة		١٠٤
٢ - القديس جيروم		١٠٦
٣ - الجنود المسيحيون		١١٣
الفصل الرابع :	الشرق المسيحي	١١٩
١ - رهبان الشرق		١١٩

الموضوع	الصفحة
٢ - الأساقفة الشرقيون	١٢٥
الفصل الخامس : القديس أوغسطين	١٣٢
١ - الآثم	١٣٢
٤ - العالم الدينى	١٣٦
٣ - الفيلسوف	١٤٤
٤ - البطريق	١٤٩
الفصل السادس : الكنيسة والعالم	١٥٢

الباب الرابع : أوربا تتشكل

الفصل الأول :	بريطانيا تصبح إنجلترا	١٦١
الفصل الثانى :	إيرلندة	١٦٦
الفصل الثالث :	بداية تاريخ فرنسا	١٧٢
١ -	الأيام الأخيرة من تاريخ غالة القديمة	١٧٢
٢ -	الفرنجية	١٧٨
٣ -	المروفتنجيون	١٨٦
الفصل الرابع :	أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين	١٩٢
الفصل الخامس :	إيطاليا تحت حكم القوط الشرقيين	١٩٧
١ -	ثيودريك	١٩٧
٢ -	بؤيشيوس	٢٠٠

الباب الخامس : جستنيان

الفصل الأول :	الإمبراطور	٢٠٧
الفصل الثانى :	تيودورا	٢١٣
الفصل الثالث :	بليساريوس	٢١٧
الفصل الرابع :	قانون جستنيان	٢٢٤
الفصل الخامس :	الفقيه الدينى الإمبراطورى	٢٣٢

الباب السادس : الحضارة البيزنطية

الفصل الأول :	العمل والثروة	٢٣٨
الفصل الثانى :	العلم والفلسفة	٢٤٤
الفصل الثالث :	الأدب	٢٥١
الفصل الرابع :	الفن البيزنطى	٢٥٥
١ -	الانتقال من الوثنية	٢٥٥
٢ -	الفنانون البيزنطيون	٢٥٨

الموضوع

- ٣ - أياصوفيا ٢٦١
 ٤ - من القسطنطينية إلى راثنا ٢٦٥
 ٥ - الفنون البيزنطية ٢٦٨

الباب السابع : الفرس

- الفصل الأول : المجتمع الساساني ٢٧٤
 الفصل الثاني : الملكية الساسانية ٢٨٦
 الفصل الثالث : الفن الساساني ٢٩٧
 الفصل الرابع : فتح العرب ٣٠٤
 المراجع ٣٠٧
 فهرس الأعلام ٣٣١

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الله نبدا الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلدات قصة الحضارة السبعة ، وقد صدر منها بعد هذا مجلد خامس في حضارة عصر النهضة . أما هذا المجلد فيروى قصة حضارة العصور الوسطى من قسطنطين إلى دانتي ، وهي فترة دامت أكثر من ألف عام . وقد أطلق المؤلف على هذا العهد اسم عصر الإيمان لأنه كان عصر العقيدة الدينية القوية ، ولأن فيه أضحى المسيحية دين الدولة الرومانية ، وفيه ظهر الدين الإسلامي وانتشر في آسية وأفريقية وأوربا ، وبلغت الحضارة الإسلامية فيه ذروة مجدها في الشرق والغرب على السواء .

وهذا المجلد الرابع - وإن لم يشمل من الزمن إلا هذه الفترة القصيرة من تاريخ العالم - من أكبر مجلدات هذه القصة ؛ فهو في الأصل الإنجليزى يبلغ نحو ألف ومائتى صفحة مقسمة إلى خمسة « كتب » سنصدرها باللغة العربية في ستة أجزاء .

وهذه الفترة من أهم الفترات وأبقاها أثراً في تاريخ العالم ، وحسبنا أن نعيد ما قلناه من قبل وهو أن فيها ثبتت دعائم المسيحية ، وظهر الإسلام ، وقام الصراع بين اليهودية والمسيحية . وفيها بدأت أوربا تتشكل ، وتحطمت الإمبراطورية الرومانية وظهرت الأمم الأوربية الحديثة ، ونشبت الجروب الصليبية ، وظهر الإسلام وعم نوره الآفاق ، ولاحت تبشير عصر النهضة .

وسيجد القارئ ذلك كله مفصلاً في هذا الجزء والأجزاء التالية
إن شاء الله .

ونرى مرة أخرى أن نكرر الشكر للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية
وللجنة التأليف والترجمة والنشر وللقراء الكرام الذين كان إقبالهم على الأجزاء
السابقة أكبر مشجع لنا على مواصلة الجهد في ترجمة هذا المجلد الضخم
ونرجو ألا يطول انتظارهم لبقية الأجزاء ؟

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

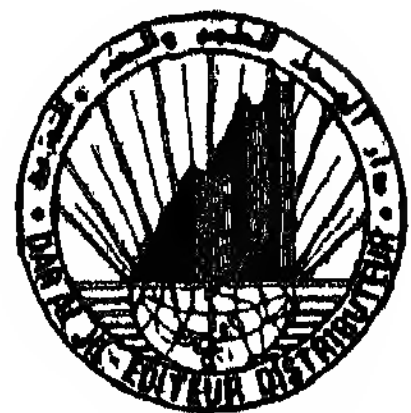
ترجمة
محمد بدراف

الجزء الأول من المجلد الرابع

١٢



تونس



بيروت